التعاليق البهية على

المنظومة التائية

لأبي إسحاق الألبيري رحمه الله

شرحها الشيخ :

أبو يوسف مصطفى بن محمد مبرم

حفظه الله تعالى

فهرس

مُقدِّمة 11
مَتنُ القَصِيدَةِ التَّائِية 13
شَرْح المنْظُومةِ 18

الدَّرس الأوَّل 19
مُقدِّمةٌ 19
الحثّ عَلى التَّحَلِّي بِالآدَابِ 20
التَّعرِيفُ بِالنَّاظمِ 25
التَّعرِيفُ بالمنْظُومة 26

الدَّرسُ الثَّاني 30
ذِكْرُ هَادمِ اللَّذات 31
التَّحْذير مِن الاغْترَار بالدُّنيَا 36

الدَّرسُ الثَّالثُ 40
هلِ الألْبيرِي رحمه الله يُخاطِبُ بهذه الأبْيَات شخْصًا مُعيَّنًا؟ 40
فَضْلُ العِلمِ وَشَرفُ أَهْلِهِ 41
أَثَرُ العِلمِ في تَزكِيةِ النَّفسِ 48
العِلْمُ سَبيلُ الرِّفعَةِ 51

الدَّرس الرَّابع 53
بَقاء أَجرِ العِلْمِ بَعدَ وَفَاةِ صَاحِبِهِ 54
سُلْطَان العِلمِ 55
أَهَمِّيَّةُ الحفْظِ 58
يَزيدُ بالانْفَاق مِنْهُ ويَنْقُص بالاقْتارِ 63

الدَّرس الخامِس 67
حَلَاوةُ العِلمِ وَلذَّتُه 67

الدَّرسُ السَّابِعُ 78
حَياةُ الإنسَانِ إنَّمَا هي بِالعِلمِ 78
الحرْصُ على طَلبِ العِلمِ، وَالصَّبر على تحْصِيلهِ 83
الانْتِفَاعُ بِالعِلْمِ 86

الدَّرسُ الثَّامِن 90
العَمَلُ بِالعِلمِ 90
رَأسُ العِلمِ التَّقوَى ومُخالفَةُ الهوَى 94
محْنَةُ الألقَابِ 95
ذَمُّ الرِّئاسَةِ وَالتَّصدُّرِ 96

الدَّرس التَّاسِع « أ » 102
الإحْسَانُ في طَلبِ العِلمِ 102
التَّحذِير منْ تَرْكِ العَملِ بالعِلمِ 106
خُطورَةُ الاعْتمَاد على الفَهْم في مَعزل عنِ النُّصوصِ 107
التَّنبيه عَلى أضْرار «البرمجَة اللغويَّة العَصَبيَّة» و «الثِّقة بالنَّفْس» 109

عَاقِبةُ مَن تَكاسَل عَنِ الطَّلبِ 111

الدَّرسُ التَّاسِع « ب » 114
فَضْلُ العَالِمِ على الجَاهِلِ 114
تقبُّلُ النُّصْح 119
حَسْرَةُ الفَوْتِ 122

الدَّرسُ العَاشِر 126
العِلمُ سَبِيل الرِّفْعة 126
التَّحذِير مِنَ الكَسَل 129
رَأسُ مَالِ المرْء عِلْمُه 131
الجَهلُ وَقَبِيح أَثرِهِ 134

الدَّرسُ الحادِي عشَر 138
مِن فَضَائِلِ العِلم: بَقَاءُ أجْرِهِ بعْدَ انتِهَاء الأجَل 138
الفَرْقُ بينَ التَّأليفِ والتَّصْنيفِ 141
تَنبيه لَطِيف عَلى عِبَارة: «مِنْ بَرَكَةِ العِلْمِ نِسْبَتُهُ إِلى قَائِلِهِ» 142
فَضْل العِلْم عَلى المالِ «1» 142
حُكم قَول: «لعَمْرُك» 146
أَهَميَّة نَشْر العِلم 146
فَضلُ العِلْم عَلى المالِ «2» 148
شَرح حَدِيث: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ» 150
المُقَارنَة بَينَ أهْل المالِ وَأَهْلِ العِلْمِ 151
هَل ثَبَت عَنِ الشَّافعي جَواز زَوَاج الأب ابْنَتهُ مِن الزِّنَا؟ 154

الدَّرسُ الثَّاني عَشر 158
مَن عَرفَ اللهَ لَا تَضرُّه قِلَّةُ المالِ 159
مَشقَّةُ السَّلفِ في طَلبِ العِلمِ 160
طَلب الفَقْر لَيْس مَقْصودًا في الشَّريعَة 162
المفَاضَلة بَينَ الغَني الشَّاكِر وَالفَقِير الصَّابرِ 164
الثَّناء عَلى كِتَاب «قَاعِدة في المحَبَّة» 168
النَّعيمُ لا يُدرَكُ بالنَّعيم 168

الدَّرسُ الثَّالثُ عَشر 171
الدِّينُ النَّصِيحَة 172
نَموذَج مِن تَطبيقِ السَّلف لحدِيث النَّصِيحَة 173
ذهَابُ آدابِ النَّصيحَة لَيسَ عُذرًا لردِّهَا 175
المتَاجرَةُ مَعَ الله 177
هَل تتَعَارَضُ الدُّنيا مَعَ الدِّينِ؟ 179
نَماذج مِن مُتَاجرةِ السَّلفِ معَ اللهِ 180
الدُّنيَا ظِلٌّ زَائِلٌ 181

الدَّرسُ الرَّابع عَشر 185
شَرح حَدِيث: «الدُّنْيَا سِجْنُ المؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكافِر» 186
تَقلُّب الدُّنيَا بأَهلهَا 189
نِعْمَةُ السِّتر 193
كَفَى بِالموتِ وَاعِظًا 195

الدَّرس الخامِسُ عَشر 198
الدُّنيَا دَارُ ممر لا دَارُ مَقَر 198
المُؤمنُ لا يحزنُ على فَواتِ الدُّنْيَا 204

مَا لَا تَبْلغُه نَفْسك لَا تُتْبِعهُ عَيْنك 206

الدَّرس السَّادِس عشر 210
بَيانُ الضَّحِك المذْمُومِ وَالضَّحِك المحْمُودِ «1» 210
التَّحذِير مِن مجالسَةِ السُّفَهَاء 216
بَيانُ الضَّحِك المذْمُومِ وَالضَّحِك المحْمُودِ «2» 219
محاسَبَةُ النَّفْسِ 220
مَعْنى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ 222

الدَّرس السَّابع عَشر 225
لا تَسْأَل إلَّا الله 225
أَشْرفُ حَديثٍ لأهْلِ الشَّام 227
مَعْنى «التَّوْفِيق» 228
مَنزِلَةُ الإخْلاصِ 230
العِبْرة مِن قصَّة نَبي الله يُونُس ﷺ 232
اعْترافُ العَبدِ بِظُلمِ نَفْسِهِ 235
الحثُّ عَلى الإكثَارِ مِنَ الدُّعاءِ 236

الدَّرس الثَّامن عَشر 239
فَضلُ الإكثَارِ مِنْ ذِكرِ الله 239
اغْتِنَام مَرحَلة الشَّبَاب وَعدم الاغترار بالدُّنيَا 245
مَن نَاصَحك فقَدْ أحبَّك 249
انْصَح وَلو كنتَ مُقصِّرًا 250

الدَّرس التَّاسع عَشر 252
مَكيدَةٌ شَيطَانيَّة للتَّثبِيط عَن النَّهي عنِ المنْكَر 252

مَا كانَ علَيهِ السَّلفُ الأخيَار مِن هَضمِ النَّفسِ والتَّواضُع والانكِسَار 254
شُبهةٌ حَول الأمْرِ بالمعرُوف والنَّهي عنِ المنُكَر 258
مِن أَسْبابِ الانْتِفاع بالنُّصح 261
ذمُّ طُول الأمَلِ 262

الدَّرسُ العِشْرُون 266
الاعْتِبار بِنذِير الشَّيْب 266
خوفُ السَّلف مِن سُوء الخاتِمَة 268
مُقتَطفَات مِن مُداوَمَةِ السَّلَفِ على الطَّاعَات 270
قَبُول السَّلفِ للنُّصح وانْقِيَادُهُم للحقِّ 274

الدَّرسُ الحَادِي والعِشْرُون 278
فَسَادُ الزَّمانِ لَيْس حُجةً للعَبْدِ عَلى فَسَادِهِ 278
نَماذِج مِن صبْر السَّلَفِ عَلى الحَقِّ رَغْمَ فَسَادِ الخَلْقِ 282
التَّنبِيه عَلى عِبارَة: «إذا أفْتى فِيهَا عَالِم تَخْرُج مِنْهَا سَالم» 283
مَعْنى: «أَشْهَر مِن نارٍ عَلى عَلَم» 284
طَلَبُ الأدَبِ قَبْل العِلْمِ 285
قاعدةٌ: «لَا تَنْظُر إِلى عَمَلِ فَقِيهٍ وَلَكِنْ سَلْهُ يَصْدُقكَ» 288

الدَّرسُ الثَّاني وَالعِشْرُون 291
مَعْنى «الكتَاب» في نُصُوصِ الشَّرْع 292
خَطَر قَسْوَةِ القَلب 292
مَنْ أَفْضل التَّابِعِين «أُوَيْس القَرني» أم «سَعِيد بْن المسَيَّب»؟ 296
نَذِيرُ الشَّيب 297
التَّصَابي مَع الشَّمَطِ 300

ذَمُّ النَّفْسِ 303

الدَّرسُ الثَّالثُ والعِشرُون 306
مَعْنى «التَّفْنِيد» 306
أهمِّية قَبول النَّصيحَة 308
هَل يَبْكي الإنْسَانُ دَمًا؟ 310
فضْل البُكاء من خَشْيةِ الله 311
ثِقل الذُّنوبِ على الإنسان 315
مَسْألة: «مَا الَّذي يُوزَنُ يَوْمَ القِيَامَةِ» ؟ 316
نَصِيحَة بخُصُوصِ ضَبْطِ العِلْمِ 317
لَيسَ عيْبًا أن تُخطِئ وتُذنِب، لكن المَعِيبُ أن تُصِرّ وتُكابر 319
الاشفَاق على أهل المعَاصي 320

الدَّرسُ الرَّابِع والعِشرُون 322
مَعْنى «خَبْطَ عَشْوَاء» 323
حَلاوَةُ الإيمَانِ 324
عَدَمُ الاغْتِرارِ بكَثْرَةِ العَمَلِ 325
الْفَرقُ بَينَ الحسَابِ وَالْعَرْضِ 328
تَذكُّر يَوم القِيامَةِ «1» 329
نَصِيحةٌ بخصُوصِ اسْتحْضَارِ الآيَاتِ 331
تَذكُّر يَوم القِيامَةِ «2» 332
النَّدمُ بَعدَ فواتِ الأوَانِ 333
حَرُّ الدُّنْيا وَحَرُّ الآخِرَةِ 335

الدَّرسُ الخَامِس والعِشرُون 339
أدبُ السَّلفِ في التَّوَاضُع وهَضْمِ النَّفسِ 339

الفَرْقُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالخلَفِ فِي النَّظرِ إلى الذُّنُوبِ 340
ذُلُّ المعْصِيةِ وَعِزُّ الطَّاعَةِ 344
لَيستِ العِبرَةُ بِمَنْ أنتَ عِنْدَ النَّاسِ وَإنَّمَا العِبْرَةُ بِمَنْ أنْتَ عنْدَ اللهِ 351

الدَّرسُ السَّادِسُ والعِشرُون 354
هلِ الألْبيرِي رَحِمَهُ اللهُ يخاطِبُ بهذه الأبْيَات شخْصًا مُعيَّنًا؟ 354
التَّنبيهُ عَلى عِبَارَةِ: «لَا أُبَالي بِمَا يَعْتَقِدُهُ النَّاسُ فِيَّ» 355
مَعنى «الدَّنَس» 356
مَعَاني «الثَّوْب» في اللُّغَة 357
خُطورَةُ مَرْحلةِ الشَّبَابِ وأهمِّية اغْتِنَامِها 358
المَعنَى الجَامِع لِتَعْرِيفِ «الزُّورِ» 360
هَل يُوجدُ تَرادُفٌ في اللغة؟ 361
شُكر اللهِ على النِّعم 362
خُطورَةُ إدْمانِ المعَاصي 364
شَرح حَدِيث: «مُدْمِنُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ» 365
سُؤَالُ اللهِ العَافِية 366
التَّنْبيهُ عَلى عِبَارَةِ: «لَا أَسْتَطيع تَرك بَعْض الذُّنُوبِ» 367
الفَرْقُ بَيْنَ السَّلَفِ وَالخلَفِ فِي النَّظرِ إلى الذُّنُوبِ 369
أَدَبٌ رَفِيع مُسْتَنْبَطٌ مِن قِصَّةِ الخُصُومَةِ بَينَ عُمَر وَأبي بَكْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُم 370

الدَّرسُ السَّابع والعِشرُون 373
التَّحْذيرُ مِن رُفَقاء السُّوءِ 373
مَفْهُومُ عِبَارة «يَنْبَغِي» عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ 375
المفَاضَلَة بَيْنَ العُزْلَةِ وَالمخَالَطَةِ 376

قِصَّة السَّامِري وَالعِجْل 386

الدَّرسُ الثَّامن وَالعِشْرُون 390
الصَّبرُ عَلى أذَى الخَلْقِ 390
رِضَا النَّاس غَايةٌ لا تُدْرَكُ 394
هَجْرُ الإنسَانِ للمَكانِ الَّذي يَضُرُّهُ في دِينِهِ 399

الدَّرسُ التَّاسِعُ والعِشْرُون 403
حَقِيقَةُ الزُّهْدِ وَمَفْهُومُهُ الصَّحِيح 403
الانْتِقالُ إلى دَارِ السَّلامَةِ والكَرَامَة 409
مِنْ حُقُوقِ شَيْخِكَ عَلَيْكَ 411
مِنْ آدابِ المَوعُوظِ 415
بُطلَانُ قاعِدةِ «حَمل المجْمَل علَى المفصَّل» فِي كَلام النَّاسِ 416
خَاتِمَةٌ 419

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخنا مُصطفى مبرم -حفظه الله- عن تائيَّة الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من تأمَّل في أبياته رأى أنَّه قد اِشتمل مِن الحكم والمواعظ والتَّذكير، وبيان حال الدُّنيا وأهميَّة العلم الشَّيء الكثير، فإذا اعتنى به طالب العلم وسمعه ولو سماعًا فإنَّه سيُحصِّل منه إن شاء الله تعالى خيرًا كثيرًا» اهـ.

✿ وبما أنَّنا كلُّنا نحتاج:

إلى من يذكِّرنا بأهميَّة الآداب

والتَّجرُّد من الأخلاق الَّتي تُعاب

«نَحنُ إِلى قَليلٍ مِنَ الأَدبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلى كَثيرٍ مِنَ العِلْمِ»

ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ

إلى من يُذكِّرنا بهمَّة علمائنا الأقحاح

في حرصهم على العلم، والعمل الَّذي هو رأس الفلاح

«لا يُستَطاعُ العِلمُ بِراحَةِ الجِسْمِ»

يحيى ابن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ

إلى من يُحيي في قلوبنا التَّلذُّذ بفهمنا للمسائل
بعد وَهنها وتعلُّقها بالشَّهوات وحبِّ أصناف المآكل!
«لا يَجِدُ الرَّجُلُ لَذَّةَ العلمِ حَتَّى يَجُوعَ وَيَنْسَى جُوعَهُ»
النَّضر بن شُميل رَحِمَهُ اللَّهُ

إلى من يُذكِّرنا بدار البقاء
والزُّهد في كلِّ شاغلٍ يقطَعُنا عن الاستعدَاد للِّقاء
«الدُّنيا دَارُ مَمَرٍّ لا دَارُ مَقَرٍّ»
علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

إلى من يُحرِّك في أنفسنا الحماس
للاعتِناء بالحفظِ وعدم الاستغناء عنهُ بالكُرَّاس
«فَاحفَظ فَكُلُّ حَافِظٍ إِمَامٌ»
الرَّحبي رَحِمَهُ اللَّهُ

اِرتأيتُ تفريغها؛ فالله أسأله الإخلاص
وأن يصل ما حوته من فوائد إلى كافَّة النَّاس

وأن يجزي شارحها خير الجزاء
- إنَّه قريبٌ مُجيبُ الدُّعاء -.

كتبته إدارة حساب: فوائد ش/مصطفى مبرم

Fawaidmbrm

متن القصيدة التَّائية

تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيّامُ فَتّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعاتُ نَحْتَا

وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعاءَ صِدقٍ ... أَلَا يَا صَاحِ: أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذاتَ خِدرٍ ... أَبَتَّ طَلاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا

تَنامُ الدَّهرَ وَيْحَكَ فِي غَطيطٍ ... بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ اِنتَبَهْتَا

فَكَم ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى ... مَتَى لَا تَرعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى؟

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجبتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا

إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إن نَهَيتَ وإِنْ أَمَرْتَا

وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِك مِنْ غِشَاهَا ... وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إذَا ضَلَلْتَا

وتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ... وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إذَا عَرِيتَا

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَادُمْتَ حَيًّا ... وَيَبْقَى ذِكْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

هُوَ العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَقاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيهِ لِصًّا ... خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ ... وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا ... لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاِجتَهَدتَا

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوى مُطَاعٌ ... وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

وَلا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوضٍ ... وَلَا خِدْرٌ بِزِينَتِهَا كَلِفْتَا

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا

فَوَاظِبْهُ وَخُذ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

وَإِن أُعْطِيتَ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ ... وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَا

فَلَا تَأمَنْ سُؤَالَ اللهِ عَنْهُ ... بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ، فَهَلْ عَمِلْتَا؟

فَرَأسُ العِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا ... وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا

وَأَفْضَل ثَوْبِك الإِحْسَان لَكِنْ ... نَرى ثَوْبَ الإسَاءَة قَد لَبِسْتَا

إذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا ... فَخَيْرٌ مِنْهُ أنْ لَو قَدْ جَهِلْتَا
وإنْ ألقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ ... فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا
سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ العَجْزِ جَهْلًا ... وتَصْغُرُ في العُيونِ إذَا كَبِرْتَا
وَتُفْقَدُ إنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ ... وَتُوجَدُ إنْ عَلِمْتَ وَلَو فُقِدْتَا
وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ... إذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا
وإنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا ... وَمِلْتَ إلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا
فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا ... وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إنْ نَدِمْتَا
إذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ ... قَد اِرْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفُلْتَا
فَرَاجِعْهَا وَدَعْ عَنْكَ الْهُوَيْنَى ... فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا
وَلَا تَخْتَلْ بِمَالِكَ وَالْه عَنْهُ ... فَلَيْسَ الْمَالُ إلَّا مَا عَلِمْتَا
وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مُغْنٍ ... وَلَوْ مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأَتَّى
سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي مَلَاءٍ ... وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إنْ كَتَمْتَا
وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي ... إذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَا
جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلًا ... لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَّةِ مَاعَدَلْتَا
وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ ... سَتَعْلَمُهُ إذَا "طَهَ" قَرَأْتَا
لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ... لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا
لَئِنْ جَلَسَ الغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا ... لَأَنتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا
وَإنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ ... لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا
وَمَهْمَا اِفْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي ... فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الْحِكَمِ اِفْتَضَضْتَا
وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإقتَارُ شَيْئًا ... إذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا
فَمَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ ... إذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا
فَقَابِل بِالقَبُولِ لنُصْحِ قَوْلِي ... فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا
وَإنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا ... وَتَاجَرْتَ الإلَهَ بِهِ رَبِحْتَا
فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ ... تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا
وَغَايَتُهَا إذَا فَكَّرْتَ فِيهَا ... كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إذْ حَلَمْتَا
سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ ... فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا!
وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ ... سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا
وَتَعْرَى إنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَابًا ... وَتُكْسَى إنْ مَلَابِسَهَا خَلَعْتَا
وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ ... كَأَنَّكَ لَا تُرَادُ لِمَا شَهِدْتَا
وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلَكِنْ ... لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا

وَإِن هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا   وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اِسْتَطَعْتَا
وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا   إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا
فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا   مِنَ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا
وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا   فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا
وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ   وَمَا تَدْرِي أَتُفْدَى أَمْ غُلِلْتَا ؟
وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوفِيقَ فِيهَا   وَأَخلِص فِي السُّؤالِ إذا سَأَلتا
وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اِعْتِرَافًا   بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ ابْنُ مَتَّى
وَلَازِمْ بَابَهُ قَرْعًا عَسَاهُ   سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا
وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا   لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا
وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ اِمْتِهَالٌ   وَفَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا
وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى   بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا
تُقَطِّعُنِي عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْمًا   وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا
وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا   وَمَا تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْثُ شِخْتَا
وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلًا   فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا
وهَا أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الْخَطَايَا   كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا
وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ   وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا
وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ   وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا اِنْتَفَعْتَا
وَلَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ   وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَاِنْتَهَكْتَا
لَقَدْ صَاحَبْتَ أَعْلَامًا كِبَارًا   وَلَمْ أَرَكَ اِقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا
وَنَادَاكَ الكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ   وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا اِنْتَبَهْتَا
وَيَقبُحُ بِالفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي   وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى
وَنَفْسَكَ ذُمَّ لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا   لِعَيْبٍ فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا
وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي   وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا
وَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا   لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا
ومَنْ لَكَ بِالأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ   أُمِرْتَ فَمَا ائْتَمَرْتَ ولَا أطَعْتَا
ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى   لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا
وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى الْمَعَاصِي   وَتَرْحَمُهُ، وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا
رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا   لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَا رَجَعْتَا
وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ   وَنُوقِشْتَ الْحِسَابَ إِذًا هَلَكْتَا
وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِنْ   عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَا

وَلَو قَد جِئْتَ يَومَ الْحَشْرِ فَرْدًا   وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى

لَأَعظَمْتَ النَّدامَةَ فيهِ لَهْفًا   عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا

تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ   فَهَلَّا مِنْ جَهَنَّمَ قَد فَرَرْتَا؟

وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا   وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا

فَلَا تُنْكِرْ فَإِنَّ الْأَمْرَ جِدٌّ   وَلَيْسَ كَمَا حَسِبْتَ وَلَا ظَنَنْتَا

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي   وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا

فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي   وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا

وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمِي   بِبَاطِنِهِ كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا

فَلَا تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهُوَ عَارٌ   عَظِيمٌ يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتَا

وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا   وَيُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُك الدَّرَارِي   وَتَجْعَلُكَ القَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا

وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا   وَتَلْقَى البِرَّ فِيهَا حَيْثُ شِئْتَا

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزًا   وَتَجْنِي الْحَمْدَ فِيمَا قَدْ غَرَسْتَا

وَأَنْتَ الْآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ   وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

وَلَا سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ   وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَبْتَا

فَإِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ نَشِبْتَ فِيهِ   وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَا

تُدَنِّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى   كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهُرْتَا

وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ   وَكَيْفَ لَكَ الفَكَاكُ وَقَدْ أُسِرْتَا

فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ   كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى

وَخَالِطْهُم وَزَايِلْهُمْ حِذَارًا   وَكُنْ كَ"السَّامِرِيّ" إِذَا لُمِسْتَا

وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ: سَلَامٌ   لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا

وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي زَمَانٍ   تَنَالُ العِصْمَ إِلَّا إِن عُصِمْتَا

وَلَا تَلْبَثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ   يُمِيتُ القَلْبَ إِلَّا إِن كُبِلْتَا

وَغَرِّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ   وَشَرِّقْ إِنْ بِرِيقِكَ قَد شَرِقْتَا

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا   لَأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدْتَا

وَلَوْ فَوْقَ الأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا   سُمُوًّا وَارْتِفَاعًا كُنْتَ أَنْتَا

فَإِنْ فَارَقْتَهَا وَخَرَجْتَ مِنْهَا   إِلَى "دَارِ السَّلَامِ" فَقَدْ سَلِمْتَا

وَإِن أَكْرَمْتَهَا وَنَظَرْتَ فِيهَا   لِإِكْرَامٍ فَنَفْسَكَ قَدْ أَهَنْتَا

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا   حَيَاتَكَ فَهِيَ أَفْضَلُ مَا اِمْتَثَلْتَا

وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ   لِأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَا

وَلَا يَغْرُرْكَ تَقْصِيرِي وَسَهْوِي ... وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِن رَشَدْتَا

وَقَدْ أَرْدَفْتُهَا تِسْعًا حِسَانًا ... وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِائَةً وَسِتَّا

وَصَلِّ عَلَى تَمَام الرُّسل رَبِّي ... وعِتْرَتِهِ الكَرِيمَةِ مَا ذُكِرْتَا

شرح

المنظومة التائية

لأبي إسحاق الألبيري رحمه الله

الدَّرس الأوَّل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فبعد الفراغ من التَّعليق والشَّرح على متن «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» للعلَّامة ابن العثيمين -عليه رحمة الله-، وقد تم الكتاب بفضل منَ الله -جلَّ وعلا- وحده لا شريك له؛ نشرع إن شاء الله تعالى ابتداء من هذه اللَّيلة في درسين مُقترنين -أو قُل متتابعين- ببعضهما البعض، لا غنى لطالب العلم عنهما كما أنَّه لا غنى له عن شيء من العلم.

✿ والدَّرس الأوَّل سيكُون في شرح منظومة المقرئ والفقيه والأديب والشَّاعر أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري الأندلسي التُّجيبي -رحمه الله تعالى-، وستكون مُدَّة الدَّرس عشرون دقيقة، ثمَّ بعد ذلك نأخذ الدَّرس الثَّاني في شرح متن «الآجرُّومية» للعلَّامة المقرئ محمد ابن آجرُّوم الصَّنهاجي -عليه رحمة الله-.

وهذه الدُّروس تنعقد بفضل الله -تبارك وتعالى- ونعمته ومنَّته على غرفة إمام دار الهجرة العلمية، شكر الله للقائمين عليها وجعلنا وإياهم مفاتيح خير مغاليق شر.

فنشرع بمنظومة العلَّامة الأَلبيري -رحمه الله تعالى-، وجرت العادة -كما نبَّهنا على ذلك مرارًا- على ذكر شيء من ترجمة المصنِّف -وهاهنا نقول النَّاظم-، وعلى ذكر نبذة متعلِّقة بالمصنَّف -وهنا نقول بالنَّظم-.

❀ أمَّا الأمر الأوَّل فقد نبَّهنا عليه مرارًا لأنَّه من حق المصنِّف -أو النَّاظم- علينا، ولأَن معرفة تراجم هؤُلاء العلماء فيها اقتداء وائْتِساءٌ بهم -رحمهم الله تعالى- في علمهم وصبرهم وما يتعلَّق بذلك.

❀ فإذا تقرَّر هذا فإنَّ الأمر الثَّاني راجعٌ إلى الكلام على النَّظم -أو المصنَّف- فيُذكر أهمُّ ما اشتمل عليه وما قصده المصنِّف من تصنيفه أو النَّاظم من نظمه.

وقبل هذا كلِّه أيضًا -أي قبل الكلام على النَّاظم وعلى نظمه- لا بدَّ من أخذ نبذة مُهمَّة عن الأدب[1] وأهميَّته واعتناء الإسلام به للمسلمين عمومًا ولطالب العلم خصوصًا، فإنَّ طالب العلم لابدَّ وأن يتصوَّر أنَّ علمه بقدْر أدبه، وأنَّه بقدر ما يكونُ عنده من الأَدب للعلم وفي العلم يكون عندَه منَ العلم، وهذا أمر مُهمٌّ، وإنَّما تذهب بركة العلم بسوء أدب حامله أو يُصرف العلم عن طالبه بسبب عدم

[1] من بَاب مَزِيد فَائدة: قَالَ شَيْخنَا مُصطَفَى مَبْرم حَفظَه الله -مُنبِّهًا عَلَى أفْضَل الْكُتُب الْمُؤَلَّفة فِي آدَاب وَأخْلَاق طَالب الْعلْم-، قَال: (كَثيرٌ مِنْ طَلَبَة الْعِلْمِ يبْحَثُونَ عَنْ كُتبِ آدَابِ طَالبِ الْعِلْمِ؛ وَأَقُولُ لَهُمْ: جَنَاحَان لَابدَّ لِكُلِّ طَالبِ عِلْمٍ أَرَادَ أنْ يَتَعَامَلَ مَعَ الْعِلْمِ وَآدَابه، جَنَاحَان لَابُدَّ لَهُ مِنْهُمَا وَهُمَا كِتَابَان -هَذَان الْجَنَاحَان هُمَا كِتَابَان-؛ رُبَّمَا لَوْ اسْتَغْنَى عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا فِي بَابِهِمَا لَكَفَاهُ، وَإِنْ كَانَت الْكُتُبُ كَثِيرَةٌ -لَا نُرِيدُ أنْ نَظْلِمَهَا-، لَكِنْ فِيمَا يَتَعلَّقُ بِهَذَا الْبَابِ هُمَا كِتَابَان:

ـ الكِتَابُ الأوَّلُ: الْجَامِعُ لأخْلَاق الرَّاوِي وَآدَاب السَّامِعِ لِأَبِي بَكْرٍ الْخَطِيب الْبَغْدَادِيّ الْمَشْرِقِي رَحِمَهُ الله.

ـ وَالثَّانِي كِتَابُ: جَامِعِ بَيَان الْعِلْمِ وفَضْله لِلْحَافظ أَبِي عُمَر بْن عَبْد البَرّ الْقُرْطُبِيّ الْمَالِكِيّ الْمَغْرِبِيّ رَحِمَهُ الله.

وَهَذَان الْكِتَابَان: كِتَابَان حَافِلَان بِمَا تَقرُّ بِهِ عَيْن طَلَبَةِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْبَاب) [من شرحه لكتاب أحاديث الفتن والحوادث]

أدبه، فإذا كان اعتناء طالب العلم بالأدب وبمعرفته وبأَهمِّيته فإنَّه يُحصِّل خيرًا كثيرًا في ذلك.

ولا شكَّ أنَّ كلَّ عاقل يأخذ من ذوي الخبرة ما يجعله يسلك في سبيلهم، ولا شك أنَّ أهل الخبرة في هذا المقام هم السَّلف، ومن رأى اعتناءهم بالأدب في العلم وحثِّهم عليه وتأديب طلَّابهم عليه وحملهم عليه رأى أنهم لم ينالوا تلك الدَّرجات في العلم إلَّا بالأدب فيه؛ فإذا أردنا أن نسير على طريقهم وأن نسلك دربهم المطروق فإنَّنا لابدَّ وأن نأخذ طرفًا من نصائحهم، ولهذا كانوا يعتنون بتأديب أبنائهم وتأديب أنفسهم قبل ذلك أكثر من أيِّ شيء.

ذكر الرَّاغب الأصفهاني أنَّ المنصور بعث إلى من في الحبس من بني أُمية يقول لهم: (مَا أَشَدُّ مَا مَرَّ بِكُمْ فِي هَذَا الْحَبْسِ؟ فَقَالُوا: مَا فَقَدْنَا مِنْ تَرْبِيَةِ أَوْلَادِنَا)[1]، ولهذا كان السَّلف -رحمهم الله- يتَّخذون لأَبنائهم مؤدِّبًا ويسمُّونه بـ:«المؤدِّب»، واشتهر بعض أهل العلم بأنَّه مؤدِّب الأولاد، أو بعضهم اشتهر -كابن أبي الدُّنيا- بأنَّه مؤدِّب أولاد الخلفاء[2]، وربَّما بعضهم يُلقَّب بهذا اللَّقب يُقال فيه: المؤدِّب.

لماذا نذكر هذه التَّقدمة؟

لأنَّ منظومة الأَلبيري متمحِّضة في آداب طالب العلم وحمل نفسه على الأدب فيه وعدم التَّهاون في الأدب -أي في الأدب مع العلم-، وابن القيِّم -رحمه الله تعالى-

[1] "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله؛ ص:20.

[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء:13، ص:400

يقول: (الأَدَبُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: أَدَبٌ مَعَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وَأَدَبٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَشَرْعِهِ، وَأَدَبٌ مَعَ خَلْقِهِ)[1].

كان ابن المبارك -رحمه الله تعالى- يقول: (مَنْ تَهَاوَنَ بِالأَدَبِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ السُّنَنِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالسُّنَنِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْفَرَائِضِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْفَرَائِضِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْمَعْرِفَةِ)[2] كما ذكر الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- ذلك عنه في «مدارج السَّالكين».

وكذلك يقول رُوَيْم بن أحمد البغدادي لابنه: (يَا بُنَيَّ اِجْعَلْ عَمَلَكَ مِلْحًا وَأَدَبَكَ دَقِيقًا)[3] أراد أنَّه لابُدَّ من الاستكثار من الأدب لأنَّه ثمرة العلم وحقيقة العلم وروح العلم، ولهذا قال البُوشَنْجي: (مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ وَالْفِقْهَ بِغَيْرِ أَدَبٍ فَقَد اِقْتَحَمَ أَنْ يَكْذبَ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[4].

وكان النَّخعي -رحمه الله- يقول: (كَانُوا إِذَا أَتَوا رَجُلًا لِيَأْخُذُوا عَنْهُ نَظَرُوا إِلَى سَمْتِهِ وَصَلَاتِهِ وَإِلَى حَالِهِ ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ)[5]، ولهذا ذكروا في ترجمة الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- أنَّه يجتمع في مجلسه خمسة آلاف أو يزيدون، بعضهم يكتب الحديث -قيل خمسمائة-، والباقون يتعلَّمون منه حسن الأدب والسَّمت[6]؛ ولهذا جاء في ترجمة أحد طُلَّاب أحمد أنَّه حضره عشر سنين قال: (مَا كَتَبْتُ مِنْهُ حَدِيثًا وَاحِدًا، إِنَّمَا كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى هَدْيِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ)[7].

---

[1] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ الجزء الثاني؛ ص:357.

[2] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ الجزء الثاني؛ ص:360.

[3] "الفروق" للقرافي رحمه الله؛ الجزء الرابع، ص:298.

[4] "سير أعلام النبلاء"؛ الجزء:13، ص:586.

[5] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:36

[6] (كَانَ يَجْتَمِعُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ زُهَاءَ خَمْسَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ، نَحْوُ خَمْسِمِائَةٍ يَكْتُبُونَ، وَالْبَاقُونَ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ حُسْنَ الْأَدَبِ وَالسَّمْتِ) ["سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء 11، ص:316]

[7] عن أبي بكر المطوّعي أنّه قال: (اخْتَلَفْتُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ أَحْمَد بْن حَنْبَل ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةٍ وَهُوَ يَقْرَأُ "الْمُسْنَد" عَلَى أَوْلَادِهِ، فَمَا كَتَبْتُ مِنْهُ حَدِيثًا وَاحِدًا، إِنَّمَا كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى هَدْيِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ) ["مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:288]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (اطْلُب الأَدَبَ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي الْعَقْلِ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْمُرُوءَةِ، وَمُؤْنِسٌ فِي الْوَحْدَةِ، وَصَاحِبٌ فِي الْغُرْبَةِ، وَمَالٌ عِنْدَ الْقِلَّةِ)[1].

كان الإمام مالك -رحمه الله تعالى- يقول: (كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي: اِذْهَبْ إِلَى رَبِيعَة فَتَعَلَّم مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ)[2].

وابن المبارك يقول: (طَلَبْتُ العِلْمَ فَأَصَبْتُ مِنْهُ شَيْئًا، وَطَلَبْتُ الأَدَبَ فَإِذَا أَهْلُهُ قَدْ بَادُوا)[3] -يعني ذهبوا-؛ وكان ابن المبارك أيضًا -رحمه الله- يقول: (نَحْنُ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ الأَدَبِ أَحْوَج مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ)[4].

ولمَّا سُئل الحسن البصري -رحمه الله- عن أنفع الأدب، قال: (التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا للهِ عَلَيْكَ)[5].

ولهذا قال الخطيب البغدادي -رحمه الله-: (وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ طَلَبَةُ الْحَدِيثِ أَكْمَلَ النَّاسِ أَدَبًا، وَأَشَدَّ الْخَلْقِ تَوَاضُعًا، وَأَعْظَمَهُمْ نَزَاهَةً وَتَدَيُّنًا، وَأَقَلَّهُمْ طَيْشًا وَغَضَبًا، لِدَوَامِ قَرْعِ أَسْمَاعِهِمْ بِالأَخْبَارِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى مَحَاسِنِ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآدَابِهِ، وَسِيرَةِ السَّلَفِ الأَخْيَارِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ وَطَرَائِقِ الْمُحَدِّثِينَ وَمَآثِرِ الْمَاضِينَ فَيَأْخُذُوا بِأَجْمَلِهَا وَأَحْسَنِهَا، وَيصْدِفُوا عَنْ أَرْذَلِهَا وَأَدْوَنِهَا)[6] -هكذا يقول في كتابه «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع»-.

سفيان بن عُيينة -رحمه الله- يقول: (إِنَّ رَسُولَ اللهِ هُوَ الْمِيزَانُ الأَكْبَرُ، فَعَلَيْهِ تُعْرَضُ الأَشْيَاءُ، عَلَى خُلُقِهِ وَسِيرَتِهِ وَهَدْيِهِ، فَمَا وَافَقَهَا فَهُو الْحَقّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ الْبَاطِل)[7].

---

[1] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:36.

[2] "ترتيب المدارك" للقاضي عياض رحمه الله، الجزء الأول، ص:130.

[3] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:36.

[4] "مدارج السالكين" الجزء الثاني؛ ص:356.

[5] "مدارج السالكين" الجزء الثاني؛ ص:356.

[6] "الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع" للخطيب البغدادي رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:78.

[7] "الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع" للخطيب البغدادي رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:79.

كان الإمام مالك -رحمه الله- يقول: (إِنَّ حَقًّا عَلَى مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يكُونَ لَهُ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِأَثَرِ مَنْ مَضَى قَبْلَهُ)[1].

هكذا جاءت آثار كثيرة عن السَّلف -رحمهم الله- في ضرورة الاعتناء بالأدب والتَّخلق بأخلاق العلم وحمل النَّفس على الأَدب في العلم، ولهذا صنَّفوا الكُتب الكثيرة: «الآداب الشَّرعية» لابن مفلح، «غذاء الألباب» للسفاريني، منظومة ابن عبد القوي، منظومة الشَّيخ حافظ حكمي «الميمية»، وهذه المنظومة التي نحن بصَدَدها؛ وقلَّ أن تجد عالمًا من العلماء إلَّا وصنَّف كتابًا مُستقلًّا أو نظمَ نظمًا يتعلَّق بآداب طالب العلم، ولازال العلماء يُصنِّفون في ذلك المصنَّفات الكثيرة؛ لماذا هذا كلُّه؟ لأنَّ المعرفة بهذا فيها حثٌّ على العلم والحرص عليه وعدم الاستغناء بشيءٍ عنه، ولهذا من روائع منظومة الشَّيخ العلامة حافظ حكمي -رحمه الله- أنَّه قال:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا ... فَقَدْ ظَفِرْتَ وَرَبِّ اللَّوحِ وَالْقَلَمِ
وَعَظِّمِ العِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ ... فِي الْقَوْلِ وَالفِعْلِ وَالآدَابِ فَالْتَزِمِ[2]

وهي منظومةٌ رائعةٌ، رائقةٌ، مشهورةٌ، ومطبوعةٌ، ومنشورةٌ.

[1] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله؛ الجزء السادس، ص: 324.
[2] "المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية" للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله.

✿ التَّعريف بالنَّاظم:

وما نحن بصدد الكلام عليه هو منظومة العلَّامة الشَّهير أبي إسحاق الألبيري الأندلسي -رحمه الله تعالى-، وهذا العَلَم وإن كان قد ترجم له كثيرٌ من أهل العِلم وإن كان لَم يترك الكثير من المصنَّفات إلَّا أنَّ شِعره كما ذكر المترجمون له كان مجموعًا ومعروفًا.

- منسوب إلى إلبيرة ويُنسب إلى غرناطة ويُنسب إلى حِسن العُقاب ويُنسب إلى آخر نسبه وهو التُّجيبي لأنَّه يرجع إلى قبيله تُجيب من اليمن.
- يُكنى بأبي إسحاق.
- واسمه إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبي -رحمه الله تعالى وغفر له-.
- فقيهٌ ومُقرئٌ وعالِمٌ في زمانه، أخذ القراءات وعُرف بها.
- من مشاهير شُيوخه: إمام السُّنة في زمانه الإمام «ابن أبي زَمْنِين»، فإنَّه من طُلَّابه الَّذين أخذوا العلم عنه، وله رواية عنه وله أيضًا إجازة عنه كما ذكر المترجمون له -رحمه الله تعالى ورحم الجميع-.
- وُلد -رحمه الله تعالى- ما يقرب من سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.
- وتُوفي على ما ذكر المترجمون أيضًا في سنة ستين وأربعمائة.
- وكان معاصرًا لأبي محمَّد ابن حزم الظَّاهري، وكان في زمانه معروفًا وبعد زمانه؛ وديوانه تداوله العلماء وأخذوه، وكان بعض أهل العلم -وإن كان لا يحضرني الآن- لا يُقرئ بعض طُلَّابه العلم حتَّى يحفظ المنظومة التَّائية -الَّتي نحن بصدد الكلام عليها-، بل قال أبو الحجَّاج يوسف بن محمَّد البلوي في كتابه الماتع «ألف

باء» قال إنَّ أَبَا عَبد الله بن سودَة كان يَحملُ طَلبَتـهُ على حفظِهـا لجوْدتِهـا[1] -أي على حفظ هذه المنظومة الَّتي هي المعروفة بالتَّائية أو بمنظومة الآداب الَّتي نظمها رحمـه الله تعالى-.

هذا ما يتعلَّق بالنَّاظم، ولَم تذكر كتب التَّراجم كثيرًا من كتُبـه ومصـنَّفاته، وهـذا ليس عيبًا في العالم، فإنَّ كثيرًا من العلماء لَم يتركوا كُتبًا ولَم يؤلِّفوا ولَم يُصنِّفوا -كما هو معلوم- وليس هذا هو محلّ الكلام عليه.

التَّعريف بالمنظومة:

يبقى الكلام على هذا النَّظم الَّذي نحن بصدد الكلام عليه.

هذا النَّظم قيل إنَّ الألبيري -رحمه الله- وصَّى به ابنه الَّذي يُكنى بأبي بكر، وهذا قول مشهور، ولكن اعترض بعضهم بأنَّ هذا غير معروف ولا دليل عليه، ومعلوم أن قول النَّاظم -رحمه الله- في موضعين:

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا

في الموضع الأوَّل في أوَّلها، وفي آخرها:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي

[1] (وَهَذَا الشَّاعِرُ هُوَ أَبُو إِسْحَاق، إِبْرَاهِيم بن مَسْعُود الأَلْبِيرِي رحِمَهُ الله، وَالقَصِيدُ -أي التائية- حَسَنٌ طَوِيلٌ، كَانَ الأُسْتَاذُ الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِالله بْن سودَة شَيْخِي رَحِمَهُ اللهُ يحْمِلُ طَلَبَتَهُ عَلَى حِفْظِهِ لِجَوْدَتِهَا) ["ألف باء" ليوسف بن محمَّد البلوي رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:13]

أنَّ هذا عند أهل المصطلح وأهل الحديث من المبهمات، فإنَّه قد أبهمه ولم يُبيِّن من هو.

_ فقال بعضهم أنَّه وصَّى بذلك ابنه واحتجَّ بشيء من المنظومة -من الأبيات-.

_ وقال آخرون بل كان مُزاملًا له، كان أحد المزاملين له في العلم إلَّا أنَّه نال من عرض الألبيري -رحمه الله- وتكلَّم عليه بما يُشينه، فردَّ عليه الألبري بهذه الوصايا وهذه النَّصائح وهذه الذِّكرى وهذه العِظَة ولَم يتطرَّق إلى ما دار بينه وبينه في الكلام؛ وهؤلاء يحتجُّون بقوله:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكْثَرُهُ وَمُعْظَمُهُ سَتَرْتَا
وَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ... وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا

إلى غيرها من الأبيات.

ومن قال بأنَّ المراد ابنه وأنَّه وصَّاه بهذه الوصايا احتجَّ بمثل قوله:

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دُفْرٍ ... وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا
وَلَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ ... وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْهَمَلْتَا
وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ ... وأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا

قالوا إنَّ هذا يدلُّ على التَّفاوت وهذا مُحتمل على التَّفاوت والبون بينهما في العمر وفي النِّسبة.

وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ هذا النَّظم قد اِشتمل علَى نصائح ووصايا عظيمة ستتبيَّن لكم من خلال سماعها وما يتعلَّق بالتَّعليق عليها.

هذه المنظومة من البحر الوافر عند العروضيين، وإشتملت على خمسة عشر ومائة بيت، ولهذا قال -رحمه الله تعالى- في آخرها:

وَقَدْ أَرْدَفْتُهَا تِسْعًا حِسَانًا وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِائَةً وَسِتَّة

هذا ما يتعلَّق بشيءٍ من الاختصار حول هذا النَّظم الرَّائق.

✿ ومن تأمَّل في أبياته رأى أنَّه قد اِشتمل مِن الحكم والمواعظ والتَّذكير وبيان حال الدُّنيا وأهمِّية العلم والحكم والدُّرر الشَّيء الكثير، فإذا اعتنى بها طالب العلم وسمعها ولو سماعًا فإنَّه سيُحصِّل منها إن شاء الله تعالى خيرًا كثيرًا.

ولابُدَّ وأن نرجع إلى ما بدأنا فيه فيما يتعلَّق بقضيَّة الأدب وأهميَّته، فإنَّنا كلُّنا ذلك الرَّجل نحتاج إلى من يذكِّرنا بالأدب، إلى من ينبِّهنا على أهمِّية الأدب، إلى من يُعظِّم الأدب في نفوسنا، إلى من يُبيِّن لنا حقيقة الأدب، وكيف نتعامل مع الله -عزَّ وجلَّ-، وكيف نتعامل مع رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، كيف نتعامل مع بعضنا البعض، كيف يتعامل المتعلِّم مع العالِم، والعالِم مع المتعلِّم، كل هذا ممَّا نحتاج إليه.

- وإنَّما اِخترت أن يكون التَّعليق والشَّرح علَى هذه المنظومة:

_ لما سمعتم من أهمِّيتها ورَونقيَّة ألفاظها وأبياتها ومواعظها ونصائحها.

_ ولما يتعلَّق بذلك أيضًا أنَّه ليس لها شرحٌ مطبوعٌ معروفٌ متداولٌ، وقلَّ من شرح هذه المنظومة.

وسيكون الشَّرح والتَّعليق عليها بشيءٍ من الِاختصار مع الاعتناء بآثار السَّلف الَّتي تدلُّ عليها؛ ولن ندخل في الكلام عليها في هذه اللَّيلة -يعني على أبياتها-.

بهذه التَّقدمة والتَّوطئة الَّتي ربَّما جاوزت شيئًا من الوقت، ولكنَّنا إن شاء الله تعالى نأخذ الكلام عليها في الدَّرس القادم إن شاء الله تعالى.

ويكون بهذا قد اِنتهى التَّقديم بهذه المنظومة.

الدَّرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الثَّاني من مجالس التَّعليق والشَّرح على نظم العلاَّمة الفقيه المقرئ أبي إسحاق الألبيري -رحمه الله تعالى- في قصيدته أو نظمه المعروف بـ«التَّائية»، وهذا النَّظم نظمٌ رائقٌ، معروفٌ، مشهورٌ بين أهل العلم، مَرْويٌّ عن النَّاظم -رحمه الله تعالى-.

وقد قدَّمنا في الدَّرس الماضي بمقدّمة فيها الكلام على النَّاظم، وفيها أيضًا طرفٌ من الكلام على نظمه.

قال -رحمه الله تعالى- في هذا النَّظم وفي مطلعه وابتدائه:

تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيَّامُ فَتّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعاتُ نَحْتَا
وَتَدْعُوكَ الْمَنونُ دُعاءَ صِدقٍ ... أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا
أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذاتَ خِدرٍ ... أَبَتَّ طَلاقَها الأَكْيَاسُ بَتَّا

تَنامُ الدَّهـرَ وَيْحَكَ فِي غَطيطٍ ... بِهَـا حَتَّى إِذَا مِـــتَّ انتَبَهْتَـا
فَكَم ذَا أَنْـتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى ... مَتَى لَا تَرعَـــوِي عَنْهَـا وَحَتَّى

بدأ النَّاظم هذا النَّظم بالتَّذكير بأعظم مُصيبة تنزل على العبـد وهـو المـوت، لأنَّ العبد إذا ذكر الموت صَلح ظاهره وباطنـه، وإذا نَسيَ المـوت فَسـد مـن ظـاهره وباطنه بقدر ما يترتَّب على ذلك من نتـائج هـذا النِّسـيان؛ فـذِكر المـوت موعظـةٌ عظيمةٌ ذكَّرنا الله -تبارك وتعالى- بها في كتابه، وذكَّرنا بهـا النَّـبي صـلَّى الله عليـه وسلَّم في سُنَّته، بل إنَّ النَّبي صلَّى الله أمر بالإكثار من ذكر الموت كمـا في التِّرمـذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلم قـال: ((**أَكْـثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**))[1]، والله -جلَّ وعلا- يقول:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2]، ويقـول -جـلَّ وعــلا- في كتابــه الكــريم:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[3]، إلى غير ذلك من النُّصوص الدَّالة على التَّـذكير بـالموت والخُـروج مـن الدُّنيا.

وكما ذكرتُ لك فإنَّ ذكر الموت من أعظم الأسباب الَّتي تقـود العبـد إلى الصَّـلاح، ونسيان الموت من أعظم الأسباب الَّتي تقود العبد إلى الفساد، وهـذا أمـرٌ معلـوم، فأراد النَّاظم أن يبدأ نظمه بهذه الموعظة وهـذا التَّـذكير لأجـل بيـان أنَّ العبـد لا صلاح له إلَّا بذكر الموت؛ وما سيأتي من المواعظ والنَّصائح والتَّوجيهات الَّتي ذكرها إنَّما هي راجعة إلى التَّذكير بالموت والتَّزهيد في الدُّنيا مع الحـرص على طلـب العلـم ونفع النَّفس ونفع النَّاس.

---

[1] قال التِّرمذي رحمه الله في سننه: حسن غريب.
[2] سورة آل عمران:١٨٥
[3] سورة الرحمن:٢٧

يقول -رحمه الله تعالى-:

تَفُــتُّ فُؤادَكَ الأَيَّـامُ فَتّــا

الْفَتُّ في أصل اللُّغة: الكسر، ومنه يُقال لكَسر الخبز أو لـكِسَر الخبز:«الفَتِيت»، فالفتُّ معناه كسر الشَّيء، ويقول لك هنا بأنَّ الأيام تفعل فيك، تفعل في قلبك وفي فؤادك الكسر، فكلُّ يوم يمرُّ من حياتك يكسر شيئًا من القلب، وهذه الأشـياء إذا كُسرت فإنَّ كسرها لا يُشْعَب؛ شبَّه أو نبَّه هنا -رحمنا الله وإياه- إلى أنَّ عمل الأيـام في الإنسان كعمل الإنسـان في تفتيـت الشَّيء، وكمـا قـال ربُّنـا -تبـارك وتعـالى-: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[1] فاللَّيـل يمحو النَّهار والنَّهار يمحو اللَّيل، والشَّيء الَّذي يُمحى من عمـر الإنسـان لا يرجع أبدًا؛ وكما قال بعض السَّلف: (إنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ، فَاعْمَل فِيهِمَا)[2].

تَفُــتُّ فُؤادَكَ الأَيّـامُ فَتّــا

ولهذا جاء في صحيح البخاري في حديث ابن عمر عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلم لمَّا أَخذ بمنكبه وقال: **((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))**[3] وكان ابـن عمر رضي الله عنهما يقول: (إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وإِذَا أَمْسَيْتَ فَـلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِـك)[4]، وهكـذا النَّـبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديث المعروف يقول: **((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ))**[5] إلى

---

[1] سورة الإسراء: ١٢

[2] "مكارم الأخلاق" لابن أبي الدنيا رحمه الله؛ ص:29؛ وأيضًا: "أدب الدنيا والدين" للماوردي رحمه الله؛ ص:87

[3] رواه البخاري

[4] رواه البخاري.

[5] ((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب"؛ من طريق عبدالله بن عباس رضي الله عنهما]

آخر الحديث، فالنَّاظم -رحمه الله- لعلمه ومعرفته لأمر الدُّنيا وأمور الآخرة يُنبِّه على هذا الأمر ويبدأ به.

وقوله:[فُؤَادَك] من أهل العلم واللُّغة من فرَّق بين القلب والفؤاد ومنهم من لَم يفرِّق بينهما، والخطب في هذا -كما يُقال- ميسور في مثل هذا النَّظم.

[تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ] أي أنَّ الأيام بتداولها ومرورها وذهابها تعمل في فؤادك الفتَّ والإزالة، وهذا أمرٌ كما هو معلوم ومشاهد، إلَّا أنَّ الناس -ونسأل الله أن يعافينا- في غفلةٍ عن هذا كلِّه، والعاقل من يُنزل نفسه حيث أنزلها الله -جلَّ وعلا-.

وهكذا النَّاظم -رحمه الله- يقول بعد ذلك:

وَتَنحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

أصل النَّحت في لُغة العرب أنَّه نوعٌ من الإزالة -أي إزالة الحديد للخشب-، فيُسمَّى عمل النَّجار نحتًا لأنه يُنقص من ذلك الخشب؛ ومن تأَمَّل هذا الَّذي ذكره النَّاظم أيضًا في هذا المقام عَلِم أنَّ النَّحت الَّذي تقوم به الأيَّام في هذا الإنسان في عُمره وفي لياليه وفي دهره أنَّها تُزيلها كما أنَّ الحديد يُزيل أشياء من الخشب.

النَّاظم رحمه الله -أقول وأُكرِّر- لعلمه بهذا الأمر يَذْكره في أوَّل هذا النَّظم، لأنَّ العبد إذا تذكَّر الموت والآخرة سهل عليه ما بعدهما، ولهذا انظروا إلى قول الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه الكريم:﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[1].

---

[1] سورة الجاثية: ٣٢

كان الحسن -رحمه الله- يقول: (يَـا ابْـنَ آدَمَ نَهَـارُكَ ضَـيْفُكَ فَأَحْسِـنْ إِلَيْـهِ)[1] -أي بالطَّاعات-، وهذا الأمرُ معلومٌ في قرارة نفوس العباد، وأنَّهم راحلـون عـن الدُّنيـا، لكنَّ العاقل من عَلِم أنَّ كلَّ راحلٍ لابدَّ له من زادٍ في رحلته؛ فالنَّاظم ذكَّرنـا بهـذه الموعظة الَّتي لابدَّ وأن نأخذ بزِمامها وأن نجعلها نُصب أعيننا -كما يُقال-.

والعبد الَّذي يعمل بطاعة الله -تبارك وتعالى- فإنَّه لا يَلتفت إلى المصـاعب ولا إلى شيءٍ يُكدِّرها، يقول الحسن -رحمه الله-: (يَا ابْنَ آدمَ أَنْتَ أَيَّـام، كُلَّمَـا ذَهَـبَ يَـوْمٌ مِنْهَا ذَهَبَ بَعْضُكَ، وَيُوشِكُ إِذَا ذَهَـبَ بَعْضُـكَ أَنْ يَـذْهَبَ كُلُّـكَ وَأَنْـتَ لَا تَعْلَـم، فَاعْمَل، فَالْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَاب، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَل)[2].

ثُمَّ قال النَّاظم -رحمنا الله وإيَّاه -:

وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ ... أَلَا يـا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

أكَّد الذِّكرى بالموت بهذا البيت.

[وَتَدْعُوكَ]: تُناديك، كلُّ يومٍ يمرُّ من أيَّامك يُناديك فيه الموت إلى قبرك.

وَتَدْعُـوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدقٍ

---

[1] "آداب الحسن البصرى وزهده ومواعظه" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:34

[2] **جاء في** "جامع العلوم والحكم" لابن رجب رحمه الله، ص:1131؛ و "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله، الجزء الثاني، ص:148، و "الزهد" للإمام أحمد رحمه الله، ص:267؛ و "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله، الجزء الرابع، ص:585، **بلفظ**: (ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ، ذَهَبَ بَعْضُكَ).

وجاء في "آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه" لابن الجوزي رحمه الله، ص:79، **بلفظ**: (ابْنَ آدَم، إِنَّمَا أَنْتَ عَدَدُ أَنْفَاسِكَ وَأَوْقَاتِك، كُلَّمَا مَضَى لَكَ وَقْتٌ انْقَضَى مِنْكَ بَعْضٌ) [هذا ما تيسَّر الوقوف عليه]

لا كذب فيه، ودعاءَ حقٍّ لا باطل فيه، بل كلُّ إنسانٍ سيرِدُ على هذا المقام، كما قال -جلَّ وعلا-:﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[1]، وكما قال -جلَّ وعلا-:﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[2]، كلُّ العباد إلى هذا الطَّريق سائرون، وإلى هذا المصير صائرون، لا يخرج عن هذا أحدٌ من الخلق أبدًا، ولكنَّ العاقل من عمل بما صوَّره له النَّاظم وهو أنَّ المنون لا تدعو غيره وإنَّما تدعوه هو، لأنَّنا نُدخل أنفسنا في غفلةٍ بسبب أنَّنا نرى أنَّ الموت لا ينادينا نحن، كما سيُذكِّر بذلك النَّاظم فيما يُستقبل من أبياته فلا نتقدَّم عليه.

هنا يقول:[وَتَدْعُوكَ الْمَنُون] والمنون هي الموت، كما قال -جلَّ وعلا-:﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[3] يعني أرادوا الموت، فالمنون من المنِيَّة وهي أخذُ النَّفس وحصول الموت.

تدعُوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ

ماذا تقول؟! [أَلَا] هذا حرف اِستفتاح يُفيد الاهتمام والاعتناء بما يأتي قبله، وقوله:[يَا صاح] هذا ترخيم للصَّاحب.

أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

أي لا أطلب غيرك، المنون هكذا قائلة، أمَّا العبد فلا يقول هذا لنفسه، فإنَّه يُغسِّل كأنَّه لا يُغسَّل، ويُصلِّي على النَّاس وكأنَّه لا يُصلَّى عليه، ويُشيِّع وكأنَّه لا يُشيَّع،

---

[1] سورة الجمعة: ٨
[2] سورة النساء: ٧٨
[3] سورة الطور: ٣٠

ويُنزِل النَّاس في قبورهم وكأنَّه لا يُنزَل، ويُهيل عليهم التُّراب وكأنَّه لا يُهال عليه -إلَّا ما رحم الله تبارك وتعالى-.

فهو يذكِّرك ويقول:[أَنتَ أُريدُ أَنتَا] أي أنَّ الموت يُناديك بصدقٍ وبحقٍّ [يَا صَاح] يا صاحِي، من المُصاحبة، وكأنَّه نزَّل الموت من الإنسان منزلة الصَّاحب الَّذي لا يفارقه.

أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنتَا

ثمَّ ينقلنا النَّاظم إلى نفس المقام، إلى ما يقطعنا عن الآخرة وما يُنسينا ذكر الموت، فيقول:

أَراكَ تُحِبُّ عِرسًا ذاتَ خِدرٍ ... أَبَتَّ طَلاَقَها الأَكْيَاسُ بَتَّا

يقولُ له: ما أراكَ وهذا حالك، وهذا منزلك، وهذه طريقتك في الحياة، إلَّا أنَّك تُحبُّ عِرسًا، وليست العِرس هذه هي العروس الَّتي هي الزَّوجة؛ وإنَّما هي الدُّنيا، لأنَّه يريد أن يذُمَّ كلَّ ما في هذه الدُّنيا ممَّا يقطع عن الآخرة، لَم يُرد أن يُزهِّد فقط في المرأة.

أَراكَ تُحِبُّ عِرسًا ذاتَ خِدرٍ

وهذه أراد بها الدُّنيا.

لعَمْرُك ما الدُّنيا بِدَارِ إقَامةٍ ... ولكِنَّها دار انْتِقَالٍ لمَن عَقَل

هذه الدُّنيا كنَّاها النَّاظم في بيتٍ سنستقبله بأُمِّ دَفر، كما هو معلوم أنَّ هذا من أسماء -أو كُنى- هذه الدُّنيا.

فهـو يقـول:

أَرَاكَ تُحِبُّ عِـرْسًا ذَاتَ خِــدْرٍ

(الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ لَا دَارُ مَقَرٍّ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَـا، وَرَجُـلٌ اِبْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا)[1] كما قال عليّ رضي الله عنه وأرضـاه؛ وقـد جـاء في صـحيح مُسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**))[2]، وهذا أمرٌ ظاهرٌ؛ ولهـذا صحَّ عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه كان يقول: (يَـا دُنْيَـا غُـرِّي غَـيْرِي، فَقَـدْ طَلَّقْتُـكِ ثَلَاثًا)[3]؛ ولهذا النَّاظم يقول:

أَبَتَّ طَلَاقَـهـا الأَكْيَاسُ بَتَّـا

والأكياس جمعُ كيِّس، والكيِّس هو العاقل، وكما جاء عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه -مرفوعًا-: ((**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَـنْ أَتْبَـعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي**)) والحديث ضعَّفه العلامة الألباني -عليه رحمة الله-[4].

والنَّاظم -رحمه الله- أخذ هذه المعاني كلَّها [ونظمها][5] في هذه الأبيات.

أَرَاكَ تُحِبُّ عِــرْسًا ذات خِدرٍ

---

[1] "الآداب الشرعية" لابن مفلح رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:378

[2] رواه مسلم.

[3] "المحاسن والمساوئ" للبيهقي رحمه الله؛ ص:22؛ وأيضًا "صفة الصفوة" لابن الجوزي، الجزء الأول، ص: 107؛ و"التبصرة" لابن الجـوزي رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:445؛ عن عليٍّ رضي الله عنه، بلفظ: (يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، أَبِي تَعَرَضْتِ أَمْ بِي تَشَوَّفْتِ؟ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، قَدْ بَتَتُّكِ ثَلَاثًا لا رَجْعَةَ لِي فِيكِ، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ، وَعَيْشُكِ حَقِيرٌ، وَخَطَرُكِ كَبِيرٌ؛ آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ).

[4] "ضعيف سنن الترمذي" للألباني رحمه الله، رقم: 2459

[5] كلمة غير واضحة؛ على أغلب ظنِّي: نظمها.

في خِباء مع ما هي فيه من المكر، مع ما هي فيه من الخيانة، مع ما هي فيه من الأماني الباطلة؛ كلُّ هذا حال الدُّنيا ومع هذا فإنَّها تتزيَّن للإنسان حتَّى تأكُل شبابه وحتَّى تأكل صحَّته وحتَّى تأكل أحسن ما فيه، ثمَّ تُريه نفسها على حقيقتها وأنَّها تلك العجوز الشَّمطاء الَّتي لَا يلتفتُ إليها أحد.

أَراكَ تُحِبُّ عِرسًا ذاتَ خِدرٍ   أَبَتَّ طَلاقَها الأَكْيَاسُ بَتّا

كيف تُحبُّ هذه العِرْس ذات الخدر وقد أبتَّ طلاقها العقلاء المتنزِّهون عنها العالِمون بحقيقتها؟!

[بَتَّا] تأكيد لهذا الطَّلاق الَّذي كانوا عليه.

أَبتَّ طَلاقَها الأَكْيَاسُ بَتّا

ما دليله وما برهانه على أنَّ هذا العبد أراد الدُّنيا أراد عرسًا ذات خدر؟ دليله ما سيذكره؛ وهو قوله:

تَنامُ الدَّهرَ وَيْحَكَ في غَطيطٍ

_ [وَيْحَكَ] هذه كلمة «وَيْح»: تُستعمل لشيءٍ منَ التَّهديد مع التَّخويف، ففيها نوع اِشفاقٍ.

_ وأمَّا «وَيْل»: فإنَّها كلمةُ تهديدٍ لَا اِشفاقَ فيه.

هكذا «وَيح» يقولون و «وَيْل» و «وَيْس» و «وَيْب»، كلُّها معانيها متقاربة.

فهو يقول له: ويحكَ أمْسِك عن هذا، تنام الدَّهر كلَّه لا في عمل الدُّنيا ولا في عمل الآخرة! قد أضعتَ دهرك نومًا؛ والنَّائم ميِّت لأنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَلَا يَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ))[1] فكم ينام الإنسان عن [...][2]

مَتَى لَا تَرْعَــوِي عَنْهَـــا وَحَتَّى

[لا ترع][3]، ولا ترجع، ولا تقيل عنها.

بهذا القدر نكتفي من التَّعليق على هذا النَّظم؛ ونقف على ندائه لأبي بكر وشرُوعه في العلم والحضِّ والحثِّ عليه.

ونسأل الله -جلَّ وعلا- أن يُوفِّقنا وإيَّاكم لما يُحبُّه ويرضاهُ.

1 قال الألباني رحمه الله في " السِّلسلة الصَّحيحة ": صحيح بمجموع طرقه.

2 انقطاع في الصَّوت.

3 كذا تُسمع، ولعلَّها: "ترعوِ".

الدَّرس الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:
فهذا مجلسٌ من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة العلَّامة المقرئ الفقيه الشَّهير أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الأَلبيري -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد على غُرفة إمام دار الهجرة العلمية، -نسأل الله أن يُوفِّقنا وإيَّاكم لِما يحبه ويرضاه-.

وهو المجلس الثَّالث من هذه المجالس، وقد تقدَّم الكلام على ترجمة المصنِّف -رحمه الله تعالى- والكلام على نظمه، والكلام على مُقدّمته الَّتي بدأ بها هذا النَّظم، وأنَّه -رحمه الله تعالى- من معرفته وزُهده بدأ بالكلام على التَّذكير بالموت وصِفاته وما يتعلَّق بالاِنتقال من الدُّنيا إلى الآخرة لتتهيَّأ النَّفس لما يأتي من النَّصائح والمواعظ والتَّذكير.

ثُمَّ إنَّه -رحمه الله تعالى- بدأ بالنِّداء لمن أراد نُصحه وتوجيهه؛ والخلاف الحاصل بين القائمين على طبع هذا النَّظم:

_ من أنَّ طائفة منهم يقولون بأنَّ أبا بكر الَّذي ناداه النَّاظم -رحمه الله تعالى- أنَّ هذا المنادى هو ابن للنَّاظم -رحمه الله-.

_ ومنهم من قال بأنَّه مزامل له في الطَّلب ثمَّ جرى عليه ما جرى من التَّغير فأخذ يَعِيب ويتكلَّم في الألبيري، فردَّ عليه بهذه النَّصائح وبهذه المواعظ.

• والنَّاظر المتأمِّل في هذا النَّظم يرى أنَّ هذين القولين بعيدان عن الصَّواب، وأنَّ القول بأنَّ هذا المعني ليس شخصًا أو ذاتًا مُعيَّنًا، وحجَّة هذا أنَّه أحيانًا يُخاطب شخصًا كبيرًا قد تمادى في الغيِّ والباطل:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي ... وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

وما أشبه هذا من الأبيات التي تتضمَّنها هذه المنظومة، وأحيانًا يقول مخاطبًا أو ناقلًا عنه أنَّه يقول:

وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا

الشَّاهد أنَّ هذا قد يكون من باب التَّذكير والنُّصح لهذا المنادَى وإن لَم يكن شخصًا مُعيَّنا.

يقول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِن عَقَلْتَا

إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إِن نَهَيتَ وإِنْ أَمَرْتَا

ويَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا ... ويَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا

وتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ... وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا

هذه الأبيات بدأها النَّاظم -رحمه الله تعالى- بالنِّداء لهذا الَّذي ذُكر من قبل الخلاف فيه.

وقوله:[أَبَا بَكْرٍ] هذا منصوبٌ على حذف حرف النِّداء النَّائب عن الفعل: «أدعو أبا بكر» أو ما أشبه ذلك، [أَبَا بَكْرٍ] هذا من باب الكُنى، [دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا] [... لو تفيد][1] اِمتناع الوجود، وهو يناديه ويقول له: لو أجبتَ هذا النِّداء فقد وقعتَ على المحلِّ المطلوب، [لَوْ أَجَبْتَا] إجابةً صحيحةً.

[إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ] يعني إلى أوفر الحظِّ والنَّصيب، [إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ] والحظ هو النَّصيب عند أكثر أهل اللُّغة، ومنهم من فرَّق بين الحظِّ وبين النَّصيبِ، وقد قال الله -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم:﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[2] والمراد هنا: النَّصيب، فهو يقول بأنَّ إجابتكَ لِي سبيلٌ لهذا الحظِّ وهذا النَّصيبِ، وأنَّ تَفويتك لهذه الإجابة يُفوِّتُ عليك الحظَّ والنَّصيبَ الَّذي قُسِّم لك.

[إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ] متى؟! [لَوْ عَقَلْتَا]، وقوله:[لَوْ عَقَلْتَا] هنا أراد لو كان لك عقلٌ فأجبتَ فإنَّك قد أدركتَ حظَّك؛ وهذا العقل لأنَّه يعقِلك عن مواطن الرِّيب وما يُسفِّه عليه الإنسان.

ما هو هذا الَّذي دعاه إليه؟! فسَّره في البيت الثَّاني بقوله:

إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا

[إِلَى عِلْمٍ] اِستعمل النَّاظم -رحمه الله تعالى- التَّنكير، إلَّا أنَّ المراد به خصوص العلم الشَّرعيِّ، ولَم يُرد النَّاظم -رحمه الله- أنَّ كلَّ عِلمٍ يُوصل إلى هذا الحظِّ؛ فلا يُفهم من

---

[1] [لو تفيد]: من إضافتي؛ بسبب بعض التقطُّعات في التَّسجيل.

[2] سورة النساء: ١١

هذا التَّنكير أنَّ هذه الفضائل الَّتي سيذكرها ترجع إلى كلِّ علمٍ، بل المقصود بالفضائل الشَّرعية حيث أُطلقت وجاءت فإنَّما المقصود بها: العِلمُ الشَّرعيُّ.

[إِلَى عِلْمٍ] أين يُوصل هذا العلم؟! إلى الإمامة، ولهذا قال:

إِلَى عِلْــمٍ تَكُونُ بِــهِ إِمَامَــا

أي أنَّ هذا العلم يُوصلك إلى الإمامة في الدِّين والَّتي هي من أعظم المطالب، ولهذا علَّمنا الله -عزَّ وجلَّ- أنَّ [...][1]، كما قال -جلَّ وعلَا-:﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2] وأصلُ الإمام هو المتقدِّم ومنه سُمِّي الإمام في الجيش إمامًا، والإمام في الصَّلاة إمامًا؛ وهو يقول بأنَّ هذا العلم يُوصلك للتَّقدُّم على غيرك.

إِلَى عِلْــمٍ تَكُونُ بِــهِ إِمَامًا

وهذه الإمامة المقصود بها الإمامة في الدِّين، لكن لا يكون المقصد من العلم طلبُ الإمامة، وهذا في جميع ما يَحصُل من الآثار والأسباب بالنِّسبة لطالب العلم ممَّا فيه نوعُ حظٍّ من الدُّنيا، ولكن يكون قصده العلم ثمَّ بعد ذلك تأتي هذه الإمامة لكن لا تكون مقصودته، ولهذا صحَّ عن الإمام مالك أنَّه قال: (مَا تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ إِلَّا لِنَفْسِي، وَمَا تَعَلَّمْتُ لِيَحْتَاجَ النَّاسُ إِلَيَّ، وَكَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ)[3]، هذا الأثر العظيم يُبيِّن فيه الإمام مالك المنهج الَّذي كان عليه النَّاس في طلب العلم، ولهذا قال: (وَكَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ)، ويُوضِّح هذا أنَّ الإمام أحمد -رحمه الله

---

[1] اِنقطاع يسير في الصَّوت.
[2] سورة الفرقان: ٧٤
[3] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الثامن، ص:66.

تعالى- قال: (لَيْسَ شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنَ الْعِلْمِ لِمَنْ صَلَحَتْ نِيَّتُهُ، قَالُوا: وَمَا النِّيَّةُ يَا أَبَا عَبْدِاللهِ؟ قَالَ: أَنْ يَنْوِيَ رَفْعَ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ)[1].

هو يُبيِّن هُنا أنَّ العلم الَّذي أُريد به وجه الله هو الَّذي يُوصِل إلى الإمامة في الدِّين؛ والإمامةُ في الدِّين مَطلبٌ شرعيٌّ عظيمٌ، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ- أيضًا عن إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام لَمَّا قال:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2]، ولمَّا قال له:﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[3] علَّق ابن القيم بأنَّ صاحب الهوى لا يكون إمامًا لأنَّ الهوى يقود إلى الظُّلم[4] ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[5]، فالإمامة في الدِّين فسَّرها النَّاظم بقوله:

مُطاعًا إنْ نَهيْت وإنْ أَمَرْتا

فيكون مُطاعًا إذا أمر وإذا نهى لأنَّ هذه هي حقيقة العلم الَّتي تُوصل الأوامر والنَّواهي، والإمامة لا تكون إلَّا بالعلم، ولهذا تأمَّلوا في قول الله -عزَّ وجلَّ- مُخبرًا عن نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى، قال الله -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا

---

[1] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ الجزء الثاني، ص:519، بلفظ: (نَقَلَ مُهَنَّا صَاحِبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ -يَعْنِي الْإِمَامَ- : طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ؛ قِيلَ: فَأَيُّ شَيْءٍ تَصْحِيحُ النِّيَّةِ؟ قَالَ يَنْوِي أَنْ يَتَوَاضَعَ فِيهِ وَيَنْفِيَ عَنْهُ الْجَهْلَ).

[2] سورة البقرة: ١٢٦

[3] سورة البقرة: ١٢٤

[4] قال ابن القيِّم رحمه الله: (مُتَّبِع الْهَوَى لَيْسَ أَهْلًا أَنْ يُطَاعَ وَلَا يَكُون إمَامًا وَلَا مَتْبُوعًا، فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَزَلَهُ عَنِ الإِمَامَةِ وَنَهَى عَنْ طَاعَته، أَمَّا عَزْلَهُ فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لِخَلِيله إِبْرَاهِيم:﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ لَا يَنَال عَهْدِي بِالإِمَامَة ظَالِمًا، وَكُلّ مَن اتَّبَعَ هَوَاهُ فَهُوَ ظَالِمٌ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى:﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وَأَمَّا النَّهْي عَنْ طَاعَته فَلِقَوْله تَعَالَى:﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ ["روضة المحبين" ص:636]

[5] سورة البقرة: ١٢٤

مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ﴾ هذا الجواب وهذا الشَّاهد:﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[1] فذكر العلم لأنَّه هو المقدَّم في هذه الإمامة -إمامة الدِّين-، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾؛ ولمَّا قال الله -تبارك وتعالى-:﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2]، وقوله -عزَّ وجلَّ-:﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ قالها في سورة الأنعام وفي سورة يوسف؛ قال مالك عن زيد بن أسلم: (﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾: بِالْعِلْمِ)[3]، ولهذا خرَّج مُسلم في صحيحه أنَّ عمر رضي الله عنه وأرضاه لقيَ نافعًا بن عبد الحارث بعسفان، وكان نافع هذا [يستعمله][4] على القرى -يعني على مكَّة وما حولها-، فقال له عمر رضي الله عنه: (مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى؛ قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا؛ قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ؛ قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: (**«إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»**)[5] هذه هي الإمامة، ولهذا يقول الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله

---

[1] سورة البقرة: ٢٤٧- ٢٤٦

[2] سورة المجادلة: ١١

[3] "فتح الباري" لابن حجر رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:170؛ وأيضًا "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:619

[4] [يستعمله]: تمَّ تقديرها من خلال تتبُّع الأثر المذكور بصحيح الإمام مسلم رحمه الله -بسبب عدم وضوحها في التَّسجيل-.

[5] رواه مسلم.

تعالى- في مقدِّمة كتابه العظيم «إعلام الموقعين» وهو يسوق فضائل أهل العلم وما لهم من المزايا والفضائل قال: (وَطَاعَتُهُمْ أَفْرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ بِنَصِّ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1])[2] فمن أسباب عدم اتِّباع الشَّيطان وتسلُّط الشَّيطان على النَّاس: وجود أهل العلم، وهم وُلاة الأمر على الحقيقة، ولهذا قال الحافظ أبو عبد الله ابن بطة -رحمه الله-: (طَاعَتُهُم عَلَى جَمِيع الْخَلقِ وَاجِبَة، وَمَعْصِيتهُم مُحَرَّمة)[3] وبهذا الأصل العظيم عَصَم الله الأمَّة من الفتن في أوَّل صدرها، واستمرَّ هذا حتَّى قلَّ العلم وقلَّ الرُّجوع إلى أهله [فانتشرتِ][4] الفتن، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ربط وجود الفتن بذهاب هؤلاء العلماء كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في الصَّحيحين أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: **((إنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِن يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إذَا لَم يُبْقِ عَالمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلوا، فأفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا))**[5] هذا من أشدِّ آثار ذهاب أهل العلم.

[1] سورة النساء: ٨٣
[2] "إعلام الموقعين" لابن القيِّم رحمه الله، الجزء الأول، ص:8.
[3] "إبطال الحيل" لابن بطة رحمه الله، ص:56.
[4] [فانتشرت]: من إضافتي؛ بسبب بعض التَّقطُّعات في التَّسجيل.
[5] متَّفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

لهذا فسَّر طوائف من العلماء -من المفسِّرين وغيرهم- قول الله -عزَّ وجلَّ-:﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾[1] قالوا: (نَنْقُصُهَا بِذَهَابِ الْعُلَمَاءِ)[2]، وهكذا العلماء إذا ذهبوا ذهبت الإمامة في الدِّين.

والآثار في هذا كثيرةٌ جدًّا، والمقصود هو توضيح ما أراده النَّاظم -رحمه الله تعالى- لأنَّ من الأسباب الدَّافعة إلى الحرص على الشَّيء المعرفة بفضائله، من الأسباب الَّتي تحثُّ المسلم وتحضُّه على الشَّيء وعلى الحرص عليه أن يعلم فضائله، فإذا علم الفضائل كان أحرص على هذا الَّذي له هذه الفضائل.

يقُول:

إِلَى عِلْمٍ تكُونُ بِهِ إِمَامًا

ما حقيقة هذه الإمامة؟! [الصَّلاح][3].

مُطَاعًا إنْ نَهَيْتَ وَإنْ أَمَرْتَا

هذا من آثار العلم، وقد سمعتم هذه النَّصوص وهذه الآثار، والآثار كثيرةٌ جدًّا [...][4]

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُم آدَم وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
لَا فَضْلَ إِلَّا لِأَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الهُدَى لِمَنِ اسْتَهدى أَدِلَّاءُ[5]

---

[1] سورة الرعد: ٤١

[2] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قَالَ: (ذَهَابُ عُلَمَائِهَا وَفُقَهَائِهَا وَخِيَارِ أَهْلِهَا) وقال مُجَاهِد: (مَوْتُ الْعُلَمَاءِ) ["تفسير الطبري"، الجزء:16، ص:497 (باختصار)]

[3] [الصَّلاح]: من إضافتي؛ بسبب بعض التَّقطعات في التَّسجيل.

[4] انقطاع في الصَّوت.

[5] تُنسب لعلي رضي الله عنه.

من روائع ما قاله عليٌّ رضي الله عنه أنَّه قال: (كَفَى بِالْعِلْمِ شَرَفًا أَنْ يَدَّعِيهِ مَنْ لَا يُحْسِنُهُ، وَيَفْرَح بِهِ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ)[1]، ونحن لا نريد الآن لو تكلَّمنا عن فضائل العلم وفضائل العلماء، لكنْ سنمشي مع النَّاظم -رحمه الله- ليكون هذا هو المقصود من إيضاح كلامه.

يقــول:

مُطَاعًا إنْ نَهَيــتَ وإنْ أَمَرْتَــا

ثُمَّ ذَكر أثرًا عظيمًا من آثار العلم وهو ما يحدثه في نفس المتعلِّم [...][2]، وهو الغشاء والغطاء الَّذي يكون على القلب قبل العين، فقال:

ويَجلُو ما بعَينِك مِنْ غِشَاها ويَهْديكَ الطَّريقَ إذا ضَلَلْتَا

من آثار العلم العظيمة أنَّه يجلو الغشاء الواقع على العين، وهذا الغشاء الواقع على العين الَّذي غطَّى البصر أين مصدره؟ مصدره الغشاء الَّذي يكون على القلب بسبب الجهل لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3]، فإذا ذهبت بصيرة القلب ذهبَ بصرُ العين، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[4]، والله -عزَّ وجلَّ- أخبر

[1] "تذكرة السامع والمتكلم" لبدر الدين بن جماعة، ص:41؛ وأيضًا "المجموع" للنووي رحمه الله، الجزء الأول، ص:41.
[2] انقطاع يسير في الصَّوت.
[3] سورة ص: ٢٩
[4] سورة الأعراف: ١٩٨

بما نتج من عمـاهم [...][1]: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[2] فهم لا يبصرون شيئًا وإن كان الحقُّ أمامهم؛ فالعلم هو النُّور الَّذين يُضيء لك الطَّريق.

ما الَّذي يُذهب الغشاء الَّذي على القلب؟ وما الَّذي يُذهب الغشاء الَّذي على العين؟ قـال:

ويَجلُو مـــا بعَيْنِك مِـــنْ غِشَاهـــا

هذا الغشاء هو الجهل، ما الَّذي يُذهبه؟! العِلم، كما قال الله -عزَّ وجـلَّ- في كتابـه الكـــريم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3]؛ العلم فُرقان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[4].

وَيَجْلُو مَـــا بِعَيْنِكَ مِـــنْ غِشَاهَـــا

فإذا انجلى ما على العين من الغشاء وذهب رأيتَ الطَّريق، لهذا من براعة قول النَّاظم في هذا البيت:

ويَهْديـكَ الطَّريـــقَ إذا ضَلَلْتَـا

---

[1] انقطاع يسير في الصَّوت.
[2] سورة فصلت: ٥
[3] سورة الأنعام: ١٢٢
[4] سورة الأنفال: ٢٩

فلابدَّ أوَّلًا من ذهاب الغشاء الواقع على العين والغشاء الواقع على القلب، فإذا ذهب الغشاء الواقع على الحسِّ والمعنى بَانَ الطَّريق وظَهر، فإذا بان الطَّريق وظهر جاء الاِمتحان بالسُّلوك أو بالاِنحراف عن الجادة.

فالنَّاظم يقول:[وَيَهْديكَ] يكون لك هداية، [الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا] فإذا حصل نوعٌ مِن الضَّلال العلم يرُدُّك؛ والعالِم لا يُمكن أن يُحيط بكلِّ شيءٍ علمًا، ولكنَّ علمه يحكمه ويُرجعه إلى مقام الجادة.

❀ هذه ثلاثة آثار للعلم ذكرها في بيتين:

_ الإمامة.

_ وذهاب غشاء العين.

_ والهداية إلى الطَّريق الصَّحيح المستقيم، أثرٌ من آثار العلم بل أعظم آثاره، وما فائدة العلم [إذا لَم يكُن قائدًا للخير؟][1].

وسيُبيِّن النَّاظم إذا لَم يكن قائدًا إلى الخير، ولهذا يقول -رحمه الله تعالى- فيما سيأتي معنا من أبياتٍ:

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْرًا ... فَخَيْرٌ مِنْهُ أن لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ ... فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا

فالعلم لابُدَّ وأن يهدي إلى الطَّريق:

وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إذا ضَلَلْتَا

[1] [إذا لَم يكن قائدًا للخير؟]: من إضافتي، ليكتمل بها كلامُ الشَّيخ -حفظه الله-؛ أمَّا في التَّسجيل فهي مبتورة بسبب بعض التَّقطُّعات.

ثمَّ ذكر أثرًا عظيمًا يرجع إلى الأثر الأوَّل فقال:

وَتَحْمِلُ مِنْــهُ فِي نَادِيـكَ تَاجًا

«النَّادي» المراد به المجتمع الَّذي يجتمع فيه النَّاس؛ فحيثما اِجتمع النَّاس ورَأَوْك كان هذا العلم بمثابة التَّاج الَّذي يُميِّز الملك عن غـيره مـن النَّـاس، فيقـول بأنَّـك إذا مررتَ:

تَحْمِلُ مِنْــهُ فِي نَادِيـكَ تَاجًا

وهذه هي حقيقة الإمامة في الدِّين، والتَّقدم في الدِّين، والتَّقدم في العلم.

[تَحْمِلُ مِنهُ فِي نَادِيكَ] في مُجتمعك، [تَاجًا] بسبب هذا العلم.

وَتَحْمِلُ مِنـهُ فِي نَادِيـكَ تاجًا

ومع هذا التَّاج:

وَيَكْسُوكَ الْجَمَــالَ إِذَا عَرِيتَـا

فإذا حصل الفقرُ والفَاقةُ وقلَّة ذاتِ اليدِ ومُزِّقت الثِّياب ولَم تجـد غيـارًا كان هـذا العلم هو كساؤك وهو رِداؤك.

وتَحْمِلُ مِنْـهُ فِي نَادِيـكَ تَاجًا

[وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ] يُجمِّلك، يُعطيك جمالًا ورَوْنقًا؛ وهذه كانت حالـة أهـل العلـم وحَملة العلم.

وتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًـا وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرِيتَـا

حيثما كنتَ فإنَّ الجمال مُصاحبٌ لك، هو لباسك.

بهذا القدر نكتفي من التَّعليق على هذه المنظومة؛ ومعلومٌ أنَّ المنظومات والمنثورات لا تستوي مراتبها في الفهم وما تحمله من المعاني، فبعضُ الأبيات قد تستغرق منَّا مجلسًا واحدًا أو أقلَّ من هذا أو أكثر، وبعضها معانيها مُتقاربة؛ ونسأل الله -تبارك وتعالى- أن يجعل فيما سمعناه فائدةً للجميع فهو وليُّ ذلك والقادر عليه.

الدَّرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الرَّابع من مجالس التَّعليق والشَّرح على نظم الألبيري -رحمه الله تعالى-؛ والَّذي يُعرف بـ:«التائية»، وقد سبق الكلام على طرفٍ من هذا النَّظم؛ وهذا الدَّرس ينعقد على غرفة إمام دار الهجرة العلمية، -وفَّقنا الله والقائمين عليها لما يُحبُّه ويرضاه-.

قد تقدَّم معنا الكلام على طرفٍ من نظم الألبيري -رحمه الله- عن العلم وفضله ومكانة أهله وحَملته، ووصل بنا المقام إلى قوله -بعد دعائه لمن أراد تكليمه-:

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا
إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطاعًا إن نَهَيتَ وإنْ أَمَرْتَا
ويَجلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا ... ويَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إذا ضَلَلْتَا
وتَحْمِلُ مِنهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ... ويَكْسُوكَ الجَمَالَ إذَا عَرِيتَا
يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَادُمْتَ حَيًّا

[وَيَبْقَى ذِكْرُهُ] وفي نُسخة:[ذُخْرُهُ].

وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

وتوقَّف بنا الكلام على هذا البيت.

يقول -رحمه الله تعالى-:

يَنالُكَ نَفعُهُ مـادُمتَ حَيًّا

أي أنَّك تُحصِّل نفع هذا العلم مُدَّة حياتك، فما بقيتَ مع العلم، وما بقيت حـاملًا للعلم، فإنَّك تنتفع به مادمت حيًّا؛ فمدَّة حياتك هي المكان الَّذي تُحصِّـل فيـه هـذا العلم، وليس هذا فحسب بل إنَّه أكدَّ إلى أنَّ هذا العلم سـيَبقى [ذُخـرُهُ] أو [ذِكْـرُهُ لَكَ إِن ذَهَبتا] وأراد بالذَّهاب هنا الموت، فيقول: إذَا ذهبتَ وخرجتَ من هذه الحيـاة الدُّنيا ولقِيَك الموت وأدْركك -كما تقدَّم معنـا في الدَّرس المـاضي أو في الدَّرس قبـل الماضي أنَّه ذكَّر بالموت-، يقول لك لِأَنَّه حال ذهابك من هذه الحياة الدُّنيا وخروجك منها فإِنَّ هذا العلم سيبقى ذُخرًا وسيبقى ذِكرًا.

_ أمَّا على نسخة:[ذُخْرُه] فإنَّ الذُّخر هو الشَّيء الَّذي يُذَّخر للإنسان ويبقى له على مدد أو على عمرٍ مديدٍ؛ فيكون ذخرًا لهذا الإنسان.

_ وأمَّا على نسخة:[ذِكْرُه] فإنَّ المراد بالذِّكر هنا الشَّرف والمكانة والمنزلة، يدلُّ على هـذا قـوله تعـالى:﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾[1] أراد أنَّـه شرفٌ لـك ولقومك، فتَشرفون به، ويبقى ذكرًا لكم، لِأَنَّ هـذا ممَّـا يحـرص عليـه الإنسـان؛ والعرب كانوا من أحرص النَّاس على هذا، وأراد هنا ذكر الخير والإمامـة في الدِّيـن، والله -عزَّ وجلَّ- قال عن نبيِّه وخليلـه إبـراهيم عليـه وعلى نبيِّنـا أفضـل الصَّـلاة

[1] سورة الزخرف: ٤٤

والتَّسليم قال:﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[1] ولسان الصِّدق في الآخرين هو أن يُذكر بالذِّكر الحسن.

فالنَّاظم -رحمه الله تعالى- يُقرِّب لك هذا المعنى، يقول بأنَّ العلم يُبقي لـك الذِّكـرى ويَبقى أيضًا ذُخرًا لك؛ ولهذا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال كما في صـحيح مسـلم من حديث العلاء بن عبد الرَّحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّـبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: **((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عمَلُه إِلَّا مِـنْ ثَلاثـةٍ: إِلَّا مِنْ صَدقةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ علمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))**[2] والشَّاهد منـه قـوله: **((أَوْ عِلْم يُنْتَفَعُ بِهِ))** هذا ممَّا يبقى للإنسان، ويجري عليه عملـه، وأنـتم تـرون في تأريخ هذه الأمة منذ بدئها كيف أنَّ الَّذين بقيَ ذكرهم وبقِيَت إمامتهم هـم الَّذيـن حملوا العلم، الصَّحابة رضي الله عـنهم مُقـدَّمون في هـذا وعلى رأس هـذه الأُمَّـة، والتَّابعون الَّذين جاءوا من بعدِهم عاصروا ملوكًا وأُمراء وأغنياء إلَّا أنَّه لَم يبق مـن الذِّكر إلَّا ذكرُ العُلماء وحملة العلم، الإمام أحمد -رحمـه الله- كـم الَّذيـن عاصروه وعاشوا معه في زمانه من حملة المُلْكِ والسُّلطان أو حملة الجاه والمـال ولكـن [لَـم يبق لهم ذكر][3].

قـال النَّاظم -رحمه الله-:

هُوَ العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

[1] سورة الشعراء: ٨٤

[2] رواه مسلم.

[3] [لَم يبق لهم ذكر]: الجملة غير واضحة في التَّسجيل بسبب بعض التَّقطُّعات؛ كتبتُها كي أتِمَّ بها كلام الشَّيخ حفظه الله.

[العَضْبُ] أي قاطعٌ، فهو يقول لك بأنَّ العلم إذا حصَّلته:[هُوَ الْعَضْبُ] وأيضًا [الْمُهَنَّدُ].

_ [الْعَضْبُ]: نِسبةً إلى حِدَّة القطع وشدَّته.

_ و[الْمُهنَّد]: قيل فيه أقوال، وأشهرها أنَّه منسُوب إلى الهند، بمعنى أنَّه صُنع ببلاد الهند.

وهذا ممَّا يُوصف به السَّيف، فيوصف بالمهند، ويوصف بالعضب، ويوصف بالبتَّار، ويُوصف بالصَّارم؛ فلِقُوَّة سُلطان العلم شبَّه هذا العلم بالسَّيف، فقال:

هُوَ العَضْبُ المُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو

لاحظ إلى الأوصاف الَّتي وصف بها السَّيف:[الْعَضْبُ] و [الْمُهَنَّدُ] وفي نفس الوقت:[لَيْسَ يَنْبُو] والنَّبو «نبَا، يَنْبُو، نَبْوًا» النَّبْو هو الخطأ في الإصابة، يقولون:«نبا السَّيف، ينبو، نُبوًّا» إذا لَم يُصب موقعه، فإذا لم يُصب هدفه فإنَّه يُقال فيه:«نبا السَّيف».

هنا يقول النَّاظم -رحمه الله-:[هُوَ العَضْبُ] لاحظ إلى الأوصاف [العَضْبُ] قُلنا: شدَّة القطع، و [المُهَنَّدُ] أيضًا من شدَّة القطع والحدَّة؛ ومع هذا:[لَيْسَ يَنْبُو] بمعنى أنَّه بمجرَّدِ وُقوعه على الهدف لا يُخطئه ولا يَرجعُ على صاحبه [لَيسَ يَنبو].

ثُمَّ يقُول:

تُصِيبُ بِهِ مَقاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

والمَقاتل هي مواضع القتل في الإنسان، يعني المواضع الَّتي تَقتُل الإنسان؛ وقد ذكر الفقهاء -رحمهم الله تعالى- في كتاب الحدود والقصاص هذه المواضع والخلاف

فيها، وليس هذا محلُّه؛ لكنَّ مراد النَّاظم -رحمه الله- أنْ يقول بأنَّ حامِل العلم كحامل السَّيف حيثما أراد الإصابة أصاب.

هُوَ العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو تُصِيبُ بِهِ مَقاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

لماذا؟ لأنَّ العلم سُلطان، العلم له سُلطان، فإذا جاء العلم ذهب الجهل وذهب الضَّلال، ولا يَقِف للبِدع، ولا يقفُ للجهل، ولا يقف للخُرافات، ولا يقف للانْحرافات إلَّا العلم؛ ولهذا شَبَّهه بالسَّيف، فمن كان ذكيًا فَهمًا لكن لا علم عنده فإنَّما هو بمثابة الشُّجاع المقدام الَّذي لا سيفَ له، فهو يقول لك: إن كنتَ [يقِظًا][1] فهمًا ذكيًّا فعَليك بالعلم، والعلم هو إصابة المَقتل، ولهذا لا تندثر شُبهات وحُجج أهل الباطل إلَّا بالعلم، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله- في تفسير قوله تعالى:﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[2] قالوا المرَاد بالسُّلطان هنا: العِلْم؛ وهكذا العلم مكانته عظيمةٌ جدًّا كما يقول ابن القيم -رحمه الله-:

وَالْجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ
نَصٌّ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ وَطَبِيبُ ذَاكَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي[3]

هذا الجهل داء، ومع أنَّه قاتل إلَّا أنَّ ذهاب وشفاء هذا الدَّاء هو العلم.

وهنا النَّاظم -رحمه الله- وعنده براعةٌ في النَّظم عجيبةٌ -رحمة الله عليه-، يقول لك: إذَا تحمَّلتَ العِلم فقد تحمَّلت سيفًا لا يذر ولا يُبقي.

تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

---

[1] [يَقِظًا]: الكلمة غير واضحة في التَّسجيل.
[2] سورة الرَّحمن: ٣٣
[3] نونية ابن القيِّم رحمه الله.

ثُـمَّ قـــال:

وَكَنزٌ لَا تَخَـافُ عَلَيـهِ لِصًّـا خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

يقول -رحمه الله تعالى- في وصف هذا العلم بأنَّه كنزٌ، ومع هذا فإنَّه خفيفُ الحمل، وأنتم تعرفون الكُنوز في تلك الأزمنة، زمن النَّاظم -رحمه الله- في المائة الرَّابعـة، في المائة الخَّامسة، -توفي في أربعمائة وستين تقريبًا-، كانت الكُّنوز عندهم من الذَّهـب والفضَّة، ولهذا هنا قال:[خَفِيفُ الْحَمْلِ] فالرَّجـل الَّذي يكـونُ عنـده كـنزٌ في ذاك الزَّمان يحتاج له للصَّناديق، اليوم يضع المليارات في البنوك -أو ما أشبه ذلك-؛ هـو يقول:

وَكَنزٌ لَا تَخَــافُ عَلَيْــهِ لِصًّا

أينما اتَّجهت فإنَّ اللُّصوص لن يدخلُوا إلى قلبك، يعـني اللُّصـوص الَّذيـن يسرقـون المواد أو الأمور الحسِّية، أمَّا اللُّصوص الَّذين يسرقون الأمور المعنوية فمـا أكـثرهم، وقد يَصلُون إلى هذا الكنز، وهم جنود الشُّبهات وجنود الشَّهوات، فقد يذهب العلم وقد يذهب سُلطانه بدخُولهم على الإنسان، لكن النَّاظم -رحمـه الله تعـالى- إنَّمـا أراد مَن حافظ على العلم وحافظ على منزلته.

يقُــول:

وَكَنزٌ لَا تَخَــافُ عَلَيْــهِ لِصًّا

ما يسرقه أحد، ومع هذا:

خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

هـــذا متى يُقـــال؟

إذا كان الإنسان حافظًا للعلم، أمَّا من كان علمه في كِتابه أو في كرَّاسه ودفتره فـإنَّ وجوده كعدمه؛ انظروا إلى قول أبي زيد عمرو بن أخطب رضي الله عنه وأرضاه لمَّـا حدَّث عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بـذاك الحـديث الطَّويـل -وهـو في صـحيح مسلم- قال: (فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا)[1]، والرَّحبي -رحمه الله- يقول في نظمه:

فَاحْفَـظْ فَكُلُّ حَـافِظٍ إِمَـامُ[2]

وكما قال النَّاظم الآخر -فيما ذكره أبو عمر ابن عبد البَّر في «جامع البيان»- قال:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ   وَالْحِفْظِ والإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّمِ[3]

هذه حقيقة العلم، فالنَّاظم -رحمه الله تعالى- يقول:

خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنتا

أمَّا إذا كان عُمدة طالب العلم على الكُتب وعلى القراطيس فإنَّه يخونه العلم أحـوج ما يكـون إليه، ولهذا يقول الشَّاعر الآخر:

اِسْتَوْدَعَ العِلْـمَ قِرْطَاسًا فَضَيَّعَـهُ   فَبِئْسَ مُسْتَوْدَعُ العِلْمِ القَرَاطِيسُ[4]

أبو مُحمَّد ابن حزم، وقبل أبي مُحمَّد ابن حزم، الشَّافعي -رحمه الله- يقـول فيمـا رُوِيَ عنه من الشِّعر:

عِلْـــمِي مَـــعِي حَيْثُمَـــا يَمَّمْـــتُ يَصْـــحَبُنِي

[1] قال عَمْرو بْن أَخْطَب: (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَـعِدَ الْمِنبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ثُمَّ نَزَلَ، فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَـائِنٌ فَأَعْلَمُنَـا أَحْفَظُنَا) [رواه مسلم]

[2] منظومة "بغية الباحث عن جُمل الموارث" للرحبي رحمه الله.

[3] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله، ص:578؛ وقال: (أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ فِي آدَابِ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ مِنَ النَّظْمِ مَا يُنْسَبُ إِلَى اللُّؤْلُؤِيِّ مِنَ الرَّجَزِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْسِبُهُ إِلَى الْمَأْمُونِ).

[4] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله، ص: 294، قال: (عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: سَمِعَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ رَجُلًا يُنْشِـدُ..) ثمَّ ذكـر البيت.

قَلْـــــبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بطْـــــنَ صُـــــنْدُوق

إنْ كُنْــتُ فِي الْبَيْــتِ كَانَ الْعِلْــمُ فِيــهِ مَـعِي

أَوْ كُنْــتُ فِي السُّــوقِ كَانَ الْعِلْــمُ فِي السُّــوقِ

[...][1] وذكروا في ترجمة أبي مُحمَّد ابن حزم، وأبـو مُحمَّـد ابـن حـزم معـروفٌ عـداؤه ومُعاداته لأئمَّة المذاهب الأربعـة، حـتَّى ذكـروا بأنَّـه عنْـدما كان في بـلاد الغـرب الإسلامي لَم يقم له إلَّا أبو الوليد الباجي عندما رجع من رحلتـه مـن جهـة الشَّرق؛ فالشَّاهد أنَّه حصل في زمانٍ من أزمنته أنَّهم جمعـوا كتبـه وأحرقوهـا كلَّهـا، فلمَّـا أحرقوها وقف عليها وقال أبياتًا مرتجلًا بها:

فَـــإِنْ تَحْرِقُــوا الْقِرْطَــاسَ لَا تَحْرِقُــوا الَّذِي

تَضَــمَّنَهُ الْقِرْطَــاسُ بَــلْ هُــوَ فِي صَــدْرِي

يَسِــيرُ مَــعِي حَيْــثُ اسْــتَقَلَّت رَكَائِــبِي

وَيَــنْزِلُ إِنْ أَنْــزِل وَيَسْــكُنُ فِي قَــبْرِي

دَعُــــونِي مِــــنْ إِحْــــرَاقِ رقٍّ وَكَاغِــــدٍ

وَقُولُــوا بِعِلْــمٍ كَيْ يَــرَى النَّــاسُ مَــنْ يَــدْرِي

وَإِلَّا فَعُــــــودُوا فِي الْمَكَاتِــــبِ بَــــدْأَةً

وَكَــمْ دُونَ مَــا تَبْغُــونَ للهِ مِــنْ سِــتْرِ

كَــذاكَ النَّصَــارَى يُحْرِقُــون إِذَا عَلَــتْ

أَكفُّهُــمُ الْقُــرْآنَ فِي مُــدُنِ الثَّغْــرِ

[1] انقطاع في الصَّوت.

هذا هو أبو مُحَمَّد ابن حزم -رحمه الله-، ومثلُ هذا كثير؛ وهل تعرفون أنَّ أبا زرعة الرَّازي قال لعبد الله ابن الإمام أحمد: (أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلْفَ أَلْفِ حَدِيثٍ) يعني مليون، فقد كانوا يحفظون الأسانيد وآثار الصَّحابة ويُسمُّونها أحاديث[1]، فقال له عبدالله: (وَمَا يُدْرِيك؟ فَقَالَ: ذَاكَرْتُهُ فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ)[2]، وهذا كان دأب السَّلف -رحمهم الله-: الحرص على الحفظ.

وقد ذكروا أيضًا في ترجمة أبي حامد، مُحمَّد بن مُحمَّد الغزَّالي، الفقيه الشَّافعيُّ المشهور، المُتكلِّم المتصوِّفُ أنَّه لمَّا رحل إلى طرسوس[3] -أو إلى غيرها من بلاد ما وراء النَّهر في بلاده-، وكان يكْتُب عن الأشياخ حتَّى حمَّل [...][4] بعير فخرج مُسافرًا، ووجده اللُّصوص، فسألوه عمَّا يحمل -يعني سألوه أن يعطيهم ما يحمل-، فقال: (إِنَّمَا هِي كُتب وَأَوْرَاقٌ، وَعِلْمٌ، كَتَبْتُهُ عَنِ الأَشْيَاخ، قَالُوا لَهُ: أَتَحْفَظُهُ؟ قَالَ: لَا؛ فَأَخَذُوْه)[5] أخذوه ليداووا قهر نفوسهم لأنَّهم ظنُّوا أنَّ هذا القادم مُحمَّل بالبضائع، وأخذوه ليقهروه أيضًا لأنَّك لا تحفظ هذا العلم، فلمَّا رجع في رحلته الثَّانية كان لا يكتب شيئًا إلَّا حفظه[6]؛ طبعًا أنا أذكره هنا ليس ثناءً لهؤلاء، لا لأبي مُحمَّد ابن حزم ولا لمحمَّد الغزَّالي؛ لا.

---

[1] (وَكَانُوا يَعُدُّونَ فِي ذَلِكَ: الْمُكَرَّرَ، وَالْأَثَرَ، وَفَتْوَى التَّابِعِيِّ، وَمَا فُسِّرَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ وَإِلَّا فَالْمُتُونُ الْمَرْفُوعَةُ الْقَوِيَّةُ لَا تَبْلُغُ عُشَرَ مِعْشَارِ ذَلِكَ) ["سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء:11، ص:187]

[2] "مناقب الإمام أحمد بن حنبل" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:73.

[3] إلى جرجان.

[4] كلمة غير واضحة

[5] جاء في ترجمة الغزَّالي: (...سَافَرَ إِلَى جُرْجَان إِلَى الإِمَامِ أَبِي نَصر الإِسْمَاعِيلِي، وَعَلَّقَ عَنْهُ التَّعْلِيقَةَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى طُوسٍ؛ قَالَ الإِمَامُ أَسْعَد الْميهَنِيّ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قُطعَتْ عَلَيْنَا الطَّرِيق، وَأَخذَ العَيَّارُونَ جَمِيعَ مَا مَعِي وَمَضوا، فَتبعْتُهُمْ، فَالْتَفتَ إِلَيّ مُقَدّمُهُمْ وَقَالَ: ارْجعْ وَيْحكَ وَإِلَّا هَلَكْتَ! فَقُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِالَّذِي تَرْجُو السَّلَامَةَ مِنْهُ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ تَعْلِيقَتِي فَقَطَ فَمَا هِي بِشَيْءٍ تَنْتَفعُونَ بِه؛ فَقَالَ لِي: وَمَا هِيَ تَعْلِيقَتُكَ؟ فَقُلْتُ: كُتُبٌ فِي تِلْكَ الْمخْلَاة هَاجَرْتُ لِسَمَاعِهَا وَكِتَابَتِهَا وَمَعْرِفَة عِلْمِهَا؛ فَضَحِكَ وَقَالَ: كَيْفَ تَدّعِي أَنّكَ عَرَفْتَ عِلْمَهَا وَقَدْ أَخذْنَاهَا مِنْكَ فَتَجَرَّدْتَ مِنْ مَعْرِفَتِهَا وَبَقِيتَ بِلَا عِلْمٍ؟!) ["طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي رحمه الله؛ الجزء السادس، ص:195]

[6] قال الغزَّالي رحمه الله: (فَقُلْتُ: هَذَا مُسْتَنْطقٌ أَنْطَقَهُ الله لِيُرْشِدنِي بِهِ فِي أَمْرِي، فَلَمَّا وَافَيْتُ "طُوس" أَقْبَلْتُ عَلَى الاشْتِغَالِ ثَلَاثَ سِنِينَ حَتَّى حَفِظْتُ جَمِيعَ مَا عَلَّقْتُهُ، وَصِرْتُ بِحَيْث لَوْ قَطَعَ عَلَيَّ الطَّرِيق قَاطِعٌ لَمْ أَتَجَرَّد مِنْ عِلْمِي) ["طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي رحمه الله؛ الجزء

ولو نظرنا إلى علمائنا -عُلماء الحديث- كما ذكرتُ لكم أبو زرعة كان يحفظ خمسمائة ألف حديث[1]، وجاء في ترجمة الجمَّاعيلي المقدسي مؤلِّف كتاب «العمدة الصُّغرى والكبرى» أنَّه كان حافظَ أهل بلاده، فقال رجلٌ يومًا لزوجته عند القاضي مُختصِمًا: (أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ الْجُمَّاعِيلِي) هو يُريد أن يتخلَّص منها، ظنَّ أنَّ المقدسي لا يحفظ هذا القدر من الأحاديث، قال: (أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ الْجُمَّاعِيلِي حَافِظًا لِمِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ)، فلمَّا عُرضت المسألة على القاضي تحيَّر فيها قال: «كيف نفعل في مثل هذا؟» لا جواب إلَّا أن يُسأل الجمَّاعيلي، فإن كان حافظًا لمائة ألف حديثٍ لَم يقع الطَّلاق وإلَّا وقع، فلمَّا ذهبوا إلى المقدسي -رحمه الله تعالى-، قال: (لَوْ قَالَ أَكْثَرَ لَصَدَقَ!)[2] ولَم يقع الطَّلاق[3]، -يعني يقول لهم: أنا أحفظ أكثر من مائة ألف حديث-، هذا وهو يُعتبر في طبقة المتأخِّرين؛ فلازال العلماء على هذا -أي على الحفظ- لأنَّه مهمٌّ بالنِّسبة لطالب العلم.

فالألبيري -رحمه الله تعالى- يقول هنا:

السادس، ص:195]، وقال السبكي رحمه الله: (وَقَدْ رَوَى هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَنِ الْغَزَّالِي أَيْضًا الْوَزِيرُ نظامُ الْملكِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي تَرْجَمَةِ نظامِ الْملكِ مِنْ ذَيْل السَّمْعَانِيِّ) [نفس المصدر السابق، ص:196].

[1] "تدريب الراوي" للسيوطي رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:17، بلفظ: (قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ الْحَافِظُ: كَانَ أَبُو زُرْعَةَ يَحْفَظُ سَبْعَمِائَةِ).

[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء:21، ص:449

[3] وجاء نحو هذا أيضًا عن أبي زرعة الرازي رحمه الله، بلفظ: (سُئِلَ أَبُو زُرْعَةَ عَنْ رَجُلٍ حَلَفَ بِالطَّلَاق: أَنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَحْفَظُ مائَتَيْ أَلْفِ حَدِيثٍ هَلْ حَنِثَ؟ فَقَالَ: لَا؛ ثُمَّ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: أَحْفَظُ مائَتَيْ أَلْف حَدِيث، كَمَا يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ:﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَفِي الْمُذَاكَرَة ثَلَاثُ مائَة أَلْفِ حَدِيث) قَالَ الْحَافِظُ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِيٍّ: (سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: كُنْتُ بِالرَّيِّ، وَأَنَا غُلَامٌ فِي الْبَزَّازِينَ، فَحَلَفَ رَجُلٌ بِطَلَاق امْرَأَته: أَنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَحْفَظُ مائَةَ أَلْف حَدِيث. فَذَهَبَ قَوْمٌ -أَنَا فِيهِم- إِلَى أَبِي زُرْعَةَ، فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: مَا حَمَلَهُ عَلَى الْحَلف بِالطَّلَاق؟ قِيلَ: قَدْ جَرَى الْآنَ مِنْهُ ذَلِكَ؛ فَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: لِيُمْسِكِ امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهَا لَمْ تُطَلَّقْ عَلَيْهِ؛ أَوْ كَمَا قَالَ) ذكرها:[الذَّهبي رحمه الله في "سير أعلام النبلاء" الجزء:13، ص:68-69] وأيضًا:[السيوطي رحمه الله في "تدريب الراوي"؛ الجزء الأول، ص:17]

وَكَنْزٌ لَا تَخَـافُ عَلَيْـهِ لِصًّـا

لا تخاف عليه من اللُّصوص الَّذين يتسلَّلون إلى الذَّوات والأماكن، لكن هناك لُصوص أخفياء وقد يسرقون العلم، وقد يكونون من حواسِّك -أسأل الله أن يعافيني وإيَّاك منهم- فعينك لصٌّ، ويدك لصٌّ، وبطنُك لصٌّ، وفرجك لصٌّ، كلُّ هؤلاء لُصوصٌ، وهؤلاء اللُّصوص هم الَّذين يتمكَّنون من سرقة العلم، أمَّا لُصوص الدُّنيا ولُصوص الكنوز -الذَّهب والفضَّة- فإنَّهم لا يستطيعونه.

يقُـول:

وَكَنْـزٌ لَا تَخَـافُ عَلَيـهِ لِصًّـا خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

يعني حيثما وُجدتَ فالعلم معك -كما قدَّمتُ لك-، لكنَّ هذا العلم هو العلم المحفوظ، العلم الَّذي في الصَّدر، العلم الَّذي تحمَّلته بحفظك؛ لهذا كان السَّلف -رحمهم الله- يحضُّون ويحثُّون ويُشدِّدون على قضيَّة الحِفظ والاِعتناء بها.

وَكَنْـزٌ لَا تَخَـافُ عَلَيْـهِ لِصًّا

[خَفِيفُ الْحَمْلِ] لا يُثقلك، على العكس بل الإنسان كلَّما حفظ العلم كلَّما كان نشيطًا.

خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

يقول النَّاظم -رحمه الله تعالى- بعدها:

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْـهُ وَينْقُصُ إِنْ بِـهِ كَفًّا شَدَدْتَا

كلَّما أنفقتَ من هذا العلم بجميع النَّفقات: بتعليمه، بالتَّأليف فيه، بشرحه، بتوضيحه، فإنَّك تزيد في هذا العلم؛ ومن الإنفاق للعلم العمل به، وهذا سيأتي معنا في الكلام على العَمل بالعِلم، في كلام النَّاظم -رحمه الله- لأنَّه سيقول بعد ذلك:

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْرًا … فَخَيرٌ مِنْهُ أَن لَوْ قَدْ جَهِلْتَا
وَإِن أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ … فَلَيتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا
سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ الْعَجْزِ جَهْلًا … وَتَصْغُرُ فِي العُيُونِ إِذَا كَبُرْتَا

فالنَّاظم -رحمه الله- هنا يقول:

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنفَاقِ مِنْهُ

كان بعض العلماء كالإمام أحمد وغيره يقولون: (كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ)[1]، وهذا كثيرٌ في كلام الأئمَّة -رحمهم الله-، ولهذا جاء عن سعيد بن جُبير -رضي الله عنه ورحمه- وهو أحد تلاميذ ابن عباس حبر هذه الأمة، يقول -عليه رحمة الله ومغفرته-: (لَأَنْ أَنْشُرَ عِلْمِي أَحبّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى قَبْرِي)[2]، ولهذا كانوا يحرصون على بذل العلم، ونشر العلم، وتعليم العِلم بجميع وسائل النَّشر، وهذا الحال لازال باقيًّا في هذه الأُمَّة وفي حَملة العلم ما بقيَ العلم.

ولهذا -كما يقولون عَودة على بدء أو الشَّيء بالشَّيء يُذكر- تذكَّرتُ نوعًا من الفقه في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لمَّا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، فَإِذَا لَمْ يبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا فَسُئِلُوا**

---

[1] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:709.
[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الرابع، ص:326.

فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا))[1] الشَّاهد من هذا في الكلام على البيت المتقـدِّم أنَّ هذا الحديث قال: ((**لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ**)) لمـاذا؟ لأنَّ العلم في الصُّدور؛ هذا الأصل، الكُتب عاملٌ مساعدٌ، الكتب علاقتك بها في بداية الطَّلب وفي نهايته للمراجعة فيها، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-:﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[2].

فهذا العلم يقول فيه النَّاظم -رحمه الله-:

يَزِيــدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَــاقِ مِنْــهُ

جاء عن جماعة من السَّلف -ورُوِي هذا مرفوعًا إلَّا أنَّه لا يصحُّ بحال-: (مَنْ عَمِـلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[3].

يقُـول لكَ:

يَزِيــدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَــاقِ مِنْــهُ

[وَيَنْقُصُ] هذا العلم ويبقى راكدًا أو ينقص فلا يزيد بل يذهب [إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا] فإذا أمسكتَ العلم وحجمتَ عنه أهله وطالبيه فإنَّه يذهب [...][4].

وَيَنْقُــصُ إِنْ بِــهِ كَفًّا شَدَدْتَـا

أوَّل المنظومة هو رأسها وأساسها؛ وأبياتها أقوى.

---

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صفة الفتوى"؛ [وأصله في الصَّحيحين]
[2] سورة العنكبوت: ٤٩
[3] "فتح المغيث" للسخاوي رحمه الله؛ الجزء الثالث، ص:283.
[4] كلمة غير واضحة.

النَّاظم -رحمه الله- سيذكر بعد ذلك مُقارنةً بين المال والعلم، وسنذكرها إن شاء الله، ونذكر بعض الآثار المتعلِّقة بها.

وبهذا التَّقرير وبهذا التَّعليق ينتهي الكلام على نظم الألبيري -رحمه الله تعالى-.

الدّرس الخامس

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّـلام على نبيِّنـا محمَّـد وعلى آله وصـحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا مجلـسٌ مـن المجـالس المُنعقـدة في التَّعليـق والشَّرح على منظومـة العلَّامـة الألبيري الموسومة بـ:«التائية»، والَّتي ذَكر فيها العلم وفضله والصَّوارف عنه، وهي -كما قدَّمنا- منظومةٌ رائقةٌ فائقةٌ على غيرها، وطالبُ العلـم مُحتـاج إلى التَّأمُّـل في دقيقِ مَعانيها.

وتحدَّثنا في مجلسين ماضيين[1] عن طرف من هذه المنظومة، وعن بعـضِ مـا اِحتوتـه من المعاني، وبلغنا إلى قوله -رحمه الله تعالى-:

فَلَـوْ قَـدْ ذُقْـتَ مِـنْ حَلْـوَاهُ طَعْمًـا ... لَآثَـــرْتَ التَعَلُّـــمَ وَاجتَهَـــدتَا
وَلَـمْ يَشْـغَلْكَ عَنْـهُ هَـوى مُطَـاعٌ ... وَلَا دُنْيَـــا بِزُخْرُفِهـــا فُتِنْتَـــا
وَلَا أَلْهَـــاكَ عَنْـــهُ أَنِيـــقُ رَوضٍ ... وَلَا خِـــدْرٌ بِزِينَتِهَـــا كَلِفْتَـــا

[1] لعلَّ الشَّيخ حفظه الله أراد:"في المجالس الماضية".

هذه الأبيات لا يزال النَّاظم فيها يُبيِّن أثر العلم وتأثيره على طالبه وحامله والسَّاعي فيه.

ولمَّا ذكر بعض الثِّمار المتعلِّقة بالعلم، تمَّم بأنَّ هذه الثِّمار تتجاوز إلى نفْس المتعلِّم فلا يجد راحةً ولَا أُنسًا ولَا لذَّةً ولَا نَشوةً إلَّا بالعِلم وفي العِلْم، وعلى الخصوص في ذلك العلم الَّذي يَقودُ إلَى الله -تبارك وتعالى-، في العِلم الَّذي يُعرِّف بالله -تبارك وتعالى- وبأسمائه وصفاته؛ فإنَّ أَلَذَّ العلوم وأكملها وأجلَّها وأفضلهَا ما أوصل إلى معرفة الرَّب -تبارك وتعالى-، والنَّاظم -رحمه الله تعالى- يُقرِّر لنا هذا المعنى في غاية التَّقرير، فانظر في قوله -رحمه الله تعالى-:

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا

إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

ويَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا ... وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا

وتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ... وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَادُمْتَ حَيًّا ... وَيَبْقَى ذِكْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

هُوَ العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا ... خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنفَاقِ مِنْهُ ... وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا

إِلَى أن قال -رحمهُ الله تعالى-:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا

يقول بأنَّك لو ذُقت حلاوةً للعلم، لأنَّ الأمور المعنوية لها طعمٌ ولها حلاوة ولها لذَّة، بل حلاوتها تفُوق كلَّ حلاوة، ولذَّتها تفُوق كلَّ لذَّة، وطعمها يفوق كلَّ طعم، ومن ذلكَ الإيمان، فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال كما في صحيح مسلم من حديث العبَّاس بن عبد المطَّلب: ((**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**))[1] وبيَّن هذا الطَّعم كما في الصَّحيحين من حديث أنسٍ رضي الله عنه، فقال: ((**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**))[2]، هذه الحقائق وهذه المعانِي لها طعمٌ ولها حلاوةٌ لا يجدها إلَّا من عاناها، ولهذا لمَّا رَوى الإمام مُسلم -رحمه الله تعالى- أحاديث المواقيت في الصَّلاة من طريق يحي بن أبي كثير ذكر قوله: (لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ)[3]، فالعلم لذَّته أعظمُ اللَّذات، وشهوته أعظم الشَّهوات، وأصحابه هم المسرُورون وهم الفرحون؛ وإذا ذكرنا العِلم فإنَّما نذكر العلم الَّذي يُوصل إلى معرفة الله -كما تقدَّم معنا-.

ولهذا يقول النَّضر بن شُمَيل -رحمه الله تعالى-: (لَا يَجِدُ الرَّجُلُ لَذَّةَ الْعِلْمِ حَتَّى يَجُوعَ، وَيَنْسَى جُوعَهُ)[4]، هذه المنزلة من يتطلَّبها فضلًا عن أن يُدركها: منزلةٌ ليس بعدها في العظمة مَنزلة، ولهذا النَّاظم يقول:

فَلَو قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا

أي من حلوى العلم.

لَآثَرتَ التَعَلُّمَ وَاجتَهَدْتَا

---

1 رواه مسلم.

2 متفق عليه؛ واللَّفظ لمسلم.

3 صحيح مسلم.

4 "تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال" للذهبي رحمه الله، الجزء التاسع، ص:209؛ و "تذكرة الحفاظ" للذهبي رحمه الله، الجزء الأول، ص:314.

يقول الحافظ ابن القيِّم -عليه رحمه الله-: (وَأَمَّا عُشَّاقُ الْعِلْمِ فَأَعْظَمُ شَغَفًا بِهِ وَعِشْقًا لَهُ مِنْ كُلِّ عَاشِقٍ بِمَعْشُوقِهِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ أَجْمَلُ صُورَةٍ مِنَ الْبَشَرِ)[1]، وقال أيضًا: (وَلَوْ صَوَّرُوا الْعِلْمَ صُورَةً، لَكَانَتْ أَجْمَلَ مِنْ كُلِّ صُورَةٍ)[2] أو بهذا المعنى من كلامه -رحمه الله تعالى-؛ فالعلم له لذَّة وله حلاوة -إخوتي في الله-.

قيل للشَّافعي -رحمه الله-: (كَيْفَ شَهْوَتُكَ لِلْعِلْمِ؟ قَالَ: أَسْمَعُ بِالْحَرْفِ) أي: بالكلمة (مِمَّا لَمْ أَسْمَعْهُ، فَتَوَدُّ أَعْضَائِي أَنَّ لَهَا أَسْمَاعًا تَتَنَعَّمُ بِهِ مِثْلَ مَا تَنَعَّمَت بِهِ الْأُذُنَانِ، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ حِرْصُكَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: حِرْصَ الْجَمُوعِ الْمَنُوعِ فِي بُلُوغِ لَذَّتِهِ لِلْمَالِ، فَقِيلَ لَهُ: فَكَيْفَ طَلَبُكَ لَهُ؟ قَالَ: طَلَبُ الْمَرْأَةِ الْمُضِلَّةِ وَلَدَهَا لَيسَ لَهَا غَيْرُهُ)[3]، هذه اللَّذة الَّتي كانوا يُعايشونها ويتعايشون معها ويستشعرونها ويطلبونها هي حياتهم ورُوحهم؛ ولهذا نُسب إلى الشَّافعيِّ -ونُسب إلى غيره- أنَّه قال:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لِي ... مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاقِ
وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى صَفَحَاتِهَا ... أَحْلَى مِنَ الدَّوْكَاءِ وَالْعُشَّاقِ
وَأَلَذُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُفِّهَا ... نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
وَتَمَايُلِي طَرَبًا لِحَلِّ عَوِيصَةٍ ... فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
يَا مَنْ يُحَاوِلُ بِالأَمَانِي رُتْبَتِي ... كَمْ بَيْنَ مُسْتَفلٍ وَآخَرَ رَاقِي
أَأَبِيتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيتُهُ ... نَوْمًا وَتَبْغِي بَعْدَ ذَاكَ لَحَاقِي؟[4]

---

[1] "روضة المحبين" لابن القيم رحمه الله؛ ص:108

[2] (وَلَوْ صُوِّرَ الْعِلْمُ صُورَةً لَكَانَتْ أَجْمَلَ مِنْ صُورَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ) ["روضة المحبين" لابن القيِّم رحمه الله، ص:294]

[3] "توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس" لابن حجر العسقلاني رحمه الله، ص:106

[4] قَالَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفِظَهُ الله -فِي مَوْضِعٍ آخر-: (تُنْسَبُ إِلَى الشَّافِعِيِّ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ، كَمَا فِي دِيوَانِهِ الْمَطْبُوعِ؛ وَبَعْضُهُمْ كَمَا سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْ شَيْخِنَا -الشَّيخ مُقْبِل رَحِمَهُ الله- يَنْسِبُهُ إِلَى الزَّمَخْشَرِي أَوْ إِلَى غَيْرِهِ) اهـ.

✿ هذه حقيقةٌ يغفلُ عنها كثيرٌ من النَّاس؛ وهي أنَّ الإنسان إنَّما يتحرَّك إلى الشَّيء بقدر ما يكونُ عنده من الحبِّ له، ولهذا ذكر الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في مواضع عِدَّة من كتابه العظيم الجليل «قاعدة في المحبَّة»، يقول فيه -عليه رحمه الله- بأنَّ أصل كلِّ حركات العالَم إنَّما هي المحبَّة، وأنَّ الإنسان إنَّما يتحرَّك في طلب الشَّيء بقدر محبَّته له[1]، بمعنى: أنَّ الإنسان يطلبُ الشَّيءَ على القدر الَّذي يُعايشه أو يَختلجُ في قلبه من حبه، وأنتم تعرفون أنَّ الإنسان إذا أحبَّ شيئًا فإنَّه يطلبه علَى قدر محبَّته له؛ فالعلم هو أعظمُ محبوبٍ، وخصوصًا هذا العلم الَّذي يُعرِّف بالله -عزَّ وجلَّ- كما نبَّهْنا على ذلك مرارًا.

وقد كنتُ قلتُ أبياتًا -لا أزعم حقيقتها في نفسي- وذلكَ في مجلس ختمِ صحيح الإمام البُخاري برواية أبي ذرٍّ الهروي على شيخنا العلَّامة الجليل والدَّراكة النَّبيل عبد الله بن عبد العزيز العقيل -رحمه الله تعالى-، قلتُ قصيدةً، وفي ضِمنها:

فَحِرْصًا يَا رَعَاكَ اللهُ جَهْدًا ... لِإِدْرَاكِ الْمَطَالِبِ بِارْتِحَالِ
فَمَا لِلْعِلْمِ إِنْ عَوَّضْتَ دُنْيَا ... وَمَا لِلْعِلْمِ تَبْدِيلٌ لِسَالِ
فَتَحْصِيلُ الْعُلُومِ أَلَذُّ مِمَّا ... يُنَادِمُهُ الْمُغَازِلُ فِي اللَّيَالِي
وَأَحْلَى مِنْ كُؤُوسِ الشَّهْدِ صَبًّا ... وَأَنْدَى مِنْ مُنَاوَلَةِ الزُّلَالِ
وَأَطْرَبُ لِلنُّفُوسِ مِنَ التَّغَنِّي ... وَأَشْهَى مِنْ مُعَافَسَةِ الْعِيَالِ
وَنَشْوَةَ فَارِسٍ يَحْتَزُّ رَأْسًا ... إِذَا مَا هُزَّ سَيْفٌ لِلْقِتَالِ
وَلَوْ مُلْكُ الْعِرَاقِ لَكُمْ تَأَتَّى ... لَزَالَ الْمُلْكُ فَاعْتَبِرِ الْمَخَالِ[2]

---

[1] (أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَحَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ مِن الْحُبِّ وَالإِرَادَةِ، فَهُوَ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَمَبْدَؤُهُ) ["قاعدة في المحبة" لابن تيمية رحمه الله، ص:7]

[2] من أراد الاطِّلاع على باقي الأبيات يجدها في كُتيب إلكتروني بعنوان:"منظومات الشَّيخ مصطفى مبرم"، ص:22

حقيقة هذا أنَّ العلم له لذَّة، وبقدر ما يجد طالب العلم من لذَّة العلم بقدر ما يكون عنده منَ الحرص عليه؛ ولهذا قال شيخ مشايخنا العلَّامة حافظ حكمي -رحمه الله-، في ميميته الرَّائقة:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا فَقَدْ ظَفِرْتَ وَرَبِّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
وَعَظِّمِ العِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ فِي الْقَوْلِ وَالفِعْلِ وَالآدَابِ فَالْتَزِمِ[1]

فالعلمُ عِزٌّ، والعلم لذَّةٌ، والعلم حياةٌ؛ فإذا طَلَبَ طالِبُ العلمِ العِلمَ فإنَّه ينبغي له أن يترُك كلَّ شيء وراءه.

كنتُ في مجلسٍ مع شيخنا العلَّامة ابن غديان -عليهِ رحمةُ الله ومغفرته-، وكُنَّا نقرأ عليه، وحضرتُ أنا وأحد الإخوان كلُّ واحدٍ منَّا يحمل كُتبه، وصَاحَبَنا شخصٌ لا يَحمِل كتابًا، فقال له الشَّيخ: (أَيْنَ كِتَابُكَ؟ قَالَ: أَنَا حَضَرْتُ مَعَ الإِخْوَانِ) فقال له الشَّيخ رحمة الله عليه -وهكذا أهل العلم لا يتركون أيَّ مقام يُوصلون فيه النُّصح إلَّا وفعلوا-، قال له: (يَا بُنَيّ اِجْعَلْ أَعْظَمَ مَقْصَدٍ لَكَ فِي حَيَاتِكَ هُوَ الْعِلْم، وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ تَابِعٌ لَهُ)، هذه الكلمةُ العظيمةُ منَ الشَّيخ -رحمهُ الله تعالى- ترسُم لِطالب العلم حياةً طويلةً في طلبه لِلعلم.

قال بعض الحكماء: (مَنْ خَلَا بِالْعِلْمِ لَمْ تُوحِشْهُ الْخَلْوَةُ، وَمَنْ تَسَلَّى بِالْكُتُبِ لَمْ تَفُتْهُ السَّلْوَةُ)[2]، ولهذا قيل لابن المبارك -رحمه الله-: (مَنْ تُجَالِس؟ فَقَالَ: أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنِّي أَنْظُرُ فِي كُتُبِ آثَارِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ)[3]، وقد قيل للنَّوفلي: (مَا

[1] "المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية" للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله.
[2] "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله، ص:51.
[3] "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله، ص:51.

بَلَغَ بِكَ مِنْ شَهْوَتِكَ لِلْعِلْمِ؟ قَالَ: إِذَا نَشطْتُ فَلَذَّتِي، وَإِذَا اِغْتَمَمْتُ فَسَلْوَتِي)[1] فهو متقلِّبٌ بين هذين الأَمرين.

فالشَّاهد من هذَا أنَّني كما ذكرتُ لكم قبلُ بأنَّ بعض أبياتِ هذه المنظومة - وخصوصًا في أوَّلها- فيها من العَظمة ما يحتاج إلى كثيرٍ مِن النَّظر والتَّأمُّل والتَّفكُّر فيها.

يقُول:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا

[لَآثَرْتَ] لآثرتَ على كلِّ شيءٍ، وآثرتَ علَى كلِّ محبوبٍ: طلَب العلم.

لَآثَرْتَ التَعَلُّمَ وَاجتَهَدْتَا

واِجتهدت فيه؛ وسنذكر الاِجتهاد في طلب العلم وعلوِّ الهمَّة عند قول النَّاظم -رحمه الله-:

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ

فلا نتقدَّمُه -رحمه الله-.

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا   لَآثَرْتَ التَعَلُّمَ وَاجتَهَدْتَا

لآثرت التَّعلُّم على كلِّ مرغوبٍ ومحبوبٍ، واجتهدت.

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوى مُطَاعٌ   وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

يقولُ: لو قد وصلتَ إلى هذه المرحلة من طلب العلم وتحقَّقت في نفسك وآثرت التَّعلُّم واجتهدت، فإنَّه لن:[يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوى مُطَاعٌ] يعني الهوى الَّذي تُطيعُه،

---
[1] "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله، ص:51.

وإنَّما سُمِّيَ الهوى «هوى» لأنَّ النَّفس تَهواه وتُحبُّه وتميل إليه، ولأنَّه يهْوِي بصاحبه عن المقاماتِ العالية، أو يهوي بصاحبه -عياذًا بالله- كما جاء عن طائفةٍ من السَّلف: في نارِ جهنَّم، فيهوي به أوَّلًا في مطامعه، ثُمَّ يَهوي به في نارِ جهنَّم -عياذًا بالله-.

فهو يقول لك:[لَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوى] يعني لن تشتغل عنه بهوى تُطيعه، فهذه الكلمة عامَّة في كلِّ شيءٍ تهواه، فالإنسانُ يهوَى أشياء، ويختلفُ هوى النَّاس من بلدٍ إلى بلدٍ، ومن زمانٍ إلى زمانٍ، ومن مكانٍ إلى مكانٍ؛ فمن النَّاس من زُيِّنت له الحياة الدُّنيا إجمالًا، وآخرين زُيِّنت لهم النِّساء، وآخرين زُيِّنت لهم المراكب، وهكذا، فهو يقول لك:

وَلَمْ يَشغَلْكَ عَنْهُ هَوى مُطَاعٌ

تُطيعه حتَّى تترُكَ العلم، ولهذا قال ذَاك الشَّاعر:

إِذَا كَانَ يُؤْذِيكَ حَرُّ الْمَصِيفِ ... ويُبْسُ الْخَرِيفِ وبَرْدُ الشِّتَا
وَيُلْهِيكَ حُسْنُ زَمَانِ الرَّبِيعِ ... فَأَخْذُكَ لِلْعِلْمِ قُلْ لِي: مَتَى؟![1]

فإذا كان الإنسان مُشتغلًا بما يُسمَّى بالمناظر الخلَّابة، أو بالرَّحلات المُطربة، أو بأشياء لَا قيمة لها -وإن كانت من جنسِ الْمباحات- [فمتى يكون أخذه للعلم؟][2].

ولهذا النَّاظم -رحمه الله- من بديع أقواله أنَّه ما سيذكُره في هذه الأبيات:

وَمَهْمَا اِفتَضَّ أَبْكَارَ الغَوَانِي ... فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الْحِكَمِ اِفْتَضَضْتَا

فستأتي معنا هذه الحلاوة الَّتي سيذكرها النَّاظم -رحمه الله-.

---

[1] "تأريخ دمشق" لابن عساكر رحمه الله؛ الجزء:64، ص:348؛ عن ابن فارس النحوي.

[2] من إضافتي.

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْــهُ هَـوى مُطاعٌ

هوى تهواه، [وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا] الزُّخرف هو نوع من الزِّينة يُزخرف بـه الشَّيء مـن ذهبٍ أو فِضَّة أو زُبرجد أو أي شيءٍ يُلهي؛ فهذه الدُّنيا لأنَّها دنيئةٌ نازلةٌ لَا قيمةَ لها مِن الدَّناءة، فإنَّ الله وصفها بالزُّخرف في مواضع، ووصفها بالزِّينة في مواضع أُخرى، لأنَّها لا تقُوم لها حقيقة بدون الزَّخارف والزِّينة الَّتي تُكمِّل نقصها، وكلُّها نقصٌ.

وَلَا دُنْيَـا بِزُخْرُفِهَـا فُتِنْتَـا

وما زُخرفها؟! قال الله -عزَّ وجلَّ-:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1]، ويقول ربُّنـا -جـلَّ في عُـلاه-:﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[2]، وتـأمَّلوا في قصَّـة أولئك القوم الَّذين قصَّ الله خبرهم في سـورة القَلـم، وكيـف دخلـوا في حـديقتهم وعزموا على حِرمان مَن قصدهم، وتأمَّلوا في قصة الرَّجلين اللَّذين حكى الله خبرهُما في سورة الكَّهف:﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾[3] تأمَّلوا في هذا، فإنَّ الدُّنيا معبر اِعتبار.

---

[1] سورة آل عمران: ١٤

[2] سورة يونس: ٢٤

[3] سورة الكهف: ٣٢

دُنْيَــا تُجَــدِّدُ كُلَّ يَــوْمٍ غَــدْرَهَا — وَالنَّـــاسُ مِنْهَــا فِي عَنِيــفِ صِرَاعِ
يَتَنَــازَعُونَ عَلَى رَخِيــصِ مَتَاعِهَــا — وَغَــدًا يَفُــضُّ الْمَــوْتُ كُلَّ نِــزَاعِ

فلو تلذَّذت بالعلم ما شغلتك الدُّنيا.

وَلَا دُنْيَـا بِزُخْرُفِهَـا فُتِنْتَـا

ثُمَّ أكَّد هذا فقال:

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ — وَلَا خِــدْرٌ بِزِينَتِهَـا كَلِفْتَـا

يقول:[وَلَا أَلْهَاكَ] مِن الإلهاء، كما قال -عزَّ وجلَّ-:﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[1] فصار يُلهيك.

يقول:[وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ] الشَّيء الأَنيق، الجميل، البَهيّ، الحَسَن.

[أَنِيقُ رَوْضٍ] والرَّوض هنا المقصُود بِها: «الرَّوضة» الَّتي يكون فيها الأشجار والأنهار -وما أشبه ذلك-، تُسمَّى:«روضة».

وَلَا أَلْهَـاكَ عَنْــهُ أَنِيـقُ رَوْضٍ

[وَلَا خِدْرٌ] أرادَ ولا صاحبة خِدرٍ، حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه؛ [وَلَا خِدْرٌ بِزِينَتِهَا] وفي نُسخة أخرى:[بِرَبْرَبِهِ كَلِفْتَا] يعني أنَّك لن تشتغل بصاحبةِ الخِدر مَهما تزيَّنت، مهما تطيَّبت، مهما عمِلت؛ إذا كان المقام مَقامُ علم.

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ — وَلَا خِــدْرٌ بِزِنَتِهَـا كَلِفْتَا

[1] سورة التَّكاثر .

ما سيذكُره بعد ذلك يحتاج إلى كثيرٍ منَ التَّأمُّل في الأبيات.

وأولَّ المنظومة هو أساسها وأصلها، والأبيات اللاَّحقة هي عبارة عن شرحٍ أو توضيحٍ لها، لأنَّه قال بعد ذلك:

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ ... وَلَا خِدْرٌ بِزِنَتِهَا كَلِفْتَا
فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا

هذا إن شاء الله تعالى نستكمل الكَلَام عليه في الدَّرس القادم.

الدَّرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا مجلسٌ من المجالس المُنعقدة في التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري -عليه رحمة الله ومغفرته-.

وقد وصلنا إلَى قولِ النَّاظم -رحمهُ الله-:

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا

الإنسان في الدُّنيا له حياتان:

_ حياةٌ دُنيوية، مِن الدُّنو وهو النُّزول أو الدَّناءة وهي الخِسَّة.

_ وحياةٌ عُلويَّة، وهي الحياة الإيمانيَة.

فأمَّا الحياةُ الأولى: فإنَّه يَشْرَكه فيها غيره مِنْ بَهائِمِ الأنْعام وسائِر ما تدُبُّ فيه حياة الحركة، فإنَّ هؤلاء كلّهم يقتاتون، وهذه الحياة ما جاءت في القُرآن إلَّا بالتَّعبير عنها بالحياة الدُّنيا، كقول الرَّب -تبارك وتعالى-:﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ

﴿وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[1]، وحيثما جاءت الحياة وأُريد بها هذا النَّوع من الحياة وهو مجرَّد المأكل والمشرب والمطعم فإنَّما تُقيَّد بالدُّنيا:﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[2] وهذا هو النَّوع الأوَّل من الحياتين؛ -الإنسان له حياتان، ينبغي أن تعْلم هذا-.

والحياة الثَّانية: هي الحياة العُلوية، حياةُ الإيمان والطَّاعة والاستقامة، ولهذا الرَّبُّ -تبارك وتعالى- قال في كتابه الكريم:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3] هنا قال:﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أَليْسُوا أحياء يمشون على الأَرض، يأكُلون، يشربون، يتمتَّعون؟! بلَى؛ لكنَّ الله أراد أنْ يُنبِّهُهم إلى أنَّ الحياة الحقيقية الَّتي ينبغي أن تَسمُو إليها هِمَمُهم وأن يتطلَّبُوها إنَّما هي الحياةُ معهُ، الحياة الَّتي لا تكون إلَّا بالاِستجابة لهُ، ولذلك هنا قال:﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[4]، ولهذا الله -جلَّ جلالُه- يقول في كتابه الكريم:﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[5] يُنذر من كان حيًّا معَ أنَّ الجميع يشتركون في هذه الحياة، لكنْ من كان حيًّا حياةً فيها إقبال على الله، ولهذا قال -جلَّ وعلا- في الآية الأُخرى:﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[6] والنَّاس كلُّهم لهم قلُوب؛ لكنْ لهُ قلبٌ يعرفُ الحقَّ ويُقبلُ عليه ويستقبله، ولهذا ربُّنا -تبارك وتعالى- أيضًا قال في كتابه الكريم:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[7]

---

[1] سورة الحديد: ٢٠

[2] سورة الحديد: ٢٠

[3] سورة الأنفال: ٢٤

[4] سورة الأنفال: ٢٤

[5] سورة يس: ٧٠

[6] سورة ق: ٣٧

[7] سورة النحل: ٩٧

أليس حيًّا؟ أليس يأكل؟ أليس يشربُ؟ أليس يتمتَّعُ كما يتمتَّع النَّاس؟ هذه ليستْ حياةً حقيقية، الحياةُ الحقيقيَّة قال: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾، ولهذا قال -جلَّ وعلا-: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾[1] ليس الميِّت هاهنا من دُفن تحت الثَّرى، وإنَّما الميِّت هنا من دُفن قلبُه وغُطيَ وقُبِر قلبه بالشَّهوات، وهنا أيضًا يقول ربُّنا -تبارك وتعالَى- مُبيِّنًا رُوح هذه الحياة الحقيقية وأنَّه القُرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾[2] فكما أنَّ روح الحياة الدُّنيا المطاعِم والمشَارب والمآكل، فإنَّ رُوح الحياة العُلوية الحياةُ الَّتي فيها تعلُّقٌ بالله، ومعرفةٌ بالله، وحياةٌ مع الله، وقُوَّةٌ مع الله إنَّما رُوحها القرآن، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ فروح القلب الحقيقي هو «القرآن» كلام الله -جلَّ وعلا-، ولهذا نبيُّنا صلَّى الله عليهِ وسلَّم يقول: **((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ: مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))**[3] -خرَّجه البخاري-، لاحظ أنَّه قال: **((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ))** لأنَّ هذا هُو روح الحياة الحقيقية، روح الحياة العلوية، **((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ))** ما مَثله؟ **((مَثَل الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))**، هذا هُو المثل الَّذي ضربه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم -وهكذا جاء في أحاديث أُخرى تُناسبه-، النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا الحديث يضربُ لنا هذَا المثل، فمن أَعرض عن ذِكر الله فهو ميِّت وإنْ ملَك الأرض بأَسرها، وإن مَلك الدُّنيا بأَسرها، وإن كان أثرى الأثرياء ممَّن يُشار إليه بالبنان فإنَّه ميِّتٌ في حقيقة الأَمر، ولهذا قال الله -جلَّ وعلا- عن الكفَّار، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾[4]، فحقيقة من أعرض عنِ الله في هذه الدُّنيا أنَّه ميِّت، ولهذا قال شيخ

---

[1] سورة الأنعام: ١٢٢

[2] سورة الشورى: ٥٢

[3] متفق عليه؛ من طريق أبي موسى الأشعري رضي الله عنه [واللفظ للبُخاري].

[4] سورة محمَّد: ١٢

الإسلام -رحمه الله تعالى-: (الْمَحْبُوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ)[1]، هذا مضمونُ ما أراد أن يُنبِّهك إليه النَّاظم -رحمهُ الله-.

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِل فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ[2]

فهنا يقول:[فَقُوتُ الرُّوح] هل قوتُ الرُّوح الفواكهُ والخضرواتُ وأنواع المأْدُبات وأصنافُ المأكولات؟ لا؛ ليس هذا حياة الرُّوح.

يقول:[فَقُوتُ الرُّوح] بلغ -رحمه الله- حتَّى قال:[أَرْوَاحُ الْمَعَانِي] يعني ليستْ المعاني فحسب الَّتي هي وجدان الإنسان، حياتُه، معرفتُه بربِّه، لأنَّ الرُّوح لا تقوى إلَّا بمعرفة الله، فقُوَّتُها وحياتُها وأُنسُها لا يكون إلَّا بالله -جلَّ وعلا-.

فيقول:

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي

هذا هو قوتُ الرُّوح: علمكَ بالقرآن، علمُك بالسُّنة، تعلُّمك للعلم؛ لأنَّه قد بيَّن لك فيما سبق ممَّا شرحنا:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا لَآثَرْتَ التَعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

ولعلَّكم تذكرون قول النَّضر بن شُمَيل لمَّا قال: (لَا يَجِدُ الرَّجُلُ لَذَّةَ الْعِلْمِ حَتَّى يَجُوعَ، وَيَنْسَى جُوعَهُ)[3].

---

[1] قال ابن القيِّم رحمه الله: (قَالَ لِي مَرَّةً -أي شيخ الإسلام ابن تيمية-: الْمَحْبُوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ، وَالْمَأْسُورُ مَنْ أَسَرَهُ هَوَاهُ) ["الوابل الصيب"، ص:109.

[2] نونية البستي رحمه الله.

[3] "تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال" للذهبي رحمه الله، الجزء التاسع، ص:209؛ و "تذكرة الحفاظ" للذهبي رحمه الله، الجزء الأول، ص:314.

فهنا يقول:[فَقُوتُ الرُّوحِ] الَّذي تقتاتهُ الرُّوح؛ الرُّوح لها غداءٌ، لها حياة، ما غداؤُها؟ ما حياتُها؟ ما طُمئنينتها؟ هـذا الكتـاب وهـذه السُّـنة وهـذا العلـم ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1].

[أَرْوَاحُ الْمَعَانِي] يوم أنْ تصِل إلى قلبكَ الفائِدة وتنزِل على قلبكَ كما يـنزلُ الغيـثُ على الأرض يهتزُّ قلبك ويُنبِتُ عُشبها وكَلَأَها ويتفجَّر منهُ فيه أَنهارها، كما أنَّ هـذا القطر الَّذي ينزِل من السَّماء على الأرض من جِهة الحسِّ تهتزُّ له وتربو وتُنبـت مـن كلِّ زوجٍ بهيجٍ، كذلك قطراتُ العلم الَّتي تُرسـلُها إلى قلبـك، فوائِـدُ العلـم تُحييـه، تُنعشه، تحرِّكه، تهزُّه، تُنبتُ فيه الفضِائل، تُنبتُ فيه الأَخلاق، تُنبتُ فيـه التَّواضـع، فهذه حقيقة القُوت الَّتي تحتاجها الرُّوح.

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِل فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِالنَّفْـسِ لَا بِالْجِسْـمِ إِنْسَانُ[2]

ولهذا النَّاظم هنا يقولُ -وهذا من بدائِع هذا النَّظم وهذه الأبيات-:

وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا

قد يستغني الإنسان عن الطَّعام شهرًا أو يزيد -يستغني عن الطَّعام ولا يستغني عن الماء طبعًا-، يستغني عن الطَّعام ولا يَحصل لهُ شيءٌ، بل بعضهم يَـرى أَنَّ هـذا مـن أَسباب الصِّحة كما فعل ذلك الشَّيخ العلَّامة الأَلباني -رحمةُ الله عليه- أربعين يومًا ظلَّ يشربُ ماء دون أن يأكل طعامًا، فقال: (اِسْتَفَدْتُ فَائِدَتَيْنِ:

_ الأُولَى: اِسْتِطَاعَةُ الإِنْسَانِ تَحَمُّل الجُوعِ تِلْكَ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ.

---

[1] سورة الرَّعد: ٢٨

[2] نونية البستي رحمه الله.

ـ وَالْأُخْرَى: أَنَّ الْجُوعَ يُفِيدُ فِي شِفَاءِ الْأَمْرَاضِ الْاِمْتِلَائِيَّةِ؛ كَمَا قَالَ اِبْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ يُفِيدُ فِي غَيْرِهَا أَيْضًا)[1].

فالنَّاظم -رحمه الله تعالى- يقول:

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا

ما الحياةُ بهذه المطاعِم وهذهِ المشارِب وهذه اللَّذائِذ، فإِنَّه يُشاركُك فيها كلُّ أحدٍ، كما ذكرنا قولَ الرَّبِّ -جلَّ وعلا-:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[2] والمسلم ليس أَكلهُ كما تأْكل الأَنعام، ولِذلك لهُ نيَّة في مطعمه، ومشربه، وملبسه، ونوْمه.

ثُمَّ إنَّ النَّاظم -رحمه الله- انتقل بعد ذلك إلى بيتٍ آخر، فقال:

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

يقولُ: بعد ما ذكرتُ لكَ من فوائد العلم وثمراته وأنَّه:

العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

---

[1] ذكر الألباني رحمه الله -تجربته هذه- في كتابه "السِّلسلة الضَّعيفة"؛ قال رحمه الله: (وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَقُولُ: لَقَدْ جَوَّعَتُ نَفْسِي فِي أَوَاخِرِ سَنَةَ (1379) أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُتَتَابِعًا، لَمْ أَذُقْ فِي أَثْنَائِهَا طَعَامًا قَطُّ، وَلَمْ يَدْخَلْ جَوْفِي إِلَّا الْمَاءُ! وَذَلِكَ طَلَبًا لِلشِّفَاءِ مِنْ بَعْضِ الْأَدْوَاءِ، فَعُوفِيتُ مِنْ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ، وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ تَدَاوَيْتُ عِنْدَ بَعْضِ الْأَطِبَّاءِ نَحْوَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ دُونَ فَائِدَةٍ ظَاهِرَةٍ؛ وَقَدْ خَرَجْتُ مِنَ التَّجْوِيعِ الْمَذْكُورِ بِفَائِدَتَيْنِ مَلْمُوسَتَيْنِ:

ـ الْأُولَى: اسْتِطَاعَةُ الْإِنْسَانِ تَحَمُّلَ الْجُوعِ تِلْكَ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ، خِلَافًا لِظَنِّ الْكَثِيرِينَ مِنَ النَّاسِ.

ـ وَالْأُخْرَى: أَنَّ الْجُوعَ يُفِيدُ فِي شِفَاءِ الْأَمْرَاضِ الْامْتِلَائِيَّةِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ يُفِيدُ فِي غَيْرِهَا أَيْضًا، كَمَا جَرَّبَ كَثِيرُونَ، وَلَكِنَّهُ لَا يُفِيدُ فِي جَمِيعِ الْأَمْرَاضِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَجْسَامِ، خِلَافًا لِمَا يُسْتَفَادُ مِنْ كِتَابِ "التَّطْبِيبِ بِالصَّوْمِ" لِأَحَدِ الْكُتَّابِ الْأُورُبِّيِّينَ؛ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ) ["السلسلة الضعيفة" الجزء الأول، ص:419-420]

[2] سورة محمَّد: ١٢

وأنَّه:[كَنزٌ لَا تَخَافُ عَلَيهِ لِصًّا].

وأنَّه:[قُوتُ الرُّوحِ] إلى آخره؛ يقولُ: إنْ لَم تَنفعك هذه الموعظة فتصلُ بك إلى المواظَبة عليه فماذا عسى أن ينفعك؟!

فقال -رحمه الله-:[فَوَاظِبْهُ] يعني واظب عليه، اِجتهد في الحصول عليه؛ و«المواظبة» معناها: الملازمة، بمعنى أنَّك تُلازم العِلم، لا مُجرَّد إعطاء العلم فُضول الوقت! بل لابُدَّ في هذا العلم من إعطاء رأْس المال في الوقت وهي المواظبة.

وأَنتم تعلمون في كثير من سير أَهل العلم وأَئمَّته كيف كان حَالهم مع هذا العلم، أَليس الشَّافعي -رحمه الله تعالى- يقول: (أَعْطِ الْعِلْمَ كُلَّك، يُعْطِيكَ بَعْضَهُ)[1] يعني كُن للعلم بكُلِّ حواسك ومشاعرك وجُهدك وجِهادك، فإذا أَعطيتَ العلم كُلَّك فإنَّ العلم سيُعطيك بعضه، وهذه قضيةٌ معروفةٌ، أَمَّا أنَّنا نُعطي العِلم فُضول أوقاتنا وهي الأوقاتُ الَّتي نجلسها أَمام الشَّبكات أَو أَمام شاشات الأَجهزة وما أَشبه ذلك فإنَّ هذا لا يُحصِّل شيئًا -إلَّا شيئًا يسيرًا إن حصَّله-، لكن المواظبة على العلم والمحافظة عليه إذا نظرنا إلى أبي هُريرة رضي الله عنه وأَرضاه لمَّا قال: -كُنتُ- (أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي)[2] هذه مواظبةٌ، مُحافظةٌ؛ ليس فقط أن تنظر إلى العلمِ مِن طرفٍ خفيٍّ إن جاءت الفائِدة وإلَّا فلتذهب حيث شاءت، هذا أَبو هريرة رضي الله عنهُ -كما ذكرتُ لك-، وكثيرٌ من الأَئمَّة -رحمهم الله وغفر لهم- كان يذكُر من حالهِ في هذا العِلم ما يعجزُ عنهُ جُموعٌ من الرِّجال في

---

[1] جاء في كتاب " الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي رحمه الله، الجزء الثاني، ص: 205، و" تذكرة السامع والمتكلم" لابن جماعة رحمه الله، ص:88، و " محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله، ص:72، و "تأريخ بغداد" للخطيب البغدادي رحمه الله، الجزء:16، ص:367، عن غير الشافعي رحمه الله؛ بلفظ: (الْعِلْمُ شَيْءٌ لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ حَتَّى تُعْطِيَهُ كُلَّكَ).

[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ، وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ، وَيَقُولُونَ: مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ؟ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَحْضُرُ حِينَ يَغِيبُونَ وَأَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا: ((لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ ثُمَّ يَجْمَعَهُ إِلَى صَدْرِهِ فَيَنْسَى مِنْ مَقَالَتِي شَيْئًا أَبَدًا)) فَبَسَطْتُ نَمِرَةً لَيْسَ عَلَيَّ ثَوْبٌ غَيْرُهَا حَتَّى قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَتِهِ تِلْكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَاللَّهِ لَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ:﴿ الرَّحِيمُ﴾ [متفق عليه، واللفظ للبخاري]

هذه الأَعصار من جهة الحفظ والتَّنقير والطَّلب والرِّحلة وما أَشبه ذلك، وكانوا يُسأَلون: (كَيْفَ حَصَّلْتَ هَذَا الْعِلْمَ؟) فيقولون: (بِبُكُورٍ كَبُكُورِ الْغُرَابِ)[1] يعني يذكرون الحرص وما يُؤصِّل إليهم هذا العلم شيء يعجَب منهُ من قرأ في تراجمهم.

وكثيرٌ من أَهل العلم كان فيهم من الحرص والنَّهمة ما لا يعلمه إلَّا الله، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يقول: ((مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا))[2]، وهذه الحقيقة لابُدَّ من معرفتها، فإنَّ النَّاظم -رحمه الله تعالى- يقول:[فَوَاظِبهُ] المواظبة، أمَّا أنَّك تطلُبُ العلم شهرًا وتتركه شهرين وتتركُه سنةً ثمَّ تأتي بعد ذلك وترجع من جديد! لا؛ لابُدَّ منَ المواظبة والاستمرار، وهذه المواظبة هي حقيقة العلم هي الَّتي تُنتج العلم ولهذا قالوا: (مَنْ ثَبَتَ نَبَتَ)، وقالوا: (مَنْ كَانَتْ بِدَايَتُهُ مُحْرِقَة، كَانَتْ نِهَايَتُهُ مُشْرِقَة)، ولهذا قال النَّاظم -رحمه الله-:[وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ] أي اجتهد اجتهادًا بالغًا، أعْطِ العلم كُلَّ ما تستطيع، لا أَنَّك تُعطيه الأَشياء الَّتي فضلتْ عليكَ.

هذه حقيقةٌ -إخواني في الله- لابُدَّ أن ننظر فيها في نفوسنا، لابدَّ أن نتأمل؛ فالنَّاظم -رحمه الله- يقول:

فَواظِبهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

هذا الحرص على العلم والمواظبة والجدّ والاجتهاد كان السَّلفُ -رحمهم الله تعالى- في غايةٍ منها، ولهذا يحي بن أَبي كثير -رحمه الله- لمَّا رَوى أحاديث المواقيت في صحيح مُسلم، قال: (لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ)[3].

---

[1] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله، ص:429؛ بلفظ: (قِيلَ لِبزرجمهَرَ: بِمَ أَدْرَكْتَ مَا أَدْرَكْتَ مِنَ الْعِلْمِ؟ قَالَ: بِبُكُورٍ كَبُكُورِ الْغُرَابِ، وَصَبْرٍ كَصَبْرِ الْحِمَارِ، وَحِرْصٍ كَحِرْصِ الْخِنْزِيرِ).

[2] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

[3] صحيح مسلم.

هذا الشَّعبي عامر بن شراحيل -رضي الله عنه ورحمه- يقولُ لمَّا سُئل: (مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْعِلْم كُلَّه؟ قال: بِنَفْيِ الاِعْتِمَادِ) -يعني ما أعتمد على أحدٍ- (وَالسَّيْرِ فِي الْبِلَادِ، وَصَبْرٍ كَصَبْرِ الْجَمَادِ، وَبُكُورٍ كَبُكُورِ الْغُرَابِ)[1]، وهكذا كان السَّلف -رحمهم الله-، ولهذا الإمام الشَّافعي -رحمه الله- يقول: (حقّ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الِاسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ)[2] وهذه الحقائق الَّتي ينبغي أن نتعلَّمها، وأن ننظر في كلام السَّلف -رحمهم الله-.

ولهذا من الحِرص أنَّ الشَّعبي -رحمه الله- يقول: (إِذَا سَمِعْتَ شَيْئًا فَاكْتُبْهُ وَلَوْ فِي الْحَائِطِ)[3] اكتبه لا تتركه يذهب ولو على الجدار، لأنَّه يذهب وينقضي عنكَ، ولهذا كانوا يجلسون اللَّيالي الطِّوال يقرؤُون كُتب الحديث وكُتب السُّنة ويتداولونها فيما بينهم.

النَّاظم -رحمه الله- يقُول:

فَواظِبهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

من الَّذي يُعطي العلم؟ كيفَ يُنال العلم؟ كيفَ يُحصَّل العلم؟ إنَّما الله -جلَّ وعلا- هو الَّذي يُعطيه من يشاء من عباده، ولهذا قال لنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[4]، وقال عن

[1] "تذكرة الحفاظ" للذهبي رحمه الله، الجزء الأول، ص:81 بهذا اللفظ.
وجاء أيضًا في "تأريخ دمشق" لابن عساكر رحمه الله، الجزء:25، ص:355، بلفظ: (قِيلَ للشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ كُلُّ هَذَا الْعِلْمِ؟ قَالَ: بِنَفْيِ الاغْتِمَامِ، وَالسَّيْرِ فِي الْبِلَادِ، وَصَبْرٍ كَصَبْرِ الْحِمَارِ، وَبُكُورٍ كَبُكُورِ الْغُرَابِ).
[2] "الرسالة" للشافعي رحمه الله، ص:19.
[3] "تقييد العلم" للخطيب البغدادي رحمه الله، ص:128؛ "كتاب العلم" لأبي خثيمة رحمه الله، ص:58؛ و"العلل ومعرفة الرجال" للإمام أحمد رحمه الله، الجزء الأول، ص:216.
[4] سورة النساء: ١١٣

آدم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1]، وقال عن الخضر: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2]، وقال في داود وأهله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة؛ فمن اعتقَد أنَّه يُحصِّل العلم بجُهدِه أو باجتهاده أو بسهره أو بحِرصه في معزلٍ عن الاعتماد على الله وطلبه فإنَّ أوَّل ما سيجني عليهِ اجتهاده.

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اِجْتِهَادُهُ[4]

فلابدَّ أنْ تعلم أنَّ ما عندك من العلم إنَّما آتاك الله إيَّاه ولو شاء لسلبهُ منك، وأَخذه منك، ولم يبقَ معك منه شيء.

فَإِنْ أَعْطَاكَـــهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

أنتَ بذلتَ الأسباب الَّتي تُوصلك إلى العلم، أخذت بالأسباب منَ السَّهر والاِجتهاد والحفظ والتَّنقيب والتَّنقير والحِرص، فأعطاكهُ الله اِنتفعت، فإذا اِنتفعتَ بهذا العلم فإنَّ هذا هو العلم النَّافع [...][5]

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾[6].

النَّاظم -رحمه الله تعالى- يقول:

فَإِنْ أَعْطَاكَـــهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

---

1 سورة البقرة: ٣١

2 سورة الكهف: ٦٥

3 سورة الأنبياء: ٨٠

4 تُنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

5 اِنقطاع في الصَّوت.

6 سورة الأعراف: ١٧٥

لاحِظ هنا، النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم كان من دُعائه: ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**))[1] فكان النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يتعوَّذ من العلم الَّذي لا ينفع.

كما قلتُ لك العلم الَّذي لا ينفعُ لهُ جهتان:

_ الجهة الأولى: أن يكون علمًا لا ينفع فِي حقيقته، وهو العلمُ المذمُوم، كعِلم السِّحر والنُّجوم وما أَشبه ذلك.

_ [الجهة الثَّانِيَة]:[2] علم هو نافعٌ في حقيقته وذاته، فإنَّه نافعٌ؛ إلَّا أنَّ صاحبهُ لا ينتفع به.

فلابدَّ أن يجتمع هذان الأمران؛ يجتمعان بأن يكون العلم نافعًا وبأن ينتفع به صاحبه، لأنَّه قد يكون نافعًا لكنَّ صاحبه لا ينتفع به، ولهذا النَّاظم هنا يقول:

فَإِنْ أَعْطَاكَـــهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

نأْخذ بيتًا ونختِم بــه:

وَإِن أُعْطِيتَ فِيهِ طُولَ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا

لا؛ الأحسن أن نُأخِّرهُ لأَنَّ له أبياتًا مُتعلّقة به.

وأنبِّه هُنا أنَّه ربَّما يكونُ في أَوَّل هذه المنظُومة نوعُ طولٍ منَ الشَّرح لأنَّنا مُحتاجون لما في أوَّلها، والأَبيات الَّتي في آخرها ربَّما لا يستغرقُ البيتُ الدَّقيقة أو أكثر بقليل، بسببِ أنَّها ترجع إلى الأَبيات المتقدِّمة، فإنَّ النَّاظم -رحمه الله تعالى- شحن أوَّلها شحنًا عجيبًا بالفوائد والنَّصائح والمواعظ، جزاه الله خيرًا، ونفعنا الله وإيَّاكم بالعلم، وجعلنا وإيَّاكم ممَّن يستمعُ القول فيتَّبع أحسنه فهو وليُّ ذلك والقادر عليه.

---

1 رواه مسلم؛ من طريق زيد بن أرقم رضيَ الله عنه.

2 [الجهة الثَّانِيَة]: من إضافتي.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدَّرس الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّـلام على نبيِّنـا مُحمَّـد وعلى آله وصـحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا مجلسٌ من المجالس المُنعقدة في التَّعليق والشَّرح على نظم الألبيري -رحمه الله تعالى-، وقد أخذنا طرفًا من هذه الأبيات العظيمة الَّتي ذكرها المصنِّف -رحمهُ الله- وقلنا بأنَّ بعضها يحتاج إلَى كلامٍ كثيرٍ وبعضها قد يحتاج إلى شيء من التَّعليق، وكان في آخر ما قرأنا من هذه المنظومة:

فَقُوتُ الـرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا
فَوَاظِبْهُ وَخُـذْ بِالْجِدِّ فِيــهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَـــهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

أخذنا إلَى هُنا؛ ثُمَّ قـــال:[وَإِنْ أُعْطِيتَ] وفي نُسخةٍ:

وَإِنْ أُوتِيتَ فِيــهِ طُولَ بَاعٍ ... وَقَـالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَـدْ عَلِمْتَا

وفي نُسخةٍ:[إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا].

فَلَا تَأْمَنْ سُؤَالَ اللهِ عَنْهُ ... بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ، فَهَلْ عَمِلْتَا؟

هنا النَّاظم -رحمه الله تعالى- يتوجَّه إلى من كنَّـاه بـأبي بكـر فيقـول له: إذَا بلغتَ في العلم شأْوًا ونظر النَّاس إلى طُولك وطول باعِك في العلم فرأوك في الأعالي وأشَاروا إِليك بالبنان وصرتَ تُعرف في المشارق والمغـارب ورأَسـتَ النَّـاس فصِرت

مرجعًا لهم فإِنَّك والحالة هذه لم تنتهِ مُهمَّتك في هذه الحياة الدُّنيا بل ما اِزدادت مُهمَّتك إلَّا تعقيدًا، فإِنَّ الواجب عليك أنْ تَعرف حقَّ العلم عليكَ، ومن أَعظم حُقوق العلم -بل هُو أَعظمها-: العملُ به، لأنَّه لا نجاة للعالِم فضلًا عن غيره، لا نجاة لأهل العلم كلِّهم فيما حملوه من العلم -قليلًا أو كثيرًا- وما بلغهُم من الحجَّة إلَّا أَن يكون لهم جوابٌ عند الله عن هذا العلم ماذا عملوا به.

وهذه هي الثَّمرة الَّتي يُراد لَها العلم، فإنَّما ثمرةُ العلم العمل، وقد عَدَّ الهيثمي في «الزَّواجر عن اِقتراف الكبائر» عدَّ عدم العمل بالعِلم من الكبائر[1]؛ وفي نظم «الزُّبد» المشهور عند الشَّافعية:

فَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ ... مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عُبَّادِ الْوَثَنْ[2]

وقد جاء في السُّنن من حديث أبي بَرزة ومن حديث ابن مسعود[3]، أنَّ النَّبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم قال: **((لَاتَزُولُ قَدمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ، وَعَنْ ماله مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ))**[4]، والنَّاظم يُشير إلَى هذا:

بِتَوْبِيخٍ: عَلِمتَ، فَهَل عَمِلْتَا؟

فلا تأْمن سُؤال الله عنهُ وإِن كُنت من أهل العلم الأَكابر الَّذين بلغُوا في العلم مراتِب ربَّما قلَّ مَن يبلُغها، فإِنَّك مسؤولٌ عن هذا العلم بين يدَي الله -جلَّ وعلا-، ولهذا الرَّب -تبارك وتعالَى- قال في كتابه الكريم:﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

---

[1] "الزواجر عن اقتراف الكبائر" لابن حجر الهيثمي رحمه الله، الجزء الأول، ص:97، قال: (الْكَبِيرَةُ الْخَامِسَة وَالأَرْبَعُون: عَدَمُ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ).

[2] "صَفوة الزُّبد" لابن رسلان الرملي رحمه الله، (ت844)

[3] من طريق ابن مسعود رضيَ الله عنه بلفظ: (لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي"]

[4] قال الألباني رحمه الله في "اقتضاء العلم": (إسناده صحيح) اهـ؛ من طريق أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] هذا في حقِّ اليهود، وقال -جلَّ وعلا- في كتابه الكريم:﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، وقد جاء في الصَّحيحين من حديث أُسامة بن زيد -حِبِّ رسول الله وابن حبِّه-، أنَّه قال عليهِ الصَّلاة والسَّلام: ((**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**))[3] وهذه منزلة قبيحة لمن أَمْكنه العمل بالعلم ولم يعمل به.

والعلَّامة حافظ حكمي -رحمه الله تعالى- يقول في ميميَّته المشهورة:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا ... فَقَدْ ظَفِرْتَ وَرَبِّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
وَعَظِّمِ العِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ ... فِي الْقَوْلِ وَالفِعْلِ وَالآدَابِ فَالْتَزِمِ[4]

أبو الدَّرداء رضي الله عنه يقول: (وَيْلٌ لِلَّذِي لَا يَعْلَمُ مَرَّةً، وَوَيْلٌ لِلَّذِي يَعْلَمُ وَلَا يَعْمَلُ سَبْعَ مَرَّاتٍ)[5] كما ذكر ذلك الذَّهبيّ عنه في «سير أعلام النبلاء».

والسَّلف كانُوا يُعجبهم التَّواضع وهضم النَّفس، الشَّعبي -رحمه الله- عامِرُ بن شَرَاحيل الإِمام المعروف، يقول: (إِنَّا لَسْنَا بِالْفُقَهَاءِ، وَلَكِنَّا سَمِعْنَا الْحَدِيثَ فَرَوَيْنَاهُ،

---

[1] سورة البقرة: ٤٤
[2] سورة الصَّف: ٣-٢
[3] متفق عليه، واللفظ لمسلم.
[4] "المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية" للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله.
[5] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الثاني، ص:347.

وَلَكِنَّ الْفُقَهَاءَ مَنْ إِذَا عَلِمَ عَمِلَ)[1]، ولهذا ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- في «إعلام الموقِّعين» يقولُ بأنَّ الإجماع مُنعقدٌ على أنَّ الفقيه لا يُسمَّى عالِمًا حتَّى يعمل بعلمه، ولهذا قال الحسن البصري: (كَانَ الرَّجُلُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يرَى ذَلِكَ فِي تَخَشُّعِهِ وَزُهْدِهِ وَلِسَانِهِ وَبَصَرِهِ)[2]، ومثلُ هذا النَّفَس كثيرٌ في كلام الأئمَّة -رحمهم الله تعالى-، ولهذا صحَّ عند طائفة من أهل العلم قولهُ عليه الصَّلاة والسَّلام: **((مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ، كَمَثَلِ السِّراجِ؛ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيُحْرِقُ نَفْسَهُ))**[3] والحديث ذكره العلَّامة الألباني -عليه رحمة الله- في «السِّلسلة الصَّحيحة»[4].

والشَّاهد من هذا كلِّه أنَّ طالب العلم يحرِص على العمل، وقد كان السَّلف يقولون: (كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ)[5]، وجاء عن عليّ رضي الله عنه وعن ابن المنكدر أنَّه قال: (هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَل)[6]، ولهذا في وصايا عليٍّ رضي الله عنه لكُمَيل بن زياد أنَّه قال: (الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ)[7] أراد أنَّ العلم يُنمِّيه العمل ويُرسِّخه، لأنَّ العمل هو ثمرة العِلم، ولهذا جاء مرفوعًا -كما ذكرنا من قبل- وإن كان الصَّحيح فيه أنَّه لم يصح مرفوعًا وإنَّما هو في بعض الآثار: (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[8].

---

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الرابع، ص:303؛ و"اقتضاء العلم العمل" للخطيب البغدادي رحمه الله، ص:79

[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الرابع، ص:583.

[3] قال العلَّامة الألباني في "صحيح التَّرغيب": (صحيح لغيره) اهـ؛ من طريق جندب بن عبدالله رضي الله عنه.

[4] جاء في "السِّلسلة الصَّحيحة" بلفظ: (مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ) [وصحَّحه رحمه الله]

[5] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:709.

[6] "اقتضاء العلم العمل" للخطيب البغدادي رحمه الله؛ ص:36.

[7] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:80

[8] "فتح المغيث" للسخاوي رحمه الله؛ الجزء الثالث، ص:283

ثمَّ قال النَّاظم -رحمه الله-:

فَرأسُ العِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا

يقول هنا: رأسُ العلم، حقيقةُ العلم، ماهية العلم:«التَّقوى» وهي الخَشية والخوف من الله تعالى؛ ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: (لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ خَشْيَةُ اللهِ)[1]، والتَّقوى هي وصيَّة الله -جلَّ جلاله- للأوَّلين والآخرين:﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[2]، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: (التَّقِيُّ مُلْجَمٌ لَا يَفْعَل كُلَّ مَا يُرِيد)[3].

ولمَّا خطب طَلْق بن حَبيب يومًا النَّاس قال: (إِذَا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ فَأَطْفِئُوهَا بِالتَّقْوَى، قَالُوا: وَمَا التَّقْوَى؟ قَالَ: أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ، تَرْجُو ثَوَابِ اللهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ، تَخَافُ عِقَابَ اللهِ)[4] وهذا الأثر حسَّنه العلَّامة الألباني -عليه رحمة الله- لأنِّي أذكر أنَّه عند ابن أبي شيبة في مُصنَّفه[5] -هذا ما أذكره الآن-.

والحسن البصري -رحمه الله- يقول كما ذكر عنه الحافظ ابن رجب، وجاء هذا عن غيره كسعيد بن جُبير -بمعنى قوله هذا-، أنَّه قال: (مَازَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ حَتَّى تَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَلَالِ مَخَافَةَ الْحَرَامِ)[6] يقول هنا: (مَازَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ) يعني

---

[1] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله، ص:759.

[2] سورة النِّساء: ١٣١

[3] "شرح السُّنَّة" للإمام البغوي رحمه الله؛ الجزء:14، ص:341

[4] "الرسالة التبوكية" لابن القيم، ص:8

[5] جاء في مصنف ابن أبي شيبة بلفظ: (التَّقْوَى عَمَلٌ بِطَاعَةِ اللهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعْصِيَةِ اللهِ مَخَافَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ)، وَقَالَ الأَلْبَانِي فِي تَحْقِيقِه: (وَهَذَا الأَثَرُ صَحِيحُ السَّنَدِ إِلَى طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ، وَهُوَ تَابِعِيٌّ عَابِدٌ) ["كتاب الإيمان" ص39]

[6] "جامع العلوم والحكم" لابن رجب رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:209.

أنَّه جعل التَّقوى مثل الحادي الَّذي يحدُو ويُنادي، فمازالت التَّقوى تُناديهم وتُخاطبُهم وتَحْمِلهم على المكارم والفضائِل حتَّى تركُوا التَّوسُّع في المباحات والتَّوسُّع في الحلال خشيةَ أن يلتذُّوا به ويركنوا إلى الدُّنيا فيقعُوا فيما يُشبهه أو يقودُ إِليه وهو الحرام؛ فمنزلةُ الورعِ منزلةٌ عظيمةٌ.

النَّاظم -رحمه الله تعالى- هنا قال:

فَرَأسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا

يعني ليس العلم أن يُقال: هذا العالِم الفُلاني، الإِمام الفُلاني، هذا المقدَّم، هذا الوَجيه؛ وهكذا من مِحْنَة الألقاب الَّتي أُولع بها العصريُّون، ومن أَزمنة لا بأس بها مُتقدِّمة أُولع النَّاس بالأَلقاب، ومن اِعتنى بكتب أهل الحديث رأى ما كانوا عليه منَ التَّواضع وعدم الاِعتناء بهذه الأَلقاب مطلقًا لا في أَنفسهم ولا في أَشياخهم، اقرأ مُسند الإمام أحمد من أوَّله إلى آخره، وقدْ ذكرَ فيه -على بعض التَّرقيم-: ثلاثين أَلف حديث؛ لَم يَصِف أيًّا ممَّن روَى عنهم، وقد رَوى عن جبالٍ وأئِمَّة كبارٍ، لَم يصِفهم ولَم يُلقِّبهم بأيِّ شيءٍ منَ الأَلقاب.

- نحن لا نُحرِّم هذه الأَلقاب، لكن أَن تكون هي الهمُّ، أن يكُون الإنسان إذا لَم تُذكر في حقِّه: فضيلة الشَّيخ، والشَّيخ الفاضل، والأُستاذ الدُّكتور، والمقرئ، والمسنِد، والمحدِّث، والفقيه، والعلَّامة، وإمام الثَّقلين -إلى ما أشبه ذلك من الألقاب-، هذه لَا تجدها عند أئِمَّة الحديث، أصحاب الكتب السِّتة نفسُ الشَّيء:«حدَّثنا يحي قال حدَّثنا مكِّي بن إبراهيم قال حدَّثنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه»، «حدَّثنا محمَّد بن المنكدر حدَّثنا بندار حدَّثنا غُندر حدَّثنا

شُعبة» كلُّهم لَم يكن عندهم ذلك الاِعتناء بالألقاب، لأنَّه لَمَّا كثُر عِلمهم وعرفوا العلم على الحقيقة هانت في نُفوسهم هذه الأَلقاب، ولمَّا قلَّ [العلم صار][1] يُغضب ممَّن يسلبنا إيَّاها.

فهنا النَّاظم يُشير لنا إلى هذه القضيَّة المهمَّة، ولأهمِّية هذا البيت في نظري -والله أعلم- فلنتأمَّل بعض الآثار العظيمة الَّتي كان عليها السَّلف -رحمهم الله-:

سُفيان الثَّوري كما عند الآجري في «أخلاق العلماء» وعند الخطَّابي في «العزلة»، سُفيان الثَّوري يَرْوي عن أبيه قال: (أَتَيْتُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ فِي شَيْءٍ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَحَدٌ يَشْفِيكَ مِنْ هَذَا؟)[2] يعني: لَم تجد غيري؟ (احْتِيجَ إِلَيَّ احْتِيجَ إِلَيَّ!)[3] إبراهيم النَّخعي يَنْعى على نفسه يقول: احتاج النَّاس إلَيَّ، احتاج النَّاس إلَيَّ!، يقول: (إِنَّ دَهْرًا صِرْتُ فِيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَدَهْرُ سُوءٍ)[4] يقول هذا وهو فقيه أهل الكوفة، وهو من أصحاب ابن مسعود -يعني من تلاميذ التَّلاميذ الَّذين أخذوا عن مدرسته-.

وهذا مُحمَّد بن عبد الأعلى الصَّنعاني يقول: (خَرَجَ عَلَيْنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ) يعني هم طُلَّاب العلم، وكانت عادتهم الملازمة الشَّديدة لشُيوخِهم حتَّى ربَّما أضجروهم وتألَّموا منهم، فمحمَّد بن عبد الأعلى -هذا الصَّنعاني- يقول: (خَرَجَ عَلَيْنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ) ما

[1] [العلم صار]: من إضافتي؛ بسبب بعض التقطُّعات في التَّسجيل.
[2] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:70.
[3] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:70.
[4] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:70.

الَّذي ينتظِرونه؟! يوزِّع عليهم الدَّراهم والدَّنانير؟! لا؛ يُريـدون أن يسـمعوا حـديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، يقول هذا مُحَمَّد بن عبد الأعلى الصَّـنعاني: (خَـرَجَ عَلَيْنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ فَقَالَ:

خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدِ ... وَمِـنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بِالسُّؤْدَدِ[1]

ثُمَّ ذكر الخطَّابي في «العزلة » -بعد أن ذكر هذا البيت-، قال: (وَأَنْشَدَنِي إِبْرَاهِيمُ بْـنُ فِرَاسٍ فِي نَحْوٍ مِنْ هَذَا:

وَإِنْ بِقَــوْمٍ سَوَّدُوكَ لِحَاجَـةٍ ... إِلَى سَيِّــدٍ لَوْ يَظْفَرُونَ بِسَيِّـدِ[2]

وَقَالَ آخَرُ فِي نَحْوِهِ)-ولا زال الكلام للخطَّابي-:

وَمَا سُدْتَ فِيهِمْ إِنَّ فَضْلَكَ عَمَّهُمْ ... وَلَكِنَّ هَذَا الْخَلْطُ فِي النَّاسِ يُقْسَمُ[3]

✽ والرِّياسة وطلبها والحرص عليها مضيَعة للعلم وذهـابٌ له، ولهـذا جـاء عند البُخاري مُعلَّقًا عن عمر رضي الله عنه -وصله ابن أبي شيبة بإسـناد صـحيح كما قال في «الفتح»-[4]، أنَّه قال: (تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا)[5] ولهذا ذكر في «الفتح» أنَّه في رواية الكُشْمِيهَنِيّ للبخاري أنَّ البُخاري قال: (وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا)[6]، قال الخطَّـابي:

---

[1] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:70.

[2] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:70.

[3] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:70.

[4] قال ابن حجر رحمه الله: (أَمَّا أَثَرُ عُمَرَ فَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرُهُ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: قَـالَ عُمَـرُ... فَذَكَرَهُ؛ وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ) اهـ، ["فتح الباري" الجزء الأول، ص:292]

[5] صحيح البخاري.

[6] قال ابن حجر رحمه الله: (زَادَ الْكُشْمِيهَنِيُّ فِي رِوَايَتِهِ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ -أَيِ: الْبُخَارِيُّ-: وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا) ["فتح البـاري" الجـزء الأول، ص:292]

(يُرِيدُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَخْدُمِ الْعِلْمَ فِي صِغَرِهِ اسْتَحْيَى أَنْ يَخْدُمَهُ فِي كِبَرِ السِّنِّ وَإِدْرَاكِ السُّؤْدَدِ)[1].

وقال سُفيان الثَّوري -كما ذكر الخطابي أيضًا-: (مَنْ تَرَأَّسَ فِي حَدَاثَتِهِ كَانَ أَدْنَى عُقُوبَتِهِ أَنْ يَفُوتَهُ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْعِلْمِ)[2]، وعن أبي حنيفة -رحمة الله عليه- أنَّه قال: (مَنْ طَلَبَ الرِّيَاسَةَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَوَانِهِ لَمْ يَزَلْ فِي ذُلٍّ مَا بَقِيَ)[3].

أنشدنا أبو سُليمان -أبو سُليمان يعني الخطَّابي طبعًا- قال: (أَنْشَدَنِي سَهْلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: أَنْشَدَنَا مَنْصُورُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ لِنَفْسِهِ:

الْكَلْبُ أَكْرَمُ عِشْرَةً ... وَهُوَ النِّهَايَةُ فِي الْخَسَاسَهْ
مِمَّنْ يُنَازِعُ فِي الرِّيَاسَةِ ... قَبْلَ أَوْقَاتِ الرِّيَاسَهْ[4]

وقيل للمبرد: (لِمَ صَارَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْفَظَ مِنْكَ لِلْغَرِيبِ وَالشِّعْرِ؟) -يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ يَحْيَى-؛ (قَالَ: لِأَنِّي تَرَأَّسْتُ وَأَنَا حدثٌ وَتَرَأَّسَ وَهُوَ شَيْخٌ)[5]، ولهذا سُفيان بن عُيينة يقول: (جَلَسْنَا إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فَأَحَطْنَا بِهِ فَنَظَرَ إِلَيْنَا فَقَالَ: شِنْتُمُ الْعِلْمَ وَذَهَبْتُمْ بِنُورِهِ، لَوْ أَدْرَكَنِي وَإِيَّاكُمْ عُمَرُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ لَأَوْجَعَنَا ضَرْبًا)[6] قال المُظَفَّري: (وَزَادَنِي غَيْرُ عَمْرٍو: مَا أَنَا أَهْلٌ لِأَنْ أُحَدِّثَ، وَلَا أَنْتُمْ أَهْلٌ لِأَنْ تُحَدِّثُوا؛ وَمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: افْتَضَحُوا فَاصْطَلَحُوا)[7].

---

[1] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:83.
[2] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:83.
[3] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:83.
[4] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:83.
[5] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:83.
[6] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:84.
[7] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:84.

وهذا الزّهري مُحمَّد بن شهاب يقول عن رجلٍ من المهاجرين، قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ وَارَتِ الْقُبُورُ أَقْوَامًا لَوْ رَأَوْنِي مَعَكُمْ سَخِرُوا مِنِّي)[1].

✿ طالب العلم لا يكون همُّه أن يكون عالمًا، ليس من شرط العلم أن تكون عالمًا، أن تكُون مؤلِّفًا، أن تكون مُحاضرًا، أن تكُون مدرِّسًا، الإمام مالك يقُول: (مَا تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ إِلَّا لِنَفْسِي، وَمَا تَعَلَّمْتُ لِيَحْتَاجَ النَّاسُ إِلَيَّ، وَكَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ)[2]، لتكن همَّتك هي الوصُول إلى رضا الله -جلَّ وعلا-، تعْرف ما أمر الله -تبارك وتعالى- به، وتعْرف ما نَهى الله عنه، لأنَّ طلب الرِّئاسة سبيل للإحداث في الدِّين.

أَأُخَيَّ مَنْ عَشِقَ الرِّئَاسَةَ خِفْتُ أَنْ ... يَطْغَى وَيُحْدِثَ بِدْعَةً وَضَلَالا[3]

ولقد حرص أقوامٌ على الرِّياسة فداسوا على كرامة العلماء وحاربوهم وبارزُوهم لأنَّهم رأوا أنَّهم لَم يُعْطَوا هذه الرِّئاسة ولَم يَصلُوا إليها، فأرادوا أن يُزحزحُوا هؤلاء العلماء من طريقهم حتَّى يصلُوا إلى مكانهم، وهذا هو الضَّلال المبين -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

طالبُ العلم همُّه رضا الرَّب -جلَّ جلالُه-، طالبُ العلم يعلم أنَّ حقيقة العلم ما أوصله إلى خشية الله -جلَّ وعلا-، ما أوصله إلى العمل بطاعة الله -تبارك وتعالى-؛ ثمَّ من وفَّقه الله -جلَّ جلاله- وواصلَ العِلم ومَنَّ الله -تبارك وتعالى- عليه بأن صار إمامًا في النَّاس واحتاج النَّاس إليه وصار مُوجِّها وإمامًا لهم، فإنَّ هذا شيءٌ

[1] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:84.
[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الثامن، ص:66.
[3] لأبي العتاهية.

حسنٌ لأنَّه جاء تبعًا، أمَّا أن يكون هو القصد كمن يتعلَّم العلم ليكُون قاضيًا أو عالمًا أو موجِّهًا ثُمَّ بعد ذلك لا يَحمله العلم على طاعة الله -نسأل الله العافية والسَّلامة- فإنَّ هذا نوعٌ من الضَّلال -عياذًا بالله-، أو منَ الأُمور الَّتي تُوصل طالب العِلم إلَى نوعٍ منَ الضَّلال.

وقد ذكرتُ لكم أنَّ مَنْ حَرص على الرِّئاسة قادته إلى البدعة، وقَلَّ مَن يَسلم مِنْ هذا مَن أرادها.

جاء في أثرٍ في ذكر الخوارج أنَّه يأتي على النَّاس زمانٌ يقرأ النَّاس العلم فيقوم شخصٌ فيقول: (مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ؛ فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ)[1] هذا ممَّا يحمل الإنسان على الرِّياسة لأنَّه إنَّما طلب العلم بهذه الغاية فلم يُحصِّلها فقاتل النَّاس عليها، فالله الله في معرفة هذه الوصايا العظيمةِ الجليلة.

فَلَا تَأمَنْ سُؤَالَ اللهِ عَنْهُ ... بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ، فَهَلْ عَمِلْتَا؟
فَرَأسُ العِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا ... وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا

[1] عنْ أَبِي إِدْرِيس الْخَوْلَانِيِّ عَائِذَ اللَّه أَنَّ يَزِيدَ بْنَ عُمَيْرَةَ -وَكَانَ مِنْ أَصْحَاب مُعَاذ بْن جَبَلٍ- أَخْبَرَهُ قَالَ: كَانَ لَا يَجْلسُ مَجْلسًا للذِّكْر حِينَ يَجْلسُ إِلَّا قَالَ: اللَّهُ حَكَمٌ قسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ، فقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَوْمًا: إِنَّ منْ وَرَائكُمْ فتَنًا يَكْثُرُ فيهَا الْمَالُ وَيُفْتَحُ فيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمنُ وَالْمُنَافقُ وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَالصَّغيرُ وَالْكَبِيرُ وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ، فَيُوشكُ قَائلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا للنَّاسِ لَا يَتَّبِعُوني وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدعَ لَهُمْ غَيْرَهُ؛ فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدعَ فَإِنَّ مَا ابْتُدعَ ضَلَالَةٌ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكيمِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلمَةَ الضَّلَالَة عَلَى لسَان الْحَكيمِ وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافقُ كَلمَةَ الْحَقِّ؛ قَالَ: قُلْتُ لمُعَاذ: مَا يُدْرِيني -رَحمَكَ اللَّهُ- أَنَّ الْحَكيمَ قَدْ يَقُولُ كَلمَةَ الضَّلَالَة وَأَنَّ الْمُنَافقَ قَدْ يَقُولُ كَلمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ: بَلَى! اجْتَنبْ منْ كَلَامِ الْحَكيمِ الْمُشْتَهرَاتِ الَّتي يُقَالُ: مَا هَذه؟ وَلَا يُثْنيَنَّكَ ذَلكَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجعَ وَتَلَقَّ الْحَقَّ إذَا سَمعْتَهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا) [قال الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود": إسناده صحيح موقوفًا]

نكتفي بهذا القدر في هذه المنظومة؛ ونسأل الله -جلَّ جلاله- أن يوفِّقنا وإيَّاكم لِمحابِّه ومراضيه، فإنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه؛ والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الدَّرس التاسع

ـ أ ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّـلام على نبيِّنـا محمَّـد وعلى آله وصـحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعــد:

فهذا مجلس من المجالس المُنعقدة في التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري -عليه رحمة الله ومغفرته-.

وقد كان آخر بيت شُرح في هذه المنظومة قوله -رحمه الله-:

فَرَأْس العِلْمِ تَقوَى الله حَقًّا   وَلَيسَ بِأَن يُقال لَقَد رَأَستا

وهو من أجلِّ وأنفع أبياتها الَّتي تُعين طالب العلم على تربية نفسه وإصلاحها وعدم الاِلتفات إلى مُراداتها -كما ذكرنا ذلك آنفًا-.

ثُمَّ قال النَّاظم -رحمه الله-:

وَأَفْضَل ثَوْبِك الإِحْسَـان لَا أَنْ

وفي نُسخة:

وَضَافِي ثَوْبكَ الإِحْسَـان لَكِن

[تُرَى] أو [نَرَى]

نَـرى ثَـوْبَ الإسَاءَة قَـد لَبسْتَا

واختلاف النُّسخ هذا أمرٌ معلوم، لكنَّه لا يضرُّ في كثير من الأحيان.

وأفضَـلُ ثَوْبـكَ الإِحْسَـان

لمَّا كان أهل العلم وحملته وطلَّاب العلم هم نجوم الأرض الَّتي يُقتدى بها ويُهتـدى بها في الأرض كما أنَّ نجوم السَّماء هي الَّتي يُقتدى بها ويُهتدى بها والعلامات الَّتي يُوصَل بها إلى المرادات، لمَّا كان أهل العلم بهذه المنزلة وكان النَّـاس مـن طبيعـتهم وممَّا جُبلوا عليه أنَّهم يبحثون -فيمن يقتدون به ويتَّبعونـه- على أهـل الكمـالات والمقامات العالية، نصَحنا النَّاظم -رحمه الله تعالى- بأن يكون الثَّوب الَّذي نلبسه ونتجلبب به -كما نتزيَّن بأفضل لباسنا- هو: الإحسان؛ والإحسان اِسم جامع لـكلِّ مراتب الدِّين، وأنتم تعلمون أنَّ مراتب الدِّين ثلاثة:

_ «الإسلام»؛ وهو أعمُّها.

_ ثمَّ «الإيمان»؛ وهو أخص منه.

_ ثمَّ «الإحسان»؛ وهو أخصُّها.

كلُّ محسنٍ مُؤمن، وهكذا لا ينعكس الأمر، ليس كلُّ مؤمن محسنًا وليس كل مسلم مؤمنًا، كما هو متقرِّر في أبواب الاِعتقاد.

حاصل هذا أنَّ الإحسان هو أعلى مراتب الدِّين، فيُريد أن تستجمع قواك للحصول على كامل الأخلاق الَّتي أمر بها الدِّين لتتزيّا بها، لتكون هي بمثابة ثوبك الحسي الَّذي تلبسه وتتجلَّل به.

والإحسان: (كَفُّ الأَذَى، وَبَذْل النَّدَى، وَطَلَاقَةُ الْوَجْهِ)[1]؛ وأعظمه بعد الإحسان مع الله -تبارك وتعالى- إحسان المرء إلى نفسه بحملها على ما يُصلحها عند الله -جلَّ وعلا- ورعاية مقاصد الشَّرع فيها من جهة تزكيتها وتربيتها وتهذيبها كما قال ربّنا -تبارك وتعالى-:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2].

وهو يقول لك هنا:

وَأَفْضَل ثوبِكَ الإحسانُ لا أنْ

أو [لَكِنْ]، [نَرَى] أو:

تُرى ثَوبَ الإساءةِ قد لَبستَا

فاعتضتَ عن الإحسان بالإساءة، فبدلًا من أن تتجمَّل بالإحسان شِنتَ العلم بالإساءة، وإذا كنتَ مُسيئًا فإنَّ النَّاس لا يقبلون ما معك من نُور العِلم الَّذي به حياتهم وصلاحهم.

فطالب العلم ينبغي عليه أن يحرص على هذا الأمر وأن يتجلَّل ويتجلبب بمواطن الإحسان لأنَّ اللَّهَ -سبحانهُ وتعالَى- أَثنى عن المحسنين.

---

[1] مقصود الشَّيخ -حفظه الله-: تعريف الإحسان بالنِّسبة لمعاملة الخلق.

[2] سورة الشَّمس: ٩ - ١٠

(أَخْبَرَ أَنَّهُ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَن مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَجْزِي عَلَى الإِحْسَانِ بِالْعِلْم، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَحْسَنِ الْجَزَاءِ.

_ فَأَمَّا الْمَقَامُ الأَوَّلُ فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] وَهَذَا يَتَنَاوَلُ الْجَزَاءَيْنِ: الدُّنْيوِيّ وَالأُخْرَوِيّ.

_ وَأَمَّا الْمَقَامُ الثَّانِي فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، قَالَ الْحَسَن:«مَنْ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللَّهِ فِي شَبِيبَتِهِ، لَقَّاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[3]» وَمِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:«تَقُولُ الْحِكْمَةُ: مَنِ الْتَمَسَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي فَلْيَعْمَل بِأَحسن مَا يَعْلَم، وَلْيَتْرك أَقبحَ مَا يَعْلَم، فَإِذَا فَعَل ذَلك فَأَنَا مَعَهُ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْنِي») [4] فهذا كلام ابن القيم –رحمه الله- في «مفتاح دار السَّعادة».

فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ	وَالْعِلْمُ لَا يَحْسُنُ إِلَّا بِالْأَدَبِ
وَالْأَدَبُ النَّافِعُ حُسْنُ السَّمْتِ	وَفِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ
وَالصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ	إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ [5]

[1] سورة الزّمر: ٣٣- ٣٥

[2] سورة يوسف: ٢٢

[3] " المجالسة وجواهر العلم" للدينوري رحمه الله؛ الجزء السادس، ص:240.

[4] "مفتاح دار السَّعادة" لابن القيم رحمه الله، الجزء الأول، ص:477.

[5] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله، ص:578؛ وقال: (أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ فِي آدَابِ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ مِنَ النَّظْمِ مَا يُنْسَبُ إِلَى اللُّؤْلُؤِيِّ مِنَ الرَّجَزِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْسِبُهُ إِلَى الْمَأْمُونِ).

هذا البيت العظيم الَّذي ذكره النَّاظم -رحمه الله تعالى- يحملنا على مطلبٍ عظيم ألا وهو: الإحسان؛ الإحسان في العلم، والإحسان في العمل، ولينظر الإنسان إلى أثره على غيره.

ولمَّا ذكر النَّاظم -رحمه الله تعالى- هذا قال بعدها:

إذا ما لَم يُفِدْكَ العِلمُ خيرًا   فخيرٌ منــهُ أنْ لَو قدْ جَهِلتا

لأنَّك إذا لم تستمع نصيحته وتعمل بالعلم الَّذي تعلَّمته ولَم تستفد خيرًا بالعلم الَّذي به حياتك والَّذي به نجاتك فماذا عسى أن يفيدك هذا العلم؟!

إذَا ما لَم يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْرًا   فَخَيْرٌ مِنْــهُ أنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

ولهذا تقدَّم معنا -فيما سبق من الكلام- أنَّ الله -تبارك وتعالى- يسأل أهل العلم عن علمهم: ((وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ))[1].

اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْنَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ
لا يَنْفَعُ العِلْمُ إنْ لَمْ يَحْسُنِ العَمَلُ
وَالعِلْمُ زَيْنٌ وَتَقْوَى اللهِ زِينَتُهُ
وَالمُتَّقُونَ لَهُمْ فِي عِلْمِهِمْ شُغُلُ
وَحُجَّةُ اللهِ يَا ذَا العِلْمِ بَالِغَةٌ
لا المَكْرُ يَنْفَعُ فِيهَا لا، ولاَ الحِيَلُ

[1] قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترغيب": (حسن صحيح)اهـ؛ من طريق أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

تَعلَّـــمِ العِلْـــمَ واعْمَـــلْ مـــا اسْـــتَطَعْتَ بِـــهِ
لا يُلهِيَنَّـــــكَ عَنْـــــهُ اللَّهْـــــوُ والجَـــــدَلُ
وعلِّـــمِ النَّـــاسَ واقْصِـــدْ نَفْعَهـــم أبَـــدًا
إيَّـــاكَ إيَّـــاكَ أَنْ يعتـــادَكَ المَلَـــلُ
وعِـــظْ أَخَـــاكَ بِرفْـــقٍ عِنْـــدَ زَلَّتِـــهِ
فَـــالرِّفقُ يَعْطِـــفُ مـــن يعتـــادُه الزَّلَـــلُ[1]

الألبيري -رحمه الله تعالى- يقول:

إِذَا مَـــا لَمْ يُفِـدْكَ العِلـمُ خيـرًا

إذا ما لَم تستفد بالعلم خيرًا: لم تعبد ربَّك، لَـم تُحسـن إلى نفسـك، لَـم تُحسـن إلى والديك، لَم تُحسن إلى جارك، لَم تُحسن إلى معلِّمك، لَم تُحسن إلى إخوانك، لَم تُحسن إلى ذوي الحاجات، فماذا استفدت من العلم إذًا؟!

يقُـول:

فَخَيْرٌ مِنْـــهُ أَنْ لَـوْ قَـدْ جَهِلْتَـا

ومضمون هذا البيت -فيما تذكرون وقد سمعتم من قبل- قـد تقـدَّم معنـا الـكلام عليه في الأبيات المتقدِّمة.

والنَّاظم -رحمه الله تعالى- بعد ذلك قال:

وإنْ ألْقاكَ فَهْمُكَ في مهاوٍ فليتكَ ثُمَّ لَيتكَ ما فَهِمتا

[1] ذكرها الحافظ ابن عساكر رحمه الله في كتابه "ذم من لا يعمل بعلمه"؛ ص:40.

هذا الفهم هو الفهم الَّذي سُلب التَّوفيق، يعني كما قال أبو العباس ابن تيمية -رحمه الله- وهو يصف المتكلِّمين قال: (أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً، وأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا)[1] والفهم أحيانًا إذا تجرَّد عن التَّوفيق فإنَّ أوَّل ما يجني على المرء اِجتهاده.

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اِجْتِهَادُهُ

فالإنسان، طالب العلم، المتعلِّم، العالِم، لا يعتمد على فهمه ويعتزل النُّصوص ويعتزل الآثار ويترك ما كان عليه السَّلف وما سارت عليه الأمَّة ويُعجبه فهمه، يُعجبه رأيه كما كان الشَّأن في أهل الأهواء والبدع.

هل ضلَّ الخوارج في أوَّل الإسلام في باب الأسماء والأحكام إلَّا بفهومهم وأهوائهم الَّتي هجروا بها علماء الصَّحابة واعتزلوهم ثمَّ قاتلوهم؟

هل ضلَّت المعتزلة إلَّا لفهومهما يوم أن خرج عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وتركوا أئمَّة أزمنتهم وعصوهم كالحسن وغيره؟

وهل ضلَّت المتصوِّفة إلَّا باتباع منهج اليونان الذَّوقي الرِّياضي وترك أهل الإسلام؟

وهكذا أهل الكلام، وهكذا من أعرض عن الحق والسَّبيل والصِّراط المستقيم وفَهِم الإسلام في معزل عن آلاته، فلا عنده آلات تُؤهله لفهم هذا الدِّين ولا لمراد الله -تبارك وتعالى- به، بل ذهب إلى التَّحزُّبات وإلى الجماعات وإلى الفِرق وإلى المِلَل وإلى النِّحل وطوَّف في كلِّ المعاهد ولم يدخل معهد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، واِعتمد على فهمته؛ فهذا هو الضَّلال المبين، وهذا الفهم يُلقيه في المهاوي -مهاوِي البدعة، ومَهَاوِي الرَّدى، ومهاوِي مساوئ الأخلاق-.

---

[1] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً وَأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا وَأُعْطُوا سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾) ["مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ الجزء الخامس، ص:119]

يقُـول هنَـا:

وإنْ ألقَـاكَ فَهْمُـكَ في مهـاوٍ

في كلِّ وادٍ سحيق، ذهبت مع كلِّ أحد، لَم تستفد من هـذا العلـم، لـم تسـتفد ممَّـا يقودك إليه العلم، لم تُعظِّم النُّصوص، لَم تعظِّم الآثار، لَم تعظِّم اِتِّباع الأئمَّة، وإنَّمـا قصرت نفسك على نفسك، وأخـذت بكـلِّ قـولٍ وبكـلِّ فعـلٍ وبكـلِّ اِعتقـادٍ وأعرضتَ عمَّا أمرك الله به ورسول عليه الصَّلاة والسَّلام.

هذه نصحيةٌ جليلةُ القدرِ، اِعتماد المرء على نفسه، اِعتماد المـرء على فهمـه؛ اليوم تُنشأ المعاهد، في القديم في بداية الدَّعوة وبداية اِنتشـار هـذا العلـم في هـذه العصور -في أرجاء هذه المعمورة- كان أهل العلم وحملته هم العلماء الرَّاسـخون في العلم، ولمَّا لَم يرضَ طَريقتهم الكثير ممَّن اِنتسب إلى هـذه الدَّعـوة أو اِنتسـب إلى العلم وثقل عليه ما عليه العلماء من التَّقيُّـد والارتبـاط بمـنهج السَّـلف ذهبـوا وأنشأوا مصطلحًا زيَّنوه لأنفسهم وهو مُصطلح: «الصَّحوة» و «شـباب الصَّـحوة» و «دعاة الصَّحوة» و «علماء الصَّحوة» الَّذين شهدوا على أنفسهم بأنَّهم كانوا في غفلـة وصحوا والنَّاس قد ساروا وذهبوا، واستمرَّ هذا زمنًا لا يعلمه إلَّا الله -جلَّ وعـلا- ولايزال، ورجع النَّاس إلى علمائهم بعد أن رأوا رسوخهم في العلم، فجاؤوا بمصـلح «الفكر» وقالوا: «هذا المفكِّر الإسلامي» و «صـاحب الفكـر الإسـلامي» و «هـؤلاء المفكرون» ولا يُطلقون عليهم «علماء»؛ -كمـا كان اِصـطلاح المتكلِّمـين أيضًـا-، وأرادوا أن يعزلوا الأمَّة والنَّاس عن علمائهم:«لأنَّ هذا مُفكِّر»، «لأنَّه فاهم للواقع»، «لأنَّه يتحدَّث من لمس جراحات المسلمين، ومِنْ، وَمِنْ...» -إلى آخره-.

واليوم جاؤوا لنا بنِحلة جديدة وهي محنة المدرِّبين، ما خلصنا من الصَّحويين إلى المفكِّرين حتَّى تلقَّف شبابنا [المُدرِّبون][1].

«هذا مدرِّب» وش مدِّرب؟ النَّاس كانوا يعرفون المدرِّب الرِّياضي -مدرِّب على كرة سلَّة أو على كرة طائرة أو على كرة قدم-، مدرِّب رياضي، لا؛ هذا مدرِّب إسلامي، يدرِّب على ماذا؟! على الثِّقة في النَّفس، وعلى ذلك يدندنون «البرمجة» أو ما يسمُّونه بـ: «البرمجة العصبية» وغايتهم أنَّهم يريدون أن يصِلوا بهذا المتدرِّب إلى أن يكون واثقًا من نفسه، وكفى بهذه سوأة، لأنَّه لا يجوز للمسلم أن يثق بنفسه أبدًا، لا يجوز، النَّبي عليه الصلاة والسَّلام يقول:((وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي))[2]، فالعبد لا يفرح بنفسه حتَّى وإن كان رأى أنَّه فهِم هذه المسألة ولم يفهمها ذاك العالم أو عسرت على غيره، مهما يكن، فلكلِّ مقام مقال، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم.

هذه المنظومةُ مَنظومةٌ تَربوِية عَظيمةٌ جليلةٌ.

يقُـــول:

وإنْ ألـقَـاكَ فَهْمُـكَ فـي مهاوٍ

ما قيَّدك العلم، ما حملك العلم على طريقة أهله.

فـلـيـتكَ ثُـمَّ ليتكَ مـا فَهِمتـا

ما اِستفدتَ أنتَ، ما اِستفادت الأُمَّة، ما اِستفاد جُلساؤك بهذا الفهم؛ حتَّى صرتَ متكلِّمًا، فيلسوفًا، تُسمِّي نفسك ناقدًا أو صحويًا أو مُفكِّرًا أو مُدرِّبًا -أو ما أشبه ذلك- في معزل.

---

[1] انقطاع يسير في الصَّوت.

[2] حسَّنه الإمام الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

نحن لا نُحرِّم هذه الأشياء -أو بعضها- إذا لم تخالف الشَّريعة، لكنَّنا نتكلَّم عن الإنسان الَّذي عزل نفسه عن العلماء، عزل نفسه عن أئمَّة الدِّين، عن حملة العلم، وهكذا.

فيقول:[فَلَيْتَكَ] لأنَّ الأُمَّة ما هي مُحتاجة لك.

فَلَيْتَكَ ثُــمَّ ليتك مَــا فَهِمتــا

لماذا؟! يقول بأنَّ هذا الفهم من آثاره، أَنْ ذكر النَّاظم -رحمه الله- فقال:

سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ العَجْزِ جَهلاً   وتَصْغُرُ في العُيــونِ إذَا كَبُرتا

هذا من ثماره، وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى على هذا البيت وما يتعلَّق به لأنَّ العجز ضد الكيس، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال في صحيح مسلم ((**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ**))[1]، فمن ثمار العجز، ومن ثمار أن يكون الإنسان عاجزًا، كسولًا، ليس ذا همَّة عالية، لا ينظر إلى رفائع الأمور ومعاليها، وإنَّما ينظر إلى سفاسفها، فإنَّ من ثمار هذا العجز: أن يكون جاهلًا.

واطْلُب العِلْمَ ولَا تكْسَل فَمَا   أَبْعَدَ الخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الكَسَــل[2]

فمن اِستسلم للعجز، وكما قال يحي ابن أبي كثير: (لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ)[3].

وإذَا كانَتِ النُّفُــوس كِبَارًا   تَعِبَت فِي مُرَادِهَا الأَجْسَــامُ[4]

[1] رواه مسلم؛ من طريق عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
[2] لامية ابن وردي رحمه الله.
[3] صحيح مسلم.
[4] للمتنبِّي.

قيل للشَّيخ ابن باز -رحمة الله عليه- وهو من أئمَّة هذا العصر، فكيف بأئمَّتنا الَّذين مضوا؟ قيل له: (كَيْفَ تَعْمَل سَبْع عَشرَة سَاعَة؟) -يعني: سبع عشرة ساعة وأنت تعمل؟- فقال: (إذَا أحبَّت النَّفْسُ شَيْئًا) -أو بهذا المعنى لعلَّنا نأتي بها في مقام آخر-[1] (إذَا أَحبَّت النَّفْسُ شَيئًا لَمْ تَنْظُرْ إلَى مَتَاعبِهِ) -أو ما أشبه ذلك-.

وكما جاء عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه -مرفوعًا-: **((الكَيِّس مَنْ دَان نَفسَه وَعَمِلَ لِما بَعد الموت، وَالعَاجز مَنْ أَتبَع نَفسَه هَوَاها وتَمَنَّى عَلَى الله الأمَانِي))** والحديث ضعَّفه العلامة الألباني -عليه رحمة الله-[2]، وفي صحيح مُسلم من حديث أبي هريرة عن النَّبي عليه الصَّلاة والسلام قال: **((الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خيرٌ وأحَبُّ إلى اللَّهِ منَ المؤمنِ الضَّعِيفِ، وفِي كلٍّ خيرٌ، اِحْرِص عَلَى ما يَنْفعُكَ، واستَعِن باللَّهِ ولَا تعجِزْ))** -لا تكن عاجزًا-، **((وإن أصابَكَ شيءٌ، فَلَا تقُل: لَوْ أنِّي فعَلْتُ كَان كَذَا وَكَذا، ولَكِن قُل: قَدرَ اللَّهُ ومَا شَاءَ فَعَلَ))**[3] ما تكون عاجزًا ودائمًا تنظر إلى الأماني: «كيف وصل فلان إلى هذا العلم؟ كيف حفظ؟ كيف!» لا تُفكِّر فيه وتُكثِر الأفكار، اِقتدِ به واسلك طريق العلم؛ فإذا كنت عاجزًا جَنَيْتَ الجهل، وإذا جنَيتَ الجهل قال النَّاظم:

وتَصْغُرُ في العيونِ إذا كَبُرتا

أو [كبِرتا].

_ يعني أنَّك تكون إذا قلنا:[كبُرتا] -بالضَّم- بمعنى المعنوي الَّذي هو: الكِبْر، فإذا تكبَّرت وتعاليتَ على النَّاس وصرت مُتكبِّرًا فإنَّك تصغر.

_ أو أن يكون هذا الشَّطر راجع على الَّذي قبله ويكون الشَّطر هكذا:

وَتَصْغُر فِي الْعُيُونِ إذَا كَبِرتَا

---

[1] قال العلامة ابن باز رحمه الله: (إذا كَانت الرُّوح تَعمل، فالْجَوارح لَا تَكلّ) من سيرته.

[2] "ضعيف سنن الترمذي" للألباني رحمه الله، رقم: 2459

[3] رواه مسلم

[كبِرتا] يعني صرتَ كبيرًا، ويكون على الأمر الحسي الَّذي هو: كِبر السِّن؛ فيقودك الجهل إلى أنَّك حتَّى وإن كبرتَ في السِّن وصرت شيخًا ينبغي أن تُجل وأن تُحترم وأن تُكرم لكن لصغرك في العلم لا يرفع النَّاس بك رأسًا ولا يبالون بك.

إلى هنا ينتهي الكلام على ما تيسَّر من هذه المنظومة؛ وأسال الله -جلَّ جلاله- بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يوفِّقنا وإياكم لمحابِّه ومراضيه.

وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.

الدَّرس التاسع

_ ب _

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس التَّاسع من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري، والَّذي ينعقد في مدينة الرِّياض، ويُنقل على غُرفة الإمام ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله تعالى-.

وقد اِنتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

وَتُفقَدُ إن جَهِلتَ وَأَنتَ باقٍ ... وَتوجَدُ إن عَلِمتَ وَلَو فُقِدتا
وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ ... إِذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَملْتَا
وإنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا ... وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا
فَسَوفَ تَعَضُّ مِن نَدَمٍ عَلَيها ... وَما تُغني النَّدامَةُ إِن نَدِمتا

لا يزال النَّاظم -رحمه الله تعالى- يتكلَّم على علاقة المتعلِّم بالعلم وأثر العلم على صاحبه، وأنَّ العلم -كما يقولون- يتجاوز بصاحبه الحدود، فإذا كان الإنسان يظنُّ أنَّ العِلم إنَّما يبقى ما بقيَ هو حيًّا فقد أخطأ الطَّريق، وذلك أنَّ من شرف العلم أن

يذهب صاحبه ويبقى أثره في النَّاس، فيبقى هذا العالِم بذكره وفضله؛ فيقول -رحمه الله تعالى-:

وَتُفقَدُ إن جَهلت وَأَنتَ باقٍ   وَتوجَدُ إن عَلِمت وَلَو فُقِدتا

فالنَّاس قسمان عند النَّاظم: عالِمٌ وجاهل؛ وهذا هو حال النَّاس في كتاب الله -سبحانه وتعالى-، لأنَّ الله قال:﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] فجعل الرَّب النَّاس: عالِمين وجاهلين، ثمَّ إنَّ هذا العالِم يبقى ذكره بعد موته والجاهل يُفقد وهو في حياته لأنَّه إنَّما النَّاس بالعِلم، وقد رَوى الإمام مُسلم في صحيحه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرَّحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ اِنْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُه إلَّا مِنْ ثَلَاثةٍ: إلَّا مِنْ صَدقةٍ جَارِيةٍ، أَو عِلمٍ يُنْتَفعُ به، أَوْ وَلدٍ صَالِحٍ يَدْعو لَه**))[2] الشَّاهد منه قوله: ((**أَو عِلمٍ يُنتَفَعُ به**)) مع قوله: ((**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُه**)) والإنسان إنَّما هو حيٌّ ببقاء علمه فإذا ذهب علمه مات على الحقيقة؛ فما بقي له عمل في الدُّنيا يجري عليه ثوابه فإنَّه لا يزال حيًّا، يدلُّ على هذا قوله -سبحانه وتعالى-:﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[3] فالحياة الحقيقة المتَّصلة بالآخرة هي لمن أبقى شيئًا من العمل في الدُّنيا يجري عليه ثوابه في الآخرة، وقد جاءت جملة من الأعمال عنه صلَّى الله عليه وسلَّم جمعها بعض أهل العلم في مصنَّفات -ليس هذا محلًّا للكلام عليها-.

الشَّاهد أنَّ أهل العلم يَبقَوْن ببقاء علومهم حتَّى وإن ماتوا، ولهذا جاء في وصية علي ابن أبي طالب لكُمَيْل بن زياد -وهي وصيَّةٌ عظيمةٌ جدًّا، إعتنى بها العلماء وشرحوها وأفردوها بمصنَّفات كالسَّفاريني- قال فيها علي ابن أبي طالب لكُميل بن

---

[1] سورة النَّحل: 43

[2] رواه مسلم

[3] سورة الفجر: 24

زياد: (العِلْمُ يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِه، وجَمِيل الأُحدُوثَة بعْدَ مَماتِه)[1] أراد رضي الله عنه أنَّ هذا العلم مع ما فيه من الفضائل فإنَّه يُكسب صاحبه الطَّاعة في الدُّنيا -كما مرَّ معنا في بداية النَّظم-:

مُطاعًا إِن نَهيتَ وَإِن أَمرتَا

ويُكسبه بعد موته جميل الأحدوثة؛ بمعنى أنَّه يكون حديثًا حسنًا للنَّاس بآثاره وما تركه من العلم، أكان ذلك في طلَّابه والَّذين حملوا العلم عنه أو كان ذلك فيما صنَّفه وكتبه، وفي هذا العصر أيضًا فيما سجَّله فإنَّ مثل هذه الوسائل ممَّا تُعين العبد وتعين العالِم على نشر علمه وبقائِه في النَّاس، هذا فضلٌ عظيم اِمتنَّ الله به على عباده.

وفي قصيدة علي ابن أبي طالب المنسوبة إليه وهي مشهورة، قوله رضي الله عنه -الَّتي قال في مطلعها-:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُمُ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُم مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
لَا فَخْرَ إِلَّا لِأَهلِ العِلمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الهُدى لِمَنِ اِستَهدى أَدِلَّاءُ

إلى أن قال -رحمه الله-:

فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيًّا بِهِ أَبَدًا ... فالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

وهذه هي الحقيقة، فأنت إذا نظرت إلى تأريخ الأُمَّة -وتأريخ الأُمم حتَّى في غير المسلمين- تجد أنَّه لم يبق الذِّكر إلَّا لمن حمل العلم، وتجد أنَّه يتعاصر في الطَّبقة الواحدة ثلاثة أصناف من النَّاس لهم الوجاهة -يعني الَّذين يُذكرون في حال حياتهم-:

[1] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:80

_ الملوك.

_ والعلماء.

_ والتُّجار.

ولكنَّه لا يبقى ذكرٌ لأحد بعد الممات إلَّا لأهل العلم، وقلَّ أن يُذكر أهل المُلك أو التِّجارة إلَّا لبعض المميِّزات الَّتي فيهم؛ ولذلك العلم الَّذي يُكسب الفضائل هو الَّذي يبقى ذِكر صاحبه، ولهذا قال القائل:

وَمَادَامَ ذِكْرُ الْمَرْءِ بِالْفَضْلِ بَاقِيًا ... فَذَلِكَ حيٌّ وَهُوَ فِي التُّرْبِ هَالِكُ

لماذا؟ لأنَّ العلم هو الَّذي يكسبك الفضائل.

وَمَادَامَ ذِكْرُ الْمَرْءِ بِالْفَضْلِ بَاقِيًا

الفضائل والأخلاق والعمل بالعلم.

فَذَلِكَ حيٌّ وَهُوَ فِي التُّرْبِ هَالِكُ

حيٌّ بذكره لمَّا يذكره النَّاس ويذكرون فضائله ويذكرون علمه؛ ولهذا قال الآخر:

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَمَا مَاتَتْ فَضَائِلُهم ... وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاس أَمْوَات

والآخر يقول:

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورُ

وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ ... فَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

هذه الحقيقة هي الَّتي يُريد أن يُوصلك إليها الألبيري -رحمه الله- حثًّا لك على معرفة العلم ومعرفة فضله وأنَّ الإنسان مُحتاج للعمل ولن يطول عمره، ولو طال ما عُمِّر نوح فإنَّه سينقضي عمره إلَّا أهل العلم، فإنَّ أهل العلم الَّذين اِكتسبوا الفضائل يبقى لهم علمهم.

والأبيات في هذا كثيرة، -الأبيات الَّتي أعرضنا عنها أكثر من الَّتي ذكرنا في تبيين وتأصيل هذه القضية-.

وهو يقُول:

وَتُفقَدُ إِن جَهِلتَ وَأَنتَ باقٍ

أنت في النَّاس تمشي كما يمشون، وتأكل ما يأكلون، وتشرب ما يشربون.

وَتوجَدُ إِن عَلِمتَ وَلَو فُقِدتا

ذهب بدنك وصرت ميتًا في عداد الأموات، لكن لا تجلس مجلسًا إلَّا وتجد النَّاس من بعدك يذكرونك بعلمك، كما هو الحال والشَّأن في الأئمَّة المتقدِّمين والمتأخِّرين، فإنَّ مجالس أهل العلم ومجالس أهل الدِّين ومجالس أهل الصَّلاح عامرة بذكرهم، من طبقة الصَّحابة وطبقة التَّابعين ومن بعدهم، يذكرون مالكًا والشَّافعي وأحمد، ويذكرون من جاء بعدهم كشيخ الإسلام ابن تيمية ويذكرون ابن القيِّم ويذكرون اِبن عبد الوهَّاب، وفي هذا العصر يذكرون اِبن عثيمين وابن باز -إلى غيرهم من أئمَّة الدِّين والسُّنَّة-، وهذا فضل من الله يؤتيه من يشاء؛ فالنَّاظم يُنبِّه إلى هذه القضية، وهي قضية مُهمَّة كون الإنسان يبقى عمله وقد ذهب ذاته ويجري عليه ثوابه بعد موته أيّ فضلٍ أعظم من هذا؟! فتأتيه الحسنات، ناهيك عن أنَّ النَّاس وهم ينتفعون بعلمه يستفيدُ الأجر والثَّواب، ومع هذا فإنَّ من حقوق العالِم على النَّاس الَّتي يعرفها أهل العلم وحملته بعدهم: أنَّهم لا يَذكرون العالم إلَّا بالدُّعاء، فيترحَّمون عليه ويُثنون عليه الخير ويشهدون له بالصَّلاح، ولو لَم يكن إلَّا أنَّهم يترحَّمون عليه لكان ذلك كافيًا، حتَّى أنَّ الإمام أحمد جاء عنه بأسانيد صحيحة أنَّه قال: (مَا بِت مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَة إِلَّا وَأَنَا أَدْعُو للشَّافِعِي وَأَسْتَغْفِرُ لَهُ)[1] -رحمه الله-، وهذا كثير، إنَّما ذكرنا هذا من باب التَّمثيل والاِستئناس وإلَّا فإنَّك لو نظرت في

[1] "وفيات الأعيان" لابن خلكان رحمه الله؛ ص: 164

تراجم الأئمَّة تجد أنَّهم يذكرون مثل هذا –الدُّعاء-، حتَّى قال أبو حاتم وجاء عن جماعة حتَّى من الصَّحابة كالبراء بن عازب وغيره أنَّهم ما كانوا يُصلُّون أو يسجدون أو يقفون في مقام تُرجى فيه إجابة الدَّعوة إلَّا ودعو لعلمائها، وهذا فضل عظيم مع ما يَستفيده العالم من اِنتشار علمه واِستفادة النَّاس من علمه، أيضًا الَّذين جاؤوا من بعده يترحَّمون عليه.

ثُمَّ قال -رحمه الله تعالى-:

وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ إذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا

هو ينبِّهك على أنَّ الشَّأن ليس في القول، ومن بديع ما يُقال في مثل هذا الباب ما قاله بعض العلماء: (النَّصِيحَةُ سَهْلَة، وَلَكِن الصَّعْبَ قَبُولُهَا) والقبول فيه اِنشراح الصَّدر وفيه العمل بها، فهو يقول:

وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ

[بَعْدَ حِينٍ] لكن الله أعلم بهذا الحين، فقد يكون هذا الحين عند غرغرة الرُّوح وقُرب الأجل فلا ينتفع الإنسان بشيء؛ وقد يكون هذا الحين متقدِّمًا على هذا ولكنَّه فات على الإنسان شيءٌ كثير ضيَّع فيه وفرَّط.

[بَعْدَ حِينٍ] هذا فيه نوعٌ من التَّهديد، فيه نوعٌ من التَّنبيه، من التَّقريع؛ هو يقول له:

وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ

متى هذا الحين؟! ربَّما يكون هذا الحينُ حينَ لا ينفع ندم ولا ينفع اِستدراك.

وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ إذا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا

فإذا عملت بهذا النُّصح الَّذي قدَّمته لك والَّذي سيأتي ممَّا تستقبله ستذكر قيمة هذه النَّصيحة وستذكر فضلها ومكانتها وأنَّها كانت لكَ بمثابة النُّور والحياة الَّتي لا يُمكن أن تستغني عنها.

وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ

لكن متى؟!

إذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا

هل لأنَّ الألبيري هو قائلها؟! لا؛ لكن لأنَّ العلم هو الحاكم بها، النُّصوص من الكتاب والسُّنَّة، هذا أثر العلم كما ذكرنا في مجالس مُتقدِّمة كلام ابن بطَّة[1] وكلام الآجري وكلام ابن القيِّم في أنَّ طاعة أَهْل العِلْم وَاجِبَة ومَعصيَّتُهم مُحرَّمة[2]؛ لِمَ؟ لما يقضون به من العلم والحكمة الَّتي إمَّا أن تكون منصوصة في كتاب الله وفي سُنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم أو تكون ممَّا اِستنبطوه وفتح الله به عليهم.

وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ إذا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا
فَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا

هنا يقول إن أهملتَ ما قدَّمته لك -وما سيأتي ممَّا سأذكره-.

وإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا

[نَبَذْتَ] يعني طرحتَ النُّصح، النّبذ معناه الطَّرح واللَّفظ، نَبَذَ الشَّيء؛ فلم تلتفت إلى هذه النَّصائح ولم تلتفت إلى هذه التَّوجيهات ولم ترفع بها رأسًا.

---

[1] قال ابن بطَّة رحمه الله: (طَاعَتُهُم عَلَى جَمِيع الْخَلقِ وَاجِبَة وَمَعْصِيتهُم مُحرَّمة مَنْ أَطَاعَهُم رَشَد وَنَجا وَمَنْ خَالَفَهُم هَلَك) ["إبطال الحيل"، ص:56].

[2] قال ابن القيِّم رحمه الله: (حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَاب، وَطَاعَتُهُمْ أَفْرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ بِنَصِّ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾) ["إعلام الموقعين"، الجزء الأول، ص:8]

[نَبَذْتَ نُصْحًا] هنا نكِّر، مثل هذا نحن نستأنس بالوجوه البلاغية وإلَّا فإنَّ النَّظم أحيانًا يكون هو الحاكم، ولكن الألبيري كان من بلغاء الشُّعراء -رحمه الله- وإن كان ليس من القرون المستشهد بها، لكنَّه يقول لك هذا المعنى المنكَّر: لا ينبغي لك أن تنبذ أيَّ نصح مهما كان لأنَّه يعُم، التَّنكير عموم حتَّى وإن كان في سياق الإثبات -على خلافٍ بين الأصوليين والبلاغيين فيما يتعلَّق بالنَّكرة في سياق الإثبات-.

يقول لك:

وإنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا

أيَّ نصحٍ؛ الإنسان ينصحك بأداء شيءٍ يسير، سهل، قد لا يكون فيه من الأجر ما هو كبير، لكنَّه أجرٌ وفضلٌ من الله -سبحانه وتعالى-، فلَا تنبذه حتَّى إذا كان هذا من الأشياء الكمالية الَّتي يحسن بها نوع من خُلقك أو أدبك أو ما أشبه ذلك، فلا تنبذهُ.

فإنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا

[وَمِلْتَ] تجنَّبت وجنحت [إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا] حُطام الشَّيء -الشَّيء المتحطِّم-: حطام الحطب، حطام الزُّجاج؛ شيءٌ محطَّم لا يُمكن أن يجتمع لك حتَّى تُكوِّن منه شيئًا أو هيئةً أو شيئًا فيه مصلحة، هو في حقيقته الآن موجود أمامك لكن ما الَّذي يؤول إليه أمره؟ أنَّه حُطام.

وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا

النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**إنَّ مَطعمَ ابْنِ آدمَ قَدْ ضُرِبَ مَثلًا للدُّنْيَا، وإن قَزحَه ومَلَّحَه، فانْظُرْ إلَى مَا يَصيرُ**))[1] -والحديث في «صحيح الجامع» للعلَّامة الألباني رحمه الله-، هذا مثل عجيب؛ الطَّعام الَّذي يأكله الإنسان يضع عليه

[1] حسَّنه الإمام الألباني في "صحيح الجامع"؛ من طريق أُبي بن كعب رضي الله عنهُ.

التَّوابل والبهارات والأملاح من أجل أن يُزيِّنه ويُحسِّنه، ما مآله؟ **((فـانْظُرْ إلَى مَـا يَصيرُ))** ولم يذكر النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ما يصير إليه لأنَّه شيءٌ معلوم يعلمه كُلُّ البشر وغير البشر **((فانْظُرْ إلَى مَا يَصيرُ))**.

وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَـدْ جَمَعْتَا

والنَّاظم -رحمه الله- سيكرِّر هذا المعنى عندما سيذكر المال والمقارنة بينه وبين العلم:

جَعَلْـتَ المـالَ فَـوقَ العِلـمِ جَهـلاً ... لَعَمـرُكَ في القَضـيَّةِ مـا عَـدَلتا
وَبَينَهُمـا بِـنَصِّ الـوَحيِ بَـونٌ ... سَـتَعلَمُهُ إذا طَـهَ قَرَأتـا

وذكر هذا المعنى في أكثر من موضعٍ، سنرجئ الكلام عليه إلى المقارنة بين المال وبين العلم.

وَمِلْـتَ إِلَى حُطَامٍ قَـدْ جَمَعْتَا

ما الأمر الَّذي سيصل إليه بعد ذلك؟

فَسَوفَ تَعَضُّ مِن نَدَمٍ عَلَيها ... وَما تُغني النَّدامَةُ إن نَدِمتا

إذا أهملت النَّصيحة ونبذتها ووصلتَ إلى مرحلة لا يسعك أن ترجع فيها -كما يقولون- إلى الوراء ولن يستطيع ذلك أحد من النَّاس، حتَّى قيل لبعض السَّلف: (قِف أُكلِّمك) قال: (أَمْسِك الشَّمْس)[1] وهذا أيضًا كثير عنهم -رضيَ الله عنهم ورحمهم-، وهنا النَّاظم -رحمه الله- يريد أن يُؤكِّد هذا المعنى.

[1] "صيد الخاطر" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:505؛ عن عامر بن عبدالله رحمه الله.

فَسَوفَ تَعَضُّ مِــن نَدَمٍ عَلَيها

أصل النَّدم: حسرة القلب ولوعته ومحلُّه القلب كما يقول ابن القـيِّم -رحمـه الله-، إلَّا أنَّ اليدين أكثر تعبيرًا عن هذا النَّدم والحسرة الواقعة فيـه -يعـني في القلـب-، ولهذا ذكر الله هذا المعنى في موضعين من كتابه:

_ قال الله -سبحانه وتعالى- في قصَّة الرَّجلين في سورة الكهف:﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[1] من طبيعة ابن آدم أنَّـه إذا خسر شيئًا وتحسَّر عليه قلبُه عبَّر عنه بيديه فيصير يُقلِّـب ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ حسرةً وندمًا ولوعةً؛ ذكر الله هذا في أمور الدُّنيا.

_ وفي أُمور الدِّين ذكره الله -سبحانه وتعالى- في التَّحسر على اِتِّباع النَّـبي صـلَّى الله عليه وسـلَّم في قـوله -جـلَّ وعـلا-:﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَىٰ﴾[2] هذا هو الحسرة ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، وهنا النَّاظم قال:

فَسَوفَ تَعَضُّ مِــن نَدَمٍ عَلَيها

والعضُّ حقيقةً؛ ليس كما يقول بعض المفسِّرين وبعض الشُّراح أنَّه كناية عن شدَّة النَّدم والحسرة، لا؛ حتَّى الإنسان إذا نظرتَ إليه أحيانًا تجد أنَّه بمجرَّد النَّدم يعـضُّ على أصابعه، طبيعة في الإنسان، وتقليب الكفَّين أيضًا هو على حقيقتـه، والله -عـزَّ وجل- هنا لم يذكرْ الأنامل والأصابع بل قال:﴿يَعَضُّ﴾ هذا متى؟ في الآخرة، وأمور الآخرة غيبٌ لا يعلمه إلَّا الـرَّب -سـبحانه وتعـالى-، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

---

[1] سورة الكهف: 42

[2] سورة الفرقان: 27-28

فَسَوفَ تَعَضُّ مِـن نَدَمٍ عَلَيها

ولكن:

وَمـا تُغني النَّدامَـةُ إِن نَدِمتـا؟

هل يغني الإنسان أن يندم وأن يتحسَّر وأن يتكلَّم بهذا النَّدم وبهذه الحسرة؟ لا يغنيه، إلَّا إذا كان مرحلة اِنتقالية بين الخير والشَّر، لماذا؟! لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: **((إنَّ لِكُلِّ عَملٍ شِرَّةٌ، ولِكُلِّ شرَّة فَترةٌ، فَمَنْ كانَتْ شرَّتُه إلى سنَّتي فَقد أَفْلَح، ومَن كَانَتْ فَتْرَتُه إِلَى غَيرِ ذلِكَ فَقَدْ هَلَكَ))**[1] وفي رواية: **((إلَى بِدْعَةٍ فَقَدْ ضَل))**[2]
والحديث في «الصَّحيح المسند» لشيخنا مُقبل -رحمه الله تعالى-.

((لِكُلِّ عَملٍ شِرَّةٌ، ولِكُلِّ شرَّة فَترةٌ)) هذه الفترة -إن صحَّ التَّعبير- يُقال فيها: فترة اِنتقالية، فيفتر الإنسان، لكن بعد هذه الفترة وهذا الفتور إلى أين يكون مآله؟! إن كان إلى رجوع إلى الأحسن وإلى سُنَّة النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فهذا هو الهُدى والخير، وإن كان إلى غير ذلك فقد ضل.

وهنا النَّاظم -رحمه الله- يقول:

فَسَوفَ تَعَضُّ مِن نَدَمٍ عَلَيها   وَمـا تُغني النَّدامَةُ إِن نَدِمتا

لكن النَّدامة قد تُغني، لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أيضًا يقول: **((النَّدَمُ تَوْبَة))**[3] النَّدم هو مرحلة اِبتدائية للتَّوبة، حسرة القلب وتلوُّعه هذا نوعٌ من التَّوبة، وأمَّا إذا كان الإنسان في مرحلةٍ لا ينفعه فيه النَّدم فهذا ما يزيده إلَّا ألمًا وحسرةً ولهذا قال الله -عزَّ وجل-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ

---

[1] قال الشيخ أحمد شاكر في "مسند أحمد": إسناده صحيح.

[2] (إنَّ لِكُلِّ عمرٍ شِرَّة، ثُمَّ فَتْرَة، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى بِدْعَة فَقَدْ ضَل، وَمَنْ كَانَتْ فتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَد اِهْتَدَى) [صحَّحهُ الشيخ مُقبل الوادعي رحمه الله في "الصَّحيح المسند"].

[3] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح ابن ماجه"؛ من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّاۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَاۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]، وأيضًا في قوله تعالى:﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾[2].

وهذه المعاني الَّتي صاغها وساقها الألبيري -رحمه الله تعالى- معانٍ جليلة، عظيمة، وكلُّها كما ترَون مع قلَّة التَّركيز والقصور في فهم معانيها إلَّا أنَّها اِحتوت شيئًا كثيرًا من التَّنبيه على ما يسلكه الإنسان في العلم وعلى حقوق العلم.

سنكتفي بهذا إن شاء الله؛ وفَّق الله الجميع لما يُحبُّه ويرضاه.

---

[1] سورة المؤمنون: 99-100

[2] سورة الفجر: 25-26

الدَّرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

هذا هو المجلس العاشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة أبي إسحاق الألبيري -رحمه الله تعالى- المشهورة بالتَّائية، والَّذي ينعقد على غُرفة الإمام ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله تعالى-.

وقد اِنتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم -رحمه الله-:

فَسَوفَ تَعَضُّ مِن نَدَمٍ عَلَيها ... وَما تُغني النَّدامَةُ إِن نَدِمتا

تكلَّمنا على هذا البيت فيما سبق، وله صلةٌ بما بعده، لأنَّه قال:

إِذا أَبصَرتَ صَحبَكَ في سَماءٍ ... قَد اِرتَفَعوا عَلَيكَ وَقَد سَفلْتَا

متى يأتي هذا العضُّ على الأصابع من النَّدم؟!

إِذا أَبصَرتَ صَحبَكَ في سَماءٍ

وذلك أنَّه -كما مرَّ معنا- فإنَّ من أعظم أسباب الرِّفعة في الدُّنيا وفي الآخرة: العلم؛ وأهل العلم هم أهل الرِّفعة، كما قال ربُّنا -سبحانه وتعالى-:﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾[1] المؤمنون أهل رفعةٍ وعلوٍّ، ولهذا قال

[1] سورة المجادلة: 11

سُبحانه:﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، وهنا قال:﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ ومِنَ الَّذين آمنوا: الَّذين أوتوا العلم، فهؤلاء يرفعهم درجاتٍ فوق درجاتِ الَّذين آمنوا، وهكذا تُفهم هذه الآية، يعني أنَّ أهل الإيمان لهم رفعة إلَّا أنَّ من اِتَّصف بصفةٍ زائدةٍ على الإيمان وهي «العلم» فإنَّه يرتفع فوق درجة أهل الإيمان، هذا أيضًا كقوله سبحانه:﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2] يعني والَّذين اِتَّقوا من أهل الإيمان فوقهم يوم القيامة.

مرَّ معنا أيضًا ما جاء في صحيح مسلم في حديث عبد الرَّحمن بن أبزى، لمَّا لقيَ عمر رضي الله عنه نافع بن عبد الحارث بعسفان، واستعماله لابن أبزى، فسأله: (مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى؛ قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟! قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ)[3]؛ كذلك في قوله -سبحانه وتعالى-:﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾[4] قال مالك بن أنس إمام دار الهجرة -رحمه الله تعالى- عن زيد بن أسلم -وعامَّة ما يأخذه مالك من التَّفسير فإنَّه يأخذه عن زيد بن أسلم-، أنَّه قال: (﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ قال: بِالْعِلْمِ)[5]، وكذلك ما ذكره الله -سبحانه وتعالى- في قصَّة بني إسرائيل:﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[6] كانوا لا يظنُّون أنَّ الله -سبحانه وتعالى- سيبعث طالوت ملكًا، حتَّى قالوا:﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا

---

[1] سورة آل عمران: 139

[2] سورة البقرة: 212

[3] رواه مسلم

[4] سورة يوسف: 76

[5] "فتح الباري" لابن حجر رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:170؛ وأيضًا "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:619

[6] سورة البقرة: 246

وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[1] فبدأ بالمُلك أنَّ سببه هو العلم، ﴿بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

فهو يقول:[إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ] الَّذين صحبوك وزاملوك، [فِي سَمَاءٍ] قد صاروا مُرتفعين، لأنَّ لفظ «السَّماء» يُراد به العلوّ -كما مرَّ معنا في الواسطيَّة-، أنَّ السَّماء تُطلق على العُلوِّ؛ يعني إذا أبصرت صحبك في علوٍّ.

قَـــد اِرْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَـدْ سَفُلْتَا

وهذا حال الإنسان أنَّه:

_ إمَّا أن يكون في عليِّين.

_ وإمَّا أن يكون في أسفل سافلين أو في السَّافلين -عياذًا بالله-.

كما قال -سبحانه وتعالى-:﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[2] فالجهل من أعظم الأسباب المورثة لأنْ يكون الإنسان في أسفل سافلين، لأنَّه إذا جهل عمل كلَّ الأعمال، ولم يكف عن أيِّ عمل ممَّا يُشان به صاحبه.

فهو -رحمه الله تعالى- يقول بأنَّك ستعضُّ أصابع النَّدم إذا جاء الوقت الَّذي ترى فيه أصحابك وأقرانك ومن زاملوك قد اِرتفعوا عليك وقد سفلت، فصرتَ محتاجًا إليهم في أقلِّ أُمورك: اِستشارةً، سُؤالًا، وتعلُّمًا.

---

[1] سورة البقرة: 248

[2] سورة التين: 1-6

وهذا لا شكَّ أنَّ أصحاب الهمم العليَّة وأصحاب العقول الزَّكيَّة لا يرضون بهذه المنزلة، ولهذا يعضُّون أصابع النَّدم عليها، متى هذا؟ كما قلنا:

إذا أَبصَرتَ صَحبَكَ في سَماءٍ ... قَد اِرتَفَعوا عَلَيكَ وَقَد سَفَلتا

هنا قال -انتبه-:[فَرَاجِعْهَا] ما هي؟! النَّفس؛ راجع النَّفس، مادُمتَ تتنفَّس فمعك فيها سعة.

فَراجِعها وَدَع عَنكَ الهُوَيْنَى ... فَما بِالبُطءِ تُدرِكُ ما طَلَبتا

يقول راجع النَّفس، حاسبها، وأقبل عليها، لماذا؟! لأنَّك لا تُدرك هذه الرِّفعة وهذه المنزلة بالهُوَيْنَى وبالبطء؛ لأنَّ الإنسان إذا تبطَّأ عن العمل لم ينفعه نسب ولا منصبٌ ولا مالٌ ولا جاهٌ، مِصداقُ هذا ما جاء في الصَّحيح عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: **((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))**[1].

فهو يقول: لا تُدرك المنازل العليَّة بالبطء، ولكنَّما تُدركُها بالجدِّ والاِجتهاد.
هو أراد هنا الجدَّ والاِجتهاد ولم يرد السُّرعة في التَّحصيل، لماذا؟! لأنَّه قد مرَّ معنا أنَّ السَّلف كانوا يَنهوْن عن سُرعة التَّحصيل في العلم، كما جاء عن محمَّد بن شهاب الزُّهري فيما رواه عنه الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النّمري -رحمه الله تعالى- في كتاب «الجامع»، أنَّه كان يقول (مَنْ رَامَ العلْم جُمْلَةً ذَهبَ عنهُ جُملَةً)[2] كما قيل:

اليَوْمَ شَيْءٌ وغَدًا مثلهُ ... مِن نُخَب العِلْمِ الَّتي تُلْتَقط
يحصِّل المرْء بِها حكْمَة ... وإنَّما السَّيل اِجتماعُ النُّقط

[1] رواه مسلم؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.
[2] "جامع بيان العلم وفضله"، لابن عبد البر رحمه الله، ص:431

ففرق بين النَّهي عن الإسراع في العلم من جهة التَّحصيل وبين الأمر بالإسراع في تحصيله قبل ذهاب وقته.

فكون الإنسان يأخذ العلم شيئًا فشيئًا فهو مجدٌّ ومجتهد ولم يتباطأ عنه، فإذا أسرع فيه وقطع وِدْيانه اِنقطع به، وكما جاء في بعض الآثار -وبعضهم يرويه مرفوعًا ولكنَّه لا يصح-: (إنَّ المُنْبَتَّ) يعني المسرع الَّذي لا يلتفت إلى شيءٍ (إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى)[1] الَّذي يُعاجل الأمور يُفسد ظهره، ما المراد بالظَّهر؟! مركُوبه -يعني ناقته الَّتي معه-، وهو أيضًا لا يقطع الأرض الَّتي يُريد أن يقطعها.

فالنَّاظم -رحمه الله تعالى- يقول:

فَما بِالبُطءِ تُدرِكُ ما طَلَبتا

ومرَّ معنا في قول النَّاظم:

فَوَاظِبْـهُ وخُـذ بالجدِّ فيـه

جُملةٌ من الكلام والآثار عن السَّلف -رحمهم الله-، حتَّى قيل لابن المُبارك: (إِلَى مَتَى تَطْلُبُ العِلْمَ؟ قَالَ: حَتَّى الْمَمَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)[2] وقيل له مرَّة أخرى مثلُ ذلك فقال: (لَعَلَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَنْفَعُنِي لَمْ أَكْتُبْهَا بَعْدُ)[3]، وقال الإمام أحمد: (مِنَ الْمَحْبَرَةِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ)[4]؛ كانوا يحرصون على سماع العلم والمواظبة عليه والجدِّ والاِجتهاد فيه غاية الحرص.

بعض الأبيات فيها نوع من التَّشابه، قد مرَّ معنا الكلام عليها.

---

[1] "خُلاصة الأحكام" للنووي رحمه الله؛ رقم:2041، الجزء الأول، ص:598.

[2] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:406.

[3] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:406

[4] قَالَ صَالِح بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل: (رَأَى رَجُلٌ مَعَ أَبِي مِحْبَرَةً، فَقَال لَهُ: يَا أَبَا عَبْد الله، أَنْتَ قدْ بَلَغْتَ هَذَا الْمَبْلَغ، وَأَنْتَ إِمَامُ الْمُسْلِمين؛ فَقَالَ: مَعَ المِحْبَرَة إِلَى المَقْبَرَة) ["مناقب أحمد" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:37]

هنَـا يقُـــول:

فما بِالبُطءِ تُدرِكُ مــا طَلَبتا

ثمَّ يقول -رحمه الله-:

وَلا تَخْتَل بِمالِكَ وَاِلْه عَنهُ فَلَيسَ المالُ إِلَّا ما عَلِمتا

في نُسخة: [ولَا تَحْفَل].

_ [لَا تَخْتَل]: من الاِختيال، والاِختيال مـأخوذٌ مـن الخيـال وهـو التَّخيُّـل الَّذي يتخيَّله الإنسان على غير حقيقته، ولهذا يُسمَّى مـن نـزَّل نفسـه غـير منزلتهـا بـ: «المختال»، لأنَّه نزَّلها منزلة من الخيال، هو تخيَّل أنَّ هذه منزلته، لهذا نهى الله -عـزَّ وجلَّ- في آياتٍ كثيرة عن الاِختيال -أن يختال الإنسان-، لماذا؟! لأنَّـه يُـنزل نفسـه منزلةً هي ليست له، هذا ضربٌ من الخيال، فهـو يقـول: [لَا تَخْتَـل] مـن الاِختيـال، [بِمَالِكَ] وتظنّ أنَّ من حصَّل المال فقد حصَّل كلَّ شيء في الدُّنيا، وهذا مقياس أهل الدُّنيا.

والمال من أعظم الفتن الَّتي تصرف طالب العلم عن العلم، ولن نتكلَّم عنه في هـذا المجلس، وقُلنا سنتكلَّم عليه إن شاء الله، لأنَّ النَّاظم -رحمه الله- كرَّره في مواضع، ولكنَّ أنسب المواضع له قوله رحمه الله -وهذا لعلَّه في الدَّرس القادم إن شـاء الله- قوله رحمه الله:

جَعَلـتَ المـالَ فَـوقَ العِلـمِ جَهـلاً لَعَمـرُكَ في القَضـيَّةِ مـا عَـدَلتا

وَبَينَهُمـا بِـنَصِّ الـوَحيِ بَـونٌ سَـتَعلَمُهُ إِذا طَـهَ قَرَأتـا

_ وفي النُّسخة الأُخرى: [وَلَا تَحْفَلْ] تحفل: من الاِحتفال، وهو اِنتشاء الإنسان بالشَّيء الَّذي عنده، كما يُقال: «هذا اِحتفال» أو «هذا محفل».

فهو يقول: [لَا تَحْفَل] أو [لَا تَخْتَل بِمَالِكَ] الَّذي تموَّلته؛ والمال ليس المراد به النَّقدين -الذَّهب والفضَّة أو ما قام مقامهما من الورق-؛ وإنَّما المال عند أهل اللُّغة وفي العُرف الشَّرعي: هو كلُّ ما تموَّله الإنسان أكان عقارًا أم دراهما، أكان ذهبًا أم فضَّة؛ فكلُّ ما تموِّل فهو يُسمَّى مالًا.

فهُـو يقُـول:

وَلا تَخْتَل بِمالِكَ وَالْـهُ عَنْـهُ

هذا من أعجب ما أوصى به الألبيري -رحمه الله-، لماذا؟! لأنَّه قلَّ أن يوجد -لو وُجد- أحدٌ يَلهو عن المال، الله -سبحانه وتعالى- يقول في كتابه الكريم:﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1]، وقال -جلَّ وعلا-:﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2]، ومع هذا فقد نهى الله -عزَّ وجلَّ- عن أن يُغرِق الإنسان في المال إذا كان هذا سيصرفه عن أمور دينه وآخرته.

وهذه العلاقة وهذه الصِّلة بين أمور المال وأمور الدِّين أيضًا سنذكرها في البيت الَّذي تقدَّم، لماذا؟ لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال فيما يرويه عن ربِّه -وكان هذا يُتلى

[1] سورة الفجر: 20
[2] سورة العاديات: 8

قرآنًا-: ((إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...؛ وَلا يَمْلأُ جَوْفَ اِبْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ))[1].

فهُـو يقُـول:

وَلا تَخْتَل بِمالِكَ وَالِهُ عَنــهُ

ولهذا من عجائب هذه المنظومة أنَّ النَّاظم -رحمه الله- لمَّا تكلَّم على الدُّنيا قال:

وَإِن هُدِمَت فَزِدها أَنتَ هَدمًا　　وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا

وبهذا يُفهم هذا البيت [وَالِه عَنْهُ]:

وَإِن هُدِمَت فَزِدها أَنتَ هَدماً　　وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا

يُفهَم اللَّهو عن المال وهدم الدُّنيا إذا كان هذا هو الحصن الَّذي يتحصَّن به دينك.

وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا

[فَلَيسَ المالُ] هذا -كما قلتُ لكم- بأنَّه الشَّيء الَّذي تموَّل الإنسان، يعني يحتويه، يصير مالًا.

فَلَيسَ المالُ إِلَّا مـــا عَلِمتَا

فالمال حقيقة الَّذي يتموَّله الإنسان هو: العلم، وأشرف ما يؤتاه الإنسان: العلم، وهو العلم الشَّرعي، العلم الَّذي لا قيد له، ولا قيد لمن اِتَّصف به، قالوا: «هذا عالِم» فلا يُراد به إلَّا عالِم الشَّريعة، أمَّا إذا وُصف بالعلم في غير علم الشَّريعة فإنَّه يُؤتى فيه بالقيد: «عالم كيمياء، عالم طب، عالم فيزياء، عالم تكنولوجيا»؛ أمَّا إذا قيل: «هذا

---

[1] ((إنَّا أنْزَلْنا المالَ لِإقَامِ الصَّلاةِ، وإيتَاءِ الزكاةِ، ولَوْ كان لابنِ آدمَ وادٍ، لَأحبَّ أنْ يَكُونَ إليه ثانٍ، ولَوْ كان لهُ واديانِ لَأحبَّ أنْ يَكُونَ إليهما ثالثٌ، ولا يَمْلَأُ جَوْفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ على مَنْ تابَ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "السِّلسلة الصَّحيحة" من طريق أبي واقد الليثي رضي الله عنه]

عالِم» فإنَّ العُرف الذِّهني والشَّرعي واللُّغوي ينصرف إلى عالم الشَّريعة، العالم بكتاب الله وبسنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.

فهو يقول لك: ليس المال الحقيقي الَّذي تتموَّله إلَّا ما علمت.

[وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ] لاحظ! هنا مع المال يقول:

وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنًى

ونسخة [مُغنٍ]؛ بهذا وبهذا.

وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنًى

[مَعْنًى] في الحقيقة، أو [مغنٍ] يُغني عنه.

وَلَــو مُلكُ العِـراقِ لَــهُ تَأَتّى

[لَيْسَ لِجَاهِلٍ] الجاهل الَّذي لم يتعلَّم العلم ولم يُميِّز بالعلم بين صحيح الأمور وفاسدها، وحقِّها وباطلها، وخيرها وشرِّها، ليس له معنى في النَّاس أو ليس له مغنٍ يُغني عنه، وما الغنى في أن يكون الإنسان جاهلًا ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1]، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]؛ فليس للجاهل لا معنى ولا ما يُغني عنه حتَّى ولو مَلَكَ العِراق.

وَلَــو مُلكُ العِراقِ لَــهُ تَأَتّى

[1] سورة الرعد: 19

[2] سورة الملك: 22

تقول: لماذا ذكر العراق؟!

لأنَّ خلفاء بني العبَّاس -والَّذي امتدَّت خلافتهم- اِتَّخذوا بغداد عاصمة لدولة الخلافة، وبغداد هي حاضرة العالَم الإسلامي في ذلك الزَّمان ومحط أفئدة العلماء مع أنَّ كثيرين منهم كان يكره الإقامة فيها بل ينهى عنه، قد جاء عن الإمام أحمد أنَّه قال: (إِنَّمَا جَلَسْنَا فِيهَا كَجُلُوسِ الْمُضْطَرِّ لِأَكْلِ الْمَيتَة)[1] -أو كما قال-؛ وهكذا جاء عن الفُضيل بن عياض وعن غيره، لكنَّها كانت حاضرة العالَم الإسلامي ومحط أفئدة النَّاس وعاصمة دولة الخلافة، ولهذا النَّاظم -رحمه الله- كأنَّه -والله أعلم- ذكر هذا المعنى لما كانت لها هذه المنزلة.

وذكروا في سبب تسمية العراق أشياء كثيرة جدًّا ذكرها الخطيب البغدادي -رحمه الله- في أوَّل «تأريخ بغداد» وذكر جملة من هذه الآثار الَّتي ذكرتها لكم بأنَّ بعض السَّلف كانوا يكرهون مقام في بغداد[2].

فهو يقول: [لَيْسَ لِجَاهِلٍ] الجاهل الَّذي جهل ما أنزله الله -سبحانه وتعالى- على رسول، [مُغنٍ] حتَّى ولو تأتَّى له ملك العراق.

وما كان النَّاس يزِنون بعضهم البعض إلَّا بما يُؤتَوْنه من العلم، حتَّى ذكروا أنَّ بعض الخلفاء -وكان فيه نوع من التَّهاون- كان مرَّة في مجلسه الخاص مع أحد وُزَرائه ويلعبون بالشَّطرنج، دخل عليهم رجلٌ ولم يكونوا يعلمون بمدخله، فلمَّا أحسَّ به غطَّى هذا الشَّيء الَّذي كان يلعب به، لأنَّه كان عندهم نظر إلى مسألة ما يخرم في مروءة الإنسان، حتَّى وإن كان عنده نوع من المجون أو السَّفه لأنَّه لم يكن

---

[1] عن أحمد بْن يوسف بْن الضحاك، قَالَ: سمعتُ أَبِي يقول: سَمِعْتُ بِشْرَ بْن الْحَارِث، يَقُولُ: (بَغْدَاد ضَيِّقة عَلَى الْمُتَّقِين، مَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُقِيمَ فِيهَا؛ قُلْتُ لَهُ: فَهَذَا أَحْمَد بْن حَنْبَل، فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: دَفَعَتْنَا الضَّرُورَة إِلَى الْمَقَامِ بِهَا كَمَا دَفَعَت الضَّرُورة إِلَى أَكْلِ الْميتَة) ["تأريخ بغداد" للخطيب البغدادي رحمه الله؛ الجزء الأول، ص: 294]

[2] قال الخطيب البغدادي رحمه الله: (وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ يَكْرَهُ سُكْنَى بَغْدَادَ وَالْمُقَامَ بِهَا، وَيَحُثُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا) [كتابه "تأريخ بغداد"، الجزء الأول، ص:293]

يُجاهر -لم يكونوا يُجاهرون به-؛ فلمَّا دخل هذا الرَّجل سأل الأمير شيئًا -هذه عادة كثيرين ممَّن يدخلون على الأُمراء وذوي السُّلطة-، فقال له: (هَلْ جَمَعْتَ الْقُرْآن؟ قَالَ: لَا كَانَتْ شَغَلَتْنَا عَنْهُ شَواغِل، قَال: أَحفظْتَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَغَازِيهِ وَأَحَادِيثِهِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا كَانَتْ شَغَلَتْنَا عَنْ ذَلِكَ شَوَاغِل، قَال: فَأَحَادِيثُ الْعَرَبِ وَأَشْعَارهَا؟ قَال: لَا)[1] كلَّما سأله سؤالًا أجابه بالنَّفي، فكشف ما كان يلعب عليه وقال: (مَا مَعَنَا فِي الْبَيْت أَحَدٌ)[2] انظر: (مَا مَعَنَا فِي الْبَيْت أحدٌ). النَّاس كانوا هذا حالهم، كانوا يَزِنُون النَّاس بما يعلمون، ولمَّا كان هذا هو حال النَّاس مع العلم كانت الأُمَّة في غاية من القيادة والرِّيادة والسِّيادة، فلمَّا ذهب العلم ذهب كثيرٌ من هذا الَّذي كانت عليه -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

هنا يقول: [لَيْسَ لِجَاهِلٍ] انظر إلى هذه التَّعبيرات وهذه الألفاظ الَّتي يستعملها النَّاظم -رحمه الله تعالى- في الحطِّ من الجهل:

وَلَيسَ لِجاهِلٍ فِي النَّاسِ مُغنٍ

يعني ما يُغنِ عنه، يقوم مقامه إذا غاب أو حضر، أو [مَعْنًى] إذا غاب أو حضر.

وَلَو مُلكُ العِراقِ لَهُ تَأَتّى

ولو كان هو الملِك، لماذا؟! لأنَّ العلماء إذا أطلقوا باب الشَّهادة وباب اِعتبارها فإنَّهم لا يطلقونها على مفهوم الرِّعاع من النَّاس والدَّهماء؛ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْض))[3] بشرط الشَّهادة، والله -عزَّ وجل- قال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4] والشَّاهد له شروط أو يشهد مَن شَهِد؟! لاشك له شروط،

---

[1] "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص: 19

[2] نفس المصدر السَّابق.

[3] مُتَّفقٌ عليه؛ من طريق أنس بن مالك رضيَ الله عنه.

[4] سورة الزخرف: 86

فهنا مَن الَّذي يشهد بأنَّه لا قيمة للإنسان ولا معنى له ولا غنى عنه ولو ملك العراق له تأتى؟ أهل العلم، وإلَّا فإنَّ جمهور الملُوك وجمهور مشاهير الفنّ وجمهور مشاهير الرِّياضة يُغطُّون عين الشَّمس، لكن هل هم النَّاس؟! ليسوا هم النَّاس؛ النَّاس أهل العلم، كما مرَّ معنا في قول عليٍّ رضي الله عنه:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُمُ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُن لَهُمُ فِي أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
لَا فَخْرَ إِلَّا لِأَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الْهُدَى لِمَنِ اِستَهدى أَدِلَّاءُ

إلى أن قال:

فَالنَّاسُ مَوتَى وَأَهْلُ العِلمِ أَحْيَاءُ

سنكتفي بهذا إن شاء الله؛ والله أعلم، وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدَّرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنـا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الحادي عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائيـة الألبـيري -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد إلى إخواننا السَّلفيين في تونس -وفَّقنا الله وإيَّـاهم-، وينعقد هنا في الرِّياض، ونسأل الله -سبحانه وتعالى- التَّوفيق والسَّداد للجميع.

اِنتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى- :

وَلَيسَ لِجاهِلٍ فـي النَّـاسِ مُغن

وفي نسخة:[مَعْنَى].

وَلَـو مُلكُ العِـراقِ لَـهُ تَـأَتّى

ثمَّ قال -رحمه الله- :

سَيَنطِقُ عَنكَ عِلمُكَ في مَلَاء   وَيُكتَبُ عَنكَ يومًا إن كَتَبتا

وفي نُسخة:

سَيَنطِقُ عَنكَ عِلمُكَ في نَدِيٍّ   وَيُكتَبُ عَنكَ يومًا إن كَتَبتا

هنا لا يزال النَّاظم -رحمه الله تعالى- يذكر آثار العلم وفضائله، ومـن المعلـوم الَّذي تقدَّم أنَّ العلم:

_ إمَّا أن تكون فضائله وآثاره على صاحبه في حياته الدُّنيـا، -يعـني وهـو حيٌّ يُرزق-.

_ وإمَّا أن تكون آثاره عليه بعد موته كمـا مـرَّ معنـا في حـديث: **((إذَا مَـاتَ الإنْسَانُ انقطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلَّا مِنْ ثَلَاثة))**[1].

وأنَّ النَّاس كلّهم أموات إلَّا أهل العلم بعلومهم وما تركـوه وورَّثـوه في النَّـاس مـن العلم، ومن هذا أنَّ النَّاظم -رحمه الله تعالى- يقول:

سَيَنطِقُ عَنــكَ عِلمُكَ فــي ملَاء

والملأ مـن النَّـاس هـم الجماعـة الَّذيـن يجمعهـم وصـف مُعيَّن ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3]، ويُطلق على الملائكة أيضًا الملأ[4].

فهُـو يقُـول:

سَيَنطِقُ عَنــكَ عِلمُكَ فــي ملَاء

مَن هؤلاء الملأ؟ الغالب أنَّهم يكونون أهل العلـم وحملتـه، لأنَّ النَّـاس كمـا هـو مُتقرِّر وكما ذكر شـيخ الإسـلام: (كَـأَسْرَابِ القطَا، مَجْبُولُـون عَلَى تشبُّه بَعْضـهم بِبَعض)[5]، وهناك شيءٌ في النَّاس في العلاقات الاِجتماعيـة يُسـمُّونه بــ «المشـاكلة» بمعنى -كما يقولون-: (الطُّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ)، وأنتم تعلمـون أنَّ أهـل الرِّياضـة

[1] رواه مسلم؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] سورة الأعراف: 66

[3] سورة البقرة: 246

[4] أَرَاد حَفظَهُ الله: قَوْلَهُ تَعَالَى:﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[سورة ص:69]، قَالَ قَتَـادَة: (هُـمْ الْمَلَائِكَـة؛ كَانَـتْ خُصُومَتهمْ فِي شَأْن آدَم حِين قَالَ رَبّك لِلْمَلَائِكَةِ:﴿إِنِّي خَالِق بَشَرًا مِنْ طِين﴾ ["تفسير الطبري"، الجزء:21، ص:237]

[5] "مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ الجزء:28، ص: 150

اِهتمامهم بالرِّياضة، وهكذا أهل الفنّ، وأهل العلم اِهتمامهم بالعلم وبحملته، فعِلْم العالِم ينطق في هذا الملأ -يعني في ملأ العلماء وطُلَّاب العلم وحملته-، فهم أَعرف النَّاس بأهل العلم وبحملته وبوفياتهم وبتراجمهم -إلى غير ذلك-.

فيقُـول:

سَيَنطِقُ عَنكَ عِلمُكَ فِي ملَاء

لماذا فسَّرناه بهذا المعنى مع أنَّه قد يخرج -إنَّما هو أكثر من الملأ الَّذين يجمعهم وصف واحد-؟! لأنَّ أهل اللُّغة يقولون بأنَّ الملأ هم جماعة النَّاس الَّذين يجمعهم وصف، ولكن ليس معنى هذا أنَّه لا يخرج عن هذا الملأ، قد يُذكر العالِم في العوَّام وهذا كثيرٌ جدًّا، موجود؛ في الخُطب، في المحاضرات، في الدُّروس، يسمعونَ بأسماء العلماء وأئمَّة الدِّين، فهو يقول:

سَيَنطِقُ عَنكَ عِلمُكَ فِي ملَاء

بماذا سينطق؟! بالذِّكر الحسن كما مرَّ معنا في قوله تعالى:﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[1]، واستشهدنا بآية أُخرى وهي قوله تعالى:﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[2] لأنَّ العلم شرفٌ لصاحبه.

يقُــول:

وَيُكتَبُ عَنكَ يَومًا إن كَتَبتا

بمعنى أنَّك إذا كتبت هذا العلم الَّذي تحمَّلته ونسخته فصنَّفت الكتب وألَّفت.

[1] سورة الشعراء: 84

[2] سورة الزخرف: 44

• وفرقٌ بين التَّصنيف والتَّأليف:

_ التَّأليف: جمع.

_ والتَّصنيف: اِبتكار وشيء جديد لَم يُسبق إليه الإنسان.

فيقول النَّاظم -رحمه الله- بأنَّ هذا العلم يُكتب عنك، فيُستنسخ ممَّا كتبت؛ لماذا ذَكر هذا؟! لأنَّه لم تكن عندهم هذه المطابع الَّتي أضعفت العلم، تعرفون أنَّ العلماء -في الغالب- كانوا يكتبون الكتب التَّسعة بأيديهم، ويكتبون الشُّروح بأيديهم، ومن كان قد وسَّع الله عليه أو عنده نسَّاخ أو عنده ورَّاق، كَتبَ له؛ وهذا كثير، من قرأ في تراجم الأئمَّة يجد أنَّه كتبَ الكتب السِّتة أكثر من مرَّة أو كتبَ الكتب التِّسعة.

ممَّا قد يحضر حتَّى أنَّ هذا إلى زمن متأخِّر: أنَّ الصَّنعاني والشَّوكاني كتبا «فتح الباري» بخطّ أيديها عندما وصلهما؛ ما كانت هذه الطّباعات والتَّفاخر فيها والتَّكثُّر منها ما كان موجودًا، وهي نعمة لكنَّها للأسف الشَّديد أضعفت العلم، أضعفت القراءة في الكتب -إلى آخره-.

فهو يقُول:

وَيُكتَبُ عَنكَ يَومًا إِن كَتَبتا

فإذا كتبتَ هذا العلم كُتب عنك، ويتناقل النَّاس هذا العلم وخصوصًا العلم المميَّز الَّذي قلَّ أن يَشْركك فيه أحد.

✿ وهنا نذكر الكلمة الَّتي يقولها بعض السَّلف بأنَّ (مِنْ بَرَكَة العِلْمِ نِسْبَتُه إِلَى أَهْلِهِ) وهذه المسألة ليست مُطلقة بل هي مقيَّدة وممَّن قيَّدها: النَّووي -رحمه الله تعالى- في كتابه «بستان العارفين»، فإنَّه ذكر أنَّ هذا حيث يكون العلم دقيقًا ويكون في اِستنباطه نوعٌ من الدِّقَّة أو المشقَّة أو ما أشبه ذلك[1]، لا ما يكون من العلم مُشاعًا أو يتناقله النَّاس بكثرة؛ لكن هناك فوائد عزيزة -توجيه في مسألة، ردٌّ على شيءٍ معيَّن- فمثل هذا ينبغي أن يُنسب إلى قائله.

وَيُكتَبُ عَنكَ يَومًا إِن كَتَبتا

ثمَّ قال:

وَما يُغنيكَ تَشييدُ المَباني إِذا بِالجَهلِ نَفسَكَ قَد هَدَمتا

اِلتفت النَّاظم -رحمه الله تعالى- هنا إلى المقارنة بين الدُّنيا وبين العلم وحملته، يقول بأنَّك إذا شيَّدت المباني وبنيت وعمَّرت ماذا يُغنيك هذا؟! فإنَّ النَّاس يشاركونك فيه بكثرة، وخصوصًا أصحاب الأموال والجاه والسُّلطان، وهو لن يغنيَ عنك شيئًا لأنَّ الأرض كلّها معمورة، والعامرون للأرض كلُّ النَّاس، وأهل العلم آحاد في النَّاس؛ فيقول لك:

وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ المبَانِي

---

[1] قال النَّوَوِيُّ رَحِمهُ الله: (وَمِنَ النَّصِيحَةِ: أَنْ تُضَافَ الْفَائِدَة الَّتِي **تُسْتَغْرَبُ** إِلَى قَائِلِهَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بُورِكَ لَهُ فِي عِلْمِهِ وَحَالِهِ) ["بستان العارفين"، ص:48]

ماذا يُغنِ عنك أن تُشيِّد المباني وأن ترفعها؟!

قد تقول: لماذا ذكر النَّاظم هذا؟!

لأنَّ التَّشييد تفعيل، وهذا التَّفعيل محتاج إلى وقت:

_ إمَّا في جهة جمع ماله وتحصيله -حتَّى وإن وَكلت من يقوم بهذا البناء وهذا التَّشييد-.

_ وإمَّا أن تقوم بهذا التَّشييد أنتَ بنفسك.

وكلَّما اِقتطعت للدُّنيا من وقتك كلَّما ذهب ذلك من علمك وآخرتك، فهذه المعادلة لا يمكن أن تنجر أبدًا.

فهُـو يقُـول:

وَمَـا يُغْنِيكَ تَشْيِيـدُ المبَانِي

متى؟! [إِذَا بِالجَهْلِ] مشروط.

إِذَا بالجَهْلِ نَفْسَكَ قَـدْ هَدَمْتَا

فهو لا يلتفت إلى تحريم أنَّ الإنسان يكون عنده بناء، وإن كان هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم فيما تجاوز به الإنسان الحدَّ، حتَّى أنَّه أُخذ في حكم البنيان رسالة دكتوراه مطبوعة في مجلَّدين في أحكام البنيان والزِّيادة على البناء المعتاد، فيها كلام كثير لأهل العلم لأنَّهم تكلَّموا على حديث: **((إنَّ المُسْلمَ لَيُؤْجَرُ في كُلِّ شيءٍ يُنْفِقُهُ، إلَّا فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هذَا التُّرَابِ))**[1].

[1] رواه البُخاري

فهنـا قــال:

وَمــا يُغنيكَ تَشيِيــدُ المَبـاني

مشروطٌ بأيِّ شيء؟!

إذا بِالجَهلِ نَفسَكَ قَـد هَدَمتا

لأنَّه سيأتي معنا في المقارنة بين المال والعلم: أنَّ المال لا يُذم ذمًّا مُطلقًا، ومـن ذمَّـه ذمًّا مُطلقًا فقد ذمَّه أهلُ العلم لِذمِّه لهذا المال.

وَمـا يُغنيكَ تَشيِيـدُ المَبانـي إذا بِالجَهلِ نَفسَكَ قَد هَدَمتا

جَعَلتَ المالَ فَوقَ العِلمِ جَهلاً لَعَمـرُكَ في القَضيَّةِ ماعَدَلتا
وَبَينَهُمــا بِنَــصِّ الوَحيِ بَونٌ سَتَعلَـمُـهُ إذا طَــهَ قَـرَأتـا

هذان البيتان متَّصلان ببعضهما البعـض وهمـا مـن أهـمّ الأبيـات الَّـتي في هـذه المنظومة، لماذا؟! لأمرين اِثنين:

_ الأمر الأوَّل: أن فيها بيان فضل العلم من جهة أنَّ الله -سبحانه وتعالى- لَـم يأمر نبيه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يطلب المزيـد مـن شيء إلَّا مـن العلـم، وذلك أنَّ النَّاظم -رحمه الله- يشير في قوله:

سَتَعْلَمُـهُ إذَا طَــــه قَـرَأْتَــا

إلى قوله تعالى:﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[1] فلم يأمر الله نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى الله عليه سلَّم بأن يطلب المزيد من ربِّه من شيءٍ إلَّا من العلم:﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ وذلـك أنَّ

[1] سورة طه: 114

العلم في اِزدياد بالنِّسبة لصاحبه أكان ذلك في الأنبياء أو في الرُّسل أو في العلماء، وكما قال الشَّافعي -رحمه الله-:

وَإِذَا مَا اِزْدَدْتُ عِلْمًا   زَادَنِي عِلْمًا بِجَهْلِي

فهو يقول هنا معاتبًا من كنَّاه بأبي بكر، ومعاتبًا كلَّ من اِتَّصف بهذا الوصف؛ بقوله:

جَعَلتَ المالَ فوقَ العِلمِ جَهلاً

بمعنى أنَّ النَّاظم -رحمه الله- يقطع بأنَّ من جعل المال فوق العلم فهو جاهل، جاهلٌ بالشَّرع، وجاهلٌ بالأحكام الشَّرعية، وجاهلٌ بالنُّصوص.

ما سبب هذا الجهل؟! قال:

سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَه قَرَأْتَا

لماذا؟ لأنَّه طُلب من النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام أن يستزيد من العلم ولَم يُطلب منه أن يستزيد من المال، بل رَدَّهُ عليه الصَّلاة والسَّلام كما في حديث أبي مُوَيْهِبة[1] وأحاديث كثيرة، وحديث أبي سعيد **((إنَّ عبدًا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا))**[2]، إلى آخره.

---

[1] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ)) ثُمَّ انْصَرَفَ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ وَقَالَ: ((يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ خَيَّرَنِي فِي مَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةِ أَوْ لِقَاءِ رَبِّي فَاخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي)) فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَبَدَأَهُ وَجَعُهُ الَّذِي مَاتَ مِنْهُ) [حسَّنه الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله في "الاستذكار"]

[2] عن أبي سَعيد الخُدري رَضِيَ الله عَنْه قَال: (خَرَجَ علَيْنَا رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فِي مَرَضِه الَّذي مَاتَ فيه -وَنَحْنُ فِي المسْجد- عَاصبًا رأسَه بخِرْقة، حتَّى أَهْوَى نحوَ المنبرِ، فَاسْتَوَى عَلَيْه وَاتبعناه، قَال: ((والَّذي نَفسي بيده؛ إنِّي لَأَنْظُرُ إلى الحَوْضِ منْ مَقامي هذَا، ثم قَال: إنَّ عبدًا عُرِضَتْ عَلَيْه الدُّنيا وزِينَتُها، فاخْتَار الآخرةَ))، قَال: فَلَمْ يَفْطِنْ لَهَا أَحدٌ غير أبي بكرٍ، فذَرَفَتْ عَيْناه فبَكَى، ثُمَّ قَال: بَل نَفْديك بآبائنا وأمَّهاتنَا وأنْفُسنا وأمْوالِنا يَا رسُولَ اللهِ! قَال: ثُمَّ هبط؛ فمَا قَام عليه حتَّى السَّاعةِ) [قال الإمام الألباني في "تخريج مشكاة المصابيح": إسناده صحيح]

فهنا النَّاظم يقُـول:

جَعَلتَ المالَ فَوقَ العِلْمِ جَهلاً لَعَمـرُكَ في القَضيَّةِ ماعَدَلتا

- **هذه مسألة «لَعمْرُك» هل هي قسم أو ليس بقسم؟**

فيها خلاف كثير بين أهل العلـم وطويـل وصـنَّف فيهـا الشَّـيخ حمَّـاد بـن محمـد الأنصاري رسالة مطبوعة، وإن كان الرَّاجح أنَّها ليست قسمًا لأنَّها ممَّا جـرى مـن الألفاظ على ألْسنة النَّاس، حتَّى جاء عن جمعٍ من الصَّحابة أنَّهـم فعلوهـا، -تخـريج هذه الآثار في هذه الرِّسالة وفي غيرها من الكتب- لعمري ولعمرك -وما أشبه ذلك- إذا توجَّه لغير الله -سبحانه وتعـالى-؛ أمَّـا في حـقِّ الـرَّب فـإنَّ «لعمـرك» معناهـا: وحياتك.

يقول: [لَعَمْرُك في القَضِية] أي: في هذا الحكم الَّذي حكمته [مَا عَدَلْتَا] بل جُـرْت في الحكم وظلمتَ يوم أن جعلت المال فوق العلم.

علي رضي الله عنه في وصيته لكُميل بن زياد، وهي وصيَّة عظيمة ذكرناها من قبـل، ولها شرح للعلَّامة السَّفاريني -رحمه الله- اسمه «القول العليُّ لشرح أثر الإمام عليّ» مطبوع في مجُلَّد فيه فوائد وقد أطال في هذا الموضع الَّذي سأذكره لكم؛ فيها يقـول عليّ رضيَ الله عنه: (الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ وَالْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَـةُ)[1] يزكـو مِـنْ زَكَا؛ بمعنى نَما، فالعلم كلَّما أنفقتَ منه كلَّما زاد، لماذا؟! لأنَّ الِانفاق من العلم عمل.

[1] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:80

قد مرَّ معنا قول بعض السَّلف -وبعضهم يرويه مرفوعًا-: (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمِ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[1]، وذكر السَّفاريني أنَّ من أسباب إثبات العلم في النَّفس وزيادته: تلقينه وتدريسه[2]، قال بل رُبَّما تنكشف لك المسألة بسبب تدريسك لها، وكان شيخنا مُقبل -عليه رحمة الله- يقول بأنَّ تدرِيس العِلم عَشرة أَعْشار الفهْم[3]؛ يعني تسعين من مائة، عشرة بالمائة أنَّك تتعلَّم.

وهذا التَّدريس الَّذي تُدرِّسه وتُنفقه كما قال سعيد بن جبير -رحمه الله- لمَّا قال: (لَأَنْ أَنْشُرَ عِلْمِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى قَبْرِي)[4] كان السَّلف يحرصون على تبليغ العلم، والله -عزَّ وجلَّ- قد أمر به:﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[5]، وجاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي -الحديث الطويل- وفيه قول الرَّب -سبحانه وتعالى-: ((**وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقْ عَلَيْكَ**))[6] حتَّى قال السّفاريني بأنَّ هذا وإن كان قد يُحمل على النَّفقة إلَّا أنَّه في كلِّ شيءٍ يُنفق ومنه العلم، فإذا أنفقت من العلم أنفق الله عليك في هذا العلم.

---

[1] "فتح المغيث" للسخاوي رحمه الله؛ الجزء الثالث، ص:283

[2] قال السفاريني رحمه الله: (اعْلَمْ أَنَّ لِلتَّعَلُّمِ ستَّ مَرَاتِبَ: أَوَّلُهَا: حُسْنُ السُّؤَالِ؛ ثَانيهَا: حُسْنُ الْإِنْصَاتِ وَالاسْتِمَاعِ؛ ثَالِثُهَا: حُسْنُ الْفَهْمِ؛ رَابِعُهَا: الْحِفْظُ؛ خَامِسُهَا: التَّعْلِيمُ؛ سَادِسُهَا وَهِيَ الثَّمَرَةُ: الْعَمَلُ بِهِ وَمُرَاعَاةُ حُدُودِهِ؛ وَحِرْمَانُ الْعِلْمِ يَكُونُ بِستَّةِ أَوْجُه: أَحَدُهَا: تَرْكُ السُّؤَالِ؛ الثَّانِي: سُوءُ الْإِنْصَاتِ وَعَدَمُ إِلْقَاءِ السَّمْعِ؛ الثَّالِثُ: سُوءُ الْفَهْمِ؛ الرَّابِعُ: عَدَمُ الْحِفْظِ؛ الْخَامِسُ: **عَدَمُ نَشْرِهِ وَتَعْلِيمِهِ**، فَمَنْ خَزَّنَ عِلْمَهُ وَلَمْ يَنْشُرْهُ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِنِسْيَانِهِ جَزَاءً وِفَاقًا؛ السَّادِسُ: عَدَمُ الْعَمَلِ بِهِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ بِهِ يُوجِبُ تَذَكُّرَهُ وَتَدَبُّرَهُ وَمُرَاعَاتَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ، فَإِذَا أَهْمَلَ الْعَمَلَ بِهِ نَسِيَهُ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْعِلْمِ بِالْعَمَلِ بِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ؛ فَمَا اسْتَدَرَّ الْعِلْمُ وَاسْتُجْلِبَ بِمِثْلِ الْعَمَلِ بِهِ) ["غذاء الألباب"، الجزء الأول، ص:44]

[3] من باب مَزِيد فَائِدَة: قال شيخُنَا مُصْطفى مَبْرَم حفظه الله -منبِّهًا على أهمِّية تدريس العلم ونشره-: (قَدْ كَانَ شَيْخُنَا مُقْبِل عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ يَذْكُرُ لَنَا بِأَنَّه اسْتَفَادَ فِي حَالِ تَدْرِيسِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَبَحْثِهِ أَكْثَر مِن اسْتِفَادَتِه من الدِّرَاسَةِ فِي الْجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَة؛ بَلْ سَمِعْتُهُ أَيْضًا يَقُولُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ بِأَنَّ الطَّالِبَ إِذَا دَرَسَ الْكِتَابَ ثُمَّ دَرَّسَهُ لِإِخْوَانِه فَإِنَّ هَذَا أَكْثَر مِنْ أَنْ يُذَاكِرَهُ عَشْرَ مَرَّات، يَعْنِي أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُذَاكِرَهُ عَشر مَرَّات؛ وَكَانَ شَيْخُنَا الْعَلَّامَة زَيْد بْن هَادِي الْمَدْخَلِي رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ بِأَنَّ التَّأْلِيفَ وَالْبَحْثَ مِمَّا يُرَسِّخُ الْعِلْمِ؛ وَهَكَذَا قَالَ لِي شَيْخُنَا الْعَلَّامَة رَبِيع بْنِ هَادِي الْمَدْخَلِي حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى -وَقَدْ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَذْهَبَ لِلتَّدْرِيسِ فِي بَعْضِ الأَمَاكِنِ فَاعْتَذَرْتُ لَهُ بِأَشْيَاء- فَقَالَ: (التَّدْرِيس هَذَا مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَحْرِيرِ الْعِلْمِ وَتَحْقِيقِ الْعِلْم) اهـ. [من شرحه لعُمدة الأحكام]

[4] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الرابع، ص:326

[5] سورة آل عمران: 187

[6] رواه مسلم.

وهنا النَّاظم -رحمه الله- لمَّا ذكر المال حظَّ منه، لكن متى حـظَّ منـه؟! في مُقابل أن يُقارن بالعلم -كما سيأتي معنا بعد قليل إن شاء الله تعالى-.

عليٌّ رضي الله عنه أيضًا قال في وصيَّته لكُمَيل بن زيـاد: (الْعِلْـمُ حَـاكِمٌ، والْمَـالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ)[1] هذه من المقارنات الَّتي قارن بها عليّ رضي الله عنه بين العلم وبـين المال.

وابن القيِّم -رحمه الله تعالى- له في «مفتاح دار السَّعادة» كلام في مسألة المقارنة بين العلم وبين المال تراجعونها في هذا الموضع[2].

أيضًا السّفاريني أطال وإن كان قد تجاوز -رحمه الله- في بعـض المواضـع في مسـألة الحظِّ من المال والزُّهد في الدُّنيا -وما أشبه ذلك-، أقصد في شرحه لأثر عليّ ابـن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

---

[1] "تاريخ دمشق" للحافظ ابن عساكر، ص:255

[2] قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَفضل الْعلمِ عَلَى المَال يُعلَمُ مِنْ وُجُوه:

ــ إحداها: أنَّ الْعلم ميرَاث الأنْبياء، وَالْمَال ميرَاث الْمُلُوك والأغنياء.

ــ وَالثَّاني: أنَّ الْعلم يَحرس صَاحبه، وَصَاحب المَال يحرس مَاله.

ــ وَالثَّالث: أنَّ المَال تُذهبه النَّفقَات، وَالْعلم يزكوا على النَّفَقة.

ــ الرَّابع: أنَّ صَاحب المَال إذا مَاتَ فَارقه مَاله، وَالْعلم يدْخل مَعَه قَبره.

ــ الْخَامس أنَّ الْعلم حَاكم على المَال، وَالْمَال لَا يحكم على الْعلم.

ــ السَّادس أنَّ المَال يحصل لِلْمُؤمن وَالْكَافِر وَالْبر والفاجر، وَالْعلم النَّافع لَا يحصل إلَّا لِلْمُؤمن.

ــ السَّابع: أنَّ الْعَالِم يحْتَاج إليه الْمُلُوك فَمن دونهم، وَصَاحب المَال إنَّمَا يحْتَاج إليه أهل الْعَدَم والفاقة.

ــ الثَّامن: أنَّ النَّفس تشرف وتزكو بجمع الْعلم وتحصيله وَذَلِكَ من كمالها وشرفها، وَالْمَال يزكيها وَلَا يكملها وَلَا يزيدها صفة كَمَال بل النَّفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عَلَيْه، فحرصها على الْعلم عين كمالها وحرصها على المَال عين نَقصهَا.

ــ التَّاسع أنَّ المَال يدعوها إلى الطُّغيان وَالْفَخْر وَالْخُيَلَاء، وَالْعلم يدعوها إِلَى التَّواضع وَالْقِيَام بالعبودية، فَالْمَال يدعوها إلى صِفَات الْمُلُوك، وَالْعلم يدعوها الى صِفَات العبيد.

ــ العاشر: أنَّ الْعلم جاذب مُوصل لَهَا إلى سعادتها الَّتي خُلقت لَهَا، وَالْمَال حجاب بَينهَا وَبَينهَا.

ــ الْحَادي عشر: أنَّ غَنِي الْعلم أجلّ من غَنِي المَال، فَإِنَّ غَنِيَّ المَال غني بِأمرٍ خارجيٍّ عَن حَقِيقَة الإنسان لَو ذهب فِي لَيْلَة أصـبح فَقِـيرًا مُعدمًا، وغنيُّ الْعلم لَا يُخْشَى عَلَيْه الْفقر بل هُوَ فِي زِيَادَة أبدًا فَهُوَ الْغَنِيّ العالي حَقِيقَة...) [من أراد قراءة كلامه كاملا يُراجـع: "مفتـاح دار السعادة" الجزء الأول؛ ص: 129-130]

جَعَلتَ المالَ فَوقَ العِلمِ جَهلاً لَعَمرُكَ في القَضيَّةِ ماعَدَلتا
وَبَينَهُما بِنَصِّ الوَحيِ بَونٌ سَتَعلَمُهُ إِذا طَهَ قَرَأتا

[بَوْنٌ] البون هو الفرق الشَّاسع، الكبير، مِنْ بان الشَّيء، ومنه البينونة في الطَّلاق، ومنه قول علماء الِاعتقاد: (بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ).
[بِنَصِّ الوَحيِ بَونٌ] ويُقال:«بونٌ شاسعٌ» إذا أكَّدوا على أنَّه كبير.

وَبَيْنَهُما بِنَصِّ الوَحْيِ بَوْنُ سَتَعْلَمُهُ

متى؟! [إِذَا طَهَ قَرَأْتَا] وأشرنا إلى أنَّه أراد بها قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقد جاء في «الأدب المفرد» للبخاري بإسنادٍ صحيح عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ))[1]، والمال كما قال أيضًا عليه الصَّلاة والسَّلام -عند البخاري ومسلم-: ((**إِنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوةٌ، فمَن أخَذَه بطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ**))[2]، وأيضًا قول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام -يرويه عن ربِّه سبحانه وتعالى- أنَّه قال: ((**إنَّا أنْزَلْنا المالَ لِإِقَامِ الصَّلاةِ... ولا يَمْلَأُ جَوْفَ ابنِ آدمَ إِلَّا التُّرَابُ**))[3] وأصل الحديث أيضًا له ألفاظ في الصَّحيحين من حديث أبي موسى[4] وغيره[5].

[1] صحَّحه الشَّيخ الألباني في "صحيح الأدب المفرد"، وصحَّحه الشيخ مقبل الوادعي في "الصَّحيح المُسند"، رحم الله الجميع.

[2] مُتَّفق عليه؛ من طريق حكيم بن حزام رضي الله عنه.

[3] ((إِنَّا أَنْزَلْنا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلاة، وإِيتَاءِ الزَّكَاة، ولَوْ كَانَ لابنِ آدَمَ وَادٍ، لَأحبَّ أنْ يَكُونَ إِلَيْه ثَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ لَأحبَّ أنْ يَكُونَ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْف ابنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ)) [صحَّحه الألباني في "السِّلسلة الصَّحيحة"].

[4] يُشير الشَّيْخ حَفظَهُ الله إِلَى مَا جَاءَ فِي صَحيحِ مُسلم، عَن ابنِ مَسْعُودٍ رضيَ اللهُ عنْهُ قَالَ: (إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفظْتُ مِنْهَا لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ).

[5] جَاءَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الْبُخَارِي؛ وَمِنْ طَرِيقِ أَنَس بْن مَالك عِنْدَ مُسْلِم، بِلَفْظِ: ((لَوْ كَانَ لابنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتغَى وادِيًا ثَالثًا؛ ولَا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدمَ إِلَّا التُّرابُ، ويَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن تابَ)).

إلَّا أنَّ المال من أعظم الفتن الصَّارفة عن العلم إذا لَم يعدل فيه صاحبه، ولهذا قال صلَّى الله عليه وسلَّم كما عند أبي داود والتِّرمذي من حديث كعب بن عياض: ((**إنَّ لكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنةٌ وفِتْنَةُ أُمَّتِي: المالُ**))[1]، ولا شك أنَّ أكثر من يُفتن بالمال: حملة العلم إذا صرفهم عن العلم وطلبه وتحصيله، ولهذا جاء في حديث كعب بن مالك عند أبي داود والتِّرمذي أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرسِلَا فِي غَنمٍ، بأَفْسدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المرْءِ عَلَى الْمَالِ والشَّرفِ، لدِينه**))[2] وهذا الحديث شرحه الحافظ ابن رجب في كتابٍ حافل مطبوع "شَرَحُ حديث:«مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ»".

((**أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ**)) المثال هذا عجيب، أنتَ تحبس ذئبين اثنين -انظر إلى القلَّة-، وتُرسلهما بعد ذلك في قطيعٍ من الغنم -عدد هائل من الغنم-، فيُفْسِد هذا القطيع، لماذا؟! لأنَّه يتصرَّف تصرفات الأعمى، فمن شدَّة الجوع والهلع على أن يذهب شيءٌ من القطيع يُفسدُه كلَّه، على أنَّ الذِّئبين لو أخذا شاة واحدة من هذا القطيع لكفاهما وزيادة، كبشٌ واحد سيكفيهما بلا شك، ولكن مع هذا يفسدان هذا القطيع من جنون الجوع؛ وهكذا يُفسِد المرء الحرص على الزِّيادة من المال والدُّنيا على ما يكفيه وخصوصًا إذا كان معه حرص على الجاه والشَّرف فيفسد دينه بمثل هذا؛ وهذا المثل مَثَلٌ عجيب منه عليه الصَّلاة والسَّلام، أوتِيَ جوامع الكلم.

---

[1] قال التِّرمذي في سننه: صحيح غريب.

[2] قال الترمذي في سننه: حسن صحيح

ومن نظر إلى الدُّنيا وما أفسده ومن أفسدته من حملة العلم وطُلَّاب العلم رأى شيئًا كثيرًا جدًّا -نسأل الله العافية والسَّلامة- ((إنَّ لكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنةٌ وفِتْنَةُ أُمَّتِي: المالُ))[1].

يقول:

جَعلْتَ المَال فَوْقَ العِلْمِ جهْلًا　　　لَعَمْرُكَ فِي القَضِيةِ مَا عَدلْتَا

وتذكَّروا قول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ))[2]، ليسَ معنى هذا أنَّ الإنسان يترك المال، لأنَّه لا تقوم مصالحه في دينه وفي لا دنياه إلَّا بالمال، ومن نظر في تراجم أئمَّة السَّلف -كما سيأتي معنا، إن شاء الله سنذكره في قول النَّاظم-:

وَلَيسَ يَضُرُّكَ الإِقتارُ شَيئًا　　　إذا ما أَنتَ رَبَّكَ قَد عَرَفتا

وهنا يقُول:

سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْتَا

ثمَّ يذكر جُملا بين المقارنات بين أهل المال وأهل العلم، فقال النَّاظم -رحمه الله-:

لَئِن رَفَعَ الغَنِيُّ لِواءَ مالٍ　　　لَأَنتَ لِواءَ عِلمِكَ قَد رَفَعتا

[1] قال التِّرمذي في سننه: صحيح غريب.
[2] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الأدب المفرد"، وكذا الشَّيخ مُقبل رحمه الله في "الصَّحيح المسند".

اللَّام هنا هي الموطِّئة للقسم، يعني نائبة عن القسم كقوله تعالى:﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1]، يعني: والله لَئن رفع الغني لواء مالٍ.

[لِواء] اللِّواء: الرَّاية، يرفع لواء المال، عنده الأرصدة، عنده العمارات، وعنده البنايات، وعنده الشَّركات، وعنده الإدارات، وعنده العُمَّال، وعنده الموظَّفون -إلى آخره-، فهذا لواء، وتحت هذا اللِّواء من الجنود والجيوش والعُمَّال الشَّيء الكثير؛ يقول:

لَأَنتَ لِواءَ عِلمِكَ قَد رَفعتا

فرفعتَ لواء العلم ونفعِ النَّاس ودعوة النَّاس إلى الخير وبيان ما أنزله الله -سبحانه وتعالى- على رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.

لَئِن رَفَعَ الغَنِيُّ لِواءَ مالٍ   لَأَنتَ لِواءَ عِلمِكَ قَد رَفَعتا

وأين يكون لواء العلم مع لواء المال؟! لواء المال يحمله من دبَّ ودرج، ما معنى هذا المثال؟! ما دبَّ معروف، ما معنى درج؟! الدّب من الدَّبيب، قالوا: (وَدَرَج: الَّذِي أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ، فَدَخَلَ قَبْرَهُ) من الإدراج، إدراج في الكفن ثمَّ إدراج في القبر؛ فهذا المال يحمله من دبَّ ودرج، ومن آمن وكفر، ومن عصى وأطاع، كلُّ النَّاس يشتركون في هذا المال، وربَّما يكون أهل الكفر أكثر مالًا -وهذا كثير- فيحملون هذا اللِّواء بكثرة؛ أمَّا لواء العلم فإنَّ حملته قلَّة من النَّاس، ولو كثروا فالعاملون به قلَّة قليلة أيضًا.

لَئِن رَفَعَ الغَنِيُّ لِواءَ مالٍ   لَأَنتَ لِواءَ عِلمِكَ قَد رَفَعتا
وَإِن جَلَسَ الغَنِيُّ عَلى الحَشايا   لَأَنتَ عَلى الكَواكِبِ قَد جَلَستا

---

[1] سورة الزمر: 39

فمهما اِرتفع ورَكب الأشياء المحشوة، [الحَشَـايَا] مـن الحشـية وهي الشَّيء المحشـو بالحرير، أو بأيِّ شيءٍ حُشيَ هذا الأريك أو هذه الوسائد؛ فيقول:

وَإِن جَلَسَ الغَنيُّ عَلى الحَشايا   لَأَنتَ عَلى الكَواكِبِ قَد جَلَستا

وذلك مرَّ معنا في أنَّ العلم رِفعة لأهله، ومن أعظم آثار العلم على أصحابه: الرِّفعـة الَّـتي يـرزقهم الله إيَّاهـا ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1]، وقول النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**إنَّ اللهَ يَرْفعُ بِهذَا الكِتَـابِ أقْوَامًـا ويَضَـعُ بِـه آخرِينَ**))[2].

ومحلّ أهل العلم الكواكب، بل شبَّههم النَّـبيّ عليـه الصَّـلاة والسَّـلام بالكواكـب نفسها، والحديث حسَّنه جمعٌ من أهل العلـم وهـو قـوله عليـه الصَّـلاة والسَّـلام: ((**فَضلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**))[3]، فمحلّ هـذا العـالِم بعلمه هذه الكواكب في الرِّفعة والجلوس عليها.

لَأَنتَ عَلى الكَواكِـبِ قَــد جَلَستـا.

وَإِن رَكِبَ الجِيادَ مُسَوَّماتٍ   لَأَنـتَ مَناهِـجَ التَقوى رَكِبتا

[رَكِبَ الجِيَادَ] الجياد من الخيل، أجاودها وأفضلها، وهي [مُسَوَّمَات] يعني: موسـومة مُعْلمة، لها علامة بسبب جودتها وما تتميَّز به عن غيرها.

يقُــول:

لَأَنتَ مَناهِـجَ التَقــوى رَكِبتا

فصار لك الذِّكر الحسن، والذِّكر الجميل، -إلى آخر ما يترتَّب على العلم وعلى حَمْلِه-.

وَإِن رَكِـبَ الجِيـادَ مُسَـــوَّمـاتٍ   لَأَنــتَ مَناهِـجَ التَـقـوى رَكِبـتا

---

[1] سورة المجادلة: 11

[2] رواه مسلم؛ من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[3] قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترغيب": (حسن لغيره) اهـ؛ من طريق أبي الدرداء رضي الله عنه.

وَمَهما اِفتَضَّ أَبكارَ الغَواني | فَكَم بِكرٍ مِنَ الحِكَمِ اِفتَضَضتا

يقول:[مَهْمَا] للكثرة والتَّعجب [اِفْتَضَّ أَبْكَارَ الغَوَانِي] الغواني: جمع غانية وهي المرأة الشَّديدة الجمال، الحسناء، يُقال: «هذه اِمرأة غانية» ليش؟ لجمالها وحسنها؛ فهو يقول بسبب ما يملكه من المال: يملك الجواري، ويتزوَّج النِّساء، وقد يكون مِزواجًا مطلاقًا، يُطلّق هذه ويتزوَّج هذه -كما يعبث بعض النَّاس بمثل هذا-.

فيقول:

وَمَهما اِفتَضَّ أَبكارَ الغَواني

النِّساء الجميلات.

فَكَم بِكرٍ مِنَ الحِكَمِ اِفتَضَضتا

ولذَّة اِفتضاض أبكار العلم أشدّ من اِفتضاض أبكار الغواني على ما أراده النَّاظم -رحمه الله تعالى-؛ وهذا المعنى مرَّ معنا عندما ذكرنا قوله -رحمه الله-:

أَراكَ تُحِبُّ عِرساً ذاتَ خِدرٍ | أَبَتَّ طَلاقَها الأَكياسُ بَتّا

إلى أن قال -رحمه الله- في سياق هذا المعنى:

فَلَو قَد ذُقتَ مِن حَلواهُ طَعمًا | لَآثَرتَ التَعَلُّمَ وَاِجتَهَدتا

ذكرنا قول الزَّمخشري لمَّا قال،

كنَّا عند شيخنا مُقبل -رحمه الله- وهو أحيانًا يأمرنا بالحفظ، ولكن الأشياء الغريبة حتَّى وإن لَم يأمر، الأبيات مثل أبيات الزَّمخشيري هذه، فهذه ممَّا كان يُكرِّرها علينا ويُحفِّظنا إيَّاها في درس الظُّهر أو ما بعد الظُّهر، والَّتي هي:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلَذُّ لِـي   مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاق

ونُسبت إلى الشَّافعي أيضًا؛ هذه أيضًا ممَّا حفَّظنا إيَّاه شيخنا -رحمه الله- كان يُحبُّ الشِّعر ويُحبُّ ترديده وتحفيظه -حسب الحاجة-.

وهي قول الزَّمخشري -أيضًا قد مرَّت معنا هذه الأبيات-:

إذَا سَـألوا عَـنْ مَـذْهَبِي لَـمْ أَبُـحْ بِـه   وأَكْتُمُـــــه كِتْمانُـــــه لِيَ أَسْـــــلمُ
فــإِن حَنَفِيًــا قُلــتُ قَــالُوا بِــأَنَّني   أُبِــيح الطِّــلا وهُــو الشَّرَاب المحــرَّم
وإنْ مَالكِيًّــا قُلــتُ قَــالُوا بِــأَنَّني   أُبِـيح لحُـوم الـكِلَاب والْكَلْـبُ يَحْـرم
وإنْ شَـــافِعِيًّا قلـــتُ قـــالُوا بـــأنَّني   أُبِـيح نكَـاح البِنْـت والبنـتُ تحـرم
وإن حَنْبَليًّــا قُلــتُ قــالُوا بــأَنَّني   ثَقيـــل حلُـــولي بَغِـــيضٌ مُجسّـــمُ
تعجَّبــتُ مــن هَــذَا الزَّمــان وأَهْلِـه   فَمَـا أَحَـد مِـنْ أَلْسُـن النَّـاسِ يسْـلم

طبعًا هذا يحتاج إلى تعليق فيما نُسب إلى مالك وما نُسب إلى الشَّافعي وما نُسب إلى أحمد وما نُسب إلى أبي حنيفة.

_ يقصد «الطِّلا» وهو النَّبيذ، مشهورٌ مذهب أهلِ الكوفة أنَّهـم يُجيزون شرب النَّبيذ، لا شُرب الخمر؛ ولكنَّهم لا يُفرِّقون بين ما اِشتد وما لَم يشتد.

_ وعلى القول عند المالكية: في أنَّهم يرون طهارة الكلب، هذا مـن بـاب الإلـزام أنَّهم يلزمهم أن يكونَ أكلُ لحمه مُباحًا، وقد قال به بعض المالكية.

_ وقول الشَّافعي:

أُبيحُ نِكَاح البِنْتِ والبِنْتُ تَحـرم

هذا ما نُسب إلى الشَّافعي أنَّه قال: (أَكْرَه أَنْ يَتَزَوَّجَهَا)[1] -أي البنت من مـاء الزِّنـا-؛ هذه المسألة خلافية بين أهل العلم وهي أنَّه إذا زنى بامرأة وأنجبت بنتًا، هذه البنت غير شرعية، هل هيَ محرم له؟! ليست مَحرمًا له ولا يدخل عليهـا ولا يُقابلهـا، فـإذا كبرت وأراد أن يتزوَّج بها، هـذا المنسـوب إلى الشَّـافعي باِعتبـار قـوله: (أَكْـرَه أَنْ يَتَزَوَّجَهَا)[2]، وإن كان المحقِّقون حملوا قوله هذا على التَّحريم -على أنَّه يحرم ذلك-[3].

_ وأمَّا قول الإمام أحمد فإنَّه من أظهر ما يكون لأنَّه يُثبت الأسماء والصِّفات، وهذا ليس وصفًا اِنفرد به الإمام أحمد فإنَّ الأئمَّة يُشاركونه فيه.

وَمَهمـا اِفتَـضَّ أَبكـارَ الغَوانـي   فَكَم بِكرٍ مِنَ الحِكَمِ اِفتَضَضتا

ثمَّ قال بعد ذلك:

وَلَيـسَ يَضُرُّكَ الإِقتـارُ شَيـئًـا   إِذا مــا أَنـتَ رَبَّكَ قَــد عَرَفتـا

هذا سنرجئ الكلام عليه، لأنَّنا سنتكلَّم على فضل الفقر وشيء من الآثار الَّتي جاءت عن الأئمَّة؛ خصوصًا قول شُعبة: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ)[4].

---

[1] "المهذب" للشيرازي رحمه الله، ص: 440.

[2] "المهذب" للشيرازي رحمه الله، ص: 440

[3] قَال ابن القيِّم رحمه الله: (وَمِنْ هَذَا أَيْضًا أَنَّهُ نَصَّ -أي الشَّافعي- عَلَى كَرَاهَة تَزَوُّجِ الرَّجُلِ بِنْتَهُ مِنْ مَاءِ الزِّنَا، وَلَمْ يَقُلْ قَطُّ إنَّهُ مُبَـاحٌ وَلَـا جَائِزٌ، وَالَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالَتِهِ وَإِمَامَتِهِ وَمَنْصِبِهِ الَّذِي أَجَلَّهُ اللَّهُ بِهِ مِن الدِّينِ أَنَّ هَذِهِ الْكَرَاهَةَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحْرِيمِ، وَأَطْلَقَ لَفْظَ الْكَرَاهَةِ لِأَنَّ الْحَرَامَ يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) [من كتابه "إعلام الموقعين"، ص: 35]

[4] قال شُعبة رحمه الله: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ؛ بِعْتُ طَسْتَ أُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ) ["سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمـه الله؛ الجـزء السـابع، ص:221].

والله أعلم؛ وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدَّرس الثَّاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الثَّاني عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد على غُرفة الإمام ابن أبي زيد القيرواني -رحم الله الجميع-.

وقد اِنتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

وَمَهْمَا اِفْتَضَّ أَبْكَارَ الغَوَانِي فَكَم بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ اِفتَضَضتا

قال -رحمه الله- بعد ذلك:

وَلَيسَ يَضُرُّكَ الإقتارُ شَيئًا إذا ما أَنتَ رَبَّكَ قَد عَرَفتا

فَما عِندَهُ لَكَ مِن جَميلٍ إذا بِفِناءِ طاعَتِهِ أَنَختا

هنا النَّاظم -رحمه الله تعالى- ينتقل بعدما سبق الكلام على المقارنة بين المال والعلم، يظلُّ النَّاظم -رحمه الله تعالى- يُؤكِّد على ذلك لأنَّه لا مُقارنة إذا تعارض جمع المال مع جمع العلم فإنَّ المقارنة هنا بعيدة جدًّا، ولهذا قال -رحمه الله- في الأبيات الَّتي تقدَّمت:

جَعَلتَ المالَ فَوقَ العِلمِ جَهلاً لَعَمرُكَ في القَضيَّةِ ماعَدَلتا

وَبَينَهُمـــا بِنَـــصِّ الوَحيِ بَونٌ   سَتَعلَمُـهُ إِذا طَـهَ قَـرَأتـا

ولا يزال الكلام مُتَّصلًا على ما يتعلَّق بالمقارنة بين العلم والمال، فقال:

وَلَيــسَ يَضُرُّكَ الإِقتارُ شَيئًا

وشرَطَ ذلك بقوله:

إِذا مــا أَنتَ رَبَّك قَدْ عَرَفْتَا

وكما سيأتي معنا أنَّ المقارنة بين الغِنى والفقر في معزلٍ عن الإيمان ليســت مُـرادة لأهل العلم.

قوله -رحمه الله تعالى- هنا:[وَلَيْسَ يَضُرُّكَ] من الضَّرر، والضَّرر ما يلحق الإنسان إمَّا في ذاته أو في معناه، يعني إمَّا في عرضه أو في ذاته.

[وَلَيْسَ يَضُرُّكَ] فأنتَ لن تتضرَّر، متى؟! إذا كنتَ قد أصابك الإقتار [وَلَـيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَار] والإقتار مِنَ القتْر أو القتَر، والصَّواب الأوَّل «منَ القتْر»، و«قتر» هذه المـادَّة مدارها على الجمْع والقِلَّة -كما يقول ابن فارس[1]-.

_ الجمع الَّذي هو أخو البخل، بمعنى أنَّه جمَع فأوعَى، يجمع المال؛ فيُسـمَّى هـذا «قَتورًا» ومنه قوله تعالى:﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾[2] يعني مانعًا بخيلًا، فيجمع المال ويبخل به.

---

[1] قال الإمام الذَّهبي رحمه الله: (الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ، اللُّغَوِيُّ الْمُحَدِّثُ، أَبُو الْحُسَيْنِ، أَحْمَدُ بْنُ فَارِسِ بْنِ زَكَرِيَّا بْنِ مُحَمَّدِ بْـنِ حَبِيـبٍ الْقَزْوِينِـيُّ، الْمَعْرُوفُ بِالرَّازِيِّ، الْمَالِكِيُّ، اللُّغَوِيُّ، نَزِيلُ هَمَذَانَ، وَصَاحِبُ كِتَابِ:"الْمُجْمَلِ") ["سير أعلام النبلاء"؛ الجزء:17، ص:103]

[2] سورة الإسراء: 100

_ وتأتي أيضًا بمعنى: القِلَّة، ومنه قوله تعالى:﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾[1] المراد هنا به: القِلَّة، يعني أنَّه قد قلَّ ماله كما في قوله تعالى:﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾[2].

فمراد النَّاظم -رحمه الله تعالى- هنا: القِلَّة.

وجاء أيضًا لفظ التَّقتير في قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾[3] يعني يجمعوا المال ويمنعوه، وإنَّما هم متوسِّطون.

فهنا النَّاظم -رحمه الله تعالى- يقول بأنَّه لا تضرُّك قلَّة المال إذا عرفتَ الله -سبحانه وتعالى-، ولا يُعرف الله إلَّا بالعلم، لأنَّ سبيل معرفة الله -جلَّ جلاله- هو العلم، ومن لَم يتعلَّم لَم يعرف الله وما له من أسماء، وما له من صفات، وما له من حِكَم في شرعه وقدَره، وما يترتَّب على معرفة العلم بالله، ومعرفة العلم بدينه -إلى غير ذلك-؛ فهو يقول: إذا عرفت الله -سبحانه وتعالى- فالاِقتار لا يضرُّك لأنَّه مُتعلِّق بأمر الدُّنيا، وكانوا يقولون:

ما أَحسَنَ الدِّين وَالدُّنيا إذا اِجتَمَعا	لَا بـارَكَ اللّهُ فـي دُنيا بِلَا دِيـنِ

والفقر شعار الطَّلب، -هذا الغالب: أنَّ الفقر شعار الطَّالِب-، ولهذا قال شُعبة بن الحجَّاج -أبو بسطام- رحمه الله تعالى: (إِذَا رَأَيْتَ الْمِحْبَرَةَ فِي بَيْتِ إِنْسَانٍ

[1] سورة البقرة: 236
[2] سورة الطَّلاق: 7
[3] سورة الفرقان: 67

فَارْحَمْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي كُمِّكَ شَيءٌ فَأَطْعِمْهُ)[1]، وكان شُعبة أيضًا كما رَوى عنه سُفيان بن عُيَينة -وهذا جاء عن غير شُعبة أيضًا- كان يقول: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ)[2]، وكذلك ثبت عن الإمام مالك -رحمه الله- أنَّه باع سَقف بيتِهِ -أو بيت أُمِّه- في طلب العلم[3]، وهذا شيءٌ كثير في كلام أئمَّة السَّلف في رحلتهم في الطَّلب، حتَّى أنَّ ابن أبي حاتم حدَّث عن أبيه في رحلته إلى البصرة لمَّا عزم على المكث سنة ثمَّ مكث ثمانية أشهر فنفذت نفقته، وكان له زميل -وهذا الغالب فيهم أنَّهم يخرجون في الطَّلب وهم يُزاملون-، فلمَّا نفذَت نفقته حاول أن يصبر، ففي اليوم الأوَّل ذهب إلى مجالس الشُّيوخ، وأخذه معه صاحبه ثمَّ يفترقان عند الغرفة ثمَّ يلتقيان في اليومِ الثَّاني، فلمَّا كان اليوم الثَّالث -وكان لا يجد إلَّا الماء-، لمَّا كان في اليوم الثَّالث قال: (أَنَا ضَعِيفٌ لَا يُمْكِنُنِي) قال له: (مَا ضَعْفُكَ؟!) قال له: (لَا أَكْتُمُكَ أَمْرِي، قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مَا طَعِمْتُ فِيهِمَا شَيْئًا)، فكان عنده دينار قال: (قَدْ بَقِيَ مَعِي دِينَارٌ، فَنِصْفُهُ لَكَ) ثمَّ قطَع الرِّحلة ورجع[4].

هذا إذا نظرت في تراجم الأئمَّة وفي ما ذكره -أقل مرجع ترجع إليه ما ذكره الخطيب البغدادي في كتاب «الجامع» له، رحمه الله- تجد من هذا الكثير، [اِرجع][5] لِمُقدّمة ابن أبي حاتم أيضًا «الجرح والتَّعديل»، وغيرها من الكتب الكثيرة.

---

[1] "سير أعلام النُّبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء السابع، ص:225.

[2] قال شُعبة رحمه الله: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ؛ بِعْتُ طَسْتَ أُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ) ["سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء السابع، ص:221].

[3] قال ابن القاسم: (أَفْضَى بِمَالِك طَلَبُ الْعِلْمِ إِلَى أَنْ نَقضَ سَقْفَ بَيْتِهِ فَبَاعَ خَشَبَهُ) ["ترتيب المدارك" للقاضي عياض رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:130]

[4] قال ابن أبي حاتم: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: (بَقِيتُ فِي سَنَةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ بِالْبَصْرَةِ، وَكَانَ فِي نَفْسِي أَنْ أُقِيمَ سَنَةً، فَانْقَطَعَتْ نَفَقَتِي، فَجَعَلْتُ أَبِيعُ ثِيَابِي حَتَّى نفدَتْ، وَبَقِيتُ بِلَا نَفَقَة، وَمَضَيْتُ أَطُوفُ مَعَ صَدِيقٍ لِي إِلَى الْمَشْيَخَة، وَأَسْمَعُ إِلَى الْمَسَاءِ، فَانْصَرَفَ رَفِيقِي، وَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، فَجَعَلْتُ أَشْرَبُ الْمَاءَ مِنَ الْجُوعِ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَغَدَا عَلَيَّ رَفِيقِي، فَجَعَلْتُ أَطُوفُ مَعَهُ فِي سَمَاعِ الْحَدِيث عَلَى جُوعٍ شَدِيد، وَانْصَرَفْتُ جَائِعًا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، غَدَا عَلَيَّ، فَقَالَ: مُرَّ بنَا إِلَى الْمَشَايِخِ؛ قُلْتُ: أَنَا ضَعِيفٌ لَا يُمْكِنُنِي؛ قَالَ: مَا ضَعْفُكَ؟ قُلْتُ: لَا أَكْتُمُكَ أَمْرِي، قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مَا طَعِمْتُ فِيهِمَا شَيْئًا، فَقَالَ: قَدْ بَقِيَ مَعِي دِينَارٌ، فَنصْفُهُ لَكَ، وَنَجْعَلُ النِّصْفَ الْآخَرَ فِي الْكِرَاءِ، فَخَرَجْنَا مِنَ الْبَصْرَةِ، وَأَخَذْتُ مِنْهُ النِّصْفَ دِينَارٍ) ["سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء:13، ص:257].

[5] كلمة غير واضحة في التَّسجيل.

النَّاظم -رحمه الله- يقول:[وَلَـيْسَ يَضُرُّكَ الاقْتَـارُ] الفقـر لا يضر مـع العلـم ومـع الإيمان، ولهذا جاء في سُنن أبي داود في حديث محمـود بـن لبيـد رضي الله عنـه أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**اثنَتَانِ يَكْرههُمَا ابْنُ آدمَ: يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَالْمَـوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ**))[1]، كذلك جـاء في حديث كعب بن عياض قوله عليه الصَّلاة والسَّلام -عنـد التِّرمـذي-: ((**إنَّ لـكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ وفِتْنَةُ أُمَّتِي: الْمَالُ**))[2]، كـذلك جـاء في سُـنن أبي داود والتِّرمـذي حـديث كعب بن مالك أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَـانِ أُرْسِـلَا فِي غَنمٍ، بأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المرْءِ عَلَى المالِ والشَّرَفِ، لدِينه**))[3] يعني حرصـه على المـال وحرصـه على الرِّئاسـة، ((**لِدِينـِهِ**)) بِمعـنى أنَّ الحـرص على المـال وعلى الدُّنيـا الَّذي يتعارض مع الدِّين ومع أمر الله -سبحانه وتعالى- يُفسـد ديـن المـرء مـا لا يُفسـد الذِّئب في قطيع الغنم.

((**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرسِلَا في غَـنمٍ**)) وهذا الحديث عظيم وقد شرحه الحـافظ ابـن رجب في كتابٍ مستقلٍّ مطبوع "شرح حديث «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ»" لكثرة ما فيه من الفوائد.

ليس طلب الفقر مقصودًا في الشَّريعة، ولهذا جاء في الصَّحيحين أنَّ النَّـبي عليه الصَّلاة والسَّلام تعوَّذ من الفقر[4]، إنَّما الكلام -الَّذي هو كلام النَّاظم رحمه الله

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"

[2] قال التِّرمذي في سننه: صحيح غريب.

[3] قال الترمذي في سننه: حسن صحيح

[4] عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَـذَابِ الْقَبْرِ وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى **وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ** اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِي بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّ قَلْبِي مِنْ الْخَطَايَا

وكلام غيره من أهل العلم-: حيث لا وجود للغنى مع بذل الأسباب، فإذا لم يكن عند الإنسان ما يكفيه من المال يظنُّ أنَّه إذا ترك العلم أو ترك الطَّلب سيكون ذلك أوفر وأدعى لغناه فقد أُصيب في مقتل، ومن نظر في سِيَر القوم عَلِم ما كانوا عليه من القِلَّة والحاجة؛ فالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام استعاذَ من الفقر، وبوَّب البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه: (باب التَّعوُّذِ مِن الفَقر)[1].

وهنا العلماء -رحمهم الله- ومع وجود في تراجم الأئمَّة -وهذا الأكثر الغالب- القِلَّة وعدم الغنى وإنَّما وجود الفقر؛ أيضًا وُجد في تراجم الأئمَّة من بسط الله عليه في الأمرين، وعلى رأسِ هؤلاء: الإمام اللَّيث بن سَعد -أبو الحارث الفَهْمي- إمام مصر وقاضيها، وقرين مالك -رحمه الله-، بل قال الشَّافعي: (اللَّيث أَفْقَه مِنْ مَالِك إلَّا أنَّ أصحَابه لَمْ يَقُومُوا بِهِ)[2]، إذا قرأت ترجمة اللَّيث بن سعد رأيت أمرًا عَجبًا ممَّا بسط الله عليه به في الرِّزق، ورأيت أعجب من ذلك أنَّ ما بسط الله عليه في الرِّزق -قد تقول- لا يعدل ما أنفقه على أهل العلم وطلَّابه ومنهم مالك -رحمه الله-، ولو حسبت بالدَّنانير الذَّهبية وحوَّلتها لرأيت شيئًا عجبًا ممَّا أنفقه الإمام اللَّيث بن سعد -رحمه الله تعالى-.

كذلك في ضمن هذا المضمار يُذكر أنَّ الحافظ ابن حجر -رحمه الله- كان من أهل الوجاهة وكثرة المال، حتَّى ذكروا في ترجمته أنَّه مرَّ على يهودي، وكان هذا اليهودي يبيع الزَّيت الحْار وأثوابه مُلطَّخة بالزَّيت وهو في غاية الرَّثاثة والشَّناعة، وكان الحافظ ابن حجر في زينته وفي مركبه والطُّلَّاب يُحيطون به، فاستوقفه اليهودي فقال له: (يَا شَيْخَ الإِسْلَام تَزْعمُ أنَّ نَبِيَّكُمْ) -عليه الصَّلاة والسَّلام- (قَال: «**الدُّنْيا**

كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنْ الدَّنَسِ وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْكَسَلِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ)) [متَّفق عليه؛ واللفظ للبخاري]

[1] صحيح البخاري.

[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الثامن، ص:156.

سِجنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّة الْكَافِر»[1]، فَأَيُّ سِجْنٍ أَنْتَ فِيهِ وَأَيُّ جَنَّةٍ أَنَا فِيهَا) هو يتكلَّم مع مَن؟! مع الحافظ ابن حجر، فوقف الحافظ ابن حجر -رحمه الله- وقال له: (أنا بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعَدَّ اللهُ لِي فِي الآخِرَةِ مِن النَّعِيمِ كَأَنِّي الآنَ فِي السِّجْن؛ وَأَنْتَ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعَدَّ لَكَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الأَلِيمِ كَأَنَّكَ فِي جَنَّةٍ)[2] فأسلم -كما ذكروا ذلك في ترجمة الحافظ ابن حجر رحمه الله-.

وهنا قد تُثار مسألة في هذا المضمار -وإن كان لم يقصدها الألبيري رحمه الله- وهي مسألة: المفاضلة بين الغني والفقير، وهذه مبحوثة في كثير من كتب العلم، وأطالوا فيها، وفي «عِدَّة الصَّابرين» أو «عِدَة الصابرين» أو «عُدَّة الصَّابرين» -على الخلاف في ضبط اسمه- لابن القيِّم -رحمه الله- مبحثٌ في هذا أطال فيه، كذلك في «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للسَّفاريني في مسألة التَّفاضل بين الغِنى والفقر.

لكن لابدَّ أن نضع أصلًا: وهو أنَّ التَّفاضل هذا باتِّفاق العلماء ليس مطلقًا، يعني لا يقولون: «فَضل الغني على الفقير» هذا اِتِّفاق من أهل العلم، وإنَّما يُفاضلُون بين الغنيّ الشَّاكر والفقير الصَّابر، -يعني صورة المسألة في هذا التَّفضيل: التَّفضيل بين الغني الشَّاكر والفقير الصَّابر-.

البخاري -رحمه الله تعالى- بوَّب في صحيحه بابين على هذا:

_ بوَّب: (باب: فضْل الغَنيّ الشَّاكر).

_ وبوَّب: (بَاب: فَضل الفَقِير الصَّابر).

---

[1] رواه مسلم؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] "فيض القدير" للمناوي رحمه الله؛ الجزء الثَّالث؛ ص: 546

والتَّفضيل هذا روايتان عن الإمام أحمد -رحمه الله-:

_ مرَّة فضَّل الغني الشَّاكر.

_ ومرَّة فضَّل الفقير الصَّابر.

فهُما روايتان عن الإمام أحمد، ومن ثمَّ اِختلف أصحابه كما اِختلف غيرهم من أهل العلم.

_ والَّذي رجَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أنَّه لا يُطلق القول بهذا وإنَّما حيث اِستويَا فقد قال الله تعالى:﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1].

_ ورجَّح آخرون ومنهم الشَّيخ ابن باز -رحمه الله- والشَّيخ ابن عثيمين وغيرهم من أهل العلم: أنَّ الغني الشَّاكر أفضل من الفقير الصَّابر، لماذا؟! قالوا: (للنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي) لأنَّ نفعه مُتعدٍّ لغيره.

لأنَّهم عندما يقولون: «شاكر» الشُّكر تعرفون أنَّه لا يكون الإنسان شاكرًا إلَّا بأركان الشُّكر الثَّلاثة، وهي:

_ اِعتراف القلب.

_ نُطق اللِّسان.

_ عمل الجوارح.

فهو عاملٌ بمقتضى الشُّكر، قالوا هنا: (هَذَا النَّفْعُ مُتَعَدٍّ إِلَى غَيْرِهِ) فينفع النَّاس، ويدلُّ على هذا التَّرجيح ما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هُريرة: (ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثورِ بالدَّرجَاتِ الْعُلَا)[2] حتَّى جاء في رواية أنَّه جاء الفقراء إلى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، ذلك أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال في آخر الحديث:[3] ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ

---

[1] سورة الحجرات: 13

[2] متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

[3] (فرَجَع فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرين إِلَى رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ فَقَالُوا: سَمِع إِخْوَانُنا أَهلُ الأمْوَالِ بِمَا فَعَلْنا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلّمَ:﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَن يَشَاء﴾ [اللَّفظ لمسلم]

اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1]، ولاشكَّ في صبر هؤلاء الفقراء من الصَّحابه رضي الله عنهم، وإنَّما كان همُّهم هو التَّنافس على أمر الآخرة، ولهذا قالوا: (يَا رَسُولَ الله: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثورِ بالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِم)[2] فأمرهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بالتَّسبيح والتَّكبير والتَّحميد، فسمع الأغنياء ففعلوا مثلما فعلوا، فإذًا فضلوا عليهم، فجاءوا إلى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام مرَّة ثانية فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[3].

وقد يُستدل بهذا القول -وفيه قُوَّة- على هذا الأمر، بأنَّ هذا الصَّابر صابرٌ لنفسه، لكن هذا الغني الَّذي وسَّع الله عليه ومع توسعة الله -جلَّ وعلا- عليه قام بحقِّ الله -جلَّ وعلا- الواجب، وزاد على الواجب بالتَّنفُّل والتَّصدق والإنفاق في وجوه الخير: فيُجهِّز غازيًا، يكفل يتيمًا، ويفعل أفعل الخير الَّتي تتعدَّى إلى غيره.

على كلِّ حال هذا إشارة، وإلَّا فالخلاف أكثر من هذا، يعني:

_ منهم من يقول: (لَا تَفَاضُل) -كما يُشير إليه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية- وإنَّما نُرجع الأمر إلى الله -سبحانه وتعالى-:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[4].

_ ومنهم من يُفضِّل الغنِي الشَّاكر مُطلقًا.

_ ومنهم من يُفضِّل الفقير الصَّابر مُطلقًا.

على كلِّ حالٍ هذا إشارة.

---

[1] سورة الجمعة: 4

[2] رواه مسلم؛ من طريق أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

[3] سورة الجمعة: 4

[4] سورة الحجرات: 13

فالنَّاظم -رحمه الله- هنا يشير على طالب العلم أنَّ أمر الدُّنيا مهما عَظُم فإنَّه حقير، وأنَّه [لَيْسَ يَضُرُّكَ الاِقْتَارُ] وهو القِلَّة بأن لا تجد ما يجده النَّاس، وهذا الأصل في الطَّلب فإنَّ طالب العلم لا يُمكن أن يجد ما يجده غيره.

فهنَا يقُول:

وَلَيسَ يَضُرُّكَ الإِقتارُ شَيئًا

وذلك مشروط:

إذا ما أَنتَ رَبَّكَ قَد عَرَفتا

ومِنْ معرفته لربِّه الَّتي أرادها الألبيري -رحمه الله تعالى- أنَّه قال:

فَماذا عِندَهُ لَكَ مِن جَميلٍ

يعني مِنْ ضِمن ما تتعرَّف به على الله -سبحانه وتعالى- أن تتعرَّف على ما أعدَّه لك من الجميل.

فَماذا عِندَهُ لَكَ مِن جَميلٍ

أيضًا شرط لهذا شرطًا فقال:

إذا بِفِنَاءِ طاعَتِهِ أَنَختَا

وإناخةُ البعير: بروكُه وثباته.

[بِفِنَاء] والفناء هو السَّاحة الواسعة الَّتي تكون قبل المكان المقصود، فإذا أنخت بهذه السَّاحة ولزمتَ طاعة الله -سبحانه وتعالى- ولزمتَ مقام العبودية الَّذي هو الاِستقامة والَّذي هو حقيقة الكرامة كما يقول شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- في كتابه «قاعدة في المحبَّة».

- وهذا الكتاب من أجلِّ وأنفس كتبِ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، مع الأسف الشَّديد فإنَّ الملاحَظ الإعراض من طلبة العلم عن مِثل هذه الكُتب، ومَن كان له نَهمة في القراءة إذا أمسك الصَّفحة الأُولى فلن يترك الكتاب حتَّى يُنهيه؛ مطبوع في مُجلَّد، له طبعتان:

_ طبعة للشَّيخ مُحمَّد رشاد سالِم.

_ وطبعة فوَّاز زمرلي.

وطبعة الشَّيخ محمَّد رشاد أتقن وأقدم، -هذه فيها ميزة الحواشي-.

على كلِّ حال هذا الكتاب من أنفس كتب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، كتابٌ عظيم، وفي فوائد عظيمة.

وفيه فوائد عظيمة من ضمنها أنَّه قال -رحمه الله-: (أَعْظَمُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ)[1] هذا إذَا نظرتَ إلى كُتب شيخ الإسلام ابن تيمية -فيما أعلم- لا تجد هذه الكلمة إلَّا نقلًا عن تلميذه ابن القيِّم، يقول: (وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللَّهُ تَعَالَى رَوْحَهُ- يَقُولُ: أَعْظَمُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ)[2].

إذَا رجعنا إلى البيت الأوَّل، نسيت الفائدة أيضًا الَّتي ذكرها شيخ الإسلام، قال: (أَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّة عَلَى أَنَّ النَّعِيم لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيم)[3] -هذا في نفس الكتاب-، (أَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّة عَلَى أَنَّ النَّعِيم لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيم) من أراد نعيم الآخرة فلابُدَّ أن يتقلَّل من نعيم الدُّنيا وخصوصًا إذا مُنع منها كما ثبت عنه عليه الصَّلاة والسَّلام

---

[1] جاء في "مدارج السَّالكين" لابن القيِّم رحمه الله بهذا اللَّفظ؛ وبلفظ: (الْكَرَامَةُ هِيَ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ) [في كتابه "قاعدة في المحبة "؛ ص: 59]

[2] "مدارج السَّالكين" لابن القيِّم رحمه الله، الجزء الثاني؛ ص: 106

[3] "قاعدة في المحبة" لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ص: 72

أنَّه قال: ((**إِنَّ اللَّهَ -عزَّ وَجَلَّ- يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ**))[1] يعني يجعل له حِمية منه.

فهنا النَّاظم -رحمه الله- يقول:

فَماذَا عِندَهُ لَكَ مِن جَميلٍ إذا بِفِناءِ طاعَتِهِ أَنَختا

[أَنَخْتَا] بركتَ ولزمت؛ بمعنى اللُّزوم.

فَماذا عِندَهُ لَكَ مِن جَميلٍ

يكفي أن تَسمع قول النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام في الصَّحيحين -من حديث أبي هُريرة- في ما يرويه عن ربِّه، أنَّه تعالى قال: ((**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالحِينَ: مَا لَا عَيْنٌ رَأَت، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَت، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشرٍ**))[2] ثُمَّ قال: ((**فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُم**:[3] ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]، وكذلك قول الله -سبحانه وتعالى-:﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[5] وهذه الآية من أراد أن يتفكَّر في كلِّ ما في القرآن والسُّنَّة من النَّعيم تَكْفِيه، كيف؟! ﴿نُزُلًا﴾ ما معنى النُّزل؟! الضِّيافة، والضِّيافة مِمَّن؟! ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، فإذًا الضِّيافة من الله -عزَّ وجلَّ- ودارها جنَّة عرضها السَّماوات والأرض، كيف سيكون هذا النَّعيم؟! هذا نعيمٌ عظيمٌ بلاشكٍّ، ولهذا يحتاج العبد المؤمن إلى أن يتفكَّر في مثل هذه المقامات.

---

[1] قال السخاوي رحمه الله في "الأجوبة المرضية": ثابت.

[2] مُتَّفق عليه

[3] اللفظ للبخاري

[4] سورة السَّجدة: 17

[5] سورة فصلت: 32

فالنَّاظم -رحمه الله- يقول:

فَمـاذَا عِندَهُ لَكَ مِــن جَميلٍ

[مَاذَا] اِستفهام، تُفيد التَّعظيم.

فَماذا عِندَهُ لَكَ مِن جَميلٍ إذا بِفِنـاءِ طاعَتِـهِ أَنَخْتـا

نكتفي؛ كما قلنا لكم البيت الَّذي شرحناه الأوَّل يحتاج إلى مُحاضرة.

صلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدَّرس الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:
فهذا هو المجلس الثَّالث عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري -رحمه الله تعالى- المشهورة بـ «التَّائيَّة».

وقد اِنتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

فَقابِل بِالقَبـولِ لنُصْح قَوْلي ... فَإِن أَعرَضتَ عَنهُ فَقَد خَسِرتا
وَإِن راعَيتَـــهُ قَولاً وَفِعلاً ... وَتــاجَرتَ الإِلَهَ بِــهِ رَبِحتا
فَلَيسَت هَــذِهِ الدُّنيا بِشَيءٍ ... تَســوؤُكَ حقبَـــةً وَتَسُرُّ وَقتا
وَغايَتُهـا إِذا فَكَّرتَ فيهــا ... كَفَيئِكَ أَو كَحُلمِكَ إِذْ حَلمتـا

لايزال النَّاظم -رحمه الله تعالى- يُقرِّر في هذه الأبيات وفي هذه النَّصيحة ما يتعلَّق بأمر التَّعارض بين الدُّنيا وطلبها واللَّهف عليها وبين طلب العلم والقيام بحقِّ الله -تبارك وتعالى- فيه -كما مرَّ معنا في الأسبوع الماضي-[1].

[1] أي الدَّرس السَّابق، -لأنَّ الشَّرح أُسبوعي-.

وعبَّر هنا -رحمه الله تعالى- بأنَّ هذه نصائح وأنَّ الواجب في النَّصيحة أن يقبلها من أُسديت إليه لأنَّها ممَّا أمر الله به ورسوله، بل إنَّ الله -جلَّ جلاله- بيَّن أنَّ هذا الدِّين قائم على هذا النُّصح، وأنَّ دعوة جميع الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام قائمة على النُّصح، كما قال ربُّنا -سبحانه وتعالى- كناية عن صالح:﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[1]، وقال عن هود:﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[2]، فالأنبياء كلُّهم عليهم الصَّلاة والسَّلام نَصَحة.

والألبيري -رحمه الله تعالى- يُذكِّر في هذا النَّظم بأنَّ ما قاله وسيقوله: هو نُصح؛ ولهذا فيما نستقبل من الأبيات أيضًا قال الألبيري -رحمه الله تعالى-:

جَمعتُ لَكَ النصائحَ فَامتَثِلها حَياتَكَ فَهِيَ أَفضَلُ ما اِمتَثَلتا
وَطَوَّلتُ العِتابَ وَزِدتُ فيهِ لِأَنَّكَ في البَطالَةِ قَد أَطَلتا

وأيضًا يقول الألبيري -رحمه الله تعالى- بأنَّه وإن كان نَصح في هذه الأبيات فإنَّه هو أيضًا يحتاج إلى النُّصح، ويحتاج إلى من يَنصحه كما سيأتي أيضًا فيما قرَّره أو ما قاله النَّاظم -رحمه الله تعالى-.

هنَا قال:

فَقَابِل بِالقَبُولِ لِنُصْحِ قَوْلي

[1] سورة الأعراف: 79
[2] سورة الأعراف: 68

وفي بعض النُّسح: [صَحِيحَ نُصْحِي].

[لِنُصْحِ قَوْلِي] والنُّصح مأخوذٌ من التَّصفية، تصفية الشَّيء من شوائبه، ولذلك تقول العرب:«نَصح العسل» أو «نَصَح الحليب» إذَا صفَّاه ونقَّاه.

فَقَابِـلْ بِالقَبُولِ لِنُصْـحِ قَوْلي

[فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ] أي عن هذا القول وعن هذا النُّصح [فَقَدْ خَسِرْتَا] قُلنا بأنَّ الواجب في حقِّ النَّصيحة قبولها، قال بعض العلماء: (النَّصِيحَةُ سَهْلَة، ولَكِن الصَّعْب قَبُولُهَا) القيام بالنَّصيحة هو الصَّعب، أمَّا مُجرَّد سماعها أو إبداؤُها هذا يسهل على كلِّ أحدٍ.

والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بايع أصحابه على النُّصح لكلِّ مُسلم كما في الصَّحيحين في حديث جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه لمَّا بايع النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: (وَالنُّصحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)[1] فكلُّ من صدق فيه اِسم الإسلام وَجب النُّصح له، حتَّى أنَّ الطَّبراني وغيره -وهذا ذكره كثيرٌ منَ الشُّرَّاح- ذكروا قصَّة حصلت لجرير بن عبدالله البجلي -لننظر كيف كانوا يتعاملون مع النُّصوص وكيف كانوا يتفاعلون معها كما يُقال-: (أَنَّ جَرِيرًا أَمَرَ مَوْلَاهُ أَنْ يَشْتَرِيَ لَهُ فَرَسًا، فَاشْتَرَى لَهُ فَرَسًا بِثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَجَاءَ بِهِ وَبِصَاحِبِهِ لِيَنْقُدَهُ الثَّمَنَ؛ فَقَالَ جَرِيرٌ لِصَاحِبِ الْفَرَسِ: فَرَسُكَ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ، أَتَبِيعُهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: ذَلِكَ إِلَيْكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: فَرَسُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، أَتَبِيعُهُ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ؟ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ

[1] عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: (بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) [مُتفق عليه]

يَزِيدُهُ مِائَةً، فَمِائَةً، وَصَاحِبُهُ يَرْضَى، وَجَرِيرٌ يَقُولُ: فَرَسُكَ خَيْرٌ، إِلَى أَنْ بَلَغَ ثَمَانمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَاشْتَرَاهُ بِهَا؛ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)[1] فالنَّبي عليه الصَّلاة السَّلام بَايع أصحابه على النُّصح لكلِّ مُسلم، بل حصَر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم الدِّين في النَّصيحة كما جاء في صحيح مُسلم في حديث أبي رُقيَّة تميم بن أَوس الدَّاري رضيَ الله عنه أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**الدِّينُ النَّصِيحَة**))[2] ما وجه الحصر؟[3] تعريف الجزأين -المبتدأ والخبر- ((**الدِّينُ النَّصِيحَة**))، ((**الْحجُّ عَرَفَة**))[4]، ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾[5] تعريف الجزأين حصر، فالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**الدِّينُ النَّصِيحَة**)) هذا من الواجبات الشَّرعية وممَّا بايع عليه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أصحابه.

وهنا الألبيري يُلفت نظره إلى أنَّه ليس مُعيِّرًا ولا مُعاقبًا ولا مُشهِّرًا بل هو ناصح، وحقُّ النَّصيحة أن تُقبل، فقال:

جَمعتُ لَكَ النَصائِحَ فَامتَثِلها ... حَياتَكَ فَهِيَ أَفضَلُ ما اِمتَثَلتا

في آخر النَّظم.

وهنا قال:[فَقَابِل بِالْقَبُولِ] يعني واجه نصيحتي بأن تقبلها.

[1] "شرح صحيح مسلم" للنووي رحمه الله؛ وذكره أيضًا الحافظ ابن حجر في كتابه "فتح الباري"؛ وجاء في "المعجم الكبير" للطبراني رحمه الله، الجزء الثَّاني، ص: 334.

[2] رواه مسلم.

[3] مِن بَاب مَزيد فائِدة: نَظَمَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفظَهُ الله أَسَالِيبَ الْحَصْرِ الأَرْبَعَة الْمَشْهُورَة، فقالَ:

بِإِنَّمَا وَالنَّفيِ مَعْ إِثْبَاتِ ... مُعَرَّفُ الجُزْأيْنِ حَصْرٌ يَاتِي

كَذَاك تقْدِيمٌ لعَاملٍ فُهِمْ ... وَذي هِيَ المَشْهُور مِنْها يَا فَهِمْ.

[4] صحَّحه الألباني في "صحيح الجامع".

[5] سورة المنافقون: 4

والنَّصيحة لها آداب، لكن ذهاب هذه الآداب ليس عذرًا لردِّها -اِنتبه لهذا- وخصوصًا إذا كانت من واجبات الشَّرع، لأنَّ بعض النَّاس يقول -إذا نصحته بشيءٍ ممَّا أَوجبه الله عليه-: «لَم يستعمل الأسلوب الحسن فيها»، رُدَّ على أُسلوبه واِقبل الواجب الَّذي أوجبه الله -سبحانه وتعالى-.

السَّلف كانوا يُعلِّموا آداب النَّصيحة، -كما جاء أيضًا في كثيرٍ منَ النُّصوص الشَّرعية-، وكان بعض السَّلف يقول -ومنهم الفُضيل بن عياض-: (الْمُؤْمِن يَسْتُر وَيَنْصَح، وَالْفَاجِرُ يَهْتِكُ ويُعَيِّر)[1]، فمن قصد النَّصيحة فإنَّه [يوصلها][2] إلى صاحبها، والسِّتر كان من أهمِّ مقاصد السَّلف في النُّصح والحث عليه والحض عليه، أنَّهم يُرسلون النَّصيحة بقدر المستطاع إلى صاحبها على مقام السِّتر، ولهذا قال الشَّافعي -رحمه الله-:

تَعَمَّدني بِنُصْحِكَ في انْفِرَادِي ... وجنِّبني النَّصيحةَ في الجماعهْ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... من التَّوبيخ لا أرضى اِستمَاعه
وَإِنْ خَالَفْتِنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي ... فَلاَ تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَه

وأيضًا السَّلف كانوا يُعظِّمون من أمر النَّصيحة حتَّى قال بعضهم: (مَنْ نَاصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ، وَمَنْ دَاهَنَكَ فَقَدْ غَشَّكَ)، وبناء النَّاس اليوم في علاقاتهم -إلَّا من رحمه الله جلَّ وعلا- على التَّغطية لا على السِّتر.

_ السِّتر مستلزم للنُّصح.

---

[1] "مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي"؛ الجزء الأول، ص:410

[2] كلمة غير واضحة؛ على أغلب ظني: يوصلها.

_ والتَّغطية حتَّى أنَّه ربَّما غطَّى على صاحبه أنَّه مخطئ أصلًا في هذا المقام، خصوصًا إذا تعلَّق الأمر بالدِّين وما يقع من الأخطاء في المقالات.

وهناك كتاب -رسالة صغيرة- نافعة جدًّا في هذا الباب للحافظ ابن رجب -رحمه الله- «الفرق بين النَّصيحة والتَّعيير».

وكلام أهل العلم من السَّلف في هذا كثير -رحمهم الله تعالى-؛ لكن الشَّاهد من هذا أنَّ الألبيري -رحمه الله- يُعلِّمك الأدب في الوصول إلى النَّصيحة أو في وصول النَّصيحة، يقول:

فَقَابِل بِالقَبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي

أنا نصحتك بكلِّ هذه النَّصائح وبما سيأتي.

فَإنْ أعْرَضْتَ عَنْهُ فقدْ خَسِرْتَا

من أين أخذ الخسارة؟! من الإعراض عن الله، من الإعراض عن دينه، من الإعراض عن العِلم، من الإعراض عن الخير، من الإعراض عن الصَّلاح؛ لأنَّ ما ضمَّنه الألبيري في منظومته من النَّصائح مِن أينَ أخذه؟! من الكتاب والسُّنة، حتَّى لا يأتينا مُتقوِّل ويقول: «كيف يتقوَّل الألبيري على أنَّ من لَم يقبل نُصحه فهو خاسر!»، خُسرانه ليس لأنَّه ردَّ قول الألبيري أو نظمه أو كلامه، وإنَّما الخسران راجع إلى ما تضمَّنه هذا النُّصح، إلى ما تضمَّنه هذا الأمر؛ هذا مرَّ معنا في أكثر من مناسبة أنَّ ابن بطَّة والآجري وابن القيِّم نصُّوا على أنَّ طاعة العُلماء واجبة ومعصيتهم محرَّمة، بل قال ابن القيِّم: (وَطَاعَتُهُمْ أَفْرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ بِنَصِّ الْكِتَابِ)[1] ثمَّ ذكر قول الله -سبحانه وتعالى-:﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ

[1] "إعلام الموقعين"؛ الجزء الأول، ص: 8

الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

الألبيري لمَّا قال: [فَإِنْ أَعْرَضْتَ] عن هذا النُّصح، [فَقَدْ خَسِرْتَا] لأنَّ هذه الخسارة مأخوذة ممَّا جاء به -ممَّا نَصِح به- ممَّا أمر الله به ورسوله عليه الصَّلاة والسَّلام.

فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فقدْ خَسِرْتَا

[وَإِنْ رَاعَيْتَهُ] أي النُّصح [قَوْلًا] في قولك على ما نصحتك في هذه النَّصائح -الَّتي مرَّت معنا وسنستقبل غيرها-.

[وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا] عملتَ بما سمعت وبما نُصحْتَ.

وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا

[تَاجَرْتَ] من المفاعة يعني: عقدتَ تجارة مع الله -سبحانه وتعالى-، ولفظ التِّجارة والاتِّجار فيما يتعلَّق بالأُمور الشَّرعية واردٌ في الكتاب ووارِدٌ في السُّنَّة، الله -سبحانه وتعالى- قال في أهل القرآن التَّالين له المتَّبعين له: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[2]، كذلك قال الله -سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[3] الآيات؛ وكذلك قال -سبحان وتعالى- في غير لفظ التِّجارة بما يفيده ويدلُّ عليه هذا اللَّفظ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ

[1] سورة النساء: 83

[2] سورة فاطر: 29

[3] سورة الصف : 10-11

لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1]، فهو الَّذي أعطاهم هذه الأنفس ووهبها لهم ومكَّنهم من إصلاحها ثمَّ إِشتراها نقيَّة مُهذَّبة جاهزة بأن تُقتل في سبيل الله -سبحانه وتعالى-.

فَلَوْ كَانَ يُرضي اللهَ نَحْر نُفُوسِهمْ   لَدَانُوا بِهِ طَوْعًا وَلِلْأَمْرِ سَلَّمُوا[2]

في ماذا يقول هذا الحافظ ابن القيِّم في «ميميته»؟! لمَّا ذكر الحجيج وذكر موقفهم وذكر رَميهم للجمار ونحرهم وذبحهم للهدي وقال: (فَلَوْ كَانَ يُرضي الله) في هذا المقام، لأنَّها نفوس قد هُذِّبت، تربَّت وطابت بأن تتخلَّ عن نفسها لله -سبحانه وتعالى-، فقال:

فَلَوْ كَانَ يُرضي اللهَ نَحْر نُفُوسِهمْ

(لَدَانُوا بِهِ) لجعلوه دِينًا يدينون به (وَللأَمْرِ سَلَّمُوا)، لكنَّ الله -عزَّ وجلَّ- رحيمٌ بعباده فلم يأمرهم بهذا.

وهنا الألبيري -رحمه الله تعالى- يقول:

وَتَاجَرْتَ الإلَهَ بِـهِ رَبِحْتَا

وما قلناه في قوله: [خَسِرْتَا] نقوله في قوله: [رَبِحْتَا] لأنَّ الجزم بأنَّ هذه خسارة وهذا ربح من أين أخذه الألبيري؟! من نُصوص الكتاب والسُّنَّة، هو لَم يقل بشيءٍ من عنده وأنَّ من لَم يفعله -كما هو حال أئمَّة الضَّلال وكما هو حال رُؤساء الجماعات والفِرق الَّذين يجعلون أصولًا وقواعد يسيرون عليها ويقعِّدونها لأصحابهم ويُرتِّبون على فعلها الفوز والرِّبح وعلى تركها الخسران والهلاك-؛ هذا ليس في كلام أئمَّة العلم وأئمَّة الدِّين وإنَّما هو في كلام أهل الأهواء.

وَتَاجَرْتَ الإلَهَ بِـهِ رَبِحْتَا

[1] سورة التوبة: 111

[2] ميمية ابن القيِّم رحمه الله.

فهناك تجارة مع الله، الحافظ ابن القيم له كلام جميل في هذا المقام في «مفتاح دار السَّعادة» وفي «طريق الهجرتين» وفي مواضع من كتبه وخصوصًا على قوله -سبحانه وتعالى-:﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾، مع أنَّ الله -سبحانه وتعالى- هو الَّذي وَهب لهم هذه الأنفس وأعطاهم إيَّاها وخلقهم ومع هذا يشتريها منهم إكرامًا لهم وتعظيمًا لهذا الأمر الَّذي سيقومون به وهو الجهاد في سبيل الله.

وَتَـاجَرْتَ الإِلَهَ بِــهِ رَبِحْتَـا

فَلَيْسَتْ هَـذِهِ الدُّنْيَـا بِشَيْءٍ

يقول لك: أعرضتَ عن هذه النَّصائح، تولَّيت عنها، إلى أين ستركَن؟! لاشك أنَّ من أعرض عن الآخرة رَكن إلى الدُّنيا كما قال النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: **((مَن كَانَتْ هَمّهُ الآخِرَةُ جَمع اللهُ لَهُ شَمْلَهُ، وَجعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا رَاغِمَةً؛ وَمَنْ كَانَتْ هَمّهُ الدُّنْيَا فَرّق اللهُ عليْه أَمْرَه، وَجعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِن الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ))**[1] فمن أراد أن يعارض بين الدُّنيا والآخرة أو يفتعل هذه المعارضة بأنَّه لن يحصل على الدُّنيا إلَّا إذا تخلَّى عن الآخرة فهذا هو الخسران المُبين، وإلَّا فإنَّ الله -سبحانه وتعالى- قال:﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[2] ولهذا خلق لنا ما في الأرض جميعًا.

---

[1] صحَّحه الألباني في "صحيح الجامع"؛ من طريق زيد بن ثابت رضيَ الله عنه.

[2] سورة الأعراف: 32

اِفتعال المعارضة والمناقضة والمخالفة بين إمَّا أن تكون على الدُّنيا وإمَّا أن تكون من أهل الآخرة هذا لا يقوله إلَّا أحد الرَّجلين: إمَّا صوفي مُتزندق مُعرض عن الله وعن الآخرة أصلًا، كما يقوله أصحاب الغلو في التَّزهد وأنَّه لن يحصل على الآخرة إلَّا إذا اِنسلخ اِنسلاخًا كُلّيا من الدُّنيا؛ هذا ليس بصحيح، مازال الأنبياء يأكلون ويشربون ويناكحون ويفعلون ما يفعله البشر وهم سادات الزُّهاد، سادات الصَّالحين، ولهذا الألبيري -رحمه الله تعالى- يقول:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيا خُمُولًا

هو يُفسِّر لك معنى الزُّهد -كما سيأتي البيت هذا، وسنشرح إن شاء الله معنى الزُّهد عند السَّلف-.

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا

أحيانًا -كما قلتُ لكم- اِفتعال المعارضة والمناقضة بين أمر الدُّنيا وأمر الآخرة هذا غلط، ولهذا جاء التَّوسط في أمر هذا الدِّين، جاء الاِعتدال في أمر هذا الدِّين، إلى آخر ما هو معلوم.

فَلَيْسَتْ هَـذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ

[بِشَيْءٍ] هذه نكرة جاءت في سياق النَّفي، قد يقول قائل: «هو يقول لك أنَّها لَيْسَت بشَيْءٍ» نعم؛ ليست بشيءٍ إذَا عارضت الآخرة وناقضتها واِشترى المرء دينه بدُنياه.

الألبيري -رحمه الله- لمَّا ذكر التِّجارة هذه مسألة فيها مُعاوضة، فيها ربح، ولهذا جاء في مستدرك الحاكم[1] بإسناد حسن -حسَّنه أو صحَّحه شيخنا رحمه الله

[1] قال الحاكم في "المستدرك": (صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجْهُ)، الجزء الثالث، ص:488.

في «الصَّحيح المسند»- في قصَّة خروج أبي يحيي صُهيب بن سنان الرُّومي من مكَّة لمَّا خرج مهاجرًا فتبعه المشركون، فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهمًا، وقال: (لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَضَعَ فِي كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُم سَهْمًا، ثُمَّ أَصِيرَ بَعْدَه إِلَى السَّيْفِ فَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَجلٌ وَقَد خلَّفتُ بِمكَّةَ قَينتَينِ فَهُمَا لَكُمْ) فتركوه، فلمَّا جاء النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام وأُخبر خبره قال: ((**أبَا يَحْيَى رَبِحَ البَيْع**))[1] يعني معناه أنَّك الآن هذه البيعة وهذه التِّجارة وهذه الصَّفقة الَّتي عقدتها مع الله ربحت، فهو هنا رضي الله عنه وأرضاه تاجر مع الله وأعرض عن الدُّنيا من أجل الآخرة.

كذلك في قصَّة أبي الدَّحداح لمَّا اِختلف رجلٌ مع رجلٍ على نخلةٍ فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**أَعْطِها إيَّاهُ بِنَخلةٍ فِي الجنَّةِ؛ فأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحدَاح فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلتَكَ بِحَائِطِي، ففَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ وَسلَّمَ فَقَالَ: يَا رسُولَ اللَّهِ إنِّي قَدِ ابتَعتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي، قَالَ: فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَد أَعْطَيْتُكَها؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: كَم مِن عذقٍ رَداحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ**))[2].

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ

إذا ما كانت قاطعة للعبد عن الآخرة، لأنَّ حالها:

تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا

هيَ مُتقلِّبة بين هذا السُّرور وبين هذا السُّوء، فلا يثبت لها مقام، وهذا من رحمة الله -جلَّ وعلا- للمؤمنين، لِم؟ لأنَّه لو ثبت لها مقام النَّعيم لأعرض النَّاس عن تذكُّر

[1] قال الشَّيخ مُقبل الوَادْعِي رَحِمه الله في "الصَّحيح المسْند مِن أسباب النزول": (الْحَدِيث لَهُ طُرُق أُخْرَى أَغْلَبُهَا مَرَاسِيل، كَمَا فِي الإِصَابَة ج2 ص188، وَفِي الطَّبَقَات لابْنِ سَعْد ج3 ص163 من القِسْم الأوَّلِ، وَهِي بِمَجْمُوعِهَا تَزِيدُ الْحَدِيثَ قُوَّةً وَتَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِهِ) اهــ (ص:38).

[2] صحَّحه الشيخ مقبل رحمه الله في " الصَّحيح المسند".

الآخرة والنَّعيم، كما ذكر الحافظ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- في «مدارج السَّالكين» -فيما أذكر- ذَكر أنَّ من رحمة الله تعالى ما يجعله من المُنغّصات في هذه الحياة الدُّنيا والمكدّرات -من المرض والفقر والحاجة، إلى ما أشبه ذلك-، لأنَّ الجنَّة هي الَّتي قال الله -عزَّ وجلّ- عنها: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾[1] فإذا كان المرء لا يمسُّه نصبٌ في هذه الحياة الدُّنيا ما الَّذي يريده من الجنَّة؟! ما الَّذي يُريده منَ الآخرة؟! فالمنغّصات الَّتي تكون في هذه الدُّنيا -وتسوؤك مرَّة وتسرُّك أُخرى- هذا حالها حتَّى لا يركن إليها الإنسان، والواجب عليه ما أخبر الله -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[2] هذا واجب المرء والعلاج لهذا ما جاء في صحيح مُسلم في حديث أبي يحي صُهيب بن سنان الرُّومي أيضًا أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، ولَيسَ ذَاك لِأحدٍ إلَّا للمُؤْمِنِ، إنْ أَصابَتْه سرَّاءُ شَكرَ فكان خيرًا له، وإن أَصابته ضرَّاءُ صَبر فكَان خيرًا لَه))**[3].

تَسوؤُكَ حقبَةً وَتَسُرُّ وَقتا

[حقْبَة] الحقبة هي الفترة من الزَّمان، حدَّدها بعض أهل اللُّغة بالثَّمانين، وقد تزيد، قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾[4] يعني أزمنة مديدة، مهما كانت هذه المدَّة -قليلة أو قصيرة- فإنَّ العبد يتنوَّع في أمر هذه الحياة الدُّنيا، فلا تدوم على حالٍ لأحد أبدًا، لا تدوم: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5] فكَمْ ذَلَّ من

---

[1] سورة الحجر: 48

[2] سورة الحديد: 23

[3] رواه مسلم.

[4] سورة النبأ: 23

[5] سورة آل عمران: 26

عزيز، وعزَّ من ذليل، واغتنى من فقير، وفقر من غني، فلا تدوم لها حال، فعلى ما يركن إليها الإنسان إذا عارضت أمر الله وأمر رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم؟! ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1] هذا التَّعارض، لكن ينبغي على طالب العلم، ينبغي على المسلم، أن لا يفتعل المعارضة بين أمر الدِّين وأمر الدُّنيا، مازال في العلماء الصُّنَّاع والتُّجَّار، مازال فيهم -في العلماء، لا نتكلَّم عن آحاد النَّاس- من نُسب إلى صنعة، من نُسب إلى تجارة، من نُسب إلى حِرفة، وهذا صُنِّفت فيه كتب -من نُسب من العلماء إلى مهنة أو حرفة - طُبع في مجلَّد، الحذّاء، الإسكافي، الزيَّات -إلى آخره-؛ والخلَّال له كتاب في طلب الرِّزق، كتاب نافع في هذا الباب[2].

فالشَّاهد من هذا أنَّ العبد يكون فقيهًا في مثل هذه الأمور، الألبيري أراد هذا.

فَلَيسَت هَـــذِهِ الدُّنيا بِشَيءٍ   تَسوؤُكَ حقبَـةً وَتَسُـرُّ وَقتـا

[وَغَايَتُهَا] غاية الحياة الدُّنيا هذه بجميع ما فيها من النَّعيم وجميع ما فيها من اللَّذات [وَغَايَتُهَا] نهايتها [إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا، كَفَيْئِكَ] الفيء: الظِّل كما جاء في الأحاديث[3]، «فيء الزَّوال» الفيء: هو ظلُّ الشَّيء؛ هل يبقى هذا الظِّل؟! إن بقِيَ الإنسان أو مشى أو جرى أو فعل أيَّ شيءٍ لابُدَّ وأن يزول هذا الظِّل، إمَّا بزواله أو بزوال الشَّمس.

الحياة الدُّنيا كالفيء، يُمثِّلها لك الألبيري -رحمه الله- فيقول: [كَفَيْئِكَ] كظلِّك، هذا الظِّل الَّذي يزول، ولا ظِل إلَّا وهو يزول -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

---

[1] سورة التوبة: 24

[2] يشير الشَّيخ حفظه الله إلى كتاب: "الحث على التِّجارة والصِّناعة والعمل" لأبي بكرٍ الخلال رحمه الله تعالى.

[3] عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: (أَذَّنَ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالظُّهْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَبْرِدْ أَبْرِدْ))، أَوْ قَالَ: ((انْتَظِرِ انْتَظِرْ))، وَقَالَ: ((إِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَإِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنْ الصَّلَاةِ)) قَالَ أَبُو ذَرٍّ: حَتَّى رَأَيْنَا **فَيْءَ** التُّلُولِ) [متفق عليه؛ واللفظ لمسلم]

[كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ] لن يكون الحلم أَطول من النَّوم، والنَّوم ينقضي، فكيف لا ينقضي الحلم؟! فإذا كان المرء في حلمٍ مهما كان فيه من الجمال والرَّوعة.

وإن كان «الحلم» في الغالب يُستعمل في ما يكرهه الإنسان، و«الرُّؤيا» فيما يلتذُّ به، لكن النَّظم أحيانًا يصعب على الإنسان أن يتفاداه -يتفادى بعض الألفاظ-، النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ وَالحُلْم مِنَ الشَّيْطَان**))[1]، فالشَّاهد أنَّ الألبيري -رحمه الله- أراد التَّحذير من مثل هذا المقام وهو الرُّكون إلى الدُّنيا.

وبهذا القدر إن شاء الله سنكتفي؛ وصلَّى الله عليه نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدِّين.

[1] متفق عليه؛ من طريق أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

الدَّرس الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الرَّابع عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري -رحمه الله تعالى-.

وانتهى بنا المقام إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

سُجنتَ بها وَأَنتَ لَها مُحِبٌّ ... فَكَيفَ تُحِبُّ ما فيهِ سُجِنتا!
وَتُطعِمُكَ الطَعامَ وَعَن قَريبٍ ... سَتَطعَمُ مِنكَ ما فِيها طَعِمْتَا
وَتَعرى إن لَبِستَ بِهَا ثِيابًا ... وَتُكْسَى إن مَلابِسَها خَلَعْتَا
وَتَشهَدُ كُلَّ يَومٍ دَفنَ خِلٍّ ... كَأَنَّكَ لا تُرادُ لِمَا شَهِدتا

لايزال النَّاظم -رحمنا الله وإيَّاه- في معرض الحديث عن الدُّنيا وما يتعلَّق بها في حال ما عارضت الآخرة ودفعت الأمر عن العمل إلى الآخرة، وأنَّ المسلم -وعلى الخصوص طالب العلم- ينبغي له أن يكون حذرًا منها.

فبيَّن هنا في هذا البيت أنَّ الدُّنيا سجن للمؤمن، والسِّجن معناه الحبس؛ كما في قوله -سبحانه وتعالى- في قصَّة يوسف:﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1] فمعناه وحقيقته: الحبس، المنع عن الشَّيء، سُجِنَ عن الشَّيء أو حُبس عنه.

[سُجِنْتَ بِهَا] فهي سجنٌ له، وهو محبوس فيها؛ [وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ] مع كونها سجن فأنتَ تُحبُها.

ثمَّ يتعجَّب النَّاظم -رحمه الله تعالى- فيقول:

فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا!

لأنَّ الله فطر العبد على أن لا يُحب السِّجن وأن لا يُحب الحبس وأن يكون مُنطلقًا غير محبوس، والنَّاظم -رحمه الله تعالى- هنا يُشير إلى ما رواه الإمام مُسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرَّحمن عن أبيه عن أبي هريرة أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ))[2] وهذا الحديث -كما قُلت لكم- خرَّجه مُسلم في صحيحه، فلا مَطعن في إسناده، ولَم يعترض عليه أحدٌ من أهل العلم، ولكن وقع الاِعتراض، والاِعتراض قديمٌ جدًّا -كما سأذكر لكم-، وزاد وطالت حِباله عند بعض العصريين المُنفتِحين على الدُّنيا الَّذين يُريدون أن يُشكِّكوا في مقاصد الشَّريعة ويُريدون أن يُثيروا عليها ما يزعمون أنَّه نوعٌ من التَّناقض.

فمِن أوَّل هذه الإشكالات وهذا منقول عند بعض المعاصرين في ترجمة الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، قد ذكرتُ هذا في بعض المجالس اِغترارًا بقولهم، ثمَّ راجعتُ في

---

[1] سورة يوسف: 32

[2] رواه مسلم.

التَّراجم فلم أجد هذا عن الحافظ ابن حجر، وإنَّما وجدته عن الإمام سهل الصّعلوكي وهو إمام كبير مُتقدّم توفي في الأربعمائة وأربعة، نُسب إلى الشَّافعية ونُسب إلى الحنفية ومذكور هذا في ترجمته؛ وكان بعض الأئمَّة يصفه فيقول: (جَمَع رئَاسَةَ الدِّينِ والدُّنيَا)[1] بمعنى أنَّه كان له مقام في الدِّين بالعلم، تتلمذ عليه كثيرٌ من أئمَّة الإسلام، وهو تتلمذ قبلهم على أئمَّة كبار؛ فقالوا إنَّه خرج يومًا وكان في أُبَّهته فأحاط به بعض النَّاس، فرآه رجل يهودي -وكان في حالةٍ رثَّة- فلمَّا رأى الصّعلوكي -رحمه الله- قال له: (أَلَسْتُم تَرْوُون عَنْ نبيِّكم) -ونحن نقول عليه الصَّلاة والسَّلام- (أنَّ «**الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»؟ وأنَا عَبْدٌ كَافِرٌ وَتَرَى حَالِي، وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ وَتَرَى حَالَكَ!) قال له بديهة: (إذا أَنْتَ صِرْتَ غدًا إِلَى عَذَاب اللهِ كَانَتْ هَذِهِ جَنَّتُكَ، وَإِذَا صِرْتُ أَنَا إِلَى نَعِيمِ الله وَرِضْوَانِهِ كَانَ هَذَا سِجْنِي)[2] فشهد أن لا إله إلَّا الله وأسلم الرَّجل، لأنَّه فَطِن للمراد.

وهُنا الأمر نسبيٌّ، فهي سجنٌ بِاعتبار ما ينتظر المؤمن من أمر الآخرة، فمهما اِتَّسعت ومهما توسَّع المرء في ملاذِّها ومهما وُسِّع له في خيراتها فإنَّها لا تعدل شيئًا من أمر الجنَّة، كما أنَّ الكافر مهما ضُيِّق عليه ومهما حصَل له من الضّيق والضَّنك فإنَّ هذا لا يعدل شيئًا بِاعتبار ما أعدَّه الله له في النَّار في الآخرة إن مات على كفره.

ويدلُّ على هذا الَّذي ذكره الصّعلوكي وغيره -وإن كانوا لَم يذكروا هذا الحديث- يدلُّ عليه ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ**)) يعني يدخل في الجنَّة فقط دخولًا أوَّليا ((**فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**)) والحديث في صحيح مُسلم -حديث أنس-، ((**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا**

---

[1] "قمع الحرص بالزُّهد والقناعة" للقرطبي رحمه الله، ص: 199

[2] "قمع الحرص بالزُّهد والقناعة" للقرطبي رحمه الله، ص: 199

مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) -من أهل الكفر يعني- ((فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ))[1] وهذا الحديث يُوضِّح هذا المعنى.

وبعضهم اِستشكل هذا الحديث حتَّى في حقِّ المؤمن: كيف نقول بأنَّ الدُّنيا سجن للمؤمن وجنَّة للكافر مع أنَّ الله -سبحانه وتعالى- قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2] -وآيات كثيرة- ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[3]؟

_ هذا يُجاب عنه بما أجيب عليه اِبتداء: أنَّ هذا ليس معناه أنَّ العبد المؤمن ينقطع عن الدُّنيا وعمَّا أحلَّه الله فيها، ولكنَّه مسجون محبوس عن شُبهاتها، هذا جاء عند أبي بكر البيهقي -رحمه الله- في كتاب «الزُّهد الكبير» عن أبي علي الفُضَيل بن عياض -رحمه الله تعالى- أنَّه قال: (هِيَ سِجْنُ مَنْ تَرَكَ لَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا)[4] شهواتها المحرَّمة، وهذا المعنى من أوضح الواضحات، فالدُّنيا سجنُ المؤمن بهذا الاِعتبار، بهذا المعنى، وجنَّة للكافر أيضًا بهذا الاِعتبار، وبهذا المعنى، فهي من جهة النِّسبة.

_ من جهة نسبتها إلى الآخرة سجنٌ للمؤمن مهما طال نعيمه فيها -يعني الدَّنيا-.

_ ومن جهة ما أعدَّه الله للكافر في الآخرة من جهة النِّسبة كذلك لا تعدل شيئًا باِعتبار ما أعدَّه الله للكافر في نار جهنَّم.

---

[1] رواه مسلم؛ من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

[2] سورة الأعراف: 32

[3] سورة البقرة: 29

[4] عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ -فِي مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))- قَالَ: (هِيَ سِجْنُ مَنْ تَرَكَ لَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَأَمَّا الَّذِي لا يَتْرُكُ لَذَّاتِهَا وَلا شَهَوَاتِهَا فَأَيُّ سِجْنٍ هِيَ عَلَيْهِ!) ["الزهد الكبير" للبيهقي رحمه الله؛ ص:155]

النَّاظم -رحمه الله- يقول:[سُجِنْتَ بِهَا] يدلُّ على هذا المعنى الَّذي أراده النَّاظم والَّذي قاله أيضًا الفُضيل بن عياض والَّذي لا مناص عن معرفة معناه من الحديث وهو أنَّها سجنٌ للمؤمن بِاعتبار أنَّه لا ينطلق فيها بشهواته وملاذِّه لا يحبسه شيء كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله وغفر له- لمَّا قال: (التَّقِيُّ مُلْجَمٌ لَا يَفْعَل كُلَّ مَا يُرِيد)[1].

يدلُّ على هذا -كما ذكرتُ لكم الَّذي قاله الفضيل بن عياض-: ما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**حُفَّت**))[2] وفي رواية: ((**حُجِبَتْ النَّارُ بالشَّهَوَات، وَحُجِبَتْ الجنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**))[3] هذه المعاني تُوضِّح ما أراده النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، فليس معنى أنَّها سجنٌ للمؤمن بمعنى أنَّه ممنوع فيها عن كلِّ شيءٍ، وإنَّما هو ممنوعٌ عمَّا يقطعه عن الآخرة، وهو مع هذا أيضًا لا ينبغي له أن يركن إليها وأن يُحبَّها الحبَّ الجمّ الَّذي يقطعه عن عمل الآخرة.

سُجِنتَ بِها وَأَنتَ لَها مُحِبٌّ   فَكَيفَ تُحِبُّ ما فيهِ سُجِنتا!

ثمَّ قال -رحمه الله-:

وَتُطعِمُكَ الطَعامَ وَعَن قَريبٍ   سَتَطعَمُ مِنكَ ما فِيها طَعِمتا

[تُطْعِمُكَ الطَّعَامَ] هذا ما يُحصِّله العبد -المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، وتشترك فيه بهيمة الأنعام معهم- من أنَّهم يأكلون ويشربون ويطعمون.

---

[1] "شرح السُّنَّة" للإمام البغوي رحمه الله؛ الجزء:14، ص:341.
[2] اللفظ لمسلم.
[3] اللفظ للبخاري.

_ ولكن حال المؤمن أنَّه كما ذكرنا في قول الله -عزَّ وجلَّ-:﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

_ والكافر قال الله -عزَّ وجلَّ- عنه:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[2].

فالجميع يطعمون ويأكلون ويشربون، وهذا الَّذي يطعمونه ويأكلونه ويشربونه إنَّما يبني ذواتًا، يبني أجسادًا، وهذه الأجساد تَبلى وتأكلها الأرض كما جاء في الصَّحيحين -وغيرهما- عن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: **((وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءُ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُو عَجْبُ الذَّنَبِ))**[3] تأكله الأرض، فالنَّاظم يقول الَّذي تأكله وتتمتَّع به وتلتذ به وتَطعمه من الدُّنيا إذا نظرتَ إلى حقارته فإنَّها:

سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا

فمردُّك إليها، فكيف تركن إليها؟! وهو أراد أن يُزهِّد في أمر الدُّنيا على مُقتضى المنهج الشَّرعي، لأنَّ النَّاظم -رحمه الله تعالى- لم يكن صُوفيًّا داعيًا إلى التَّصوف، لهذا كلامه من أوضح الواضحات، حتَّى قال:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا

وهذا البيت سيأتي في الكلام على الزُّهد عند أهل السُّنَّة والزُّهد عند المتصوِّفة إن شاء الله.

فهُو يقُول:

سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا

---

[1] سورة الأعراف: 32

[2] سورة محمَّد: 12

[3] متفق عليه؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

نَــادَاهُم صَــارِخٌ مِــنْ بَعْــدِ مَــا دُفِنُــوا
أَيْـــنَ الأسِرَّةُ وَالتِّيجَـــانُ وَالحُلَـــلُ
أَيْـــنَ الوُجُـــوهُ الَّـــتِي كَانَـــتْ مُحَجَّبَـــةً
مِـــنْ دُونِهَـــا تُضْرَبُ الأَسْـــتَارُ وَالكِلَـــلُ
فَأَفْصَـــحَ القَـــبْرُ عَـــنهُمْ حِـــينَ سَـــاءَلَهُمْ
تِلْـــكَ الوُجُـــوهُ عَلَيْهَـــا الدُّودُ يَقْتَتِـــلُ
قَـــدْ طَـــالَ مَـــا أَكَلُـــوا دَهـــرًا وَمَـــا شَرِبُـــوا
فَأَصْـــبَحُوا بَعْـــدَ ذَاكَ الأَكْـــلِ قَـــدْ أُكِلُـــوا

هذا حال الدُّنيا، النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام عبَّر [بِالبِلَى][1] وقال عليه الصَّلاة والسَّلام بأنَّ الأرض تأكل جميع الأجساد إلَّا أجساد الأنبياء -أو كما قال نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم-[2].

مُراد النَّاظم أنَّ الإنسان ينظر إلى حال الدُّنيا وإلى ما ستؤُول إليه هذه الدُّنيا.

سَتَطعَمُ مِنكَ ما فِيها طَعِمْتَا

ولمَّا ذكر الطَّعام -وهو من أهم ما يُقوِّم بدن المرء- ذكر اللِّباس وهو أهم ما يستر بدن المرء، فقال:

وَتَعرى إِن لَبِستَ بِهَا ثِيابًا وَتُكسى إِن مَلابِسَها خَلَعتا

[1] كلمة غير واضحة

[2] ((إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ)) [صحَّحه الإمام الألباني في "صحيح الجامع"]

هذا البيت عندي فيه إشكال، وذكرتُ لكم من قبل أنَّ هذه المنظومة لَم يتناولها العلماء بالشَّرح، هذا في كثيرٍ من الكتب، وإن كان العلماء اِعتنوا بها وتناقلوها -رحمهم الله-.

هذا الإشكال من جهة الباء في قوله: [بِهَا] والمُرَاجَعُ من المخطوطات وهي ثلاث نُسخ الَّتي بين يدي الآن -والمطبوع أيضًا- كلُّها بـ «الباء»، مِن جهة ماذا؟! من جهة أنَّ الباء هنا حقيقتها ومعناها: المصاحبة أو الملاصقة، بمعنى أنَّه ملاصقٌ في لبسه لعيشه في الدُّنيا، والَّذي يظهر من قول النَّاظم أنَّه أراد المعنى الَّذي تتضمَّنه اللَّام: وهو الملكية أو التَّعليلية، فلو قيل:

وَتَعرى إِن لَبِستَ لَهَا ثِيابًا … وَتُكسى إِن مَلابِسَها خَلَعتا

كان المعنى قويمًا؛ ولكن إذا قُلنا بأنَّ الباء هُنا، أو بأنَّ هناك نسخة يُحتاج أن تُراجع فيها اللَّام.

والنُّسخ الَّتي بين يدي كلُّها بالخط المغربي، والخط المغربي فيه -كما تعرفون- نوع من الاِختلاف عن خطِّ المشارقة، قد [...][1] بعض الحروف وقد تُقصر وقد تُنقص -على حسب ما أَلفوه من الخط-.

على كلِّ حالٍ هنا قال:

وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَابًا

والعبد لابُد أن يلبس ثيابًا في هذه الحياة الدُّنيا.

أو نقول بأنَّ الباء هنا تتضمَّن معنى «في الظَّرفية» بمعنى أنَّها متضمِّنة للظَّرفية: [فيها ثيابًا] أو بمعنى الملاصقة والمصاحبة؛ يحتمل هذا ويحتمل هذا.

ولكن النَّاظم الَّذي يظهر من سياق كلامه أنَّه أراد أن لا تجعل الدُّنيا هي الهم الوحيد.

[1] كلمة غير واضحة.

فيقول:

وَتَعرى إن لَبِستَ بِها ثِيابًا وَتُكسى إن مَلابِسَها خَلَعتا

وهذا من أعظم النِّعم الَّتي مـنَّ الله -سبحانه وتعالى- بها على عباده وهي نعمة السِّتر، كما قال -سبحانه وتعالى-:﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1] والزِّينة تكون باللِّباس، وقبلها قال -جلَّ وعلا-:﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾[2] فجمعت هذه الآية بين اللِّباسين: لباس الظَّاهر ولباس الباطن، وقدَّم لباس الباطن: ألا وهو تقوى الله -سبحانه وتعالى-.

اللِّباس نِعمة ولهذا كانت من أوَّل الفتن الَّتي تعرَّض لها ابن آدم هي فتنة اللِّباس في قصَّة آدم وحوَّاء عليهما الصَّلاة والسَّلام:﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾[3]، قبلها ماذا قال ربُّنا -سبحانه وتعالى- في حقِّ بني آدم؟! ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[4] هذا محض ما أراده الشَّيطان، ولهذا الشَّيطان الآن في هذا العصر -خصوصًا مع هذه التِّقنيات وهذه الوسائل- من أكثر الأشياء الَّتي يقوم فيها بإغواء

---

[1] سورة الأعراف: 31

[2] سورة الأعراف: 26

[3] سورة الأعراف: 22

[4] سورة الأعراف: 27

بني آدم: فتنة التَّعرِّي، وهي من أوَّل الفتن وأعظمها وأشرّها وأشدّها، أكان ذلك بين الرِّجال أو كان ذلك بين النِّساء -والله المستعان-.

فهنا يقول النَّاظم -رحمه الله-:[وَتَعْرَى إنْ لَبِسْتَ بِهَا]، [بِهَا] سنبقى على ما بين أيدينا من النُّسخ المطبوعة والمخطوطة.

وَتَعـرى إن لَبِست بِهـا ثِيابًا وَتُكسى إِن مَلابِسَها خَلَعتَا

تُكسى ماذا؟!

_ تُكسى حقيقةَ ما ينبغي أن تُكسى به: وهو سِتر الحال فلا يفضحك الله -سبحانه وتعالى- في رؤوس الأشهاد في هذه الحياة الدُّنيا.

_ كما أنَّ الإنسان أيضًا يُكسى جلال التَّقوى ومقامها.

وقد ذكرنا لكم أنَّ الله -جلَّ جلاله- ذكر اللِّباسين في موضع واحد:﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[1]، واللِّباس يُطلق على ما يستعمله الإنسان، ما الَّذي يدلُّ على هذا؟! يدلُّ على هذا حديث أنس في الصَّحيحين: (فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدِ اِسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ)[2] والحصير لا يُلبس وإنَّما يُستعمل في الجلوس أو في الصَّلاة -أو ما شابه ذلك-، كذلك في قول الله -جلَّ وعلا-:﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[3]، ولهذا ابن القيِّم لمَّا تكلَّم على مسألة تحريم اِستعمال الحرير للرِّجال وأنَّه ليس مقصورًا على اللِّباس قال: (وَلَوْ لَمْ يَأْتِ النَّصُّ لَكَانَ النَّهْيُ عَنْ لُبْسِهِ مُتَنَاوِلًا لِافْتِرَاشِهِ كَمَا هُوَ مُتَنَاوِلٌ لِلِالْتِحَافِ بِهِ،

1 سورة الأعراف: 26

2 عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ: ((قُومُوا فَأُصَلِّيَ لَكُمْ)) قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِك: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ فَنَضَحْتُهُ بِمَاء، فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ) [متفق عليه، واللفظ لمسلم]

3 سورة البقرة: 187

وَذَلِكَ لُبْسٌ لُغَةً وَشَرْعًا كَمَا قَالَ أَنَسٌ:«قُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ»)[1].

فهنا يقول:

وَتَعرى إن لَبِستَ بِها ثِيابًا ... وَتُكسى إن مَلابِسَها خَلَعتا

[إن مَلابِسَها] هذا يُزيل نوعًا من الإشكال الَّذي قدَّمناه وهو أنَّ النَّاظم لَم يُرِدْ اللِّباس الشَّرعي الَّذي نستطيع أن نفهمه من المعنى الظَّاهر وهو: كساء العورة؛ وإنَّما أراد لباس الباطن، فإذا لبستَ بها لباسًا يُخرجك عن لباس التَّقوى فإنَّك تعرى في الوقت الَّذي تُريد أن تكون فيه كاسيًا.

ثمَّ قال -رحمه الله تعالى- مُنبِّهًا إلى حال الموت والخروج من الدُّنيا، وهذا البيت تقريبًا شُرح بما لا نستطيع أن نزيد عليه بأوَّل مجلسٍ عند قول النَّاظم:

تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيّامُ فَتّا ... وَتَنحِتُ جِسمَكَ الساعاتُ نَحتا

وَتَدعوكَ المَنونُ دُعاءَ صِدقٍ ... أَلا يا صاحِ أَنتَ أُريدُ أَنتا

إلَّا أنَّه عاد هنا إلى مسألة الاِعتبار، بأن تعتبر بغيرك فإنَّ السَّعيد مَن وُعِظَ بِغيرِه؛ فقال:

وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ

---

[1] "إعلام الموقعين" لابن القيِّم رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:546

[خِلٍّ] الخِلُّ: المقصود به الخليل، وهو مَن تخلّلت محبَّته قلبك.

والخُلَّة ثابتة لله -عزَّ وجلّ-، ولَم يتَّخذ الله من الخلق إلَّا إبراهيم ومُحمَّدًا عليهما الصَّلاة والسَّلام في الخُلَّة، وهي أعلى مراتب المحبَّة.[1]

وهنا يقول:[وَتَشْهَدُ] تشهد: تحضر أو ترى، يعني لفظ «شَهِد» يُطلق على هذا وعلى هذا.

وَتَشْهَدُ كُلَّ يَــوْمٍ دَفْـنَ خِـلٍّ ... كَأَنَّكَ لا تُـرادُ بِمـا شَهِدتَـا

أنتَ تعلم أنَّ هذا المدفون: يُغسَّل، يُصلَّى عليه، يُحمل، يُدفن، فهل أنتَ تُغيِّب عن ذهنك وعن بالك وعن علمك وحقيقتك أنَّ الَّذي هو حاصل لهذا سيحصل لك في يوم من الأيَّام! النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام لمَّا رأى جنازة قال: ((**إنَّ للْمَوْتِ فَزَعًا**))[2]، فالموت له فزع من أوَّل أحواله: من سكرة الموت، من تغسيل الميت، تحنيطه، تكفينه، حمله، الصَّلاة عليه، حمله، دفنه، إلى آخر ما يتعلَّق به ممَّا لا يعلم من حال العبد بعد دخوله في قبره إلَّا الله -جلَّ جلاله-.

فهو يقُول:

وَتَشْهَدُ كُلَّ يَـوْمٍ دَفْـنَ خِلٍّ ... كَأَنَّكَ لا تُـرادُ بِمَـا شَهِدتَـا

[1] مِنْ بَابِ مَزِيد فَائِدَة: نَظَمَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مبْرَم -حَفِظَهُ اللهُ- مَرَاتِبَ الْمَحَبَّةِ، وَمَا يَثْبُتُ مِنْهَا لله وَمَا لَا يَثْبُت؛ فَقَالَ:

مَرَاتِبُ المحَبَّةِ احْفَظْها وَهِي ... عَشْرٌ عَلَى التَّرتِيبِ ذِكْرِهَا يَلِي
عَـلَاقَةٌ، إِرادَةٌ، صَبابَـهْ ... كَذا الْغَرامُ فَادْرِ مَا أَصابَـهْ
مَوَدَّةٌ، وَسَادِسٌ مِنْهَا الشَّغَفْ ... عِشْقٌ ومَن يُصِيبُه العِشْقُ ارْتَجفْ
تتَيُّمٌ، تَعَبُّـدٌ، وَالْخُلَّـهْ ... ثَابِتَةٌ لله فَادْرِ الْملَّـهْ
إِرَادَةٌ، مَـوَدَّةٌ كَـذَلِـكْ ... لَا تُثْبِت الْبَاقِي فَأَنْتَ هَالِـكْ
مِن روْضة ابْن قيِّم نَظَمْتُ ذَا ... مَع ابْن عزّ فَاعْرِضَن عَن الْقَـذَا

[2] عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جنَازَةُ يَهُودِيٍّ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا جنازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: ((إنَّ لِلْمَوْتِ فزَعًا)) [حسَّنه الشيخ مُقبل رحمه الله في "الصحيح المُسند"]

كأنَّك تُغسِّل ولا تظن أنَّك ستُغسَّل، تَحْمِل ولا تظن أنَّك ستُحْمَل، وتُصلِّ على النَّاس ولا تظن أنَّك يُصلَّى عليك، وتَحْمِل ولا تظن أنَّك تُحمل، تَدْفِن ولا تظن أنَّك تُدفَن؛ هذا كلُّه تغييبٌ لحقيقة الموت الَّتي لا يختلف فيها اِثنان على الإطلاق.

المَوْتُ بابٌ وكلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ ... يَا ليْتَ شعرِيَ بعدَ البَابِ مَا الدَّارُ
الدَّارُ دَارُ نَعِيمٍ إنْ عَمِلَتَ بِمَا ... يُرضي الإلَهَ، وإنْ خَالفْتَ فالنَّارُ
هُمَا طَرِيقَانِ مَا للمَرْءِ غَيرهمَا ... فَانظُر لنَفْسِك مَاذَا أَنْتَ تَخْتَارُ[1]

سنكتفي بهذا القدر إن شاء الله في التَّعليق على هذه المنظومة، والله تعالى أعلم؛ وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[1] لأبي العتاهية.

الدَّرس الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الخامس عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري -رحمه الله تعالى- المشهورة بالتَّائية.

وقد اِنتهينا إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

وَلَم تُخلَق لِتَعمُرها وَلَكِن ... لِتَعبُرَها فَجِدَّ لِما خُلِقتَا

لايزال النَّاظم -رحمه الله تعالى- في بيان حال الدُّنيا مع طالب العلم ومَن أقبل على العِلم.

وتقدَّم في الدُّروس الماضية أنَّه قد يكون هناك نوعٌ من الاِفتعال للمصادمة بين السَّعي في الرِّزق وطلبه وبين طلب العلم وتحصيله، وإلَّا فإنَّ من حَكَّم الشَّريعة بمجملها ومُفصَّلها وبقواعدها وفروعها لا يظهر عنده هذا التَّعارض بأيِّ وجهٍ من الوجوه، ولكن النَّاظم كأمثاله ممَّن ساروا على طريقة السَّلف في باب الزُّهد والورع يرَوْن أنَّه لا يصلح لمن أراد الآخرة أن يتوسَّع في أمر الدُّنيا إذا كان ذلك سيغلب عليه وسيمنعه من الوصول إلى الآخرة، ولهذا قال النَّاظم -رحمه الله تعالى- فيما سنستقبل من الأبيات:

فَلَيسَ بِنافِعٍ ما نِلتَ مِنهَا ... مِنَ الفاني إِذا الباقي حُرِمتَا

فهو يُريد أن يُقرِّر على أنَّه لا نفع ولا فائدة في الفاني إذا قد حُرمتَ الباقي.

وهنا يُقرِّر النَّاظم -رحمه الله تعالى- في هذا البيت الغاية الَّتي خُلق الخلق لأجلها عمومًا؛ مُستفادًا من قوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، ومن قوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾[2]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات الَّتي يُبيِّن الرَّب -سبحانه وتعالى- فيها أنَّ الغاية الَّتي خَلق الخلق لأجلها: هي القيام بعبادته.

ومن المتقرِّر في الشَّريعة أنَّ هذه العبادة لها مقاصد ولها وسائل، ومن الوسائل: أن يكون عند المرء من الدُّنيا ما يُعينه على الوصول إلى الآخرة، قد تقدَّم معنا في مناسبةٍ من المناسبات -في هذا الشَّرح- ذِكر قول النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم عن ربِّه -تبارك وتعالى- في الحديث القُدسي -وقد كان يُتلى-: ((**إنَّا أنْزَلْنا الْمَالَ لإِقَامِ الصَّلاةِ وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...، ولَا يَمْلَأُ جَوْف ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ**))[4] فالله أنزل هذا المال وخَلَق هذا الخلق كلَّه بسمائه وأرضه ليكون وسيلة للعبد للوصول إلى عبادة الله -سبحانه وتعالى-.

فقول النَّاظم هنا:

وَلَم تُخلَق لِتَعمُرها وَلَكِن ... لِتَعبُرَها فَجِدَّ لِما خُلِقتا

يعني أنَّ الغاية الَّتي خُلقتَ من أجلها: هي العبادة؛ وهذه العبادة لها وسيلة.

---

[1] سورة الذَّاريات: 56

[2] سورة ص: 38

[3] سورة الأنبياء: 16

[4] ((إِنَّا أَنْزَلْنا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ، لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِ ثَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ)) [صحَّحه الإمام الألباني في "السِّلسلة الصَّحيحة"؛ من طريق أبي واقد الليثي رضي الله].

ولكن إذا كان الإنسان ليس له غايةٌ في هذه الحياة الدُّنيا إلَّا أن يعمرها فإنَّ هذا مذموم، وأمَّا مُجرد العمران والبناء أكان هذا العمران من جهة البناء أو من أيِّ جهة من الجهات هذا مطلبٌ شرعيٌّ وممَّا جاءت به الشَّريعة وممَّا قصده الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهذا مُتقرِّر في كلِّ شريعة أنزلها الله -سبحانه وتعالى-.

والنَّاظم -رحمه الله- يُريد أن يُقرِّر أنَّ هذه الدُّنيا ليست قرارًا لأحد وأنَّ عمرانها بما يُوصل إلى الآخرة، ولهذا اِبْتَنَى الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وتزوَّجوا وكفلوا نساءً وأطفالًا، إلى غير ذلك ممَّا كان من أعمالهم عليهم الصَّلاة والسَّلام، وسار على طريقه أتباعهم.

وَلَم تُخلَق لِتَعمُرها وَلَكِن لِتَعبُرَها فَجِدَّ لِما خُلِقتا

لأنَّ هذه الدُّنيا معبر اِعتبار، جُعلت وسيلة للوصول إلى الآخرة؛ فأنتَ من أَجْلِ أن تعبرها لا بدَّ وأن تعمرها، وهذا العمران لا يكون سبيلًا ولا سببًا لتخريب آخرتك.

[وَلَم تُخلَق لِتَعمُرها] فقط؛ هكذا يُفهم البيت: لَم تُخلَق لِتعمُرها فقط، ولكن:

لِتَعبُرَها فَجِدَّ لِما خُلِقتا

هذا يُوضِّحه البيت الَّذي بعده، ولهذا قال:

وَإِن هُدِمَت فَزِدها أَنتَ هَدمًا وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا

هذا البيت الَّذي يليه:[وَإِنْ هُدِمَتْ] هذه الدُّنيا الَّتي أردت عمارتها.

وَإِن هُدِمَت فَزِدها أَنتَ هَدمًا

متى؟! إذا كانت ستصل إلى تحطيم الحصن الَّذي حصَّنت به دينك.

وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا

والحصن هو السُّور الَّذي يتَّخذه الإنسان ليستر أملاكه أو ليحفظ به أملاكه، ولهذا تُسمَّى الأذكار عند كثير من العلماء بـ: «الحِصْن»، وقد سمَّى كثيرٌ من أهل العلم كتبهم الَّتي صنَّفوها في الأذكار بـ: «الحصن»، كـ: «الحصن الحصين» لابن الجزري، وغيرها.

وهنا قال:

وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا

[وَإِنْ هُدِمَتْ] بمعنى أنَّك سعيتَ لطلبها ولَم تُحصِّل منها غايتك وكان في تحصيلك لها ما يؤخِّرك عن العمل لآخرتك:[فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا] ولا تلتفت إليها، ولهذا من نظر إلى سيرة السَّلف رضي الله عنهم وأرضاهم -وذكرنا طرفًا من هذا- أنَّهم عندما تعارض معهم -أو عندهم- طلبهم للعلم مع بقاء ما يملكون فضلًا عن طلب ما لا يملكون تخلّوا عن ما يملكون حتَّى باع مالك -رضي الله عنه ورحمه- سقف بيته في طلب العلم[1]، وكان شُعبة يقول -وغير شُعبة ممَّن هو أعلى من طبقته- يقول: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ)[2]، وهكذا كان أئمَّة السَّلف -رحمهم الله تعالى-؛ فحيث كانت الدُّنيا قاطعة عن العلم وعن الآخرة فلا خير فيها، لا خير فيها للإنسان.

وهنَا قال:

وَإِن هُدِمَت فَزِدها أَنت هَدمًا   وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا

---

[1] قال ابن القاسم: (أَفْضَى بِمَالِك طَلَب الْعِلْمِ إِلَى أَنْ نَقض سَقْفَ بَيْتِهِ فَبَاعَ خَشَبَهُ) ["ترتيب المدارك" للقاضي عياض رحمه الله؛ الجزء الأوَّل، ص:130]

[2] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:410.

وجاء أيضًا في "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء السابع، ص:221، بلفظ: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ؛ بِعْتُ طَسْتَ أُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ).

وكان بعض السَّلف يقول: (مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَارًا، تِلْكُمُ الدُّنْيَا فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا)[1]؛ والآخر يقول:

دُنيَا تُجدِّد كلَّ يوْمٍ غدْرَهَا ... والنَّاس مِنْهَا في عَنِيفِ صِراع

يَتنَازَعُون علَى رخِيص مَتاعِهَا ... وغَدًا يفضّ الموْت كُلّ نِزَاع

هذا حال الدُّنيا كما يُصوِّره لنا القرآن وكما صوَّره لنا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في سُنَّته أنَّها مآلها إلى الهدم؛ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] بمعنى أنَّهُ مهما أعمرها الإنسان فإنَّها لابدَّ وأن تنتهي، كذلك في قول ربِّنا -سُبحانه وتعالى-:﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[3] ثمَّ قال:﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[4] لأنَّ الأرض أصلها خربة ولا يُزيِّنها إلَّا المال والبنون، فإنَّها لا تظهر زينتها إلَّا بهذين الأمرين: بالمال وبالبنين.

وَإِن هُدِمَت فَزِدها أَنتَ هَدمًا

واسْعَ إلى تحصيل أمر دينك؛ قد تقدَّم كثيرٌ مِن الأحاديث الَّتي ذكرناها مِن قول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ**

---

[1] ذكره ابن أبي الدنيا في كتابه "الزُّهد"ص:159؛ وأيضًا الإمام أحمد في كتابه "الزهد"، ص:78؛ عن المسيح عليه الصَّلاة والسَّلام.

[2] سورة يونس: 24

[3] سورة الكهف: 45

[4] سورة الكهف: 46

حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ، لدينِهِ))[1]، وقول النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((إنَّ لكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنةٌ وفِتْنَةُ أُمَّتِي: المْالُ))[2] وغيرها من النُّصوص؛ فقد تكون الدُّنيا سببًا لزوال الدِّين ولهذا جاء في صحيح مسلم قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((يُصْبِحُ الرَّجلُ مُؤْمنًا ويُمْسِي كَافرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمنًا ويُصْبحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا))[3] وهذا لفظ مُسلم، وجاءت زيادة عند أحمد: ((قَلِيل))[4]، هذا البيع أو الشِّراء للدُّنيا بالدِّين هو الَّذي عناه النَّاظم -رحمه الله تعالى-، فحيث كان بناء الدُّنيا بخراب الآخرة فاِهدم بناء الدُّنيا، وعليك ببناء الآخرة.

جاء رجل إلى أحد السَّلف فقال: (مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟) -أحد الملوك والأمراء-، فقال له: (لأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمُ آخِرَتَكُمْ، وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ، فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ)[5]، فهذا هو الَّذي أراده الألبيري -رحمه الله-، نظرة السَّلف إلى الزُّهد وطلب الدُّنيا ليست فلسفية صُوفية، وسيأتي التَّنبيه عند قوله -رحمه الله- لأنَّه وضَّح معالم في طريق الزُّهد حتَّى قال:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا ... لأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدْتَا

وهنا يقُول:

وَإِن هُدِمَت فَزِدها أَنتَ هَدمًا ... وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا
وَلا تَحزَن عَلى مَا فاتَ مِنها ... إِذا ما أَنتَ في أُخراكَ فُزتا

---

[1] قال الترمذي رحمه الله في سننه: حسن صحيح.

[2] قال الترمذي رحمه الله في سننه: صحيح غريب.

[3] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا)) [رواه مسلم]

[4] ((يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيل)) ["مسند الإمام أحمد"، رقم:8017، الجزء الثامن، ص:131].

[5] "المجالسة وجواهر العلم" للدينوري رحمه الله؛ الجزء الثامن، ص:151؛ عن أبي حازم رحمه الله.

اِلْحَظ إلى الصِّياغة في فهم الأبيات، لأنَّه لا يدعو إلى زُهدٍ صُوفيٍّ فلسفيٍّ يقطع المرء عن الدُّنيا، بل بعض الفلسفة الصُّوفية في الزُّهد قطعتهم حتَّى عن الآخرة فعاشوا حياة ما يُسمُّونه بـ:«البُله»، وأيضًا قالوا: «نحن لا نعبد الله رغبة في جنَّته» كما صرَّح بهذا الغزَّالي في «إحياء علوم الدِّين» وصرَّح به غيره، حتَّى وضعوا حديثًا على النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال:«أَكثرُ أَهلِ الجنَّةِ البُلْـهُ»[1]، ووضعوا عليه أحاديث بأنَّنا:«مَا عَبَدْناكَ طلبًا في جنَّتك ولَا خوفًا من نارك»، كما يحكونه عن رابعة وعن غيرها من المنتسبين إلى تلك النِّحلة الباطلة؛ وهذا سيقرِّره النَّاظم -رحمه الله- كما قلتُ لكم في هذا البيت:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا ... لأَنْتَ بِهَا الأمير إِذا زَهدْتَا

وهنَا قَال:

وَلا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا ... إِذَا مَا أَنتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا

لابدَّ لطالب الآخرة أن يفوته شيءٌ من الدُّنيا، ولهذا قال شيخ الإسلام -رحمه الله- في آخر كتابه «قاعدة في المحبَّة»: (أَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ)[2] بمعنى أنَّ الإنسان إذا أقبل على الآخرة فإنَّه سيفوته ما يفوته من أمر الدُّنيا.

فهنَا يقُول:

[1] "العلل المتناهية في الأحاديث الواهية" لابن الجوزي رحمه الله، رقم:1558.
[2] "قاعدة في المحبة" ص: 72

وَلا تَحْزَن عَلى مَـا فـاتَ مِنهـا

متى؟!

إذا مـا أَنتَ فـِي أُخْـرَاكَ فُزتَـا

لا تحزن، لا يُصبك الحزن والأسى والتَّوجع على ما فات من أمر الدُّنيا، لِمَ؟! لأنَّك فُزتَ بأمر آخر؛ والعبد في الآخرة بين فائزٍ وخاسرٍ، قال الله -سبحانه وتعالى- في كتاب الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[1] معناه؟ مفهومُهُ؟ أنَّ من لَم يدخل الجنَّة فإنَّ مآله إلى النَّار وبئس القرار -نسأل الله العافية والسَّلامة-؛ وهذا مُقرَّر في كثير من الآيات: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[2]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[3]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[4] وهنا هذا الَّذي يُقرِّره النَّاظم.

وتقدَّم معنا أيضًا ذِكرُ قوله تعالى -في بعض الأبيات الَّتي ذكرها النَّاظم رحمه الله-: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[5]

الحزن على ما فات من أمر الدُّنيا يُورث الهمَّ والغمَّ ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أرشدنا إلى ترك ذلك حتَّى إذا كان في بعض الأُمور الشَّرعية الَّتي تُوصلنا إلى رضا الله وقد بذلنا فيها جهدنا أن لا نُتبع أنفسنا حسرةً عليها كما في صحيح مسلم في

[1] سورة آل عمران: 185
[2] سورة الزمر: 15
[3] سورة الحج: 11
[4] سورة الأعراف: 9
[5] سورة الحديد: 23

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ[1] اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ))**[2] بمعنى أنَّك قد بذلت جهدك فلم تصل إلى غايتك ومُرادك فإنَّك تقول: **((قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ))** فتستريح من هذا؛ ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام وضَّح هذه الحقيقة أكثر وأكثر فقال كما في صحيح مسلم في حديث أبي يحيى صُهيب بن سنان الرُّومي رضي الله عنه أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((عَجبًا لأمرِ المؤْمنِ، إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ، ولَيسَ ذَاك لِأحدٍ إلَّا للمُؤْمِنِ، إنْ أَصابَتْه سرَّاءُ شَكرَ فكان خَيرًا له، وإنْ أَصابته ضرَّاءُ صَبر فَكَان خَيرًا لَه))**[3] لاحظ إلى هذا المعنى، فالمؤمن لا يُتبع نفسه مافاته.

وأيضًا ما لا تبلغه نفسك فلا تتبعه عينك، لماذا؟! لأنَّ الرُّوح تتبع البصر، فإذا أطلق الإنسان لعينه العنان تبعتها الرُّوح فتفسد، فقد لا تبلغ هذه المنازل الَّتي يُريد أن يصل إليها أو أنَّ يُحصِّلها فيقع في الحسرات والنَّدم والأسف على ما يفوته من أمر الدُّنيا؛ وهكذا إذا ربَّى المسلم نفسه على مثل هذه النُّصوص ومثل هذه الأخبار اِستراح -كما يسمُّونه اليوم- من داء القلق والأمراض النَّفسية والهموم والغُموم، وإلَّا فإنَّه يتبع نفسه فتضيع، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-:﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ

---

[1] مِنْ بَاب مَزِيدِ فَائِدَة: قَال شَيْخنَا مُصطَفى مَبْرم حَفِظَهُ الله: (**قدر** الله): هَذِهِ ضُبِطَتْ بِالْوَجْهَيْنِ؛ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَلْفِظُهَا: (**قَدَّرَ** الله وَمَا شَاءَ فَعَل)، وَالأَفْصَحُ فِيهَا: (**قدر** الله)، وَهَكَذَا ضَبَطَهَا لَنَا شَيْخُنَا العَلَّامَة ابْن عَقِيل عَلَيْهِ رَحْمَةُ الله، وَهَكَذَا أَخْبَرَنِي بِأَنَّهُ ضَبَطَهَا الشَّيْخُ عَبْد الْعَزِيزِ بْن بَاز عَلَيْهِ رَحْمَةُ الله. اهـ [من شرحه لكتاب التوحيد؛ باختصار يسير]

[2] رواه مسلم

[3] رواه مسلم

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾[1] لا تمدَّن عينيك، انقطع؛ والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام كان يقول: ((**اللَّهُمَّ اِجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**))[2] كان يدعو بهذا الدُّعاء عليه الصَّلاة والسَّلام، هذا كان حاله وحال أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم.

وَلا تَحزَن عَلى مَا فاتَ مِنها

متَى؟!

إِذا مَا أَنتَ في أُخراكَ فُزتا

كانوا يقولون:

ما أَجْمل الدِّينَ والدُّنْيا إذا اجْتَمَعَا لا بَارَكَ اللهُ في دُنْيا بِلا دِينِ

العاقل الَّذي عَلِم لماذا خلقه الله -سبحانه وتعالى- يعلم أنَّه مهما اِستطال بالبنيان، مهما حصَّل من الأرصدة لا يُمكن أن يُحصِّل الدُّنيا بأسرها ولا يمكن أن يُحصِّل ما أرادته نفسه لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ اِبْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ**))[3].

وَلا تَحزَن عَلى مَا فاتَ مِنهَا إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخراكَ فُزتا

فَلَيسَ بِنافِعٍ ما نِلتَ مِنْها مِنَ الفاني إِذا الباقي حُرِمتا

هذا البيت هو الَّذي يوضِّح ما سبق ويُوضِّع المواطِنَ المُشكِلَةَ الَّتي قد تقع في بعض آثار السَّلف، ويُوضِّح ما جاء في مسند الإمام أحمد وفي سُنن التِّرمذي بسندٍ صحَّحه جمعٌ من الأئمَّة -الأعمش صرَّح فيه بالتَّحديث- من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام مرَّ عليه هو وأُمّه وهما يُصلحان خُصًّا لهم -بيتٌ من النَّخل وسعفة فيصلحونه بالطِّين، يُطيِّنونه-، فلمَّا رآه قال: ((**مَا هَذَا؟**))

---

1 سورة الحجر: 88

2 متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

3 متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

قال: (فَقلْنَا: قَدْ وهَى فنَحْنُ نُصلِحُه) قَالَ: ((مَا أَرَى الأَمْرَ إلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))[1]، جاء في سنن التِّرمذي في حديث ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام جلس على حصيرٍ فأثَّر في جنبه، فقال له ابن مسعود: (لَوْ اِتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً؟) فقال: ((مَالِي وللدُّنْيَا))[2] هذه الأحاديث يُبيِّنها مثل هذا الفهم وإلَّا فإنَّ هذه الشَّريعة لا تدعوا إلى -كما قلتُ لكم مرارًا لأنَّه سيأتي أيضًا في الكلام على الزُّهد عند النَّاظم رحمه الله- لا تدعوا إلى زهدٍ فلسفيٍّ صوفيٍّ يقطع الإنسان عن الدُّنيا حتَّى -كما قلتُ لكم- أنَّ بعض المتصوِّفة الَّذين بلغ بهم التَّصوُّف إلى حدٍّ كبيرٍ في الزَّندقة أنَّه قطع نفسه عن الدُّنيا وعن الآخرة وصرَّحوا بأنَّهم لا يعبدون الله لأجل الجنَّة، والمسلم يُعمل هذه النُّصوص في محلِّها.

وهنا قال النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

فَلَيسَ بِنافِعٍ مَـا نِلـتَ مِنْهـا

يعني لا ينفعك الَّذي تناله مهما نِلتَ وإن تطاولتَ في البنيان كما في حديث أشراط السَّاعة[3].

مِـنَ الفَاني إِذا الباقي حُرِمتـا

ما الفاني؟! الدُّنيا؛ وما الباقي؟! الآخرة، وهي دار الخلود ودار البقاء ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4].

---

[1] قال الترمذي رحمه الله في سننه: حسن صحيح.

[2] عن عَبْد اللهِ بْن مَسْعُود أنَّه قَال: (نَامَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى حَصِيرٍ فَقَام وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فقُلْنا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ اتَّخَذْنا لَكَ وِطَاءً؟ فَقَالَ: ((مَا لِي وَللدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)) [قال الترمذي رحمه الله في سننه: حسن صحيح].

[3] ((وأَنْ تَرَى الحُفَاة العُراة العَالَة رعَاء الشَّاء يتطَاوَلُونَ فِي البُنْيَان)) رواه مسلم؛ من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[4] سورة آل عمران: 133

بهذا القدر سنكتفي بالتَّعليق على هذه المنظومة؛ والله تعالى أعلـم، وصـلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.

الدَّرس السادس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس السَّادس عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري -رحمه الله تعالى- المشهورة بالتَّائية.

ولا يزال الكلام موصولًا على ما ذكره النَّاظم -رحمنا الله وإيَّاه- من الكلام على التَّحذير من الدُّنيا وأنَّها من أعظم العوائق الَّتي تقطع طالب العلم عن طلبه للعلم وتقطع كلَّ سائرٍ إلى الآخرة عن سَيره.

و«الدُّنيا» هذا اللَّفظ عامٌ يدخل فيه أفرادُ وأجزاء ما يقع في هذه الحياة الدُّنيا، ومن هذا الأمر الَّذي يقطع العبد عن صلاحه وعن سيره: مُصاحبة السَّيئين أو الأشرار أو الفاسدين أو السُّفهاء؛ فإنَّ من أعظم العوائق الَّتي تقطع العبد عن سيره: رفقاء السُّوء، ولهذا قال النَّاظم هنا -رحمه الله تعالى-:

وَلا تَضحَك مَعَ السُّفَهاءِ يَوْمًا ... فَإِنَّكَ سَوفَ تَبكِي إِن ضَحِكْتا
وَمَنْ لَكَ بالسُّرور وَأَنتَ رَهنٌ ... وَمَا تَدْرِي أَتُفدى أَم غُلِلْتَا؟
وَسَل مِن رَبِّكَ التَّوفيقَ فيها ... وَأَخلِص فِي السُّؤالِ إِذا سَأَلتا

وَنَـادِ إِذَا سَجَـدتَ لَهُ اِعتِرَافًا ... بِمَـا نَـادَاهُ ذُو النُّـونِ بـنُ مَتّى

إلى آخر ما قاله -رحمه الله تعالى-.

فهو هنا يُحذِّر من رفقاء السُّوء لأنَّهم من أعظم الأسباب القاطعة عن السَّير إلى الله -سبحانه وتعالى-، ولكنَّه حذَّر هنا -مع التَّحذير من رفقاء السُّوء- من صفةٍ مذمومة لهم وهي: الضَّحك في الباطل.

والنَّاظم -رحمه الله- هنا نهى عن الضَّحك، والضحكُ فطرةٌ فطر النَّاس عليها وغريزةٌ غرزها الله -سبحانه وتعالى- في هذا الإنسان كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾[1] يعني خلق الأسباب الموجبة للضَّحك وخلق الأسباب الموجبة للبكاء، ومن أهل العلم من قال إنَّ المراد -وهذا ظاهر اِختيار الحافظ اِبن جرير الطَّبري رحمه الله تعالى في «تفسيره» عند هذه الآية[2]- من قال أنَّ المقصود بها: (أَضْحَكَ أَهْلَ الْجَنَّة فِي الجَنَّةِ، وَأَبْكَى أَهْلَ النَّارِ فِي النَّار)[3]، مثل هذا النَّوع من التَّفسير إنَّما هو التَّفسير بالمثال أو التَّفسير بالنَّوع، لا يقصدون تفسير اللَّفظ كما هو، وإلَّا فإنَّ الله -سبحانه وتعالى- الَّذي يُضحكهم في الآخرة كما قال -جلَّ وعلا-:﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾[4] هو الَّذي أيضًا أضحكهم في هذه الدُّنيا، خلق هذه الأسباب الموجبة للضَّحك وخلق الأسباب الموجبة للبكاء.

---

[1] سورة النجم: 43

[2] قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (وَقَوْلُهُ:﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ يَقُولُ-تَعَالَى ذِكْرُهُ-: وَأَنَّ رَبَّكَ هُوَ أَضْحَكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ بِدُخُولِهِمْ إِيَّاهَا، وَأَبْكَى أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ بِدُخُولِهِمُوهَا، وَأَضْحَكَ مَنْ شَاءَ مَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَأَبْكَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْكِيَهُ مِنْهُمْ) ["جامع البيان عن تأويل آي القرآن"؛ الجزء السابع، ص:155]

[3] جاء عن جماعة من السَّلف، منهم: مجاهد، والكلبي، والحسن... وغيرهم؛ انظر "تفسير البغوي" الجزء السابع، ص:418؛ وأيضًا "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي رحمه الله، الجزء:17، ص:109؛ وغيرهما -رحم الله الجميع-.

[4] سورة المطففين: 34

والضَّحك ليس مذمومًا على الإطلاق، والنَّاظم -رحمه الله تعالى- كان فقيهًا عالِمًا فهو لَم ينهَ عن الضَّحك مُطلقًا لأنَّ هذا لا يُنهَ عنه نهيًا مُطلقًا بِاعتبار ما دلَّت عليه نصوص الشَّريعة، ولهذا قيَّد الضَّحك بقوله:

وَلا تَضحَك مَعَ السُّفَهاءِ يَوْمًا

لأنَّ السُّفهاء لا يضحكون إلَّا على ما يُؤيِّد سَفههم أو ما ينطلق به سَفههم -هذا أمرٌ معلوم-، فالكفَّار يضحكون والمؤمنون يضحكون، الصَّالحون يضحكون والفاسدون أيضًا يضحكون، لكنَّ الموجب للضَّحك ليس واحدًا، فهؤلاء يضحكون بموجبٍ للضَّحك وهؤلاء يضحكون بموجب للضَّحك، والله -جلَّ وعلا- فطر النَّاس -كما قلتُ لكم- على هذه الصِّفة: بأنَّهم يضحكون إذا حصل مُوجبُ الضَّحك وأنَّهم يبكون، والله -جلَّ وعلا- ذكر هذا في أُمور الدُّنيا وفي أُمور الآخرة، ذكرهُ عن أنبيائِه ورسله والصَّالحين من الأُمَم:

_ كما قال -جلَّ وعلا- في قصَّة سُليمان عليه السَّلام لَمَّا مرَّ على ذلك الواد فكان فيه النَّمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[1] -أي أنَّه ضحك مُتبسِّما- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[2]، سارة لمَّا بُشِّرت بالغلام قال الله -عزَّ وجل-: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[3].

_ وهكذا أخبر الله -سبحانه وتعالى- فيما يتعلَّق بأمر الآخرة في حال المؤمنين وفي حال الكافرين، كذلك في الدُّنيا بالنِّسبة لحال الكافرين كما قال ربُّنا -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ

---

[1] سورة النمل: 18-19

[2] سورة النمل: 19

[3] سورة هود: 71

يَتَغَامَزُونَ﴾[1] ذكر بعد ذلك ضحك المؤمنين لأنَّه بمُقابلة ضحك الكافرين في الحياة الدُّنيا:﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[2] بعد أن كان الكُفَّار يضحكون منهم في الدُّنيا؛ وهكذا قال الله -سبحانه وتعالى-:﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[3] في هذا الموضع من سورة المؤمنون ذكر الله -جلَّ وعلا- أنَّ من صفاتهم أنَّهم كانوا يضحكون على المؤمنين[4]؛ فالضَّحك واقع أيضًا للمؤمنين في الآخرة:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[5].

مُوجب الضَّحك هو الَّذي ينبغي أن يَنظر فيه العبد، كَونه لا يضحك أحد هذا نوعٌ من الغلط، نعم نُقل جماعة من السَّلف كالحسن البصري وغيره أنَّهم كانوا لا يضحكون، حتَّى أنَّ ابن سيرين كان يضحك ويحتج على الحسن ويقول: (اللَّهُ أَضْحَكَ وَأَبْكَى؛ وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَضْحَكُونَ)[6]، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام وقعت له مواقف كثيرة ضحك فيها صلَّى الله عليه وسلَّم وضحك فيها أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم، إلَّا أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تقول كان ضحكه التَّبسُّم، قالت: (مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ)[7]، وضحك صلَّى الله عليه وسلَّم في يوم الخندق حتَّى بَدت

---

[1] سورة المطففين: 29-30

[2] سورة المطففين: 34

[3] سورة المؤمنون: 111

[4] يُشير الشَّيخ حفظه الله إلى قوله تعالى:﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي **وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ** إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 109-111]

[5] سورة عبس: 38-39

[6] (كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ مِمَّنْ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْحُزْنُ فَكَانَ لَا يَضْحَكُ؛ وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ يَضْحَكُ وَيَحْتَجُّ عَلَى الْحَسَنِ وَيَقُولُ: اللَّهُ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَضْحَكُونَ) ["الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبي؛ الجزء العاشر، ص:318]

[7] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

نواجذُه[1]، وجاء في الصَّحيحين لمَّا حصل الإيلاء -لمَّا اِعتزل نساءه- فاستأذن أبو بكر فأذن له -وقد كان لا يُؤذن لأحدٍ-، ثمَّ استأذن عمر فأذن له فقال: (لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[2] فذكر من حاله وحال اِمراته فضحك النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم على ذلك[3]، وضحكَ أيضًا لمَّا جاءه اليهودي فقال: (إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، والأرضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ)[4] -والحديث أيضًا في صحيح مسلم-؛ وهكذا مواقف حصلت له صلَّى الله عليه وسلَّم ضحك فيها.

والتَّبسُّم نوعٌ من الضَّحك، ذكر النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ **((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَة))**[5]، **((لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ))**[6]، حتَّى أنَّه ثبت عن بعض أصحابه في محضره أنَّه ضحك حتَّى وقع على الأرض كما جاء ذلك في صحيح مسلم في حديث أبي معبد المقداد بن الأسود رضي الله عنه وأرضاه قال: (ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ إِلَى الْأَرْضِ)[7] فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **((إِحْدَى سَوْآتِك يَا مِقدادُ))**[8] يعني كأنَّه اِنكشف منه شيءٌ، في قصَّة الحليب لمَّا شربه المقداد بن الأسود فجاء النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فأراد طعامًا،

---

[1] قالَ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص رَضيَ الله عنهُ: (لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) [ضعَّفه الألباني رحمه الله في "مختصر الشمائل"]

[2] اللفظ لمسلم.

[3] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: (دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا قَالَ: فَقَالَ: لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا؛ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [اللفظ لمسلم]

[4] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ؛ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ تَصْدِيقًا لَهُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [متفق عليه؛ واللفظ لمسلم]

[5] صححه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه.

[6] رواه مسلم؛ من طريق أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه.

[7] رواه مسلم

[8] رواه مسلم

فقال: ((**اللَّهُمَّ أَطعِمْ مَن أطْعَمَنِي وَاسْقِ مَنْ أَسْقَانِي**))[1] والحديث في مسلم -حديث المقداد بن الأسود-، وأيضًا جاء في البزَّار أنَّ عائشة رضي الله عنها وأرضاها كانت في مجلسٍ مع النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فدعا دعاء وقال شيئًا فضحكت حتَّى سقط رأسها في حجره[2].

فالضَّحك إذًا لَم يكن عادةً غالبة في الإنسان أو كان بسببٍ مُوجبٍ من البطر والأشر فإنَّه لا يكون مذمومًا، النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ضحك وضحك أصحابه وضحك الأنبياء من قبله؛ فيُنظر إلى ما هيَّج هذا الضَّحك، ويُنظر أيضًا إلى جهة أُخرى وهو أنَّه لا يكون ديدنًا للإنسان، لا يكون الإنسان دائمًا عليه، لهذا جاء في سُنن التِّرمذي عن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث أبي هُريرة: ((**وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**))[3] والحديث حسَّنه الشَّيخ ناصر -رحمه الله تعالى-.

مرَّ الحسن -رحمه الله- بشابٍ وهو يضحك فقال له: (يَا بُنَيَّ هَلْ جُزْتَ عَلَى الصِّرَاطِ؟ قَالَ: لَا؛ فَقَالَ: هَلْ تَبَيَّنَ لَكَ إِلَى الْجَنَّةِ تَصِيرُ أَمْ إِلَى النَّارِ؟ قَالَ: لَا؛ قَالَ: فَفِيمَ هَذَا الضَّحِكُ؟)[4]، يعني إذا كان الإنسان -كما يُقال-: (مَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ)[5]، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام أيضًا مع ضحكه كانت تقع مواقف قد يطَّرد فيها الضَّحك بسبب أحد الصَّحابة كما جاء في حديث حِمار رضي الله عنه؛ -من طريق

---

[1] رواه مسلم؛ [باب "إكرام الضَّيف وفضل إيثاره"، رقم: 2055]

[2] قالَت عَائِشة رَضيَ الله عَنْهَا: (لَمَّا رَأَيْتُ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طِيبَ النَّفْسِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأخَّرَ وَمَا أسَرَّتْ وَمَا أعْلَنَتْ)) فَضَحِكتْ عائشةُ حتَّى سَقَط رَأسُها فِي حِجْرِ رسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ مِنَ الضَّحِكِ؛ فقَالَ: ((أَيَسُرُّكِ دُعَائِي؟)) فَقَالَتْ: وَمَالِي لَا يَسُرُّنِي دُعاؤُكَ؛ فَقَال: ((وَاللهِ إِنَّهَا لَدَعْوتِي لأُمَّتِي فِي كُلِّ صَلَاةٍ)) [قال الألباني رحمه الله في "السِّلسلة الصحيحة": إسناده حسن].

[3] حسَّنه الإمام الألباني في "صحيح الترمذي"

[4] "تنبيه الغافلين".

[5] "مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب" لابن الجوزي رحمه الله، ص:170

عمر رضي الله عنه في صحيح البخاري-، حمار هذا رجلٌ من الصَّحابة واسمه عبدالله وكان يُسمَّى بهذا الاِسم، وهو الَّذي كان جَلَده النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في الخمر، فـ: (كان يُضحِكُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[1] -بهذا اللَّفظ-؛ فكان ربَّما جاء بشيءٍ للنَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام من طعامه كهدية ثُّم يأتيه بشيءٍ آخر ثُّم يأتِي بصاحب هذا الشَّيء الَّذي أهداه إليه فقال: (أَعْطِ هَذَا ثَمَنَ مَتَاعِهِ)[2] فيضحك النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم من فعله ذلك، فجِيءَ به يومًا فجلده النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في الخمر فلعنه بعض الصَّحابة رضي الله عنهم -والحديث مشهور- فقال: ((**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**))[3] عليه الصَّلاة والسَّلام؛ هذا الحال أيضًا كان مع النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام.

_ فيُنظر كما قلتُ لكم -وأكرِّر هذا-: يُنظر إلى جهة مُوجب الضَّحك لأنَّ الكفَّار كانوا يضحكون عل المؤمنين وربَّما يضحكون على ما يقع للمؤمنين من المساوئ والنَّكبات -وما أشبه ذلك- فيُسرُّون بها.

_ وكذلك يُنظر إلى جهةٍ أن لا يكون هذا الأمر هو الغالب على الإنسان حتَّى يُعرف به.

هنا النَّاظم -رحمه الله تعالى- قال:

وَلَا تَضحَكْ مَــعَ السُّفَهاءِ يَوْمًا

---

1 رواه البخاري.

2 عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ رَجُلا كَانَ يُلَقَّبُ حِمارًا، وَكَانَ يهْدِي لِرَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُكَّةَ مِنَ السَّمْنِ، وَالْعُكَّةَ مِنَ الْعَسَلِ، فَإِذَا جَاءَ صَاحِبُهُ يَتَقَاضَاهُ جَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَعْطِ هَذَا ثَمَنَ مَتَاعِهِ؛ فَمَا يَزِيدُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْتَسِمَ وَيَأْمُرَ بِهِ فَيُعْطَى) [ذكره أبو نعيم في "الحلية" وقال: صحيح، ثابت].

3 رواه البخاري

[السُّفهاء] جمع سفيه وهو الَّذي لا يُحسن التَّصرُّف ولا يكون على طريقٍ رَشَدٍ وإنَّما يَخبُطُ خبط عشواء فلا يعتني بنفسه ولا بما يؤول إليه أمره.

وَلا تَضحَك مَـعَ السُّفَهـاءِ يَوْمًا

[يَوْمًا] أيَّ يومٍ، لأنَّك لا تصحب هؤلاء السُّفهاء، وهذا من التَّحذير من رفقة السُّوء كما في الصَّحيحين في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: ((**مَثَلُ الْجَلِيس الصَّالِح وَالْجَلِيس السُّوء كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخ الكِير**))[1] ومثَّل له النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بذلك؛ كذلك في سُنن التِّرمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((**الرَّجُل عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْ يَنْظُر أَحَدكُم مَنْ يُخَالِل**))[2] والآيات في هذا كثيرة؛ الإنسان يَشْرف بمن يصحب.

إذا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ   وَلَا تَصْحَبْ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

المسلم يَشرف بصُحبة أهل العلم وحملة العلم وحملة السُّنَّة.

إذا كان هذا في الحيوان فما خطبك بالإنسان؟! من الفوائد الَّتي ذكرها ابن القيم -رحمه الله- في قصَّة أصحاب الكهف أنَّ الله -جلَّ وعلا- ذكر الكلب لصحبته لهم[3]: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾[4] فالمسلم ينظر إلى الصُّحبة.

وَصُحْبَـةُ الأَخْيَـارِ لِلْقَلْبِ دَوَا

---

[1] متفق عليه؛ واللفظ لمسلم

[2] قال الترمذي في سننه: حسن غريب.

[3] وقال أيضًا ابن كثير رحمه الله: (وَشَمَلَت كَلْبهُمْ بَرَكَتهُمْ فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِن النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَال؛ وَهَذَا فَائِدَةُ صُحْبَةِ الأخْيَارِ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ) [من تفسيره؛ الجزء التاسع، ص: 116]

[4] سورة الكهف: 22

كما قال المأمون كلمة -بنى عليها اِبن القيِّم رحمه الله تعالـمساحة كبـيرة في كتبـه منها في «مفتاح دار السَّعادة»- قال: (النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ مِنْهُمْ مِثْـلُ الْغِـذَاءِ لَا بُـدَّ مِنْهُ، وَمِنْهُمْ كَالدَّوَاءِ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي حَالِ الْمَرَضِ، وَمِنْهُمْ كَالدَّاءِ مَكْرُوهٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ)[1]

اِبن القيِّم -رحمه الله-[2] ذكر بأنَّ:

_ الطَّبقة الأولى: طبقة أهل العلم والصَّلاح والفضل الَّذين لا يأتيك من جهتهم إلَّا الخير.

_ الطَّبقة الثَّانية: مَن يُصاحبك من النَّاس ممَّن فيه دخل ودغل وأشياء من هذه الأمور.

_ الطَّبقة الثَّالثة: أهل الفسق والفجور والبدع -وما شابه ذلك-.

ومَنْ فَقه هذا المعنى اِستطاع أن يتعامل مع النَّاس، فالإنسان لا يستعمل الدَّواء في جميع الأحيان، ولا يُقْدِم على الدَّاء على الإطلاق، هذا يفعله كُلُّ العقلاء، وكما قال الحميدي -رحمه الله- بيتين جليلين في هذا المعنى، يقول:

لقاءُ النَّاس ليسَ يُفِيدُ شَيْئًا ... سِوَى الإِكْثَار منْ قيلٍ وقالِ
فأَقْلِلْ مـنْ لقـاءِ النَّاسِ إلَّا ... لأَخْذِ العِلْمِ أَو إصلَاح حالِ[3]

لأخذ العلم أو إصلاح حال، أمَّا تكون الصُّحبة مُطلقة هكذا وفيها نوعٌ من الاِنفلات ويجلس الإنسان مع النَّاس كيفما تحدَّثوا، كيفما تصرَّفوا، كيفما فعلوا، كيفما كانوا، كيفما كانت حالتهم؛ كيف يفعل في قول الله -سُبحانه وتعالى-:﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[4]، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا

1 "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء العاشر، ص: 282؛ عن المأمون.
2 تجدون كلامه بالتَّفصيل في كتابه: "بدائع الفوائد"، الجزء الثاني، ص: 273
3 "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء:19، ص:127.
4 سورة الأنعام: 68

مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[1] إلى غيرها من النُّصوص، قال:﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[2] ؟!

وَلا تَضحَك مَـعَ السُفَهـاءِ يَوْمًا

لِـمَ؟!

فإنَّـكَ سَـوفَ تَبكي إن ضَحِكتـا

في ذلك قال الله -عزَّ وجل- عن المنافقين:﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[3]، النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال كما في الحديث المتقدِّم: ((**وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**))[4]، وخرج مرَّة على أصحابه وهم يضحكون فقال: ((**واللهِ لَو تعلَمونَ مَا أعلمُ لَضَحِكتُمْ قليلًا ولبكَيتُمْ كثيرًا، وَمَا تلذَّذْتُم بالنِّساءِ عَلَى الفرُشِ ولخرَجتُم إلى الصُعُداتِ تجأَرونَ**))[5] وهذا الحديث رواه أصحاب السُّنن أو بعض أصحاب السُّنن، وبنحوه في الصَّحيحين من حديث أنس لكن ليس فيه هذه الزِّيادة، حديث أنس في الصَّحيحين أنَّه قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم لَضَحِكتُم قَليلًا وَلَبَكيتُم كَثِيرًا**))[6] قال: (فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْه وسَلَّمَ يومٌ أشدُّ مِنه، غطُّوا رؤُوسَهم وَلَهُم خنينٌ)[7].

---

[1] سورة النساء: 140

[2] سورة الصافات: 56-57

[3] سورة التوبة: 82

[4] صححه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي"

[5] ((إنِّي أرى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أطَّت السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إلَّا مَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ؛ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُم بالنِّسَاءِ عَلَى الْفرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ..)) [حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب"].

[6] متفق عليه

[7] متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

فَإِنَّـكَ سَـوفَ تَبكي إِن ضَحِكتـا

إِذَا اِستمرأت الضَّحك وكان هذا هو عادتك الَّتي تعيش لأَجلها وتصحب النَّاس لأجلها وربَّما بعضهم يترصَّد المجالس الَّتي لا يكون فيها إلَّا الضَّحك وربَّما بعض النَّاس يستأجر من يُضحكه كحالة أهل التَّرف والفُسوق -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

ثمَّ قال: كيف للإنسان أن يكون بهذا الحال وهو لا يدري ما غُيِّب عنه من مآله ومصيره؟! فقال:

وَمَـنْ لَكَ بالسُّرور وَأَنـتَ رَهـنٌ

كيف تُسر وكيف تضحك وكيف تكون في حبور ومسرَّة؟

[وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُور] حتَّى تستمرئ الضَّحك، وحتَّى تكون حياتك في غالبها مبناها على الضَّحك وعلى الرُّكون إلى السُّرور!

وَمَـنْ لَكَ بالسُّرور وَأَنـتَ رَهـنٌ

مرهونٌ، هذا حال الإنسان هو مرهون عند الدُّنيا كأنَّما تاجرٌ رهنه في هذه الحياة الدُّنيا، فهو مُرتَهن فيزيد اِرتهانه إلى الدُّنيا بارتهانه بذنوبه.

وَمَـنْ لَكَ بالسُّرور وَأَنـتَ رَهـنٌ

مُرتَهَن، ودائمًا الرَّهن يُسعى إلى فكِّه.

وَمَنْ لَكَ بالسُّرور وَأَنتَ رَهنٌ وَمَـا تَدْرِي أَتُفدى أَم غُلِلْتَا؟

يعني لا تدري هل أنتَ ممَّن يُفدى أم أنتَ ممَّن غُل، النَّاظم -رحمه الله تعالى- هنا يُشير إلى ما في صحيح الإمام مُسلم من حديث أبي موسى الأشعري أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ**))[1] هذا نوعٌ من أنواع المجاوزة والشَّفاعة، بمعنى أنَّه يكون له مكان في النَّار ولكنَّه يُفدى برجلٍ من اليهود أو برجل من النَّصارى، والحديث في صحيح مُسلم، فهو يقول: ما تدري أأنت من هذا الصِّنف الَّذين يجعل الله لهم فداء في الآخرة؟!

[أَتُفْدَى أَمْ غُلِلْتَا] والغُل هو الطَّوق الَّذي يُوضع على رقبة الأسير من أجل جرِّه به، هذا الغل ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا﴾[2]، ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾[3] فهو يقول لك:

وَمَا تَدْرِي أَتُفدى أَم غُلِلْتَا؟

الموْتُ بابٌ وكلُّ النَّاسِ داخِلُهُ	يا ليْتَ شعرِيَ بعدَ البابِ ما الدَّارُ
الدَّارُ دارُ نَعيمٍ إنْ عمِلتَ بِمَا	يُرضي الإلَهَ، وإنْ خَالفْتَ فالنَّارُ[4]

في سُنن التِّرمذي أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هارِبُها، وَلَا مِثْلَ الجنَّةِ نامَ طَالِبُهَا**))[5] والحديث حسَّنه الشَّيخ ناصر في جملة من كتبه -رحمه الله تعالى-.

---

[1] رواه مسلم.
[2] سورة المائدة: 64
[3] سورة غافر: 71
[4] لأبي العتاهية.
[5] حسنَّه الألباني رحمه الله في " صحيح التِّرمذي"

وَمَـا تَدْرِي أَتُفْـدى أَم غُلِلْتَـا؟

هل أنتَ ممَّن يُفدى؟ هل عرفتَ مصيرك؟ إلى أين يكون مآلك؟ هل أنت من السَّبعين ألفًا الَّذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب؟ -نسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكم وسائر المسلمين منهم-؛ أَم أنتَ من الَّذين أَوبقتهم سيِّئاتهم ورَجُحت سيِّئاتهم على حسناتهم؟

لابدَّ للإنسان أن يتفكَّر في مثل هذا الأمر، يضع نفسه في مقام السُّؤال وفي مقام الحساب: عندما يقف بين يدي الله -سبحانه وتعالى- هل يُتجاوز عنه؟ هل توبقه سيِّئاته؟

دائمًا كن سؤُولًا عن نفسك كما تسأل النَّاس عن أحوالهم وعن أخبارهم إذا اِفترقتَ عنهم ثمَّ لقيتهم، دائمًا إذا إِنفلتت نفسك إِسألها: إلى أين؟ وإلى متَى؟ -وما أشبه هذا من هذا السُّؤال-، وأينَ يكون المنزل؟ وأين تكون الرَّاحة؟ وأين يكون محطُّ الرِّحلة؟ ومتى سينتهي هذا المقام؟

إِسألها كما تسأل الغائب عنك غاب زمنًا، والنَّفس تغيب عن صاحبها ويستنكرها ولا يدري ما تُريده منه ولا يدري هو ما يُريده منها.

ولذلك قال ربُّنا -سُبحانه وتعالى-:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1] ثمَّ قال:﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[2] ما معنى أنساهم أنفسهم؟! لَا تظن أنَّ معنى ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّهم نسوا أسماءهم

[1] سورة الحشر: 18

[2] سورة الحشر: 19

وأنسابهم ومالَهم من الأرصدة والأموال والأبناء والزَّوجات! لا؛ ليس هذا هو معنى نسيان النَّفس.

_ ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: أنساهم مصالِحها فلا يصِلُون معها إلى خير يُريدونه منها.

_ ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: فلا يقفون عندها، لا يتخاطبون معها، ناسي نفسه، مُنهمك -كما يُقال-، مُنشغل بكلِّ شيءٍ إلَّا بنفسه، هذا معنى قوله تعالى.

_ ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: أنساهم أن يقفوا عند مصالحها، عند ما يُصلحها، عند ما يُزكِّيها، عند ما يُهذِّبها، عند ما يحملها على طاعة الله، على رضا الله -جلَّ وعلا-.

إلى آخر ذلك؛ هذا من أعظم العقوبات، أن تكون لك نفسٌ ولا تدري ما هي هذه النَّفس: هل هي مُطمئنَّة؟ هل هي مُضطربة؟ قلقة؟ ما مآلها في الآخرة؟
لابدَّ مثلما تسأل الغائب يغيب عنك أن تسأل نفسك إذا أحسستَ بوحشتها، بنُفرتها وِاستنكارها.

وهنا يقول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

وَمَنْ لَكَ بالسُّرور وَأَنتَ رَهنٌ وَمَا تَدْرِي أَتُفدى أَم غُلِلْتَا؟

هل أنتَ ممَّن يُفدى بيهودي أو نصراني؟! [أَمْ غُلِلتَا] مثل الأسير الَّذي يُوضع الغلُّ أو الطَّوقُ في رقبته مِنْ أَجْل أن يُجرَّ إلى نار جهنَّم -عياذًا بالله-.

ثُمَّ قال -رحمه الله-:

وَسَل مِـن رَبِّكَ التَّوفيـق فيهـا

الظَّاهر أنَّ هذا مُتناسبٌ مع ما يتعلَّق بوصية النَّبي عليه الصَّـلاة والسَّـلام في دعاء يُونس عليه الصَّلاة والسَّلام:

وَسَل مِن رَبِّكَ التَّوفيقَ فيها ... وَأَخلِص في السُّؤالِ إِذا سَأَلتا

وَنادِ إِذا سَجَدتَ لَـهُ اِعتِرافًا ... بِمـا ناداهُ ذو النُّـونِ بـنُ مَتّى

وهذه الأبيات فيها فوائد كثيرة جدًّا -مثل هذه الَّتي في هذه اللَّيلة-.

نكتفي بهذا القدر؛ وَفَّق الله الجميع لما يُحبه ويرضاه، وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّـد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

الدَّرس السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصَلَّى الله وسَلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس السَّابع عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري -رحمه الله تعالى-، المشهورة بالتَّائية.

ولا يزال الكلام على ما ذكره -رحمه الله تعالى- من الوصايا والنَّصائح الَّتي خاطب بها من ناداه بقوله:

أَبا بَكرٍ دَعوتُكَ لَـو أَجَبتـا

وانتهى بنا المقام إلى قوله -رحمنا الله وإيَّاه-:

وَسَل مِن رَبِّكَ التَّوفيقَ فيها ... وَأَخلِص في السُّؤالِ إِذا سَأَلتا
وَنادِ إِذا سَجَدتَ لَهُ اعِترافًا ... بِمـا ناداهُ ذو النُّونِ بـنُ مَتّى
وَلازِم بابَــهُ قَرعًـا عَسـاهُ ... سَيفتَحُ بـابَـهُ لَكَ إِن قَرَعتـا
وَأَكثِر ذِكـرَهُ في الأَرضِ دَأبًا ... لِتُذكَرَ في السَّمـاءِ إِذا ذَكَرتـا

هذه النَّصائح وهذه المواعظ ممَّا تُسمَّى عند كثيرٍ من المصنِّفين بـ: «المنازل»؛ يعـني: منازل السَّائرين إلى الله -سُبحانه وتعالى-، وكلُّ هذه المنظومة تُحاكي هذا المعنى، لأنَّ

العبد لابد له في سيره إلى الله -سبحانه وتعالى- وإلى الدَّار الآخرة لابد له من زادٍ ولابد له من أسبابٍ تُوصله إلى الغاية الَّتي يُريدها، ومن أعظمها: الدُّعاء والإخلاص.

النَّاظم -رحمه الله تعالى- هنا يقول:[وَسَلْ] أي: اطلب، «سَلْ» هنا فعل أمر وهو مجزوم بفعل الطَّلب على قولٍ وهو المشهور، أو بحرفٍ محذوفٍ «لِتَسَلْ».

[سَلْ] أي اطلب [مِنْ رَبِّك التَّوْفِيقَ فِيهَا] والسُّؤال لا يكون إلَّا من الله -جلَّ وعلَا- لأنَّ السَّائل ذليل، والذُّل لا يكون على الحقيقة إلَّا مع الله -تبارك وتعالى-، لهذا جاء في حديث ابن عباس -المشهور- رضي الله عنهما عند التِّرمذي وغيره لمَّا قال له النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **((يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ))** قال: **((إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اِسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِن بِاللَّهِ))**[1]، وذلك أنَّ العبد فقيرٌ وإنْ كان قد وصل في الغِنى الآدمي أو البشري المنتهى، يظلُّ فقيرَ النَّفسِ، يظلُّ محتاجًا، لا يُشبع فقره إلَّا أن يتعلَّق بالله -سبحانه وتعالى- ويعلم أنَّ ما عند الله هو خير له، وهذه هنا تأتي القناعة فيقنع بما قسَّمه الله -سبحانه وتعالى- له.

والله -جلَّ وعلا- علَّمنا سؤاله ودعاءه وطلبه والرَّغبة إليه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2]، وبيَّن ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ مِنْ أسباب هذا السُّؤال -هو ما ذكرته لكم-: أنَّ العبد فقيرٌ، شاءَ هذا أم أَبَى، كما قال الله -سبحانه وتعالى-:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ -وهذا

---

[1] ((يَا غُلامُ إِنِّي أعلِّمُكَ كَلِمَات، احْفَظ اللَّهَ يَحْفَظكَ، احْفَظ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَل اللَّهَ، وَإذَا اسْتَعَنتَ فَاسْتَعِن بِاللَّه، واعْلَم أنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَن يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أن يضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وَجُفَّتِ الصُّحُف)) [صحَّحه الإمام الألباني في "صحيح الترمذي"].

[2] سورة البقرة: 186

خطابٌ عام- ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1] فكما أنَّ غِنى الله -جلَّ وعلا- ذاتيٌّ فإنَّ العبد يكون فقيرًا لا يملأ جوفه إلَّا التُّراب.

وَسَلْ مِــنْ رَبِّكَ التَّوفيق فِيهَـا

خصَّ السُّؤال هنا بالتَّوفيق، وإلَّا فإنَّ العبد يسأل الله -جلَّ وعلا- كلَّ شيءٍ كما جاء في الأحاديث عن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام حتَّى يَسأل شسع نعله ومِلح طعامه[2]، فكلُّ شيء العبد يسأله من الله -سبحانه وتعالى-.

ولهذا جاء في صحيح مسلم في حديث أبي ذرّ الغفاري المشهور الَّذي هو أشرف حديث أهل الشَّام -أو الشَّأم- كما قال الإمام أحمد -رحمه الله-[3]، وهو قول النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يرويه عن ربِّه: **((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلمَ عَلَى نَفْسِي))**[4] قال فيه الرَّب -جلَّ وعلا-: **((يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَته مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ))**، وقال الرَّب -جلَّ وعلا- أيضًا في هذا الحديث: **((يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُه فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكم، يَا عِبَادِي كُلُّكُم جَائعٌ إِلَّا مَنْ أَطعَمتُه فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُم، يَا عِبَادِي كُلُّكم عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسوتُه فَاسْتَكْسُونِي أكْسُكُم))**[5]، فكلُّ شيءٍ يُسأل من الله -جلَّ وعلا-

---

[1] سورة فاطر: 15

[2] ((لِيَسْأَلْ أحَدُكمْ ربَّهُ حَاجتَهُ كلَّهَا، حتَّى يَسْألَه شِسْعَ نَعْلِه إِذَا انْقَطَعَ)) ["السلسلة الضعيفة" للألباني رحمه الله]

[3] قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ قَالَ الإِمَامُ أحْمَد: هُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ لِأَهْلِ الشَّامِ) [من كتابه "جامع العلوم والحِكم"، ص: 282]

[4] رواه مسلم

[5] رواه مسلم

أكان الأمرُ عظيمًا أم كان يسيرًا، ولهذا قال صلَّى الله عليه وسلم -كما في صحيح مسلم-: ((فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ))[1] فالرَّب -سُبحانه وتعالى- لا يتعاظمه شيء، فالعبد يسأل الله -جلَّ وعلا-.

وإنَّما خصَّ النَّاظم -رحمنا الله وإيَّاه- هنا في هذا المقام سُؤالَ التَّوفيقِ لأنَّ التَّوفيق هو المعنى الجامع لكلِّ مطالب العبد، بمعنى أنَّه إعانة العبد على فعل المطلوب، فهو ليس دعاءً خاصًّا، وإنَّما هذا الدُّعاء بالتَّوفيق عامٌّ بأنْ يُوفِّقه لخير الدُّنيا والآخرة.

وَسَل مِـــن رَبِّكَ التَّوفيق فيهـا

والتَّوفيق من الألفاظِ الَّتي جاءت في الكتاب وفي السُّنَّة بقلَّة ولكنَّها جاءت في مواضع دَقِيقة، فالله -جلَّ وعلا- قال في سورة هود في قصَّة شُعيب عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾[2]، وقال في الحَكَمَيْن عند اِختصام الزَّوجين: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[3]، فالتَّوفيق هو الإعانة -في حقيقة الأمر- والتَّسديد للفعل، إذا أراد العبد فعل شيء فإنَّ الله -سبحانه وتعالى- يُوفِّقه إليه.

---

[1] رواه مسلم، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] سورة هود: 88

[3] سورة النساء: 35

جاءت الأحاديث -كما قلتُ لكم- بقلّة في فعل النّبي عليه الصّلاة والسّلام ربّما يسأله بعض أصحابه فيقول: ((**لَقَد وُفِّقَ**)) لمّا سألـه عـن أكـثر مـا يُدخلـه الجنّـة ويباعده عن النّار، فقال: ((**لَقَدْ وُفِّقَ**))[1] وجاء في أحاديث جملة.

فإذا سأل العبد ربّه التّوفيق فقد جُمع له الخير كلّـه، لأنّ التّوفيـق وإن كان في لفظـه مفردًا في مثل هذا المقام فإنّه آخذٌ بمجامع المسائل: التّوفيق لدخول الجنّة، التّوفيـق للنّجاة من النّار، التّوفيق لفعل العبـادة، التّوفيـق لطلـب العلـم، التّوفيـق للذّكـر، التّوفيق للإحسان إلى النّاس -إلى آخره-.

وهنَـا يقُــول:

وَسَل مِــن رَبِّكَ التَّوفيقَ فيهـا

أي في الدُّنيا، لماذا؟! لأنّ الدُّنيا هي محلُّ العَمل والعِبادة، والجنّة محلّ القرار والجـزاء، فمن وفّقه الله -سبحانه وتعالى- في الدُّنيا فقد وُفّق لسلوك الطّريق والسّبيل، وأمّا في الآخرة فإنّ النّاس لا يحتاجون أن يسـألوا الله -سـبحانه وتعـالى- إذا دخلـوا جنّـة الخلد، وإنّما يُلهمون التّسبيح كما يُلهمون النَّفَس كما بـيَّن النّـبي صـلَّى الله عليـه وسلَّم[2].

فهُـو يقُــول:

وَسَل مِــن رَبِّكَ التَّوفيقَ فيهـا

---

[1] عن أبي أيُّوب الأنصاري رضي الله عنه: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا ثُـمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنْ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ؛ قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ، قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: فَأَعَادَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ؛ دَعْ النَّاقَةَ) [رواه مسلم]

[2] ((يأْكلُ أَهْلُ الجنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمتخِطُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَكِن طَعَامُهُمْ ذَاكَ جشَاءٌ كَرشحِ الْمِسْكِ، **يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ**)) [رواه مسلم]

أي في هذه الحياة الدُّنيا، لأنَّه إذا اِنقطَعَت بك الدُّنيا فلم يبقَ لكَ فيها عمل، ماذا تفعل إذا جاءك الموت؟ إذا جاءتك الآخرة؟! لا ينفعك شيء.

فهنَا يقُول:

وَسَل مِن رَبِّكَ التَّوفيق فيها

أي مادمتَ في هذه الحياة الدُّنيا، مادمتَ تتنفَّس، مادمتَ تعيش، مادمتَ تَقْدر على الكلام، على العِلم، على العمل، على الطَّاعة.

وَسَل مِن رَبِّكَ التَّوفيق فيها

ومع سؤالك التَّوفيق قال:

وَأَخلِص في السُّؤالِ إذا سَأَلتا

وهذا هو منزلة الإخلاص، وهي من أهمِّ المنازل الَّتي يذكرها المصنِّفون في منازل السَّير إلى الله والدَّار الآخرة كأبي طالب المكي في «قوت القلوب» وكأبي إسماعيل الهروي في «منازل السَّائرين»، وكانت في كتب المتقدِّمين تُذكر في ما يُسمَّى بكتب الزُّهد والورع، ثمَّ جَنح بعض المصنِّفين إلى هذا فصار هذا شعارًا يُسمُّونه:«منازل الطَّريق»، «منازل السَّائرين»، إلى آخره من هذه الألفاظ.

فهو يقول:[وَأَخْلِصْ] صَفِّ، بمعنى أنَّه لا يكون عند مسألتك اِلتفاتٌ إلى نفسك أو اِتِّكال عليها فضلًا عن الخلق، لماذا نقول في نفسك؟! لأنَّ الإنسان أحرص ما يكون على نفسه، فإذا لَم يلتفت إلى نفسه كيف تُطاوعه نفسه إلى أن يلتفه إلى

غيرها؟! فهو لا يحتاج إلى أن يلتفت في سؤاله إلى أحد؛ فإذا رفعتَ يديك إلى الله -سبحانه وتعالى- لا تستحضر إلَّا كرمه -وإن كان النَّاس قد يكونون سببًا ولكن هذا السَّبب ينبغي أن ينقطع ذكره في هذا المقام-، لا تكون الصِّلة إلَّا فيما بينك وبين الله -سبحانه وتعالى-.

[وَأَخْلِص] تخليص، تَصْفية، ولهذا يقولون:«خلصَ العسل» بمعنى أنَّه صُفّي، وهكذا في الحليب.

والله -جلَّ وعلا- ذكر الإخلاص في الدُّعاء حتَّى مع أهل الشِّرك في المقامات الَّتي لا مَنجا ولا ملجأ ولا مهرب إلَّا إلى الله -سبحانه وتعالى-، يعلمون أنَّه لا يُنْجِيهم إلَّا الإخلاص كما قال -سبحانه وتعالى-:﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1] حال، يعني حال كونهم مخلصين له الدِّين -حال من الضَّمير-، فلا ينفعهم إلَّا أن تكون هذه الحال ملابسة لهم، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2] -والآيات في هذا كثيرة-، مُخلصين له التَّوحيد.

وَأَخلِص فـي السُّؤالِ إِذا سَأَلتـا

أخلص نيَّتك لله -سبحانه تعالى-.

- ليس معنى الإخلاص -كما يَظنُّه البعض- أنَّك لا تُرائي في الدُّعاء، يظنُّ البعض أنَّه يدعو في مكانٍ لا يراه فيه النَّاس، هذا نوعٌ من الإخلاص؛ لكنَّ حقيقة الإخلاص أن تُخَلِّص هذا القلب لله -سبحانه تعالى- في ظُلمه، بمعنى أنَّه لا يكون

---

[1] سورة العنكبوت: 65

[2] سورة غافر: 14

في قلبك اِلتفاتٌ إلى الأسباب أبدًا في حال الدُّعاء؛ لماذا نقول حتَّى للأسباب؟! لأنَّه لا يَعلم هذه الأسباب وما حالها ومتَى ستكون ومَن الَّذي يُقدِّرها إلَّا الله -جلَّ وعلا-، فقد تعتقد في زيدٍ من النَّاس أنَّه هو السَّبب ويكون السَّببُ في عَمرو!

ولهذا الإخلاص ليس حقيقته أن تدعو في مكانٍ لا يراك فيه أحد، وإنَّما حقيقة الإخلاص أن تدعو وإن كنت في وضح النَّهار بقلبٍ لا يلتفت إلى غير الله -جلَّ وعلا-.

وَأَخلِص في السُّؤالِ إِذا سَأَلتا

ثمَّ يُعطيك أُنمُوذجًا، عيِّنَةً، حال من حالات الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهي الحال الَّتي عظُم فيها الكرب واشتد، وهي حالةُ نبيِّ الله: يونس عليه السَّلام، ولهذا قال: [وَنَادِ] من النِّداء وهو الدُّعاء، المراد به هنا: ادعو.

وَنادِ إِذا سَجَدتَ لَهُ اِعتِرافًا

اِعترافًا بأيِّ شيء؟!

بِما ناداهُ ذو النُّونِ بنُ مَتّى

أي تعترف بما اِعترف به ذُو النُّون بن متَّى، و[ذُو النُّون] هو صاحب النُّون كما قال -جلَّ وعلا-:﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾[1] فُسِّرت في سورة القلم:﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[2]:

[1] سورة الأنبياء: 87

[2] سورة القلم: 48

_ فـ «ذو» فُسِّرت بـ : صاحب.

_ و «النُّون» فُسِّرت بـ : الحوت.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[1] -هذه الدَّعوة الَّتي أرادها-:﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2] يقولها نبيٌّ من أنبياء الله عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ ولهذا يقول نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم: **((مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى))**[3].

وَنادِ إِذا سَجَدتَ لَـهُ اعِترافًا

بأيِّ شيءٍ؟ [بِمَا] أيْ بالَّذي.

بِما ناداهُ ذو النُّونِ بنُ مَتّى

ما هو نداء ذو النُّون؟! ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، وذكر الله -سبحانه وتعالى- السَّبب الرَّئيس الَّذي كان سبيلًا لإجابة نبيِّه يونس: وهو ذكر الله سبحانه، فقال:﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[5] يعني للبث في هذه الظُّلمات، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾: ظُلمات بطن الحوت، والبحر، واللَّيل، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ ما السَّبب؟ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

---

[1] سورة الأنبياء: 87

[2] سورة الأنبياء: 87

[3] متَّفق عليه؛ من طريق عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

[4] سورة الأنبياء: 87-88

[5] سورة الصَّافات: 143-144

ومِن دقَّة الألبيري أنَّه قال:

وَلازِم بـابَـهُ قَرعًـا عَسـاهُ   سَيفتَحُ بـابَهُ لَكَ إِن قَرَعتـا

سنرجع للبيت؛ ثمَّ قـال:

وَأَكثِر ذِكرَهُ في الأَرضِ دَأبًا   لِتُذكَـرَ في السَّماءِ إِذا ذَكَرتا

فربط بين قصَّة يُونس وبين إكثار ذِكر الله -سبحانه وتعالى- لأنَّه قـال:﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾.

قد جاء في سُنن التِّرمذي وفي مسند الإمام أحمد وعند الحاكم من حديث سعد بن أبي وقَّاص أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قـال: **((دَعْـوَةُ ذِي النُّـونِ إذ دَعَا وَهُـوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ))**[1]، لكن مع الحال الَّتي كان عليها يـونس والأوصاف الَّتي كان عليها، لا نقصد الحال الخاصة الدَّقيقة، لكن لابدَّ أن يكون هناك إخلاصٌ، رَغبٌ، رَهبٌ، كثرةُ ذِكرٍ لله -سبحانه وتعالى-.

وهنا قال النَّاظم -رحمه الله-:

بِمـا ناداهُ ذو النُّـونِ بـنُ مَتّى

وهذا الحديث سُئل عنه شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- مسألةً دقيقة وأطال الكلام فيها، وله رسالة في شرح هذا الحديث «دعوة ذي النُّون» مطبوع في مجمـوع فتـاوى ابن قاسم[2]، ومطبوع طبعتين مُفردتين في الهند، تكلَّم فيه على هـذا الحـديث وعلى مسألة الظُّلم وإعتراف العبد بظلمه في حقِّ نفسه؛ ولابن القيم أيضًـا كلامٌ طويـل على هذا الحديث.

---

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التِّرمذي".

[2] تجدونه في "مجموع الفتاوى" لابن قاسم؛ الجزء العاشر، ص: 140

والله -جلَّ وعلا- قال عن الأبوين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]، وقال عن موسى الكليم عليه السَّلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2]، هذا مُتكرِّر مع الأنبياء، وجاء في الصَّحيحين في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ أبا بكر رضي الله وأرضاه قال للنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: (عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي)[3] قال له النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**))[4]، لو تتأمَّل في المقام الَّذي تكلَّم عليه ابن القيم -رحمه الله تعالى- عند قوله: ((**مِنْ عِنْدِكَ**))[5] لكان كافيًا في أن يطرح الإنسان نفسه ولا ينظر إليها، الحديث نفسه قاضٍ بهذا، لكن تحتاج إلى إنارات أهل العلم في هذا المقام، كأنَّه يقول: أنا لست أهلًا لأن أنزل هذا المقام ولكنَّ مغفرتك وعفوك ورحمتك تكون من عندك؛ ((**فاغْفِر لِي مَغْفِرَة مِنْ عِنْدِكَ**)) هي تفضُّل منك عليَّ وإلَّا فإنِّي قد ظلمت نفسي.

---

[1] سورة الأعراف: 23

[2] سورة القصص: 16

[3] متفق عليه.

[4] متفق عليه.

[5] قال ابن القيِّم رحمه الله: (قَالَ: ((فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ)) أَيْ لَا يَنَالُهَا عَمَلِي وَلَا سَعْيِي، بَلْ عَمَلِي يَقْصُرُ عَنْهَا، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ فَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ لَا بِكَسْبِي وَلَا بِاسْتِغْفَارِي وَتَوْبَتِي، ثُمَّ قَالَ: ((وَارْحَمْنِي)) أَيْ لَيْسَ مُعَوَّلِي إِلَّا عَلَى مُجَرَّدِ رَحْمَتِكَ، فَإِنْ رَحِمْتَنِي وَإِلَّا فَالْهَلَاكُ لَازِمٌ لِي؛ فَلْيَتَدَبَّرِ اللَّبِيبُ هَذَا الدُّعَاءَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَفِي ضِمْنِهِ: أَنَّهُ لَوْ عَذَّبْتَنِي لَعَدَلْتَ فِيَّ وَلَمْ تَظْلِمْنِي وَإِنِّي لَا أَنْجُو إِلَّا بِرَحْمَتِكَ وَمَغْفِرَتِكَ) [من كتابه "طريق الهجرتين" ص: 429]

إذَا كان النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يُعلِّم هذا لصِدِّيق هذه الأُمَّـة ومُقـدَّمها بعـده ولإمامها ولأفضل البشر بعد الأنبياء فمن أنتَ؟! ومَن تكون إذا لَـم تعـترف لله -سبحانه وتعالى- بظُلمك وبسُوئِك؟!.

ولهذا جاء أيضًا في صحيح البخاري -رحمه الله- في حديث أبي يعلى شدَّاد بـن أوس -حديث سيِّد الاستغفار- :**((اللَّهمَّ أنْتَ ربِّي لَا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلَقْتَني وَأنا عَبْدُكَ، وأنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اِسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ))** -أعترف- **((أَبُوءُ لَكَ بنِعْمَتِكَ عليَّ، وأبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فاِغْفِر لِي، فَإنَّهُ لَا يغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنـتَ))**[1]

هذا لا يخلو منه العبد؛ فإذا ناجيت ناجيتَ بهذا الوصف.

وَنادِ إذا سَجَدتَ لَـــهُ اِعترافًا

وأقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد كما في صحيح مُسلم: **((وَأَمَّا السُّـجودُ فَاِجتَهِدُوا فِي الدُّعاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُم))**[2].

وَنادِ إذا سَجَدتَ لَـهُ اِعترافًا بِمـا ناداهُ ذو النُّونِ بـنُ مَتّى

وهو يُونس عليه السَّلام.

وَلازِم بابَــهُ قَرعًـا عَســاهُ سَيفتَحُ بابَــهُ لَكَ إن قَرَعتـا

[لَازِم] من الملازمة، وليستْ المسألة عندما يـأتي الشِّـدة أو يـأتي الكـرب فيـذكر الإنسان فيها ربَّه، نعم بطبيعة الإنسان وبفطرته يفعل هذا، ولكـن لا بدَّ أن يكـون العبد ذا صلة مع الله -سُبحانه وتعالى- على الدَّوام، ولهذا جاء في سُنن التِّرمذي من

---

1 رواه البخاري

2 رواه مسلم

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**مَن سَرَّهُ أنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكَرب فَلْيُكْثِرِ الدُّعاءَ في الرَّخاءِ**))[1] والحديث حسَّنه الشَّيخ الألباني -رحمه الله تعالى- في «صحيح الجامع».

وهنا يقول: [وَلَازِم بَابَهُ] اِلزم باب الرَّب -جلَّ وعلا- ولا تجعل هذا الباب آخر الأبواب الَّتي تطرقها، ولا تجعله من فُضول الأبواب، تذهب إلى كلِّ أحد: تطرق أبواب الأغنياء، وأبواب الأطبَّاء، وأبواب العُلماء، ثمَّ تجعل هذا الباب آخر الأبواب! حتَّى في السَّبب إذا أردت شيئًا تدعو الله -سُبحانه وتعالى- يُوضِّح لك ويُبيِّن لك ما هو الطَّريق الَّذي أنت تسلكه.

وَسَل مِن رَبِّكَ التَّوفيقَ فيها

لاحظ كيف يقول هنا:

وَأَخلِص في السُّؤالِ إِذا سَأَلتا

وَنادِ إِذا سَجَدتَ لَهُ اِعتِرافًا	بِما ناداهُ ذو النُّونِ بنُ مَتّى
وَلازِم بابَهُ قَرعًا عَساهُ	سَيفتَحُ بابَهُ لَكَ إِن قَرَعتا

اِلزم هذا الباب، اِلزم عتبة هذا الباب: قارعًا، طارقًا.

جاء في مُصنَّف ابن أبي شيبة وفي الجامع لمعمر بن راشد وعند البيهقي وغيره عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه وأرضاه أنَّه قال: (جِدُّوا بالدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُكْثِرُ قَرْعَ البَابِ يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ)[2] -وسنده حسن-، فإذَا لازم العبد قرع الباب يُنادي:«يا رب، يا

[1] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

[2] "مصنف ابن أبي شيبة"، الجزء السابع؛ ص:24

الله، يا كريم، يا رحيم» في كلِّ حاجاته: في صلاته، في غير صلاته، في مواطن إجابة الدُّعاء، في أعظم الأُمور وفي أقلِّها؛ لا يتعاظم الرَّب -سبحانه وتعالى- شيء.

وَلازِم بابَهُ قَرعًا عَساهُ سَيفتَحُ بابَهُ لَكَ إِن قَرَعتا

تجد ساعة إجابة، ساعة رضا من الرَّب -سبحانه وتعالى- عليك، فتدعو فيفتح لك الباب؛ وإذا فُتح لك الباب من يوصده؟! ومن يردُّك عن هذا الباب؟!

سنكتفي بهذا القدر في هذا المجلس، وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله ربِّ العالمين.

الدَّرس الثَّامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الثَّامن عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري - رحمه الله تعالى-، وهذه التَّائية من نفائس عيون الشِّعر المروية عن الأئمَّة المتقدِّمين -القُرون المتقدِّمة-، فقد ذكر فيها نفائس من النَّصائح.

ولازال الكلام موصولًا على ما ذكره -رحمه الله تعالى- من النَّصائح الَّتي وجَّهها لِمن كنى عنه بأبي بكر؛ وقد قال فيها تتميمًا لقوله:

وَأَخلِص فـي السُّؤالِ إِذا سَأَلتا

وَنادِ إِذا سَجَدتَ لَهُ اِعتِرافًا	بِما ناداهُ ذو النُّونِ بـنُ مَتّى
وَلازِم بابَـهُ قَرعًـا عَسـاهُ	سَيفتَحُ بابَـهُ لَكَ إِن قَرَعتـا
وَأَكثِر ذِكرَهُ في الأَرضِ دَأبًا	لِتُذكَرَ في السَّماءِ إِذا ذَكَرتا

توقَّفنا عند هذا البيت، مع أنَّ المناسبة بين إكثار ذكر الله -سبحانه وتعالى- وذِكر قصَّة يُونس عليه الصَّلاة والسَّلام -كما ذُكر في الدَّرس الماضي- قويَّة جدًّا، والنَّاظم

-والله أعلم- أرادها لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- ذكر من أسباب نجاةِ يُونس عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه كان من المسبِّحين، والتَّسبيح الَّذي هو التَّنزيه من أعظم وأجلِّ أنواع الذِّكر، حتَّى جاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام في صحيح الإمام مسلم أنَّه قال: («**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ:«**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ**»)[1]، فالتَّسبيح من أعظم أنواع الذِّكر لأنَّه تنزيهٌ للرَّب -جلَّ وعلَا- عن كلِّ النَّقاص الَّتي تستلزم إثبات الكمال المطلق، فالله -جلَّ وعلَا- قال:﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[2].

وهنا النَّاظم قال: [وأكْثِرْ ذِكْرَهُ] أي ذِكر الرَّب -جلَّ وعلا-، والقاعدة عند العُقلاء والعلماء من كلِّ أُمَّة ومِلَّة أنَّ: (مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ)[3] وهذا أمرٌ يُردِّده شيخ الإسلام -رحمه الله- وذكره تلميذه ابن القيِّم -رحمه الله-: (مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ)[4] وهذا في علاقات النَّاس ومعاملاتهم وما تتعلَّق به قلوبهم أنَّهم إذا أحبُّوا شيئًا أكثروا من ذِكره أكان ذلك في الأفراد أم في الجماعات إذا اِجتمعوا، فتجد أنَّ طُلَّاب العلم يذكرون أهل العلم وأئمَّة الدِّين، وتجد المسلم على العمُوم أو على الخصوص يُكثر ذكر الله -سبحانه وتعالى-.

وهنَا قَال:

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِـي الأَرْضِ دَأْبًـا

لأنَّ هذه الأرض هي محلُّ عمل الإنسان.

---

[1] رواه مسلم

[2] سورة الصَّافات: 143

[3] "طريق الهجرتين" لابن القيم رحمه الله؛ ص:19

[4] "طريق الهجرتين" لابن القيم رحمه الله؛ ص:19

[لِتُذْكَرَ] وهذه لام التَّعليل، يعني: لأجل أن تُذكر فِي السَّماء، ممَّن؟ من الرَّب -جلَّ وعلا-: بالثَّناء عليك، والتَّشريف، والتَّكريم.

لِتُذكَرَ في السَّماءِ إذا ذَكَرتا

يُشير إلى قوله -سبحانه وتعالى-:﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1] وأيضًا إلى قول النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يرويه عن ربِّه في الصَّحيح: **((فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُه فِي نَفْسِي، وَإِن ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُم))**[2].

وهنا قال:[وَأَكْثِر ذِكْرَهُ] والإكثار بأن يملأ المرء وقته بذكر الله -سبحانه وتعالى- أكان ذلك من الذِّكر المطلق الَّذي لا يُقيَّد بصفةٍ ولا زمانٍ ولا مكانٍ، ذِكر الله -سبحانه وتعالى- على كلِّ الأحوال كما جاء في الصَّحيحين في حديث عائشة رضي الله عنها: (كَانَ النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ)[3]، أو كان ذلك من الذِّكر المقيَّد الَّذي نصَّت الشَّريعة في الكتاب وفي السُّنَّة بيان ذلك بكثرة على المواطن المتعلِّقة بالأزمنة أو بالأمكنة الَّتي يَذكر فيها المسلم ربَّه -سبحانه وتعالى- في مدخله ومخرجه، في دخوله إلى منزله، في خروجه منه، في دخوله إلى المسجد، في خروجه منه، في دخوله إلى الخلاء، في خروجه منه، -في مواطن كثيرة-، في نومه، فيه يقظته، بل حتَّى إذا تقلَّب فِي ليله من نومه **((مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيل))**[4] بمعنى أنَّه

---

[1] سورة البقرة: 152

[2] يقول اللهُ تعالَى: ((أنَا عِندَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذكَرَني، فَإِن ذَكَرَني فِي نَفسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَني فِي مَلأٍ ذَكَرْتُه فِي مَلأٍ خَيْر مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أتَانِي يَمْشِي أَتَيتُهُ هَرْوَلَةً)) [متَّفق عليه؛ واللفظ للبخاري]

[3] مُتفق عليه؛ واللَّفظ لمسلم

[4] ((مَنْ تَعارَّ مِنَ اللَّيلِ فَقالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ؛ الحَمْدُ للهِ، وسُبْحانَ اللهِ، ولَا إلهَ إلَّا اللهُ، وَاللهُ أكبرُ، ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اغفرْ لِي أَوْ دَعَا استُجيبَ له، فإنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى قُبلَتْ صلاتُهُ)) [رواه البخاري، من طريق عُبادة بن الصَّامت]

أصابه -كما يُعبِّر العصْريُّون- نوعٌ من الأرق، وجفاء النَّوم، شرع له النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام ذكرًا مُعيَّنًا.

والأذكار الَّتي تُقال في الصَّلاة -وهي من أعظمها وأجلِّها لأنَّها مُتعلِّقة بفعل العبادة-، الأذكار الَّتي تُقال في الحج، في الصِّيام، الأذكار الَّتي يقولها المسلم عند العادات الَّتي أَلِف أن يقوم بها:

_ في الأكل بأن يقول: ((**بِسْمِ اللهِ**))[1].
_ وإذا فرغ منه بأن يحمد الله[2].
_ حتَّى شرع النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام للرَّجل إذا أتى أهله أن يبدأ ذلك بالذِّكر كما في الصَّحيحين[3].

ولو اِستطردنا في ذكر هذا الباب لكان مجلَّدات كما هي مُصنَّفات أهل العلم في مثل هذا الباب ككتاب «الأذكار» للنَّووي، و«الحصن» لابن الجزري، وغيرها كثير الَّتي صنَّفها أهل العلم، ومن أجلِّها وأحسنها كتاب: «الوابل الصَّيِّب» للحافظ ابن القيِّم -رحمه الله- ومن أهمِّ مُميِّزات هذا الكتاب أنَّه قَرن الذِّكر بفضائله ممَّا لَا تجده في مكانٍ آخر، حتَّى ذكر في فوائد الذِّكر أكثر من مائة فائدة، أكثر من مائة اِستطرد الحافظ ابن القيِّم في ذكرها[4] فيما يُحصِّله العبد المسلم في ذكره لله -سبحانه وتعالى- في ليله ونهاره، هناك أذكار مُتعلِّقة بالصَّباح، أذكار مُتعلِّقة بالمساء؛ وباب الأذكار باب واسع.

---

[1] ((إِذَا أَكَلَ أَحَدكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللّه)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي"، من طريق عائشة رضي الله عنها]
[2] ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)) [رواه مسلم، من طريق أنس رضي الله عنه]
[3] ((أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا)) [متفق عليه، واللفظ للبخاري]
[4] تجدونها في "الوابل الصيب"، ص:94.

ولهذا قال النَّاظم -رحمه الله-:

وَأَكثِر ذِكرَهُ فــي الأَرضِ دَأبًا

أي على الدَّوام، كما قال ربُّنا -سبحانه وتعالى-:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1]، وقال -جلَّ وعلا- كما ذكرنا في الآية المتقدِّمة:﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2]، وقال في آخر سورة الجمعة:﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3] متى؟! ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[4] خرجتُم من الصَّلاة وقضيتم أذكاركم، أُذن لكم في الغفلة؟! لا؛ ولهذا قال:﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5].

في دخول المرء إلى المسجد يقول: **((اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ))**[6] لأنَّ الصَّلاة من أعظم ما يُدرك به العبد الرَّحمة، فإذا دخلت المسجد تقول: **((اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ))** لأنَّها الأصل، وإذا خرجت من المسجد تقول: **((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))**[7] والفضل ما هو؟ الفضل: الزِّيادة، شيءٌ زائدٌ على الأصل، فالأصل في دخولك إلى المسجد، وما تُحصِّله عند خروجك إنَّما هو من الفضل، الشَّيء الزَّائد الَّذي تقوم به مصالحك.

---

[1] سورة الأحزاب: 41-42

[2] سورة البقرة: 152

[3] سورة الأنفال: 45

[4] سورة الجمعة: 10

[5] سورة الجمعة: 10

[6] ((إذا دَخَل أَحدُكمُ المَسْجِدَ فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ افتحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضلِك)) [رواه مسلم]

[7] رواه مسلم.

والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام -كما ذكرتُ لكم في الحديث المتقدِّم- كان يذكر الله على كلِّ أحيانه حتَّى اِستدلَّ أبو حاتم الرَّازي[1] وجماعة من الأئمَّة -ولعلَّ هذا مذهب البُخاري فيما أذكر- أنَّه لا ينقطع عن الذِّكر حتَّى في الخلاء، فيرَوْنَ أنَّه يذكر الله حتَّى في داخل الخلاء ولا يَرَوْنَ أنَّه مكروه فضلًا عن أن يقولوا بأنَّه مُحرَّم؛ الشَّاهد من هذا أنَّ باب الذِّكر بابٌ واسع.

والله -جلَّ وعلا- عاب المنافقين بقلَّة بذكرهم، قال -جلَّ وعلا-:﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] أثبت لهم الذِّكر لكنَّه نفى كثرته، ولهذا النَّاظم ما قال:«اذكروا الله» ولكن قال:[وأَكْثِرْ ذِكْرَهُ] ذِكر الله -سبحانه وتعالى- بجميع أنواع الذِّكر، الذِّكر الَّذي يتواطأ فيه القلب مع اللِّسان، القلب يتفكَّر في معنى الذِّكر وسببه، واللِّسان ينطق به، هذه حقيقة الذِّكر، القلب يتفكَّر في معنى الذِّكر وفي سببه، من أين نأخذ هذا؟! الله -جلَّ وعلا- لَمَّا قال:﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[3] ماذا قال؟! ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾[4].

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ من هو هذا الرَّب الأعلى؟ ما أفعاله؟ ما أوصافه؟ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾، وإذا نظرتَ إلى النُّصوص الواردة في الذِّكر تجدها أيضًا في كثير من المواضع يقع فيها تعليل الذِّكر:﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[5] ما

---

[1] يُشِير الشَّيْخ حَفِظَه الله إِلَى قَوْل أبِي حَاتِم الرَّازِي رَحِمَهُ الله: (الَّذي أَرَى أَنْ يُذْكر اللهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، عَلَى الكَنِيفِ وغيره، عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ) اهـ. ["العلل لابن أبي حاتم" الجزء الأول، ص:202]، وقوله: (عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ) أي: قول عائشة رضي الله عنها: (كَانَ النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ)، وقوله: (الكنيف) أي: الخلاء.

[2] سورة النساء: 142

[3] سورة الأعلى: 1

[4] سورة الأعلى: 2-5

[5] سورة الروم: 17

علاقة هذا؟ ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ﴾ بماذا يكون مَمْساكم؟ ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1] ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ فكلُّ هذا ممَّا يستحضره العبد في ذكره لله -تبارك وتعالى-، يعني يتأمَّل في هذه الألفاظ الَّتي يقولُها، ما معنى «لَا حول ولَا قُوَّة إلَّا بالله»؟ ما معنى «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»؟ ما معنى «سُبحَان الله»؟ ما معنى «الحمْدُ لله»؟ إلى غيرها من هذه المعاني الَّتي يتطلَّبها المسلم في هذا.

هنا يقُول:

وَأَكثِر ذِكرَهُ فـي الأَرضِ دَأبًا   لِتُذكَرَ فـي السَّماءِ إذا ذَكَرتا

[لتُذْكَر] ذَكر لنا فضيلةً من فضائل الذِّكر وهي من أعظمها، بل هي أعظمها على الإطلاق وهي أنَّك إذا ذكرت الله -جلَّ وعلا- علمتَ أنَّ الله -سبحانه وتعالى- ذكرك ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[2].

لِتُذكَرَ فـي السَّماءِ إذا ذَكَرتا

ثمَّ قال:[وَلَا تَقُل الصِّبَا] رجع الآن إلى مُخاطبة أبي بكر مخاطبةً صريحة، وبدأ في العتاب؛ فرقٌ بين ما يذكره النَّاظم -رحمه الله تعالى- من جهة مُطلق التَّوجيه مثلما قال:

وَأَكثِر ذِكرَهُ فـي الأَرضِ دَأبًا

---

[1] سورة الأنبياء: 42

[2] سورة البقرة: 152

وبين ما يُقرِّره في باب العتاب.

يُوجِّه إليه العتاب بالخطاب يقول:[وَلَا تَقُل] هذا نهي ولذلك جزم الفعل بعده، لا تَقل أنتَ أيُّها المنصوح الَّذي كُنِّي عنك بأبي بكر -وكلَّنا ذلكَ الْمُخاطَب-:

وَلا تَقُل الصِّبا فيهِ اِمْتِهَالٌ   وَفكِّر كَم صَغيرٍ قَد دَفَنتا

لا تقل إنَّ الصِّبا وفترة الشَّباب والفُتُوَّة فيها اِمتهال وفيها تُؤَدة وفيها فُرصة وفيها مجالٌ وفيها فُسحة، ويُخاطب الإنسان نفسه بالتَّسويف وأنَّه مازال في العُمر بقيَّة ومازال هناك مجال ومازالت هناك فُسحة ومازال هنا براحٌ في الأمر؛ وإنَّما يقطع هذه الوسوسة وهذه الهلوسة وهذا التَّسويف بمُقتضى العمل.

وَلا تَقُل الصِّبا فيــهِ اِمْتِهَالٌ

وتؤدة، [وَفَكِّرْ] وأنتَ على هذا الحال الَّذي تقول فيه بأنَّ الصِّبا فيه اِمتهال: [كَمْ صَغِيرٍ] و«كَمْ» هنا في كتب اللُّغة لَها معنيان، وعند النَّحويين لها عملان.

_ معناها الأوَّل: في اللُّغة الاِستفهام، وضابطها أنَّه إذا اِنتصب ما بعدها فهي اِستفهام «كم كتابًا قرأتَ؟».

_ والمعنى الثَّاني: التَّكثير، إرادة الكثرة -تكثير الشَّيء-، وضابطها أن يأتي ما بعدها مجرورًا، والغالب في كلام العرب أنَّها يتبعها «مِنْ» كما في قوله تعالى:﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾[1].

وهنا في قول النَّاظم:[كَمْ صَغِيرٍ] تُستخدم في التَّكثير مع «مِنْ» أو بدونها، فيُراد بها الكثرة، يعني هنا عندما قال الله -جلَّ وعلا-:﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ ليس هذا أسلوب اِستفهام لا تقريري اِستنكاري ولا اِستفهام على ظاهره، وإنَّما المُراد بها الإخبار، فإذا جرَّت فهي خبرية -فإذا جرَّت فهي من باب الخبر- ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ أي كثرة في العدد، وهنا يقول:[كَمْ صَغِيرٍ] كم الصِّغار الَّذين دفنتم وشاركتَ في دفنهم؟ كثير.

---

[1] سورة النَّجم: 26

والشَّباب هو مرحلة الحياة بل هو لُبُّها وروحها ومدار حياة الإنسان عليها، ولهذا قال بعض السَّلف: (التَّعلُّمُ فِي الصِّغَر كَالنَّقْش فِي الْحَجَرِ)[1] كما جاء عن الحسن -رحمه الله تعالى- وعن غيره، والله -جلَّ وعلا- ذكر لنا في قصَّة إبراهيم أنَّه كان فتى:﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[2]، وكذلك قال الله -سبحانه وتعالى- عن يحي عليه السَّلام:﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[3]، كذلك لَمَّا ذكر الله -سبحانه وتعالى- أصحاب الكهف قال:﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[4]، وغالب أصحاب النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام الَّذين آمنوا به في أوَّل الإسلام كانوا من الشَّبَبَة ولَم يُقاربه في العمر إلَّا أمثال أبي بكر وأمثال عثمان رضي الله عنهم وأرضاهم جميعًا؛ فالشَّباب هو روح الإنسان، يعني هو روح حياة الإنسان، محطَّة الجدِّ والاجتهاد، ولهذا النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام كما في الصَّحيحين لَمَّا ذكر السَّبعة الَّذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه، قال: ((**وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**))[5] وجاء في مستدرك الحاكم وغيره في حديث ابن عباس وجاء أيضًا من حديث عمرو بن ميمون رضي الله عنهم جميعًا أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**اِغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ**)) وكلُّ واحدةٍ من هذه الخمس يُقابلها وينقضها آخر: ((**حياتَك قبلَ موتِك، وصِحَّتك قبلَ سَقَمِك وفراغَك قبلَ شُغلِك...**)) ((**وغِنَاك قَبْلَ فَقْرِكَ**)) وماذا بقي؟! ((**وَشَبَابَك قَبْلَ هَرَمِكَ**))[6] لماذا خصَّ

---

[1] "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي؛ الجزء الثاني، ص:181؛ عن الحسن البصري رحمه الله.

[2] سورة الأنبياء: 60

[3] سورة مريم: 12

[4] سورة الكهف: 13

[5] ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)) [متفق عليه؛ واللفظ للبخاري]

[6] ((اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبلَ مَوْتِك، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِك، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِك، وَشَبابَك قَبْلَ هَرَمِك، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ)) [صحَّحه الألباني في "صحيح الجامع"]

الشَّباب من العمر مع أنَّه فرد من أفراده وجُزء من أجزائِه -لأنَّه قال: ((**حَياتَك قبلَ مَوتِك**)) والشَّباب من الحياة-؟! لأهمِّيته، ولهذا جاء أيضًا في حديث اِبن مسعود وحديث أبي برزة الأسلمي عند أبي داود وغيره أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**لَا تَزُول قَدَما عبدٍ يومَ القِيامةِ حتى يُسْأَلَ عن أَرْبَعٍ...**)) إلى أن قال: ((**وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ**))[1]، وجاء في صحيح البخاري في حديث ابن عبَّاس أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**نِعْمَتَانِ مَغْبونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ**))[2] وقَلَّ أن يجتمع هذان الأمران في غير الشَّباب، الأصل أن تجتمع الصِّحَّة والفراغ مع الشَّباب وقلَّ أن يجتمعا مع غير الشَّباب، فقد يأتي الفراغ في حال الكِبَر أو تجاوز مرحلة الشَّباب وقد لا يأتي، لأنَّ الإنسان إذا كان مشغولًا -وهو في حال شبابه- بنفسه وبمصالحها فكيف إذا اِرتبط بآخرين فدخل في حياته الزَّوجة ثمَّ جاء الأولاد وجاءت العَيْلَة والحاجات الأُخرى! لاشكَّ أنَّه كما قيل -وهذا ليس حال كلِّ النَّاس-:

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ حَتَّى يرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

الشَّاهد من هذا أنَّه قلَّ أن يجتمع الصِّحة والفراغ في غير زمن الشَّباب، ولهذا قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**نِعْمَتَانِ مَغْبونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ**))[3]:

_ مغبون فيهما في حال الدُّنيا إذا كبِر وتجاوز مرحلة الشَّباب واِنشغل بكثير من الأمور يبدأ يشعر بالغبن وهو زوال الخير وزوال المصلحة.

_ وأيضًا اِحتمال آخر أنَّه مغبون فيهما في حال الآخرة إذا لقيَ الله -سبحانه وتعالى- فقال:﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[1].

---

[1] قال الألباني رحمه الله في "تخريج مشكاة المصابيح": صحيح لغيره.

[2] رواه البخاري

[3] رواه البخاري.

وَلا تَقُل الصِّبا فيـــهِ اِمْتِهَـالٌ

[وَفَكِّر] أيُّها العاقل -ولا يتفكَّر إلَّا العاقل- [كَـمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا].

إنَّ الشَّبابَ والْفَرَاغَ وَالْجِدَة مَفْسدَةٌ لِلْمَـرْءِ أَيَّ مَفْسَدَة[2]

ولهذا الشَّباب هو الَّذي فيه النَّهمة والقوَّة والقُدرة على الحفـظ والجـلد على البحـث وعلى الدِّراسة؛ وما حصَّله المرء في حال شبابه هو المحصَّل الحقيقي.

وَلا تَقُل الصِّبا فيهِ اِمْتِهَالٌ وَفَكِّر كَم صَغيرٍ قَد دَفَنتا

[وَقُلْ] وهنا يقول النَّاظم -رحمه الله-:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى بنُصْحِكَ لَوْ **لِفِعْلِكَ** قَدْ نَظَرْتَا

وفي نسخة: [لَوْ **بِعَقْلِكَ** قَدْ نَظَرْتَا].

[وَقُلْ] أَنت يا أبا بكـر أو يا أيُّها المنصُوح، [قُل يا نَاصِحِي] يا من تتوَّجه إليَّ بالنُّصح الَّذي هو إخلاص القول أو تخليصه من الشَّوائب.

[قُلْ يَا نَاصِحِي] مـن توجَّهـتَ إليَّ بالنَّصـيحة [بَـلْ أَنْـتَ أَوْلَى] وتقـدَّم الـكلام على النَّصيحة وفضلها وأهميَّتها وأنَّ الله -سبحانه وتعالى- قال:﴿إِذَانَصَحُواْلِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ

---

[1] سورة الفجر: 24

[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي، الجزء العاشر، ص:196؛ عن أبي العتاهية:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَةَ مَفْسَـــدَةٌ لِلْمَـــرْءِ أَيُّ مَفْسَـــدَهْ
حَسْبُـــكَ مِمَّا تَبْتَغِيه الْقُوتُ مَـــا أَكْثَرَ الْقُـــوتَ لِمَنْ يَمُوتُ
هِـــيَ الْمَقَادِيرُ فَلُمْنِي أَوْ فَذَرْ إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَا الْقَدَرْ

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[1]، قال النّبي عليه الصَّلاة والسَّلام كما في صحيح مسلم من حديث أبي رُقيَّة تميم بن أوس الدَّاري رضي الله عنه: ((**الدِّينُ النَّصِيحَةُ؛ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ ولِكِتَابِهِ ولرسُولهِ وَلِأئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وعَامَّتِهِمْ**))[2]، ومن محاسن المنقول من ألفاظ السَّلف قول أحد السَّلف: (مَنْ نَاصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ، وَمَنْ دَاهَنَكَ فَقَدْ غَشَّك) الَّذي يُماشيك على المداهنة: يرى الخطأ، يرى الاِنحراف، يرى الضَّياع فلا يُحرِّك ساكنًا في نُصحك، هذا من الغشِّ في الصُّحبة؛ والمداهنة نوعٌ من الغشِّ، ومن ناصحك وواجهك بالنَّصيحة -والبيت هذا تقريبًا قد شُرح عند قول النَّاظم-:

فَقابِل بِالقَبولِ لِنُصْحِ قَوْلِي ... فَإِن أَعرَضتَ عَنهُ فَقَد خَسِرتا

هناك ذكرنا ما يتعلَّق بالنَّصيحة وبآدابها أو بعض آدابها لأنَّ الكلام فيها كثير عند أهل العلم -رحمهم الله-.

وهنا يقول:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلى

هو يُريد أن يوصل له نوعًا من الاِعتذار غير المباشر، ويريد أن يُبرِّئ نفسه من أنَّه وإنْ نصح فإنَّه لم يدَّع لنفسه الكمال.

وليس من شرط النَّاصح أن يكون كاملًا، بل قد نصَّ طوائف من أهل العلم في المذاهب الأربعة بأنَّ أهل المنكر الَّذين يفعلونه يجب عليهم أن يُنكر بعضهم على بعض، وكما جاء عن مالك رحمه الله -بمعنى قوله- أنَّه لو لَم يَنصح إلَّا

[1] سورة التوبة: 91
[2] رواه مسلم.

معصوم -أَو غَير عاصٍ- ما نَصَح أَحد -أو بهـذا المعـنى-[1]؛ فالنَّصـيحة مـن أعظـم كمالات الدِّيـن، بـل حصر النَّـبي عليـه الصَّـلاة والسَّـلام الدِّيـن فيهـا: **((الدِّيـنُ النَّصِيحَةُ))**[2].

وهُـو يقُـول:

وَقُـلْ: يَا نَاصِحِي بَـلْ أَنْتَ أَوْلَى

[بِنُصْحِكَ لَوْ بِعَقْلِكَ] أو [لِفِعْلِكَ] في النُّسخة الثَّانية.

بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

تُقَطِّعُني عَلى التَّفريـطِ لَومًا   وَبِالتَّفريطِ دَهْرَكَ قَد قَطَعْتَا

سنقف على هذا البيت أحسن؛ ووفَّق الله الجميع لما يحب ويـرضى، وصـلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[1] قَالَ مَالِك عَنْ رَبِيعَةَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ لَهُ: (لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ، مَـا أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ) **قَالَ مَالِكٌ**: (وَصَدَقَ، مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؟) اهـ["تفسير ابن كثير" رحمـه الله؛ الجـزء الأول، ص:247]

[2] رواه مسلم

الدَّرس التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس التَّاسع عشر من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري -رحمنا الله وإيَّاه-، والَّذي ينعقد على غُرفة الإمام ابن أبي زيدٍ القيرواني -رحمه الله تعالى-.

وقد اِنتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أوْلَى ... بنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

ووقع في نُسخة: [لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا].

[وَقُلْ يَا نَاصِحِي] أنتَ أيُّها النَّاصح الَّذي توجَّهتَ إليَّ بالنَّصيحة.

[بَلْ] وهذا حرف إضراب للاِنتقال وليس للإلغاء لأنَّه أراد أنَّ نُصحه حقٌّ ولكنَّه يُضرب عن هذا إلى أن يتوجَّه هو إلى نفسه بالنَّصيحة.

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أوْلَى

أحقُّ بنُصحك الَّذي توجَّهت به إليَّ [لَوْ لِفِعْلِكَ] الَّذي أنتَ تفعله من جهة التَّقصير أو من جهة التَّفريط.

أو على النُّسخة الأخرى: [لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا] أي تدبَّرت فيما تقوله.

بِنُصْحِك لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

وهذا البيت يُعتبر من أهمِّ أبيات تائية الألبيري؛ لِمَ؟ لأنَّه دخلت الشُّبهة على كثير من النَّاس الَّذين يأمرون بالمعروف ويَنهون عن المنكر أنَّهم إذا أَمـرُوا بـالمعروف أو نَهوا عن المنكر ولَم يأتُوا ما أَمَروا به ولم ينتهوا عمَّا نَهَوْا النَّاس عنه فإنَّهم يتركـون هذا الأمر ويتركون هذا النَّهي، وهذه شُبهة -كما صرَّح بعض الأئمة- شيطانية؛ لِمَ؟ لأنَّ الشَّيطان إنَّما يريد مِن النَّاس أن يتركوا الأمر بالمعروف والنَّهي عـن المنكـر، فإذا وقع لهم ذلك وقعت الفحشاء ووقع المنكرات وضُيِّعت الأوامر والواجبات.

_ السَّلف كانوا يستعملون مثل هذا الأُسـلوب تواضـعًا لله -سُـبحانه وتعـالى- مهما بلغت أعمالهم.

_ وأيضًا يستعملونه اِعترافًا بحقيقة الأمر ليس فقـط مـن بـاب التَّواضـع بـل يفعلونه اِعترافًا بحقيقة الأمر لأنَّ العبد مهما عمل من الأعمال فإنَّه لن يقوم بحـقِّ الله -سبحانه وتعالى- الَّذي أمر به، لن يقوم بما أمـر الله -جَّـل وعـلا- بـه، ولـن يتمكن من أن ينتهي ممَّا نهى الله -سبحانه وتعالى- عنه.

جاء عن كثير من السَّلف -وسنرجع إلى جواب هذه الشُّبهة بعـد أن نُبـيِّن مقصـود الألبيري رحمه الله تعالى-، ذكرتُ لكم أنَّ السَّلف يقولون الكثير من العبارات في هذا الباب:

_ اِعترافًا بأنَّهم لن يقوموا بحقّ الله -جلَّ وعلا- على الوجه الكامل التَّام.

_ ومن جهة أُخرى: أنَّهم يستعملون مثل هذه الألفاظ ليُبرِّروا أنَّ النَّاس إذا لَم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ضاعت الشَّرائع، وهذا الفهم مُهمٌّ جدًّا ولهذا نصَّ كثيرٌ من الأئمَّة -كما نستقبل- على أنَّ الفاعلين للمنكر في حال فعله يجب عليهم أن يتناهوا عنه، بل بعضهم مثَّل بشرب الخمر: بأنَّهم إذا اِجتمعوا على شرب فإنَّهم لابدَّ وأن يتناهوْا عن هذا الشّرب الَّذي هم فيه[1].

وهنا الألبيري -رحمه الله- يقول:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أوْلَى   بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

السَّلف كانوا ينظرون إلى هضم النَّفس، لأنَّ من عرف خالقه -جلَّ وعلا- على الحقيقة عرف أنَّه لَم يُؤدِّ ما أُمر به ولم يجتنب ما نَهى الله -سبحانه وتعالى- عنه.

لهذا إذا تأمَّلت في الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام كيف كانوا يتخاطبون مع الرَّب -جلَّ وعلا-:﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾[2]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3]، وكذلك نوح عليه الصَّلاة

[1] قال القُرطبي رحمه الله: (قَالَ بَعْضُ الْأُصُولِيِّينَ: فرض عَلَى الَّذِينَ يَتَعَاطَوْنَ الْكُؤُوسَ أَنْ يَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ، قَالُوا: لِأَنَّ قَوْلَهُ:﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ يَقْتَضِي اشْتِرَاكَهُمْ فِي الْفِعْلِ وَذَمَّهُمْ عَلَى تَرْكِ التَّنَاهِي) ["الجامع لأحكام القرآن" الجزء السادس، ص:188]

[2] القصص: 16

[3] الأعراف: 23

والسَّلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]، وهذا كثير لمن تأمَّل قصص الأنبياء كيف يتخاطبون مع الرَّب -جلَّ وعلا-.

أبو بكر الصِّديق -وهذا قد ذكرناه من قبل لأنَّ بعض الأبيات بعضها مع بعضٍ مُتشابهٌ، متناسبٌ، السِّياق الَّذي يذكره الألبيري رحمه الله فيه نوعٌ من التَّشابه-؛ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام لمَّا جاءه أبو بكر رضي الله عنه -كما في الصَّحيحين في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص- وطلب منه أن يُعلِّمه دعاءً يدعو به في صلَاته فقال: ((**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظلَمتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنْتَ**))[2].

((**ظُلمًا كثِيرًا**)) : المعلِّم هو النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، وهو يعرف منزلة الصِّديق الأكبر رضي الله عنه وأرضاه ويُعلِّمه هذا اللَّفظ، فكيف يكون حال غيره؟!

((**ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أنْتَ، فَاغْفِرِ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي**))[3].

((**مِنْ عِنْدِك**)) : بمعنى أنَّ هذه المغفرة الَّتي من أسبابها الذُّنوب الَّتي أنا فيها قد لا أكون أهلًا لها ولا أستحقُّها ولكنَّها فضلٌ من عندك، فهذا ما علَّمه النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام لأبي بكر رضي الله عنه وأرضاه.

إبراهيم التَّيمي -رحمه الله- كما ذكر البُخاري رحمه الله، -نأتي بالباب لأنَّه بابٌ جليلٌ من أبواب صحيح الإمام البُخاري رحمه الله-: في كتاب الإيمان بوَّب البخاري -رحمنا الله وإيَّاه- بقوله: (بَابٌ: خَوْف الْمُؤْمِن أنْ يَحْبَط عَمَلُه وَهُوَ لَا يَشْعُر، وَقَال إِبْرَاهِيم التَّيمِي: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إلَّا خَشِيتُ أنْ أَكُون

---

[1] سورة هود: 47

[2] متَّفق عليه.

[3] متفق عليه.

مُكَذِّبًا) أو قال: (مُكَذَّبًا) -ضُبطت على الوجهين-، (وقَال اِبْن أَبِي مُلَيْكَة: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي هَذَا الْمَسْجِد كُلُّهم كَانَ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِه؛ وَقَالَ الْحَسَن: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِق)[1].

اِنتبه إلى قول إبراهيم التَّيمي، يقول: (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي) يقول: نحن نتكلَّم ونقول ونعِظ وندعو ونأمر وننهى، (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا) أو قال: (مُكَذَّبًا):

_ «مكذِّبا»: على صغة الفاعل «أنا أنَّني مُكذِّب».

_ أو «مكذَّبا»: على صغة المفعول، بمعنى أنَّه مكذَّب من جهة الرَّب -سُبحانه وتعالى-.

وكذلك جاء عن بعض السَّلف -رحمهم الله- أنَّه كان يقول: (أَعْرَبْنَا فِي الْقَوْلِ وَلَحَنا فِي الْعَمَلَ)[2]، وهذا إذا نظرت في تراجم الأئمَّة وفي كتب الزُّهد تجد الكثير منه أكان ذلك في باب العمل أو في باب العِلم حتَّى قال إبراهيم بن يزيد النّخعي -رحمه الله- كما ذكر الخطَّابي البستي في كتاب «العزلة»[3] وذكر هذا أيضًا الإمام الآجري -رحمه الله تعالى- في كتابه «أخلاق العلماء»، أنَّ إبراهيم -رحمه الله تعالى- كان يقول -وهو يذكر المكانة الَّتي تبوَّأها وأنزله النَّاس فيها وهو أنَّه كان يُلقَّب بـ «فقيه أهل الكوفة» وهو كذلك؛ هو من أصحاب ابن مسعود ليس له لقاءٌ بابن مسعود ولم يَرْوِ

---

[1] صحيح البخاري.

[2] "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر رحمه الله، الجزء السادس، ص:313؛ عن إبراهيم بن أدهم أنَّه قال: (أَعْرَبْنَا فِي الْكَلامِ فَمَا نَلْحَنُ، وَلَحَنَّا فِي الأَعْمَالِ فَمَا نُعْرِبُ).

[3] عَن سُفْيَانَ الثَّورِيِّ، عَن أَبِيهِ قَالَ: (أَتَيْتُ إِبْرَاهِيمَ النَّخعِيَّ فِي شَيْءٍ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَحَدٌ يَشْفيكَ مِنْ هَذَا، احْتِيجَ إِلَيَّ احْتِيجَ إِلَيَّ؛ إِنَّ دَهْرًا صِرْتُ فِيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَدَهْرُ سُوءٍ) ["العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:70]

عنه، وإنَّما يُقال هو من أصحاب ابن مسعود بِاعتبار أنَّه تفقَّه على مذهبه وعلى قوله في الكوفة-، كان يقول: (وَإِنَّ زَمَانًا أَكُونُ فيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الكُوفَة لَزَمَان سُوءٍ)[1].

وإذا نظرتَ في كلامهم في الإخلاص لمَّا قال هشام الدّستوائي -رحمه الله-: (وَاللَّهِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: إِنِّي ذَهَبْتُ يَوْمًا قَطُّ أَطْلُبُ الْحَدِيثَ أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-)[2]، قال الذَّهبي: (قُلْتُ: وَاللَّهِ وَلَا أَنَا)[3].
أحمد رحمه الله -وهذا الأثر مرَّ معكم من قبل- لمَّا قيل له: (هَذَا الْعِلْمُ تَعَلَّمْتَهُ لِلَّهِ؟) فقال: (هَذَا شَرْطٌ شَدِيدٌ، وَلَكِنْ حُبِّبَ إِلَيَّ شَيْءٌ فَجَمَعْتُهُ)[4].

ما كانوا يُنزلون أنفسهم منزلة هم لا يعلمون عن الله -سبحانه وتعالى- ما أنزلهم فيها، ولهذا جاء في خُطبة عُتبة بن غزوان رضي الله عنه -وهي خُطبة جليلة القدر خرَّجها مسلم في صحيحه-، لمَّا مات المغيرة بن شعبة خَطب النَّاس فذكر لهم حال الدُّنيا، وما هم فيه، والنِّعم الَّتي هم فيها، وما بقيَ من أمر الدُّنيا وما يؤولون إليه من أمر الآخرة[5]، ثمَّ ختم خطبته بقوله: (وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا)[6] هذا في صحيح مسلم، وهم الصَّحابة رضيَ الله عنهم، وهذا عُتبة بن غزوان.

[1] "سنن الدارمي" ص:182.

[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء السابع، ص:152

[3] "سير أعلام النبلاء" الجزء السابع، ص:152

[4] "البداية والنهاية" لابن كثير رحمه الله؛ الجزء:14، ص:393

[5] عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ، قَالَ: خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، «فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَوَاللَّهِ لَتُمْلَأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ؟ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا، وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا، فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الْأُمَرَاءَ بَعْدَنَا» [رواه مسلم]

[6] رواه مسلم.

فالألبيري -رحمه الله- يقول مُخاطبًا لِمن نَصَحه -النَّاصح هو الألبيري-، يقول له:[قُلْ] ولو قُلتَ لصدقتَ.

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى

[بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ] أو [بِعَقْلِكَ قدْ نَظَرْتَا].

ولهذا الألبيري -رحمه الله- في الأبيات الَّتي سنستقبلها يرجع إلى هذا الكلام؛ فيقول:

أَبا بَكرٍ كَشَفتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكثَرَهُ وَمُعظَمَهُ سَتَرتا

فَقُل ما شِئتَ فِيَّ مِنَ المَخَازِي ... وَضاعِفها فَإِنَّكَ قَد صَدَقتا

وَمَهْمَا عِبتَني فَلِفَرطِ عِلْمي ... بباطِنِه كَأَنَّكَ قَد مَدَحْتا

سيأتي معنا فيما يُستقبل من قوله -رحمه الله تعالى-.

وهُنا يقُول:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى

الشُّبهة الَّتي عَرَضت لكثير من النَّاس ويتراسلها طُلَّاب العلم هي شُبهة شيطانية حقيقة، وهي أنَّهم يقولون: «نحن عندنا تقصير فكيف نأمر؟ وكيف ننهى؟»، ولهذا من الكلمات المشهور العظيمة للحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- أنَّه كان يقول -عليه رحمة الله-: (لَوْ لَمْ يَعِظْ إِلَّا مَعْصُومٌ مِنَ الزَّلَل لَمْ يَعِظْ النَّاسَ بعْدَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم أَحَد)[1] وهذا قاله في «لطائف المعارف»، وذكر قول الله -

[1] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:55

سبحانه وتعالى- إخبارًا عن شُعيب عليه السَّلام أنَّه قال:﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾[1].

فإذا تأمَّلت في مثل هذا الأمر: لا تنس المنزلة الَّتي هي أعلى من هـذا؛ لـيس معنـى هذا أنَّ الإنسان يُفرِّط في المأمور ويرتكب المنهي ثمَّ يقول: «أنا سآمر وسأنهى لأنِّي لستُ بمعصوم» لا؛ هذا المدخل أيضًا شيطانيٌّ، لهذا جاء في الصَّحيحين في حـديث أُسامة بن زيد -وقد مرَّ معنا-: ((**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّـارِ، فَتَنْـدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُـونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْـتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**))[2]، هذا بابٌ وهذا بابٌ، حيث لا يستطيع الإنسان أن يأتيَ بمراتب الكمال فإنَّه لا يزيد النَّقص نقصًا لـترك ما أُمر به من الأمر والنَّهي؛ نعم قال الأوَّل -أو قال بعضهم-:

مَوَاعِظُ الوَاعِظِ لَنْ تُقبَلا حتَّى يَعِيها قَـلبُــه أوَّلا

يا قومِ مَن أظْلمُ مِن وَاعِظٍ خَـالَفَ مَا قَدْ قَالَهُ فِي المَلا

أظْهرَ بَيْنَ النَّـاس إحْسَانَه وبَـارَزَ الرَّحْمَـنَ لَمَّـا خَـلا[3]

اِنتبه إلى أنَّ هذا بابٌ وهذا بابٌ آخر، ولهذا ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى - كما قلتُ لكم هذه الكلمة- قال: (لَوْ لَمْ يَعِظْ إِلَّا مَعْصُومٌ مِنَ الزَّلَلِ لَمْ يَعِظِ النَّـاسَ بعْدَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم أَحَد لأنَّه لَا عِصْمَةَ لِأَحَدٍ بَعْدَه.

لَئِنْ لَمْ يَعِظ العَاصِينَ مَنْ هُوَ مُذْنِب فَمَنْ يَعِظُ الْعَاصِينَ بَعْدَ مُحَمَّد[4]

---

[1] سورة هود: 88

[2] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

[3] قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (كَانَ يَحيى بنُ مُعَاذ يُنشدُ في مَجَالِسه...) -ثمَّ ذكر الأبيات- ["لطائف المعارف" لابن رجـب الحنبلـي رحمه الله؛ ص:53]

[4] ذكره الحافظ ابن رجب في كتابه "لطائف المعارف"، ص:55.

ثمَّ ذكر ما رواه ابن أبي الدُّنيا وقال[1]: (وَفِيهِ ضعْفٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَـنِ النَّـبِيِّ عَلَيْـهِ الصَّلَاةُ والسَّلامُ قال: «**مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وإنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كلّه، وإنْهوا عَنِ الْمُنكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنتَهوا عَنْهُ كلّه**»)[2] وهذا الحديث ضعيف كما نبَّه عليه الحافظ ابن رجب -رحمه الله-، وقيل للحسن: (إنَّ فُلَانًا لَا يَعِظ وَيَقُولُ: أَخَافُ أنْ أَقُولَ مَا لَا أفْعَـل) فقـال الحسن: (وأَيُّنَا يفْعَل مَا يَقُول؟ وَدَّ الشَّيطَانُ أَنَّه ظَفِرَ بِهَذَا فَلَمْ يَـأْمُر أَحَـدٌ بِمَعْـرُوفٍ وَلَمْ ينْهَ عَنْ مُنْكر)[3] هذا الَّذي قلتُ لكم بأنَّ بعض الأئمَّة كان يقول بأنَّهـا شُـبهة شيطانية، يُريد الشَّيطان هذا، قال[4]: (وَقَال مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَة، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْر: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ، مَا أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ) قال مالك مُعلِّقًا على قول شيخه: (وَصَدَق، ومَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؟

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَط   وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَط؟!)[5]

خطب عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يومًا فقـال في موعظتـه: (إنِّي لَأَقُـول هَـذِهِ الْمَقالَة ومَا أعْلَمُ عنْدَ أَحَدٍ مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْلَمُ عِنْدِي؛ فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْه)[6] وكتب إلى بعض نُوابه على بعض الأمصار كتابًا يعظه فيه وقال في آخره: (وإنِّي لَأَعِظُكَ بِهَذَا وَإِنِّي لَكَثِيرُ الإسْرَافِ عَلَى نَفْسِي غَيْرُ مُحْكِمٍ لِكَثِيرٍ مِنْ أَمْرِي، وَلَوْ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَعِظ أَخَاهُ حتَّى يحْكِم نَفْسهُ إِذًا لَتَوَاكَلَ الْخَيْرُ، وَإِذًا لَرُفِعَ الأَمْـرُ بـالْمَعْرُوفِ وَالنَّهيُ عَـنِ الْمُنْكـرِ، وَإِذًا لَاسْتُحِلَّت الْمَحَـارِم، وَقَـلَّ الْوَاعِظُـونَ والسَّـاعُونَ للهِ بالنَّصِيحَة فِي الأَرْضِ، والشَّيْطَانُ وأَعْوَانُه يَوَدُّون أَنْ لَا يَأْمُرَ أَحدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَى عَنْ مُنْكرٍ، وإِذَا أَمَرَهُمْ أَحَدٌ أَوْ نَهَاهُمْ عَابُوهُ بِمَا فِيهِ وَبِمَا لَيْسَ فِيهِ كَمَا قِيلَ:

[1] أي الحافظ ابن رجب رحمه الله.

[2] قال ابن رجب رحمه الله: (إسناده فيه ضعف) اهـ ["لطائف المعارف"؛ ص:55]

[3] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:55

[4] أي الحافظ ابن رجب رحمه الله في "لطائف المعارف"

[5] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:55

[6] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:55

وَأُعْلِنَت الْفَوَاحِشُ فِي البَوَادِي ... وَصَـارَ النَّـاس أَعْوَانَ الْمُرِيبِ
إِذَا مَـا عِبْتهُـمْ عَابُـوا مَقَالِـي ... لِمَا فِي الْقَوْمِ منْ تِلْكَ الْعُيُوبِ[1]

وهذا ذكر غيره أيضًا الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في هذا الكتاب «لطـائف المعارف» ممَّا يدلُّ على عناية الأئمَّة -رحمهم الله- بهذا الموضع، وأنَّها شُبهةٌ خطيرةٌ.

فالنَّاظم -رحمه الله- هنا يقُـول:

وَقُـلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى

أنا وإن نصحْتُكَ وإن وعَظتُكَ وإن كلَّمتُك وإن أَمرتُك وإن نهيتك فليس معنى هذا أنَّني لا أحتاج إلى من ينصحني ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾[2].
ولازال النَّاس يتعلَّم بعضهم من بعضهم ويعظ بعضهم بعضًا ويُذكِّر بعضهم بعضًا.

وفي منزلة «التَّذكر» للحافظ ابن القيِّم -رحمـه الله- مـن كتابـه «مـدارج السَّالكين» كلام مُهمٌّ في هذا الموضع يطول المقام بذكرِ كثيرٍ منه، في قضية الإنتفاع بالذِّكرى: متى تنتفع بها؟ ومتى ينتفع بها الإنسان؟ وذكر من ضمن هذا: (الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ)[3] لِمَ؟ لأنَّك إذا كان نظرك مُسلَّطًا على من يعظـك فلابُـدَّ وأن تظهـر العيوب، ولهذا كان ذكر ابن جماعة في كتابه «تذكرة السَّامع والمتكلِّم في آداب العالِم

[1] نفس المصدر السابق: "لطائف المعارف".
[2] سورة يوسف: 76
[3] قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: شِدَّةِ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيـدِ) إلى أن قال: (وَأَمَّا الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ فَإِنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ حُرِمَ الِانْتِفَاعَ بِمَوْعِظَتِهِ، لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِكَلَامِ مَنْ لَا يَعْمَـلُ بِعَمَلِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ) وأضاف: (فَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ مِنْ شُرُوطِ تَمَامِ الِانْتِفَاعِ بِمَوْعِظَتِهِ) ["مدارج السالكين"، ص: 446؛ باختصار].

والمتعلِّم» أنَّ بعض السَّلف كان يخرج إلى العلم لحضور مجالس شيخه ويقول: (اللَّهُمَّ اسْتُر عَيْبَ شَيْخِي عَنِّي)[1] انظر إلى هذه المنزلة، يعني هذا الأدب، وهذا المقام العالي، الطَّالب إذا جاء جالسًا بين يدي شيخه فإنَّه مُعتقدٌ فيه النَّفع، مُعتقد فيه أنَّه ينتفع به، فإذا نظر إلى معايبه حيل بينه وبين هذا النَّفع، هذه المداخل طالبُ العلم لو أخذ يتكلَّم فيها وينظر فيها سيجد أنَّ فساد كثيرٍ من النَّاس يأتي من قبل أنفسهم.

لَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ   مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نفْسِهِ

إحسان التَّصرف مع الأُمور، تنزيلُ الأمور في منازلها من أجلِّ ما جاءت به الشَّريعة في تفقيهِ النُّفوس: كيف تُفقِّه نفسك في هذا الأمر؟ كيف تنظر إلى هذه الأمور وإلى هذه المسائل؟

هنا يقول النَّاظم -رحمه الله-:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى

[أَوْلَى] أحرى وأحق، [بِنُصْحِكَ] الَّذي أنتَ تَنصح به وما اِبتدأت به من الكلام يا [أَبا بَكرٍ دَعوتُكَ لَو أَجبتا] وما ستنتهي به من المقال [لَو بِعقْلِكَ] أو [لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا] لِم؟ قال:

تُقَطِّعُني عَلَى التَّفريطِ لَومًا   وَبِالتَّفريطِ دَهرَكَ قَد قَطَعتا!

الواعظُ كبيرٌ مُتقدِّم، والموعوظ في النَّشأة والشَّباب.

---

[1] "تذكرة السَّامع والمتكلِّم" لابن جماعة رحمه الله؛ ص: 98.

[تُقَطِّعُنِي] تُوبِّخني، [تُقَطِّعُنِي] تعييرًا وتعييبًا [عَلَى التَّفْرِيطِ] على ما فرَّطتُ في شبابي وفي ريعانه، [عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْمًا] بأن تلومني.

وَبِالتَّفرِيطِ دَهرَكَ قَد قَطَعتا

قد قطعتَ الدَّهر بتفريطك، هذا ليس فيه إنكار من الألبيري، يعني كما قلتُ لكم السَّلف كانوا ينظرون إلى المقامات، العِبادُ لهم مقامات بين الله -جلَّ وعلَا- يسَّرها الله لهم، قد لا يبلغونها:

_ إمَّا من جهة العلم.

_ وإمَّا من جهة العمل.

_ وإمَّا من جهة الشُّكر.

_ وإمَّا من جهة الصَّبر.

_ وإمَّا من جهة الاستغفار والاعتراف بالذَّنب.

خمسة أسباب قد لا يبلغ بها العبد هذه المنزلة الَّتي الله -جلَّ وعلَا- جعل عنده القدرة على فعلها، لكن لأسباب في نفسه هو لَم يبلغها، فهو يعترف بهذا المقام، يقول:

تُقَطِّعُني عَلى التَّفريطِ لَومًا

لو قام اللَّيل كلَّه وصام النَّهار كلَّه -مع أنَّ هذا ليس مطلوبًا شرعًا- وقضى عُمره في طاعة الله -سُبحانه وتعالى- ما أدَّى شُكر نعمة الله؛ والآثار في هذا كثيرة عن الأئمَّة، فهو يقول:

تُقَطِّعُني عَلى التَّفريطِ لَومًا ... وَبِالتَّفريطِ دَهرَكَ قَد قَطَعتا

وَفي صِغَري تُخَوِّفُني المَنايا ... وَما تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْثُ شِخْتا

تخوِّفني على ما هو أبعدُ في الحال منك؛ الموت لا يُفرِّق بين صغيرٍ وكبير، وأميرٍ وحقيرٍ، وغنيٍّ وفقيرٍ، ومُتقدِّمٍ ومُتأخِّر، وصحيح ومريضٍ؛ ليس هناك تفريق إذا جاء القدر، لكن هناك أشياء تُسمَّى بغلبة الظَّن، فمن تقدَّم في العمر يكون أقرب إلى

القبر وأقرب إلى الموت وأقرب إلى الخروج من الدُّنيا، ومَن كان صغيرًا أو شابًا غَلَبة الظَّنِّ أنَّه يتهيَّأ لهُ البقاء، وفي هذا وفي هذا لا يأمن الإنسان من الموت.

يقُــول:

وَفي صِغَـري تُخَوِّفُنــي المَنايــا

[الْمَنَايَا] الَّتِي هي الموت.

وَما تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْثُ شِخْتا

سنتكلَّم على قضية الإساءة في الشَّيخوخة عند قول النَّاظم -رحمه الله-:

لَيَقبُحُ بِالفَتى فِعلُ التَّصَابِي وَأَقبَحُ مِنـهُ شَيخٌ قَد تَفتَّى

وهذا من محاسن هذه المنظومة العظيمة، وقد أحسن فيها أيَّمـا إحسـان؛ وكان مـن آخر ما وقفتُ عليه من الفوائد المتعلِّقة بهذه المنظومة -لكنَّها مازالت مخطوطـة أو بعضها مفقود-:

_ أنَّ الحافظ ابن حجر أعرب ألفاظها.

_ ومنها أنَّه ذكر البقاعي أيضًا في ترجمة الألبيري هذه المنظومة وأشاد بها.

نذكر هذا عند الوقوف عليه إن شاء الله موثَّقًا.

على كلِّ حال، هنا يقول:

وَفي صِغَـري تُخَوِّفُني المَنـايَـا وَما تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْث شِختا
وَكُنتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبيلًا فَما لَكَ بَعْدَ شَيبِكَ قَد نَكَثْتا

كنتَ في حال صِباك وفي حال شبابك.

-وكما قلتُ لكـم-:

لَيَقبُـحُ بِالفَتى فِعـلُ التَّصَابي وَأَقبَح مِنــهُ شَيـخ قَـد تَفَتّى

فهناك سيأتي الكلام على هذا الموضع: على ما يقبح من الفعل في الشَّيخوخة.

وهنـا قَـال:

وَكُنتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبيلًا فَما لَكَ بَعْدَ شَيبِكَ قَد نَكَثْتا

هذا عتابٌ؛ الألبيري يفتح على المنصوحِ يقول له: لو قلـتَ هـذا القـول فأنـتَ قـد صدقت.

وَمَهمـا عِبتَني فَلِفَرطِ عِلمي بِباطِنِـه كَأَنَّكَ قَـــد مَـدَحتـا

نكتفي بهذا إن شاء الله؛ سُبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، نشـهد أن لا إله إلَّا أنـتَ، نستغفرك ونتوب إليك.

الدَّرس العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس العشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد على غُرفة الإمام ابن أبي زيدٍ القيرواني -رحمه الله-.

وانتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم -رحمه الله-:

وَكُنتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبيلًا فَما لَكَ بَعْدَ شَيبِكَ قَد نَكَثْتا

هنا لا يزال النَّاظم -رحمه الله تعالى- يُوجِّه الخطاب بلسان من نصحه -أو وجَّه إليه النُّصح- بأن قال له في الأبيات الَّتي سبق الكلام على شيءٍ منها:

وَقُلْ: يا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أوْلَى

فيُتمِّم الألبيري -رحمه الله تعالى- النَّظم والكلام على نفسه بلسان من ناصحه، فيقول بأنَّه يحقُّ لك أيُّها النَّاصح أن تقول لِمن ناصحك:

وَكُنتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبيلًا فَما لَكَ بَعْدَ شَيبِكَ قَد نَكَثْتا

يقولُ: كنتَ في حال صباك أهدى منكَ في حال كِبَرك وشيخُوخيَّتك.

وهذا ممَّا يتناقض فيه الإنسان لأنَّ الأجدر بالإنسان -وليس الأعذر أو أنَّه معذورٌ على ذلك- أنَّ الإنسان في حال صباه وفي حال صغره ينتابه ريعان الشَّباب

وعُنفُوانيته ويأخذ في نفسه مساحة من المعذرة والعفو وطُول الأمل، فيُطوّل الأمل في لقاء ربّه وفي موته وخروجه من الدُّنيا، وطُولُ أمله هذا يحمله:

_ إمَّا على التَّقصير في الطَّاعات وفعلها.

_ وإمَّا على الإفراط في المعاصي.

وهذا سببه طول الأمل، ولهذا حذَّر السَّلف منه تحذيرًا كثيرًا -ليس هذا محلّه لأنَّه سيأتي فيما يُستقبل من كلام النَّاظم ما يدلُّ عليه ويُرشد إليه-.

وأمَّا إذا كَبر الإنسان وتقدَّم به العمر فإنَّ غالب ظنّه أن يخرج من هذه الدُّنيا فيتهيَّأ للعمل الصَّالح، ولهذا قال الله -سُبحانه وتعالى- في كتابه الكريم:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[1] قال بعض السَّلف من أئمَّة التَّفسير: (الْمَقْصُود بِـ«النَّذِير»: النَّبِي صلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم)[2] وهذا المعنى لا غبار عليه، وقال آخرون: (النَّذِيرُ: هُوَ الشَّيْبُ)[3] والقرآن حمَّال للوجوه، ومثل هذا يدخل في عموم التَّفسير في الآية، فيقول:﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ قال: (الشَّيْب).

وذكر غير واحدٍ من أهل العلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: (كَانَ الرَّجُلُ إذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ عَامًا لَزِمَ الْمَسْجِدَ وَتَعَبَّد للهِ)[4] وهذا في آثار لا بأس بها في

---

1 سورة فاطر: 36-37

2 "تفسير الطبري" الجزء:20، ص:479

3 قال القرطبي رحمه الله عند قوله تعالى:﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَسُفْيَانُ وَوَكِيعٌ وَالْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ وَالْفَرَّاءُ وَالطَّبَرِيُّ: هُوَ الشَّيْبُ) ["الجامع لأحكام القرآن" الجزء 14، ص:316]

4 لم يتيسَّر الوقوف عَلَى مَصْدر الأَثَر الْمَذْكُور؛ وَقَد جَاء بنَحوه عَن هلَال بن يساف، أنَّه قال: (كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَة إذَا بَلَغَ أَرْبَعين سَنَةً تَفَرَّغَ للعِبَادَةِ)، وأيضًا: قال عَبْد الله بن دَاوُد: (كَانَ الرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً طَوَى فِراشَهُ) [ذكرها ابن الجوزي رحمه الله في كتابه "أعمار الأعيان" ص:29]

الكثرة عن الأئمَّة، يعني من جهة الاِشتغال بعمل الآخرة إذا تقدَّم بالإنسان أو بالمرء السِّنُّ لأنَّه يغلب على ظنِّه أن يفجأَهُ الموت وأن يخرج من هذه الدُّنيا.

فهو يقول: أَنتَ [كُنْتَ مَعَ الصِّبَا] أي في صباك، وهذا يحصل في فترة ما يُسمَّى ببدء الاِستقامة أو نشوة طلب العلم -أو ما شابه ذلك- عند كثيرٍ من النَّاس، فلمَّا شِخت وكبرت تغيَّر حالك، فكان حالك في الماضي أهدى سبيلًا من حالك في الحاضر الَّذي ينبغي أن تزداد فيه علمًا وعملًا ونفعًا.

جاء في مُسند الإمام أحمد في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي عنهما أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ شِرتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**))[1]، وفي رواية: ((**فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى بِدْعَةٍ فَقَدْ ضَل**))[2]، فالإنسان ينتابه الشّرَّة وينتابه الفترة، لكن الحال هو ما يستقرُّ عليه أمره عند خروجه من الدُّنيا، ولهذا جاء عن سُفيان الثَّوري وجاء عن طائفة من السَّلف أنَّهم كانوا يقولون: (مَا أَبْكَى الْعُلَمَاء مَا أَبْكَاهُمْ عِلْمُ اللهِ السَّابِق فِيهِم)[3] لماذا؟! لأنَّ الله لا يُعذِّب العبد على علمه فيه فيما يعمله، وإنَّما يُعذِّبه ويُحاسبه إذا عمِل بمقتضى هذا العلم فيه، فيقول: (مَا أَبْكَى الْعُلَمَاءَ) -أو من مضى- (مَا أَبْكَاهُمْ عِلْمُ اللهِ السَّابِق) ما الَّذي سيُختم به لهم؟

---

[1] قال الشَّيخ أحمد شاكر في "مسند أحمد": إسناده صحيح.

[2] صحَّحه الشيخ الوادعي رحمه الله في "الصَّحيح المسند".

[3] قال ابن رجب رحمه الله: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: (مَا أَبْكَى الْعُيُونَ مَا أَبْكَاهَا الْكِتَابُ السَّابِقُ؛ وَقَالَ سُفْيَانُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ: هَلْ أَبْكَاكَ قَطُّ عِلْمُ اللَّه فِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ: تَرَكَتنِي لَا أَفْرَحُ أَبَدًا، وَكَانَ سُفْيَانُ يَشْتَدُّ قَلَقُهُ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْخَوَاتِيمِ، فَكَانَ يَبْكِي وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أَكُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ شَقِيًّا، وَيَبْكِي، وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ) ["جامع العلوم والحكم"؛ الجزء الأول، ص:180]

ولهذا لمَّا حضرت سفيان الوفاة -وقد اِنتابه خوفٌ أو بكى- فأخذ عودًا من الأرض وقال: (واَللّهِ لَذُنُوبِي أهْوَنُ عِنْدِي مِنْ هَذَا، وَلَكِن أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الإيمَانَ قَبْلَ أنْ أَمُوتَ)[1].

فهذا البيت أراد فيه الألبيري -رحمه الله- أن يُقرِّر ضرورة الثَّبات على الحقِّ والدِّين ولُزوم الطَّاعة، هذا مقصودُه من البيت، وهو مقصد مهمٌّ.

وَكُنتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبيلًا فَما لَكَ بَعْدَ شَيبِكَ قَد نَكَثْتا

ولهذا الله -جلَّ وعلا- ضرب لنا مثلًا في القرآن بقوله:﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[2] هذا تشبيه: ﴿كَالَّتِي﴾ اِمرأة قالوا كانت في مكَّة -كما ذكر أهل التَّفسير- فكانت تغزل وتغزل وتغزل وهي مُتقنة في غزلها، لا عيبَ فيهِ، ثمَّ إذا شارفت على الِانتهاء نقضت ما غزلت؛ وهكذا حال الإنسان في عمله مع الآخرة، ولهذا الله -عزَّ وجلَّ- قال في كتابه الكريم في موضعين:﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[3]، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[4] -هذه بالواو وهذه بالفاء-؛ ومعنى قوله تعالى:﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: اِلزموا الإسلام والطَّريقة الَّتي أنتم عليها حتَّى يُدركم الموت، ولهذا قال الله -سبحانه وتعالى-:﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[5] فُسِّر اليقين -في سورة المدثر- في قوله:﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[6] بأنَّه الموت وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

---

[1] "منهاج القاصدين" لابن قدامة رحمه الله؛ ص:296
[2] سوة النَّحل: 92
[3] سورة آل عمران: 102
[4] سورة البقرة: 132
[5] سورة الحجر: 99
[6] سورة المدثر: 47

﴿حَتَّىٰٓ أَتَانَا ٱلۡيَقِينُ﴾: يعني حتَّى آتانا الموت، وليس المراد به العلم الَّذي تزعمه المتصوِّفة الملاحدة من جهة سقوط التَّكاليف، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1]، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[2] هذا معنى ما تدلُّ عليه هذه الآيات، وهذه الآيات وغيرها من النُّصوص -الدَّالة على ضرورة الثَّبات على الحقِّ وعلى الدِّين وعلى الاِستقامة وعلى الصِّراط المستقيم- من المهمَّات.

جاء في الصَّحيحين في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال له: ((**يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**))[3] هذا تنبيه إشاري من النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يُربِّي عليه أصحابه، وإختلاف تنويع أساليب التَّربية عنده عليه الصَّلاة والسَّلام، ((**لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قيامَ اللَّيْلِ**)).
والسَّلف رضي الله عنهم -وفي مقدِّمتهم أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومن جاء بعدهم من التَّابعين ومن بعدهم- كان هذا ديدنهم إقتداءً بالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام؛ عائشة رضي الله عنها تصف نبيَّنا محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام في عمله فتقول: (كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً)[4] يعني دائم.

وكذلك قالت رضيَ الله عنها وأرضاها: (كَان رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ إذَا عَمل عَمَلًا أَثْبَته)[5]، ومن هنا قال جماهير أهل العلم إنَّ صلاته عليه الصَّلاة

[1] سورة الحجر: 99
[2] سورة آل عمران: 102
[3] متَّفق عليه.
[4] متَّفقٌ عليه
[5] رواه مُسلم.

والسَّلام بعد صلَاة العصر ركعتين لَم يكن لقصد راتبةٍ للعصر كما فهمه بعض الصَّحابة وفهمه بعض العلماء ممَّن جاء بعدهم، ولكنَّه لمَّا قضى سُنَّة الظُّهر الَّتي فاتته بعد العصر أثبت هذا العمل لأنَّه عمله -كما جاء في جملة من الأحاديث في الصَّحيحين وغيرها-.

والخلاف معروف بين عمر رضي الله عنه وعائشة وكعب بن عُجرة وجماعة من الصَّحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم: هل للعصر سُنَّة راتبة أو لَا؟ حملوا هذا المعنى على هذا المُراد «كَان إذا عمل عَمَلًا أثبَتَه»، فلمَّا قضى الرَّكعتين -وقد فاتتاه من الظُّهر بسبب اِنشغاله بالوفود- قضاها بعد العصر ثمَّ ثبَّت ذلك العمل، فكان إذا عَمل عَملًا عَليه الصَّلاة والسَّلام أَثبته.

كذلك من جاء بعده عليه الصَّلاة والسَّلام ممَّا يدلُّ على الثَّبات على العمل، طبعًا أحاديث النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام كثيرة في هذا الباب أنَّه كان إذا فاته حزبه -كما في حديث عائشة وعمر عند مسلم وغيره- من اللَّيل قضاه بالنَّهار ولكنَّه لا يجعله وِتْرًا[1].

والصَّحابة رضي الله عنهم لمَّا جاؤوا من بعده فيما تعلَّموه منه لم يتركوا شيئًا تعلَّموه من النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، خذ أمثلة على هذا:

_ في صحيح مسلم في حديث عليٍّ رضي الله عنه لمَّا طلبت فاطمة رضي الله عنها خادمًا من النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فعلَّمها وعليًّا التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير[2]، فلمَّا حدَّث علي رضي الله عنه بهذا قال: (مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمعْتُهُ مِنَ النَّبيِّ

[1] قَالَت عَائِشَة رَضِي اللهُ عَنْهَا: (كَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أنْ يُداوِمَ عَلَيْهَا؛ وَكَانَ إذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ صَلَّى مِن النَّهَارِ ثِنتَي عَشْرَةَ رَكعَةً) [رواه مسلم]

[2] قال ابن أَبي لَيْلَى: (حَدَّثَنَا عَلِيٌّ أَنَّ فَاطِمَةَ اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ الرَّحى فِي يَدِهَا، وَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ فَانْطَلَقَتْ فَلَمْ تَجِدْهُ وَلَقِيَتْ عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ بِمَجِيءِ فَاطِمَةَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْنَا نَقُومُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَكَانِكُمَا فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمِهِ عَلَى صَدْرِي ثُمَّ قَالَ: أَلَا

صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال له الرَّواي عنه: (ولَا لَيْلَةَ صفِّين؟) قال: (ولَا لَيْلَة صفِّين) -يعني التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير-، هو يقول: (مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فالرَّجل اِستحضر حادثة صفين -حادثة قويَّة جدًّا وكانت في ليلٍ وكانت في شدَّة أيضًا- فقال له الرَّجل: (ولَا لَيْلَةَ صِفِّين؟!) قال: (ولَا لَيْلَةَ صِفِّين)[1].

_ عمر بن أبي سلمة كان ربيب النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام -أمُّه: أم سلمة، هند أمّ المؤمنين رضي الله عنها-، وكان صبيًّا صغيرًا وكانت يده تطيش في الصَّحفة -في الطَّعام- مع النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، فقال له النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ ممَّا يَلِيكَ**))[2] حدَّث به بعد كِبَر فقال: (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ)[3]، يعني: مازالت هذه الصِّفة الَّتي علَّمنيها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم هي الصِّفة الَّتي آكل بها وأَطْعم بها، بمعنى أنَّه لم يتركها رضي الله عنه وأرضاه.

_ أبان بن عثمان بن عفان -كما عند التِّرمذي- يروي عن أبيه -عثمان بن عفان- قول النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ**))[4]، (وَكَانَ أَبَانُ قَدْ أَصَابَهُ طَرفُ فالِجٍ، فَجَعَلَ الرَّجُل يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ أَبانُ: مَا تَنْظُرُ؟ أَمَا إِنَّ الْحَدِيثَ كَمَا حَدَّثْتُكَ،

أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهْوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ) [رواه مسلم].

[1] رواه مُسلم.

[2] متفق عليه.

[3] اللفظ للبخاري.

[4] قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي": حسن صحيح.

وَلَكِنِّي لَمْ أقلْهُ يَوْمَئِذٍ لِيُمْضِيَ اللَّهُ عَلَيَّ قَدَرَهُ)[1]، الشَّاهد فيه أنَّه كان مُلازمًا لهذا الذِّكر وأنَّهم مع ملازمتهم لهذا الذِّكر يعتقدون ما دلَّ عليه.

ومثل هذا في الآثار عن الصَّحابة وعن التَّابعين ومن جاء بعدهم من الأئمَّة في المحافظة على الأعمال والمداومة عليها نفسٌ كثيرٌ، والمقصود هو الإشارة إلى مقاصد الألبيري -رحمه الله تعالى-.

فقولُه هنا:

وَكُنتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبيلًا ... فَما لَكَ بَعْدَ شَيبِكَ قَد نَكَثْتا

كما قلتُ لكم هم يُعرِّضون أنفسهم لأيِّ شيءٍ؟ للاِتِّهام، ولا يزعمون في أنفسهم الكمال، يقول كأنَّك كان ينبغي لك أن تكون أكثر زيادة من هذا.

ثمَّ قال لنفسه مخاطبًا على لسان المنصُوح، أنَّه قال المنصوح عن نفسه:

وها أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الخَطَايَا ... كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا

لم أخض بحر الذُّنوب وبحر الخطايا، لِم؟ لأنَّه يُخاطبه في حال الشَّباب، حديث **((عَجِبَ رَبُّنا مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))** هو حديث معلول وإن كان بعض أهل العلم يُحسِّنه في الشَّواهد والمتابعات، ولكن يدلُّ على هذا ما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: **((سَبعَةٌ يُظلُّهُم اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ))**[2] إلى أن قال: **((وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ))**[3] معناه أنَّ هذه النَّشأة اِستمرَّت عليه.

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ[4]

---

[1] قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي": حسن صحيح.

[2] متفق عليه.

[3] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

[4] لأبي العلاء المعري

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

هذا من أبيات البُردة للبوصيري، بردة الضَّلال والشِّركيَّات ولكنَّ الاِستشهاد بهذا البيت مثل الطَّريقة الَّتي كان يستشهد بها العلماء في شعراء أهل الجاهلية ومن شابههم.

النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**)).

هنا يقول:

وهَا أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الْخَطَايَا

لَم أدخل في بحر الخطايا ولم أتجرَّأ على الخوض فيه، وأنتَ أيُّها النَّاصح قد خُضته. المنصوح لَم يقل هذا؛ الألبيري يقول: لو قلتَ هذا فلن أعتَبَ عليك، ولن أجد في نفسي غضاضة من أن تقول هذا فيَّ، لأنَّهم كما قال عمر رضي الله عنه -كانوا يقولون-: (رَحِمَ الله مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي)[1]، كانوا يفرحون بالنُّصح ويفرحون بالتَّوجيه لأنَّ المسلم -وخصوصًا الَّذي يُريد أن يبلغ إلى الكمالات- يعلم أنَّ النُّصح والإرشاد والتَّوجيه وإن كان فيه مَضاضة أو اِنتقاصٌ من حقِّه فإنَّه لا سبيل إلى تكميل نفسه إلَّا بقبوله، لا سبيل إلى أن يَصل إلى مراحل ومراتب الكمال إلَّا بقَبول هذا النُّصح وبقبول هذا الحق.

[1] "سنن الدارمي"، الجزء الأول، ص:169

❁ روى الأئمَّة وذكر هذا المزي والذَّهبي في السِّير وغيرهم من المترجمين -اِنتبه إلى هذه القصَّة-: أنَّ يحي بن مَعين لمَّا قدم مصر حضر مجلس نُعيم بن حمَّاد الخُزاعي، فحدَّث نُعيم بن حمَّاد الخزاعي من صحائفه؛ ونُعيم بن حمَّاد الخزاعي كان الأئمَّة يقولون فيه بأنَّه ضعيفٌ، شديدٌ في السُّنَّة[1]، ومن أشدِّ النَّاس في سنَّة النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، ذكر الذَّهبي أنَّه أخذ هذا من بعض شيوخه ممَّن كان شديدًا على الجهمية -نسيتُ اسم شيخ نُعيم بن حمَّاد الخزاعي-[2].

نُعيم بن حمَّاد حدَّث من صحائفه، فقال: (حدَّثنا اِبْنُ الْمُبَارَكِ، عَن اِبْنُ عَوْنٍ) فقال يحي بن مَعين -وهو في المجلس-: (لَا والله، مَا سَمِعْتَ أَنْتَ هَذَا اِبْنُ الْمُبَارَك قَط، وَلَا سَمِعَهَا اِبْنُ الْمُبَارَكِ مِن اِبْنِ عَوْنٍ قَط) فقال: (تَرُدُّ عَلَيَّ؟) -الإنسان تأخذه شيءٌ من الجفوة أو الحمية أو ما أشبه ذلك، ليس معصومًا-، قال: (تَرُدُّ عَلَيَّ؟!) قال: (إِي وَالله أَرُدُّ عَلَيْكَ أُرِيدُ زَيْنَكَ) كيف؟ هو يقول أنا أردُّ عليك لأنَّ ردِّي عليك سيُزيِّنك بالرُّجوع عن هذا الخطأ، (أَرُدُّ عَلَيْكَ أُرِيدُ زَيْنَكَ) قال: (فَغَضِبَ وَغَضِبَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ) حالُ التَّعصب، بعض النَّاس بدل من أن يكون عونًا لشيخه ولِمعلِّمه ليرجع إلى الحقِّ ويستنير له دربه ويصل إلى مراحل الكمالات، لا؛ يفعل عكس ما قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**))[3] فيُعين الشَّيطان على شيخه.

فدخل نُعيم بن حمَّاد الخزاعي إلى بيته فنظر في صحائفه -في كُتبه الَّتي كَتب- فما وجد هذا الحديث لا عن ابن المبارك ولا عن ابن عون في كُتبه ثمَّ رجع فقال: (أَيْنَ

---

[1] قَالَ ابْن رَجَب الْحَنْبَلِي رحِمَهُ الله: (وَنُعَيْمٌ هَذَا، وَإِنْ كَانَ وَثَّقَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّة، فَإِنَّ أَئِمَّةَ الْحَدِيث كَانُوا يُحْسِنُونَ به الظَّنَّ، **لِصَلَابَته فِي السُّنَّة**، وَتَشَدُّده فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَكَانُوا يَنْسِبُونَهُ إِلَى أَنَّهُ يهِمُ، وَيُشَبَّهُ عَلَيْه فِي بَعْضِ الْأَحَادِيث، فَلَمَّا كَثُرَ عُثُورُهُمْ عَلَى مَنَاكِيرِه، حَكَمُوا عَلَيْهِ بِالضَّعْف؛ فَرَوَى صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ عَنِ ابْنِ مُعِينٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ وَلَكِنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ) ["جامع العلوم والحكم"؛ ص:1146]

[2] قال الذَّهبي رحمه الله: (قَالَ أَحْمَدُ: كَانَ نُعَيْمٌ كَاتِبًا لِأَبِي عِصْمَةَ -يَعْنِي نُوحًا- وَكَانَ شَدِيدَ الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّة وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَمِنْهُ تَعَلَّمَ نُعَيْمٌ) ["سير أعلام النُّبلاء"، الجزء العاشر، ص:598]

[3] رواه البخاري.

الَّذِين يَزْعمُونَ أَنَّ يَحْيَى بْن مَعِين لَيْسَ أَمِير المُؤْمِنِينَ فِي الْحَدِيث؟ نَعَم يَا أَبَا زَكَرِيَّا غَلِطْتُ)[1].

فرجع، الشَّاهد هي النِّهاية؛ كون الإنسان تأخذه بداية في الغضب هذا لا يخلو منه بشر، لكن الشَّاهد هو هذه النِّهاية الَّتي اِنتهى إليها الأمر؛ وهذا كثير في تراجم الأئمَّة -رحمهم الله تعالى-.

يقُول:

وها أَنَا لَمْ أخُضْ بَحْرَ الْخَطَايَا كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا

الإنسان ليس معصومًا، يُخطئ ويُصيب، ويعلم ويجهل، وكما قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **((مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ، يَعْتَادُهُ الفينَةَ بَعدَ الفينَةِ))**[2] -والحديث في «الصَّحيحة»-، كذلك قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: **((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))**[3]، الإنسان ليس معصومًا؛ الخطأ أن يظلَّ على الخطأ.

نختم بالبيت الَّذي بعده -فهو يسير-، قال:

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيّا أُمِّ دَفْرٍ وَأَنْتَ شَرِبتَها حَتَّى سَكِرتَا

أمّ الدَّفر هذا كنية الدُّنيا -يعني كنية تُكْنى بها الدُّنيا-، مِن كُنى الدُّنيا: أمّ دفر، وهذا كانت تكنيها العرب به قديمًا، والدّفر معناه النّتن والقذر، فعبَّر عن الدُّنيا بأنَّها أمّ القذر، كذلك النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ،**

---

[1] "تهذيب الكمال" للمزي رحمه الله؛ الجزء:29، ص:471، وأيضًا: "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله، الجزء:11، ص:90.

[2] ((مَا مِنْ عَبدٍ مُؤمنٍ إلَّا ولَه ذَنبٌ يَعْتادُهُ الفينَةَ بَعدَ الفينَةِ، أوْ ذنبٌ هُو مُقيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حتَّى يُفَارِقَ الدُّنيا، إنَّ المُؤمنَ خُلِقَ مُفتَّنًا، توَّابًا، نَسيًّا، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق عبدالله بن عباس رضي الله عنهما]

[3] رواه مسلم؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ))[1] كما عند التِّرمذي وحسَّنه العراقي في "تخريج الإحياء" والألباني -عليهم رحمة الله تعالى-.

يقول:[لَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا] الحميا معناها الشِّدَّة والسَّورَة الَّتي تُصيب شارب الخمر إذا اِحتدَّ عنده الخمر فبلغ أعالي رأسه فأثَّر عليه.

وَلَـم أَشْرَب حُمَيّا أُمِّ دَفْـرٍ

الَّتي هي الدُّنيا؛ [وَأَنْتَ] أيُّها النَّاصح [شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا] شربتَ الدُّنيا ومكثت في الدُّنيا وركنتَ إلى الدُّنيا -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

نكتفي بهذا القدر إن شاء الله تعالى؛ وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[1] ((أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ)) [حسَّنه الإمام الألباني رحمه الله في "صحيح التِّرمذي"؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه].

الدَّرس الحادي والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس حادي والعشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري المشهورة بالتَّائية.

وقد اِنتهى بنا الكلام إلى ما ذكره النَّاظم -رحمه الله تعالى- من خطاب نفسه على لسان من نصحه -أو منصوحه-؛ حتَّى قال -رحمه الله-:

وَلَم أَنشَأ بِعَصرٍ فيهِ نَفعٌ ... وَأَنتَ نَشَأتَ فيهِ وَما اِنتَفَعتا

وَلَم أَحلُل بِوادٍ فيهِ ظُلمٌ ... وَأَنتَ حَلَلتَ فيهِ وَاِنْتَهَكْتا

لَقَد صاحَبتَ أَعلامًا كِبارًا ... وَلَم أَرَكَ اِقتَدَيتَ بِمَن صَحِبتا

وَناداكَ الكِتابُ فَلَم تُجِبهُ ... وَنَبَّهَكَ المَشيبُ فَما اِنتَبَهتا

وَيَقبُحُ بِالفَتى فِعلُ التَّصابي ... وَأَقبَح مِنهُ شَيخ قَد تَفَتّى

هذه الأبيات في ضمن ما ذكره النَّاظم -رحمه الله تعالى- كما قلتُ لكم في توجيه خطاب من نصحه وعبَّر عنه بـ «أبي بكر» بأنَّه يحقُّ له أن يقول لناصحه ذلك، وأنَّ هذا لا يمنعه من قبول النُّصح منه، ولهذا قال:

وَلَا يَغْرُرْكَ تَقْصِيرِي وَسَهْوِي وَخُذ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِن رَشَدتا

فهو يقول: لكَ أنْ تقول أيُّها المنصوح بأنَّك لم تنشأ ولم تترَبَّ ولم تترعرع في عصرٍ فيه نفعٌ، وأنتَ أيُّها النَّاصح نشأتَ في هذا العصر الَّذي فيه نفعٌ وفيه علمٌ وفيه صلاح وفيه دينٌ ومع ذلك لم تنتفع، فأنا معذورٌ في تأخُّري عن الاِنتفاع لقلَّة أصحابه، وأنتَ لا عُذر لك في عدم اِنتفاعك لأنَّك نشأت في هذا العصر ولم تنتفع.

وهذا من الحُجج على العبد؛ يعني أنَّ من حُجج الله على عبده أن يُهيِّأ له الزَّمان والمكان الَّذي ينتفع فيه بالعلم والعمل ويُقابل فيه العلماء ويسكن في بلدٍ فيه الصَّلاح وفيه الدِّين وفيه العلم ومع ذلك لا ينتفع بهم، ولهذا كما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي سعيد في قصَّة الرَّجل الَّذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا لمَّا سأل العالِم هل له من توبة؛ قال: (نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟)[1] ثمَّ أمره بأن يذهب إلى بلدٍ أشار عليه فيها فيعبد الله مع قومٍ يعبدون الله في هذه البلد، لِمَ؟ لما لتأثير الزَّمان والمكان على صلاح العبد، ولهذا تلاحظون أنَّ كثيرين من النَّاس وربَّما يكون عندهم كثرة في العلم والحفظ لكنَّه ينشأ في بلد يغلب عليه منهج أو مذهب الأشاعرة أو الصُّوفية أو المعتزلة فينشأ نشأتهم، يجب عليه أن يطلب الحقَّ، والله -سُبحانه وتعالى- حكَمٌ عدلٌ يقذفُ في قلبه نورًا من الحقِّ بسبب طلبه للعلم، فإن اِتَّبع ذلك النُّور أزال كلَّ الظُّلمة الَّتي في قلبه بسبب التَّربية الَّتي عاشها أو الزَّمان الَّذي عاشه أو المكان الذي عاشه؛ [...][2] القرآن حُجَّة على العباد.

فهو يقول بأنَّ من حُجج الله على العبد أن ينشأ في زمان أو مكان يغلب فيه الصَّلاح، والطَّاعة، والتَّديُّن، ولزوم السُّنَّة، ومع هذا لا يأخذ منه عُدَّته وأُهبته لآخرته فيه.

---

[1] متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

[2] كلمة غير واضحة

فهُـو يقُــول:

وَلَـم أَنشَأ بِعَصـرٍ فيـهِ نَفـعٌ

هذا هو المنصوح.

وَأَنت نَشأتَ فيهِ وَما اِنتَفَعتا

وهذا البيت فيه -كما قلتُ لكم وأُكـرِّر-: أثـرُ الزَّمـان والمـكان في صـلاح المـرء وفساده، ولكنَّه ليس عذرًا له، لِمَ؟ لأنَّه يجب أن يطلب الحقَّ، يجب أن يتحرَّى الحق.

ثمَّ قال -رحمه الله-:

وَلَم أَحلُل بِوادٍ فيـهِ ظُلمٌ وَأَنت حَلَلتَ فيـهِ وَاِنْتَهَكْتا

هذا عكس ما تقدَّم، يقول النَّاظم بأنَّك لك أن تقول -مع قيام الحجَّة عليك- بأنَّـه ليس معذورًا من سكن بوادٍ فيه ظلم أن ينتسب إلى أهله ويعمل بأعمالهم، ورحم الله الشَّافعي إذ يقول:

نَعِيبُ زَمانَنا وَالعَيْبُ فِينَا وَمَـا لِزَمَانِنا عَيْـبٌ سِوَانَـا
وَنَهْجُو ذَا الزَّمَان بِغَيْرِ حَقٍّ وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجانَـا

كون الإنسان يعتذر بأنَّ النَّاس يفعلون الأفعال المُشينة وأنَّه معهم هـذا لا يُجزئـه عند الله -سبحانه وتعالى-، ولهذا الله -جلَّ وعلا- أمـر العبـاد بـالأمر بـالمعروف والنَّهي عن المنكر وإقامة الحُجج وإقامة البيِّنات والدَّليل -وما شابه ذلك-، ثمَّ إن لَم يستجب النَّاس للحقِّ:

_ فـإنَّ العبـد أولًا يعلـم أنَّهـم إنَّمـا لا يسـتجيبون للحـقِّ لأنَّهـم يتَّبعـون أهواءهم:﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[1]، وفي الآيـة الأُخـرى:﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[2].

_ وأيضًا يعلم أنَّـه إن لَـم يسـتطع النَّجـاة بالنَّـاس فإنَّـه لا يجـوز له أن يهلـك بهلاكهم، ولهذا قال الله -سبحانه وتعـالى-:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[3]، ومن أحسن ما يُوضِّح هذا ما جـاء في البخـاري في قصَّة مقتل عثمان رضي الله عنه لمَّا حصره الخوارج فجاء رجل إليه فقـال: (إِنَّـكَ إِمَامُ عَامَّةٍ، وَنَزَلَ بِكَ مَا تَرَى، وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ وَنَتَحَرَّجُ) فقال: (الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاؤُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ)[4]، فالمسلم لا يجوز له أن يحتج لا بالزَّمان ولا بالمكان على فساد دينه وعقيدته.

اِبن القيم يقول في ميميته:

فحي عَلَى جَنَّـاتِ عَـدنٍ فإنَّهـا ... مَنازِلُكَ الأُولَى وفِيهـا المُخَيَّمُ
ولَكنَّنا سَبيُ العدُوِّ فَهَـل تُـرَى ... نَعـوُد إلَى أوطَـانَنـا وَنُسلّـمُ
وقَد زعَمُوا أنَّ الغَرِيبَ إذاَ نَأى ... وشَطَّـتْ بـهِ أوطَانُه فهُوَ مُغرَمُ
وأيُّ اِغتِرَابٍ فَـوْقَ غُرْبَتنَا الَّتي ... لهاَ أضْحَتِ الأعْدَاءُ فِينَا تَحَكَّمُ

قد يتحكَّم عليك الأعداء وقد يتحكَّم عليك الضُّلَّال.

---

[1] سورة هود: 14
[2] سورة القصص: 50
[3] سورة المائدة: 105
[4] رواه البخاري.

ومن نظر في سِيَر القوم من أئمَّة السُّنَّة في كلِّ زمانٍ رأى أنَّهم يُخالفون أزمانهم وأماكنهم في الحقِّ، وخير ما يُذكر في هذا المقام: محنة الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل[1] -رحمه الله-، صار الاعتزال هو الدِّين الَّذي تدين به الخلافة ويُفرض على العلماء ويُمتحنون به، وعلى الفقهاء، وعلى المحدِّثين، وعلى الخُطباء، وعلى أئمَّة المساجد، وعلى كلِّ من كان له مشاركةٌ في العلم، مع هذا لَم يستجبْ لَهم لا هو ولا من معه ممَّن ثبت من أئمَّة الدِّين والعلم.

ففساد الزَّمان ليس حُجَّة للعبد على فساده، بمعنى أنَّه يقول: «النَّاس كلُّهم هكذا» -مثلما يفعل كثير من النَّاس-، هو لا يريد أن يعيش غربة الدِّين، يغشُّ النَّاس فيغشُّ بغشهم، ويكذبون فيكذب بكذبهم، ويرى أنَّه في قرارة نفسه إن فعل هذا ظهر بصورة التَّشدد، فيوحي إلى نفسه قبل أن يُصرِّح له أحد بأنَّه مُتشدِّد أو بأنَّه يعيش في زمن غير زمنه؛ وكما يقول حافظ حكمي -رحمه الله- في داليته:

يَا غُرْبَةَ الدِّيْنِ والمُسْتمْسِكِيْنَ بِهِ ... كَقَابِضِ الجَمْرِ صَبْرًا وَهْوَ يَتَّقِدُ

والمُقْبِلِيـنَ عَلَيْـهِ عِنْـدَ غُرْبَتِـهِ ... المُصْلِحِينَ إِذا مَا غَيْرُهُمْ فَسَدُوا

---

[1] من بَاب مَزِيد فَائِدة: قَالَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفظَهُ الله -مُنَبِّهًا عَلَى أَهَمِّيَة اطِّلَاع الطُّلَّاب عَلَى محْنَة الإمَامَ أَحْمَد رَحمَهُ الله-: (طَالبُ الْعلْمِ منْ أَحْوَجِ مَا يَكُونُ إِلَى دِرَاسَةِ محْنَة الإمَامِ أَحْمَد -رَحمَهُ الله-، وَأَقُولُ إنَّ منْ قُصُور طَالب الْعلْم ومنْ عدَمِ مَعرفَته بالأُمُور وتَدْبِيرهَا أن لَا يقْرَأَ محْنَةَ الإمَامِ أحمْد، فمَا تَعْرضُ شُبْهَةٌ مِنْ شُبُهات أهلِ البدعِ اتِّجاهَ أهل السُّنَّة فيمَا يتكلَّمُونَ بِهِ وَيذُبُّونَ به عنْ سُنَّة رَسُول الله صلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم إلَّا وفِي أَحْدَاث محنَة الإمَام أحْمد جوابٌ عَنْهَا، وَهَذَا يَعْرفُهُ وَيَعْلَمُه مَنْ دَرس محنة الإمَامِ أحْمَد، وَأيم الله إنَّها لَمَدرسَةٌ مُتكاملَة يَحتَاجُ خَواصُّ المسْلمين، يَحْتَاج القَائمُون عَلَى الدَّعْوَة، والَّذينَ يُشَار إلَيهِمْ بالبَنَان فِي أوْطَانهم ومَسَاجدهم، أنْ يَتَعرَّفُوا عَلَى محْنَة الإمَام أحْمَد وَكَيْفَ صبَر -رَحِمهُ الله تعالَى- ولَمْ يَقلْ بما أُمِرَ بِهِ مَعَ مَا حُمل عَلَيْه...) إلَى أنْ قَالَ -حَفظَهُ الله-: (فَطالبُ العلْم بِحَاجةٍ إلَى أنْ يَدْرُس محْنَة الإمَام أحْمَد دراسَةً مُتَمحِّصَة، إمَّا منْ طَرِيق كتَاب "ذكْر محْنَة الإمَام أحْمد" لحنبَل بْن إسْحَاق، أوْ كتاب "مَنَاقب الإمَام أحْمد" لأبي الفَرَج ابْن الْجَوْزِي، أوْ مِن تَرَاجم العُلَمَاء عَلَى الأَقَلِّ فِي الكُتُبِ الَّتِي لَمْ تُفرد فِي هَذَا الْبَاب كـ "تَأريخ الإسْلَام" للذَّهبي، أو "سِيَر أعْلَام النُّبَلَاء" للذَّهبي، أو "البدَايَة وَالنِّهَاية" لابْن كَثير؛ يَسْتَطيع طَالبُ العلْم أنْ يَقْرأهَا فِي جَلْسَة أوْ جَلْسَتَيْن أَوْ سَاعَة أو سَاعَتَيْن، يَسْتَفيدُ منْهَا وَيَنْظُر إلَى الْمَسَار الَّذي كَانَ عَلَيْه أَهْلُ العِلْمِ رَحِمهُم الله، يَنْظُر كَيْفَ تَصرَّف الإمَامُ أَحْمَد مَعَ أئِمَّة كِبارٍ عَاشَ مَعَهُم دَهرًا مِنْ عُمْرِه) اهـ [من شرحه لنظم رسالة إلى أهل القصيم]

ولهذا قال في بداية المنظومة:

إِنِّي بَـرَاءٌ مِـنَ الأَهْوا وَمَـا وَلَدَتْ وَوَالدِيها الحَيَارى سَـاءَ مَـا وَلَدُوا

هذان البيتان[1] فيهما:

_ كما أنَّ الزَّمان والمكان إذا كانا صالحين لهما أثرٌ على العبد، فإذا لَم يتـأثَّر بهمـا كانا حُجَّة عليه، لأنَّ حُجَّة الله قائمة.

_ وإذا كان الزَّمان والمكان فاسـدين فلـيس له عـذرٌ بـأن يفسـد بفسـادها أو بفسادهما.

ثمَّ قال -رحمه الله- مؤكِّدًا هذا الأمر وهو يريد أن يُخْلي ذهـن المنصـوح من أنَّه معذورٌ إذا كان النَّاظم -رحمه الله- عنده تقصير، وهـذا مـا ينـبغي أن يُنبّـه عليه العوَّام لأنَّهم يجعلون فعل العالِم والمُقتدَى به حُجَّة، «قد قال به فُلان»، و«قد تكلَّم به فلان» و «قَد فعله فلان» وهذا لا يعذرهم عند الله -سـبحانه وتعـالى-، حتَّى اِنتشر من أقولهم في هذا العصر:«إذا أفتى فيها عالِم تَخرج منها سـالِم» لا والله لستَ بسالِمٍ لأنَّك مخاطب بالشَّرع ومخاطب بـالدِّين ومخاطـب بـالأوامر ومخاطـب بالنَّواهي.

[1] بيتا الألبيري رحمه الله.

ولهذا قال النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

لَقَد صاحَبتَ أعلامًا كِبارًا وَلَم أَرَكَ اِقتَدَيتَ بِمَن صَحِبتا

[لَقَدْ] اللَّام هذه:

_ يُحتمل أن تكون اِبتدائية.

_ ويحتمل أن تكون موطّئة للقسم.

وكلاهما صحيح؛ و «قَدْ» هذا حرف التَّحقيق؛ و [صَاحَبْتَ] من الصُّحبة، وهي المصاحبة والملازمة؛ [أَعْلَامًا] الأعلام جمع عَلَم وهو المُعلِمُ على الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الجبل: عَلَمًا، لماذا؟! لبروزه؛ والعرب كانوا يقولون: (أَشْهَر مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمٍ) يعني نار مُشْعلةٌ، مُحترقةٌ، مُرتفعةٌ، وموضوعة على جبل؛ هذا المقصود من المثال.

وهُو يقُول:

لَقَد صاحَبتَ أعلامًا كِبارًا

وليسوا أعلامًا فحسب، بل هؤلاء الأعلام كِبار، ومع هذا لم أرك اِقتديْتَ وتأسَّيت وعمِلت بعمل هؤلاء.

وَلَم أَرَكَ اِقتَدَيتَ بِمَن صَحِبتا

وهذا البيت يُوضِّح أنَّ إمامة الدِّين وأنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء في كلِّ شيءٍ ممَّا أُوحيَ به إليهم إلَّا أنَّه لَا يوحى إلى العلماء وإنَّما يوحى إلى الأنبياء، كلٌّ بحسبه.

وفي أوَّل المنظومة تقدَّم معنا ذِكر جملة من النُّصوص والآثار في أهميَّة الاِقتداء بأهل العلم والصَّلاح عند قول النَّاظم:

إلى عِلمٍ تَكونُ بِهِ إِمامًا مُطاعًا إِن نَهيتَ وَإِن أَمَرتا

وهو هنا يقول له:[لَقَدْ] بالتَّحقيق [صَاحَبْتَ أَعْلَامًا] والأعلام -كما قُلنا-: جمعُ عَلَم لأنَّه مُعْلِمٌ عن الشَّيء، وذلك أنَّ العالِم عَلَم على الأخلاق ومكارمها؛ فهو عَلَمٌ على الكرم، وعَلَم على الجود، وعَلَمٌ على الحياء، وعَلَم على التَّواضع، وعَلَم على لُزوم السُّنَّة، وعَلَمٌ على الصَّبر على الأذى، فهو عَلَمٌ مُعْلِمٌ بأثر العِلم في صاحبه، ولهذا اِنتفع النَّاس بالعلماء الرَّاسخين في العلم -أئمَّة السُّنَّة- لأنَّهم كانوا أعلَامًا على ما يحملونه من العلم: أعلامًا على التَّواضع، أعلَامًا على الكرم، أعْلامًا على الجود، على الشَّجاعة، على لزوم السُّنَّة، على التَّحلِّي بالصَّبر، على التَّحلِّي بالأخلاق، وواجبٌ على من رآهم وعاصرهم وعايشهم أن يتَّخذ مأخذهم.

الله -سبحانه وتعالى- قال في كتابه الكريم في دعاء الصَّالحين:﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1] وهذا الَّذي كان عليه أئمَّة الدِّين والسُّنة فيما يتعلَّق برؤيتهم لأشياخهم:

_ روى أبو عمر ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» عن عبد الله بن وهب المصري -تلميذ الإمام مالك رحمه الله- أنَّه قال: (مَا تَعَلَّمْتُ مِنْ أَدَبِ مَالِك أَفْضَل مِنْ عِلْمِهِ)[2]، وفي رواية ذكرها الذَّهبي: (مَا نَقَلْنَا مِنْ أَدَبِ مَالِكٍ أَكْثَرُ مِمَّا تَعْلَّمْنَا مِنْ عِلْمِهِ)[3] من أين جاء هذا؟! هذا له مبدأ وله منشأ وهو أنَّ الإمام مالك كان يقول -كما في «ترتيب المدارك» لعياض-، يقول: (كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي:

[1] سورة الفرقان: 74
[2] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:509
[3] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله، الجزء الثامن، ص:113

اِذْهبْ إِلَى رَبِيعَة فَتَعَلَّم مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ)[1]، لا تنظر إلى آخر الأثر ولكن أُنظر إلى أوّله، يقول: (كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي) معناه أنّه كان صغيرًا لَا يُحسن حتَّى ربط عمامته وإصلاحها، فأُمُّه الّتي كانت تعمّمه وتُرسله إلى هذا العالم وتقول: (تَعَلَّم مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ)، وهذا كثيرٌ في آثار السَّلف -رحمهم الله تعالى-.

_ ذكر أيضًا أبو عمر ابن عبد البر أنَّ بعض الحكماء كان يقول: (مَن اِتَّخَذَ الْعِلْمَ لجامًا اِتَّخَذَهُ النَّاسُ إمَامًا)[2]، وكذلك ذكر -رحمه الله تعالى- قول ابن المبارك، فقال: (ولَقَدْ أحْسَنَ ابْنُ المُبَارَك إِذْ يَقُول:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمًا ... اِئْتِ حَمَّادَ بْنَ زَيْدِ
فَاسْتَفِدْ حِلْمًا وَعِلْمًا ... ثُمَّ قَيِّدْهُ بِقَيْدِ[3]

_ وكان إبراهيم النَّخعي يقول: (كُنَّا نَأْتِي مَسْرُوقًا فَنَتَعَلَّمُ مِن هَدْيِهِ وَدَلِّهِ)[4].

_ الحسن بن إسماعيل يَروي عن أبيه أنّه قال: (كَانَ يَجْتَمِعُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ زُهَاءَ خَمْسَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ، نَحْوُ خَمسِمائَةٍ يَكْتُبُونَ، وَالْبَاقُونَ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ حُسْنَ الْأَدَبِ وَالسَّمْتِ)[5] الخمسمائة يكتبون ويدوّنون الحديث المسند الّذي يرويه الإمام أحمد، والباقون يحضرون فقط يشاهدون الإمام أحمد: كيف يجلس، وكيف يقوم، وكيف يتصرَّف، وكيف يُحكِّم السُّنَّة على نفسه.

[1] "ترتيب المدارك" للقاضي عياض رحمه الله، الجزء الأول، ص:130
[2] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:241
[3] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:509
[4] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:510
[5] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء 11، ص:316

_ وأيضًا رَوَوْا عن أبي بكر المطوّعي أنّه قال: (اِخْتَلَفْتُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ أَحْمَد بْن حَنْبَل ثِنْتَيْ عَشرَةَ سَنَةٍ وَهُوَ يَقْرَأُ «الْمُسْنَدَ» عَلَى أَوْلَادِهِ، فَمَا كَتَبْتُ مِنْهُ حَدِيثًا وَاحِدًا، إِنَّمَا كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى هَدْيِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ)[1].

_ وهذا النَّفَسُ تجده كثير حتَّى قال النَّخعي -رحمه الله-: (كَانُوا إِذَا أَتَوْا الرَّجُلَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ نَظَرُوا إِلَى سَمْتِهِ، وَإِلَى صَلَاتِهِ، وَإِلَى حَالِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ)[2]، وقال أيضًا -رحمه الله-: (كُنَّا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَأْخُذَ عَنْ شَيْخٍ سَأَلْنَاهُ عَنْ مَطْعَمِهِ، وَمَشْرَبِهِ، وَمَدْخَلِهِ، وَمَخْرَجِهِ؛ فَإِذَا كَانَ عَلَى اِسْتِوَاءٍ أَخَذْنَا عَنْهُ وإِلَّا لَمْ نَأْتِهِ)[3]، وذكرتُ لكم من قبل قول الأوزاعي -رحمه الله-: (كُنَّا نَضْحَكُ وَنَمْزَحُ، فَلَمَّا صِرْنَا يُقْتَدَى بِنَا، خَشِيتُ أَنْ لَا يَسَعَنَا التَّبَسُّمُ)[4].

_ في فتنة خلق القرآن -كما ذكرنا قبل الدَّرس- اِمتُحنَ الأئمَّة، وممَّن اِمتحن في هذه الفتنة بمصر الإمام العَلَم الَّذي يُلقَّب بـ:«خليفة الشَّافعي» يوسف بن يحيى البُوَيْطِي، أحد رُوَّاة مذهب الإمام الشَّافعي -رحمه الله-؛ كان إمامًا، اِنتقلتْ له الفتوى، وكان المفتي للأمراء؛ حسده بعض النَّاس فأرسلوا إلى بغداد إلى أحمد ابن أبي دُؤَاد، فأرسل أحمد ابن أبي دؤاد -وكان مُقرَّبًا من الخليفة- إلى وَالي مصر أن يمتحن البُوَيْطي، فامتحنه، وحصل للبويطي ما حصل للإمام أحمد من جهة أنَّهم قالوا له: «أنتَ معذورٌ، ويُمكنك أن تأخذ بالإكراه»، فجاءه رجل لمَّا اِمتُحن واِبتُلِيَ -رحمه الله تعالى- اِبتلاءً شديدًا -وهو في طبقة أحمد لأنَّه من تلاميذ الشَّافعي رحمه الله-، فلمَّا قيل له: (خُذْ بالإِكْرَاه) قال: (إِنَّهُ يَقْتَدِي بِي مِائَةُ أَلْفٍ وَلَا يَدْرُونَ

[1] "مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:288
[2] "الآداب الشرعية" لابن مفلح رحمه الله؛ الجزء الثاني، ص:148
[3] "الكامل في ضعفاء الرجال" لابن عدي رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:260
[4] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء السابع، ص:132

المَعْنَى)[1] نقول لاشك أنَّه يقتدي به أكثر من مائة ألف وهذا فقط تجوُّز، فقال: (إِنَّهُ يقْتَدِي بِي مائة أَلْفٍ وَلَا يَدْرُون المَعْنَى)، وقد أُمر به أن يُحمل إلى بغداد، وابتُلي اِبتلاءً شديدًا كما ذُكر ذلك في ترجمته من طبقات الشَّافعية.

فالشَّاهد من هذا -بوركتم-: أنَّ أثر العالِم وأثر المُجالس على طالبه ليس بالأمر السَّهل، ولهذا كان بعض السَّلف يقول -كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه أيضًا الحافظ ابن كثير رحم الله الجميع- كان يقول: (لَا تَنْظُر) يعني هذا اِحتراز -هذا الَّذي سأذكره الآن من القاعدة إحتراز ممَّا تقدَّم-، كان يقول بعض السَّلف: (لَا تَنْظُر إِلَى عَمَلِ الْفَقِيهِ وَلَكِنْ سَلْهُ يَصْدُقْكَ)[2] متى؟! إذا كان ممَّا يُشْكِل، لِمَ؟ لأنَّك ستجد في أقوال وأفعال وتصرُّفات بعض الفقهاء وبعض من ينتسب إلى العلم ما هو على خلاف الصَّواب، على الأقلِّ هو عنده، كما أنَّه لا يُتأسَّى بأهل الكوفة في النَّبيذ ولا بأهل مكَّة في الصَّرف ولا بأهل المدينة في بعض طبقات الزَّمان يعني فيما يتعلَّق بالسَّماع، وهذا مذكور في كتب أهل العلم -رحمهم الله-، حتَّى ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه «بيان الدَّليل على بُطلان التَّحليل» أنَّ من رعاية حقِّ هؤلاء الأئمَّة أن لَا يُروى عنهم ما كانوا فيه.

أحيانًا قد تجد أنَّ العالِم قد يفعل فعلًا أو يتصرَّف تصرُّفًا هو مُشْكِل، فهنا إن كان ممَّا يُشكل عليك فَسَلْهُ يَصدُقك، في القاعدة الَّتي ذكرها شيخ الإسلام -وذكرها تلميذه ابن كثير-: (لَا تَنْظُر إِلَى عَمَلِ فَقِيهٍ وَلَكِنْ سَلْهُ يَصْدُقْكَ) متى؟ عند موارد

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء:12، ص:61
[2] "مجموع فتاوى ابن تيمية " لابن قاسم رحمه الله؛ الجزء:22، ص:227

المشكلات، وُرود الشُّبهات، أضرب لكم مثلًا، -خذوا هذا المثل-: في الصَّحيح أنَّ زيد بن خالد دخل عليه رجلٌ وهو في بيته فاِستشكل وجود السَّتائر وعليها شيء من الصُّور -أو بهذا المعنى، ما راجعتُ الحديث قريبًا-، فذكرَ هذا، فقال: (أَمَا سَمِعْتَهُ قَدْ قَالَ: إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ)[1] هذا الَّذي فهمه، لأنَّه لم يكن صورة واضحة وربَّما كانت ممزَّقة، المهم أنَّهم كانوا يستشكلون.

ومثل أيضًا ما حصل لابن مسعود لمَّا حدَّث بحديث الواشمة[2]، فقالت تلك المرأة له: (لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ)[3] قال: (لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[4])[5]، ثمَّ ذكرت له أنَّ بعض نسائه تفعل هذا، فقال: (لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا)[6].

والشَّاهد من هذا أنَّ العالِم الَّذي اِتَّبع السُّنَّة وحكَّم السُّنَّة على ظاهره وباطنه وعلى نفسه وهم -ولله الحمد- في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يُوجدون [...][7] ولكن كما قال عليٌّ رضي الله عنه: (لَنْ تَخْلُو الأَرْض مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ)[8].

---

[1] قال رسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فيه صُورَةٌ)) قَالَ بُسْرٌ: فَمَرِضَ زَيْدُ بْنُ خَالد فَعُدْنَاهُ، فَإِذَا نَحْنُ فِي بَيْته بستْرٍ فيه تَصَاوِيرُ، فَقُلْتُ لِعُبَيْدِ اللَّهِ الْخَوْلَانِيِّ: أَلَمْ يُحَدِّثْنَا فِي التَّصَاوِيرِ؟! قَالَ: إِنَّهُ قَالَ: (إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ) أَلَمْ تَسْمَعْهُ؟ قُلْتُ: لَا؛ قَالَ: بَلَى قَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ) [متفق عليه؛ واللفظ لمسلم]

[2] (لَعَنَ اللَّهُ الوَاشِمَاتِ وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ، لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ) [رواه البخاري]

[3] رواه البخاري.

[4] سورة الحشر: 7

[5] رواه البخاري.

[6] (قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ، قَالَ: فَاذْهَبِي فَانْظُرِي؛ فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ، فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا؛ فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا) [رواه البخاري]

[7] كلمة غير واضحة.

[8] "إعلام الموقعين" لابن القيِّم رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:403

كنَّا نُريد أن نُدلف إلى ما بعدها من أبيات لكن الظَّاهر أنَّ في هذا القدر كفاية؛ وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الدَّرس الثاني والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الثَّاني والعشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري -رحمه الله تعالى-.

وانتهى بنا المقام إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

وَناداكَ الكِتـابُ فَلَـم تُجِبهُ ... وَنَبَّهَكَ المَشِيبُ فَما اِنتَبَهتا
وَيَقبُحُ بِالفَتى فِعلُ التَّصَابي ... وَأَقبَحُ مِنـهُ شَيخ قَـد تَفَتّى
وَنَفسَكَ ذُمَّ لَا تَذمُم سِواهَا ... بِعَيبٍ فَهِيَ أَجدَرُ مَـن ذَمَمتا

لايزال كلام النَّاظم -رحمنا الله تعالى وإيَّاه- موصولًا في توجيه الخطاب إلى نفسه على لسان من ناصحه، ويقول له بأنَّك إذا قلتَ ذلك فقد صدقت -كما مرَّ معنا ذلك مرارًا-.

ومن هذا أنَّه قال له:[وَنَادَاكَ الْكِتَابُ] «نَادَاكَ»: يعني دعاك بنداءاته الَّتي فيه.

_ والكتاب حيث أُطلق في نصوص الشَّرع فإنَّه لا يُراد بـه إلَّا القـرآن، هـذا في حال الإطلاق كقوله -جلَّ وعـلا-:﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾[2] إلى غير ذلك من النُّصوص.

_ أمَّا إذا قُيِّد بـ «أهل»:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾[3] فإنَّ هذا يُراد به التَّـوراة والإنجيـل كما هو واضح.

_ كما أنَّ الكتاب قد يُطلق فِي غير ما أُنزل على القرآن، وهذا قليـلٌ ويُسـتعمل على حسب الفنِّ وهو لا يُستعمل أيضًا إلَّا عند النُّحاة فـإنَّهم يُطلقـون «الْكِتَـاب» ويريدون به كتابَ سبويه، وقيل السَّبب في هذا أنَّ سبويه لَم يضـع له عنوانـًا، وإلَّا فإنَّ لفظ الكتاب في نصوص الشَّريعة إنَّما يُراد به القرآن.

هنا يقُــول:

وَنَادَاكَ الْكِتَـابُ فَلَـمْ تُجِبْـهُ

أي لَم تجب نداء الكتاب بِامتثال الأمر وإجتناب النَّهي.

[وَنَبَّهَكَ] التَّنبيه يكون من الغفلة -بعدَ غفلةٍ-.

---

[1] سورة البقرة: 2

[2] سورة الكهف: 1

[3] سورة آل عمران: 64

[وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ] وهو الشَّيب الَّذي يشتعل في الرَّأس.

وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فمَـا انْتَبَهْتَا

في هذا البيت يذكر النَّاظم -رحمهُ الله تعالى- حُججًا من حُجج الله على عبده، فهـو وإن خاطب بذلك نفسه فإنَّه يعني بـه كلَّ مـؤمنٍ، فهـو يقـول: [وَنَـادَاكَ الْكِتَـابُ] وعرفنا أنَّه القرآن، ونداءات القرآن كثيرةٌ جدًّا نادى الله بها عباده المؤمنين، وقـد قال -جلَّ وعلا-:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1] ولهـذا قـال بعـض السَّلف: (مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَم مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ)[2] لِمَ؟ لأنَّ الله -جلَّ وعلا- قال هنا:﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فإذا تخيَّل العبد أو تصوَّر بالأصح -لأنَّ الخيال ضربٌ من الخيال-، إذا تصـوَّر العبـد أنَّ قلبـه الَّذي في جسـده وبـين جنبيه لا يملك له شيئًا ولا يستطيع أن يُوصل إليه نفعًا ولَا أن يدفع عنه ضرًّا إذا ما وصل هذا القلب إلى مرحلة الموت ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، ولهذا قال -جلَّ وعلا- في كتابه الكـريم:﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾[3] بعُـدت الشُّقَّة عليهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[4]، كذلك ربُّنا -جلَّ وعلا- قال في كتابـه الكـريم:﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ

[1] سورة الأنفال: 24

[2] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر المالكي؛ ص:701؛ وأيضًا "مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي" ص:803؛ عن مالك بن دينار رحم الله الجميع.

[3] سورة الحديد: 16

[4] سورة الحديد: 16

مُّعۡرِضُونَ﴾[1]، وقال -جلَّ وعلا-:﴿وَتَرَاهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[2]، وهذه أمثالٌ يضربها الله -جلَّ وعلا- على أنَّ العبد في مقام الإعراض والغفلة لا يستطيع أن يُوصل إلى قلبه ولا إلى نفسه خيرًا ولو حرص على ذلك لأنَّ القلب قد يموت، ولهذا قال -جلَّ وعلا-:﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3].

وهذه الخطابات وهذه النِّداءات مُجملة، وجاء التَّفصيل في أحكام القُرآن من النِّداء إلى التَّوحيد:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[4]، من النِّداء إلى الصَّلاة والزَّكاة:﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[5]، من النِّداء إلى الصِّدق:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[6]، وفي نداء برِّ الوالدين:﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[7]، وهكذا في صلة الرَّحم، وهكذا في جميع الأوامر والنَّواهي الَّتي أمر الله -سُبحانه وتعالى- بها في القرآن أو جاء الأمر بها في السُّنَّة فإنَّ هذا ممَّا نادى الله -جلَّ وعلا- به عباده.

إلَّا أنَّ قول النَّاظم هنا -والَّذي يظهر- أنَّه يتوجَّه إلى الموعظة، بمعنى أنَّه إذا صلح قلب العبد بموعظة القرآن صلَح القلب أيضًا بفعل الأوامر واجتناب النَّواهي، ولهذا قال الله -سُبحانه وتعالى-:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾[8] لمن؟ ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذه الآية الأُولى الَّتي ذكر الله فيها أنَّ القرآن شفاء، وقال -جلَّ وعلا-:﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ

[1] سورة الأنفال: 23
[2] سورة الأعراف: 198
[3] سورة يس: 70
[4] سورة البقرة: 21
[5] سورة البقرة: 43
[6] سورة التَّوبة: 119
[7] سورة الإسراء: 23
[8] سورة يونس: 57

لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1] لاحظ: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فهذا القرآن الَّذي أنزله الله -سبحانه وتعالى- على رسوله.

وكذلك قال ربُّنا -جلَّ وعلا- في سياق آيات شفاء القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[2]، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[3]، وكما أنَّ هذه النِّداءات وهذه المواعظ الَّتي تكون في القرآن كفيلة بإصلاح قلب العبد وتطهيره وتنقيته وإزالة ما فيه من الأمراض والأدواء فإنَّها لا تزيد مَنْ في قلبه مرضًا إلَّا مرضًا: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[4] فالقرآن يُتلى على نفسِ الآذان ويصلُ إلى نفس القلوب الَّتي هي مُضغة لكنَّ أثره وفرقانه على هذه القلوب فرقان ما بين السَّماوات والأرض، ولهذا إذا كان القلب حيًّا ولكن تشوبه الشَّوائب، عليه غبرات، عليه سحائب، عليه غشاوات، فإنَّ هذا القرآن كفيلٌ بأن يُزيلها ما لَم يصل الأمر إلى العناد -إلى معاندة القرآن، ومعارضة القرآن-، ولهذا جاء في البخاري في حديث أبي مُحمَّد جُبير بن مُطعم رضي الله عنه أنَّه مرَّ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم -وكان مشركًا- وهو يُصلِّي بالنَّاس صلَاة المغرب ويقرأ بالطُّور حتَّى بلغ قول الله -جلَّ وعلا-: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[5] قال: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِير)[1] أسلم رضي الله عنه وأرضاه؛ والَّذي يُعرض

[1] سورة الإسراء: 82
[2] سورة فصلت: 44
[3] سورة الإسراء: 82
[4] سورة التوبة: 124-125
[5] سورة الطُّور: 35

عن القرآن ما ينتفع بهداياته، ولهذا قال -جلَّ وعلا-:﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[2] لاحظ إلى أساليب الهداية في القرآن وأنَّ العبد هو المحلُّ لهذا الصَّلاح وهذا الفساد، فإذا كان القلب قابلًا -كما يقول ابن القيِّم رحمه الله وغيره من أهل العلم- لها الصلَاحِ أصلَحَهُ الله -جلَّ وعلا- بهذا القرآن، وإلَّا فإنَّه لا يزيده إلَّا فسادًا وخسارة.

فالنَّاظم هنا يقول:[وَنَادَاكَ الكِتَابُ] وأيُّ موعظة أعظم وأبلغ وأزجر للعبد من موعظة الكتاب لِما ذكر الله فيه من أهوالِ وشدائد السَّكرات وشدائد الموت وأهوال يوم القيامة والعرض على الله -سبحانه وتعالى- وتكليمه لعباده -إلى غير ذلك-!

فهو يقول:[وَنَادَاكَ الكِتَابُ] ومع هذا:[فَلَمْ تُجِبْهُ] فلم تُجب هذا الكتاب بمقتضى ما يُجاب به: اِمتثالًا للأمر وِاجتنابًا للنهّي، وهذا يدخل فيه أيضًا اِعتقاد أنَّه كلام الله -جلَّ وعلا- مُنزَّل من عنده.

وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْـــهُ

[وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ] هو شيب الشَّعر الَّذي يكون في الرأس أو في غير موضع الرَّأس، قد جاء عند البخاري في «الأدب المفرد» عن سعيد بن المسيَّب.

---

[1] عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ:﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ كَادَ قلبِي أنْ يطيرَ)) [رواهُ البخاري]

[2] سورة الأعراف: 146

● وسعيد بن المسيَّب من كبار التَّابعين، بل بعض المُحدِّثين يقول بأنَّه أفضل التَّابعين، والبعض الآخر يقول أفضل التَّابعين أُويْس القرني لأنَّ النَّص جاء فيه[1]؛ ولعلَّ هذا يُحمل على الرِّواية في العلم[2] -من فضَّله من المُحدِّثين- في الرِّواية في العلم والفقه -وما أشبه ذلك-؛ سعيد منزلته عظيمة.

يقول كما عند البخاري، وهذا من قوله، ماذا يُسمَّى قول التَّابعي في المصطلح؟! المقطوع.

وَمَا لِتَابِعٍ هُوَ الْمَقْطُوعُ[3]

والموقوف إلى الصَّحابي، والمرسل أيضًا إلى التَّابعي لكن بِشترط ذكر النَّبي صلَّى فيه بدون واسطة.

هنا سعيد بن المسيَّب عند البخاري في «الأدب المفرد» يقول: (أَوَّل مَنْ شَابَ -إِبْرَاهِيم- فَقَالَ: يَا رَب مَا هَذَا؟ قَالَ: وَقَار، قَالَ: يَا رَب زِدْنِي وَقَارًا)[4] هذا مقطوع على سعيد بن المسيّب، والله -جلَّ وعلا- ذكر في القرآن المشِيب في مقام الخوف منه لأنَّ الإنسان إذا جاءه المشيب تفوته كثير من الأشياء، ولهذا قال الله -جلَّ وعلا- عن زكرياء عليه الصَّلاة والسَّلام لمَّا طلب من ربِّه وليًّا قال:﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[5] قال قبلها:﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ

[1] عنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ)) [رواه مسلم]

[2] أي: من فضَّل سعيد بن المسيب -رحم الله الجميع-.

[3] المنظومة البيقونية في علم المصطلح.

[4] قال الألباني رحمه الله في "صحيح الأدب المفرد" (ص:483) : صحيح الإسناد موقوفًا ومقطوعًا.

[5] سورة مريم: 6

رَبِّ شَقِيًّا﴾[1]، وهكذا ذكر الله الشَّيب في القرآن لأنَّه في مقام الإنذار، وقد قال الله -سُبحانه وتعالى- كما مرَّ معنا -في هذه الآية في سورة فاطر-: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[2]

والنَّذير فُسِّر على وجهين:

_ الَّذي قطع به البخاري في كتاب التَّفسير في صحيحه أنَّه الشَّيب، قال: (قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: الشَّيْبُ)[3] هذا الَّذي قطع به البخاري.

_ وطائفة من المفسِّرين يقولون: (الْمُرَادُ بِالنَّذِيرِ: النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام)[4].

يقُول:

وَنَبَّهكَ المَشيبُ فَما اِنتَبَهتا

وجاء في أحاديث عن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في فضلِ من شاب في الإسلام شيبة، قال: ((مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ))[5]، وفي رواية أُخرى: ((مَنْ شَابَ شَيْبَةً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً))[6].

ذكر العلَّامة الحريري في آخر مقاماته أبياتًا أو قصيدةً طويلة، وهي عظيمة الوعظ أَنصح بمراجعتها؛ في مطلعها يقول:

خَلِّ إدِّكَارَ الأربُع ... وَالمَعْهَدِ المُرتَبِع
وَالظَّاعِنِ المُوَدِّعِ ... وَعَدِّ عَنهُ وَدَعِ
وَاندُبْ زَمَانًا سَلَفَا ... سَوَّدتَ فِيهِ الصُّحُفا

---

[1] سورة مريم: 4

[2] سورة فاطر: 37

[3] قال البخاري رحمه الله: (بَاب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ لِقَوْلِهِ:﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ يَعْنِي الشَّيْبَ) [في صحيحه]

[4] "تفسير الطبري" الجزء:20، ص:479

[5] قال الإمام الألباني في "صحيح التَّرغيب": صحيح لغيره.

[6] ((لَا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ شَابَ شَيْبَةً كَتَبَ اللهُ لَه بِهَا حَسَنَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً وَرَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً)) [قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترغيب": حسن صحيح]

وَلَـمْ تَـزَلْ مُعتَكِفا عَلَى الْقَبِيح الشَّنـِعِ
كَم ليلَةٍ أَوْدَعتَهـا مَـآثِـمًـا أَبْدَعتَهَـا
لشَـهـوَة أَطـعْـتَهـا فـي مَرقَـد ومَضجَعِ

إلى أن قـال:

وَكَـــم تجَـرَّأت عَلى رَبِّ السَّمَـاوَاتِ العُـلَا
وَلَـــم تُـراقِـبْـهُ وَلَا صَدَقـتَ فـي مَـا تدَّعِي

وقـال فيهـا:

وَكَـــمْ غَمَصْـتَ بِـرَّهُ وَكَـــم أمِنْـتَ مَكـرَه
وَكَـــمْ نَـبَـذتَ أمْـــرَهُ نَبْـذَ الحِـذَا المُـرَقَّـعِ

إلى أن قَـــال:

أمَا تَرَى الشَّيبَ وَخط وَخَطَّ فِي الرَّأسِ خُطَط
وَمَن يَلُح وَخْطُ الشَّمَط بِـفَـــوْدِهِ فَـقَـد نُعِـــي

هذا هو حال الإنسان.

أيا مَـن يدَّعِي الفَهْـم إلَى كَمْ يَـا أخَـا الوَهْمْ
تُعبّي الذَّنْـبَ والـــذَّم وتُخْطـي الخَطأ الجَـــمّ

-طبعًا هذه قصيدة أخرى-.

أمَـا بـانَ لكَ العيْـبْ أمَـــا أنْـذرَكَ الشّيـبْ؟
ومَـا فِي نُصْحِـهِ رَيْـبْ ولَا سَمْعُـكَ قـــدْ صمّ!

كأنِّي بِـــكَ تَنحـــطّ إلَى اللَّحْـــدِ وتنْغـطّ
وقـد أسلمَـك الرّهطْ إلَى أضيَـقَ مـــنْ سَـــمّ

هُنـاكَ الْجِسْــمُ مَمْدُودْ لِيَسْتَـأكِلَـهُ الـــدّودْ

إلَى أنْ ينْخَـــرَ العُـودْ ويُمْسِي الْعَظْـم قَـدْ رمّ

والشَّيب من أكثر الفواجع الَّتي تكلَّمت عنـهُ العـرب في أشـعارها، لا تكـاد إذا نظرتَ في أشعار العرب -في الجاهلية أو في الإسلام- تجد من المعايـب الَّـتي يـأنف منها النَّاس أكثر من قولهم في الكلام في الشَّيب، [...][1] النَّظر في أجسـادهم هـم قـد يتكلَّمون عن الضَّعف في الجسد أو الضّعف الخاص أو العـام -أو مـا أشـبه ذلـك- لكن روعتهم من الشَّيب من أكثر ما تكلَّموا فيه في أشعارهم وفي آثـارهم، لِـمَ؟! لأنَّه نذيرٌ، مُنذر بالزَّوال والاِنحلال.

هنا يقُـول:

وَنَبَّهَكَ المَشِيبُ فَمـا اِنتَبَهتا

ثمَّ قال: [وَيقْبُحُ بِالْفَتَى] هذا شيء قبيح.

وَيَقبُحُ بِالفَتى فِعلُ التَّصَابي وَأَقبَحُ مِنهُ شَيخٌ قَد تَفَتّى

هنا يقول بأنَّ من القبائح الَّتي تكون في الإنسان أن يتصابى مع كبر سنِّه.

«الفتى»: قيَّده طوائف من أهل العلم وأهل اللُّغة لِمن لَم يبلغ سنَّ الرُّشـد، يعـني لَـم يبلغ البلوغ، وإن كان قالوا قد يُطلق على من كبر في سنِّه كما جاء عن عليٍّ رضي الله

[1] كلمة غير واضحة.

عنه وغيره، وقرَّر هذا طوائف من أهل اللُّغة؛ لكن مراد النَّاظم هنا بـ:«الفتى» الَّذي لَم يبلغ أو كان في أوَّل البلوغ.

وَيَقبُحُ بالفَتى فِعلُ التَّصَابي

هو فتى قد يكون بلغ وقد يكون قارب أو ناهز البلوغ، يقبح منه أن يتصرَّف تصرُّف الصِّبية، ولهذا الآباء يقولون لأبنائهم: «أنتَ كبرت يا ولدي هذا التَّصرُّف لا يليق بك»، «هذا ليس من شِيَم الشَّباب أو الفتيان»، «هذا أفعال الصِّبيان، أفعال الأطفال»، وهكذا.

[يَقْبُح] النَّاس يستقبحون هذا.

وَيَقبُحُ بِالفَتى فِعلُ التَّصَابي ... وَأَقبَحُ مِنهُ شَيخ قَد تَفَتّى

القبيحُ قبيحٌ، لكنَّه يقبح إمَّا بوصفٍ في العبد وإمَّا بخارجيٍّ عنه كالزَّمان أو المكان، الفعل القبيح يزداد قُبحه إمَّا بوصفٍ قائمٍ في العبد أو بوصف خارجيٍّ عنه من جهة الزَّمان أو من جهة المكان.

ممَّا يقبح بالإنسان -وهو قبيح ومع زيادة الوصف فيه-: أن يتصرَّف الَّذي بلغ المشيب تصرُّف الفتية ناهيك عن تصرُّف الصِّبيان، هذا ما يقع في الوصف في الإنسان كما جاء في البخاري في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**أَعْذَر اللهُ إِلَى اِمْرِئٍ أَخَّر أَجَلَه حتَّى بلَّغه ستِّين سنةً**))[1]، «أَعْذَرَ» هنا بمعنى أزالَ العُذر عن عبدٍ أو عن اِمرئٍ بلغ السِّتِّين ومع هذا هو في الطَّيشِ والتَّهوُّر -كما يسمُّونها «المراهقة»-؛ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يقول هذا بلغ العذر، ستِّين عامًا: يسمع القرآن، يسمع المواعظ، نبَّهه الشَّيب، نبَّهه ضعف

[1] رواه البخاري

الجسم -تناوبُ الأمراض وتتابع الأمراض-، ومع هذا هو عاكفٌ على ما هو عليه؛ وأيضًا جاء عند الطبراني في الكبير والصَّغير وحسَّنه جمعٌ من الأئمَّة منهم الهيثمي ومنهم الشَّيخ ناصر -رحم الله الجميع- في حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**)) قال: ((**أُشَيْمِطٌ زَانٍ**))[1]، والأُشيمط تصغير أَشمط، والأَشمط هو الَّذي اِختلط شعر رأسه بين السَّواد والبياض فهو الشَّيب، هذا أُشيمط؛ النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**أُشَيْمِطٌ زانٍ**)) رجلٌ قد شاب شعره وكبرت سنُّه وجرَّبَ الحياة ومرَّت عليه الأحوال ومع هذا هو مُرتكبٌ لهذه الجريمة -جريمة الزِّنا- عياذًا بالله وعافانا الله وإيَّاكم.

قد يقبح الفعل بسببٍ خارجيٍّ عن العبد إمَّا من جهة الزَّمان وإمَّا من جهة المكان وإمَّا باِجتماع الزَّمان والمكان:

_ في التَّمحُّض في الزَّمان: الذُّنوب والمعاصي الَّتي يرتبكها العبد في نهار رمضان وهو صائمٌ قريبٌ من الله -سبحانه وتعالى-، ولهذا يرى بعض أهل العلم -مثل: الغيبة والنَّميمة والكذب وشهادة الزُّور- مُبطلة للصِّيام كما هو المذهب عند الظَّاهرية، وإن كان الجمهور على أنَّه لا يبطل الصِّيام والصِّيام صحيح ولكنَّه آثم بفعله ذلك، وإثْمُه أشد إذا كان في نهار رمضان، ولا يقولون بالتَّضاعف.

_ وممَّا يختلط فيه الزَّمان والمكان: الحج، في البيت الحرام، في موسم الحج، فإنَّه كما قال الله -سبحانه وتعالى-:﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] والسَّيِّئة لا تَتضاعف وإنَّما تكون أشد من الزَّمان والمكان أو المكان الآخر.

وهكذا يعظم الذَّنب باِعتبار الزَّمان أو باِعتبار المكان، أو يقبح بالإنسان الفعل.

[1] ((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"].

[2] سورة الحج: 25

وَيَقبُح بِالفَتَى فِعلُ التَّصَابِي

يعني فعل الصِّبية؛ والمنقول عن السَّلف وعن العلماء فيما يتعلَّق بالقول في التَّصابي كثيرٌ جدًّا، اِعتنوا به وبيَّنوه لأنَّه من قبائح ما يُنسب أو ما يكون عليه المرء، وهذا أيضًا كثيرٌ في كلام العرب وفي أشعارها، النَّاس يستقبحون هذا الخارم للعادة؛ وفي هذا العصر كثُرت هذه القبائح بسبب التَّقليد الأعمى للغرب فصار كثيرٌ -لا أقول من الشَّباب- بل كثيرٌ من كبار السِّنّ يتصرَّفون تصرُّفات الغرب الَّتي يَرَوْنها في وسائل الإعلام وفيما يشاهدونه من المسلسلات والأفلام فيخرج بأمثال: الشُّرْتَات، وأشياء قبيحة جدًّا في مثل هذا العصر، ما كانت موجودة في مثل هذه المجتمعات.

وَيَقبُح بِالفَتَى فِعلُ التَّصَابِي وَأَقبَح مِنهُ شَيخ قَد تَفَتّى

سنُنهِي البيت الَّذي بعده مع أنَّ الوقت تقريبًا قد تجاوز؛ يقول:

وَنَفسَكَ ذُمَّ لَا تَذمُم سِوَاهَا بِعَيْبٍ فَهِي أَجْدَرُ مَن ذَمَمْتا

مازال يُوجِّه الخطاب إلى نفسه على لسان من نصحه، يقول: أنتَ أيُّها النَّاصح أقبِل على نفسك وذمَّها [وَنَفْسَكَ ذُمَّ] وفنِّد على نفسك.

[لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا] وهذا ليس على إطلاقه ينبغي أن نتنبَّه لهذا الأمر؛ [لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا] الذَّم لأهل البدع والكبائر المجاهرين بها هذا ممَّا جاءت به الشَّريعة واِستقباح ما عليه أفعالهم، وإنَّما أراد النَّاظم أن يُعرض المرء عن إصلاح نفسه ثمَّ ينظر إلى عيوب غيره، جاء عن أبي هُريرة وقد جاء مرفوعًا والشَّيخ ناصر يحسِّنه مرفوعًا وفيه ما فيه إلَّا أنَّ الموقوف أمثل عند الطبراني -فيما أذكر- وغيره، أنَّه قال:

(يُبْصِرُ أَحَدُكُمْ الْقَذَاة فِي عَيْنِ أَخِيهِ ويَنْسَى الْجِذْعَ -أَو الْجِذْلَ- فِي عَيْنِهِ مُعْتَرِضًا)[1] فيَنظر إلى معايب النَّاس؛ السَّلف لَم يكونوا هكذا، يونس بنُ عُبيد يقول: (إِنِّي لأَعُدُّ مائةَ خِصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ، لَيْسَ فِيَّ مِنْهَا وَاحِدَة)[2].

وكان أبو الدَّرداء يقول: (لَنْ تَفْقَهَ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللَّهِ ثُمَّ تُقْبِلُ عَلَى نَفْسِكَ فَتَكُونُ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا مِنْكَ مِنَ النَّاسِ)[3].

شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم يقول: (وَمَقْتُ النَّفْسِ فِي ذَاتِ اللهِ مِنْ صِفَاتِ الصِّدِّيقِين)[4] يعني أنْ يذم الإنسان نفسه ويقتلع من جذوره الاِغترار بها كما مرَّ معنا في قول عُتبة بن غزوان عند مسلم لمَّا خطب خطبته بعد موت المُغيرة بن شُعبة -ذكرناها من قبل في مثل هذه مجالس-، لمَّا قال: (وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا)[5] -هذا في صحيح مُسلم-؛ وهذا من فقههم.

ومرَّ معنا أيضًا ما كان عليه السَّلف من هضمهم لأنفسهم، والله -جلَّ علَا- يقول:﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[6] وقال -جلَّ وعلا-:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[7]، كذلك الله -جلَّ وعلا- أحال العبد في حال المصائب إلى نفسه:﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[8]: انظروا إلى أنفسكم؛ فالعبد ينظر إلى نفسه وإلى ما يحول بينه وبين الله -جلَّ وعلا-.

---

[1] "السلسلة الصحيحة" للألباني رحمه الله؛ ص:75؛ رقم:33

[2] "مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي"، ص:254؛ وأيضًا "حلية الأولياء"لأبي نعيم الأصفهاني، الجزء الرابع، ص:18.

[3] جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ص:813

[4] "إغاثة اللهفان" لابن القيِّم رحمه الله؛ ص:104

[5] رواه مسلم.

[6] سورة النجم: 32

[7] سورة النِّساء: 49

[8] سورة آل عمران: 165

يقول:[وَنَفْسَكَ ذُمَّ] قبِّح نفسك، وفنِّد نفسك.

وَنَفسَكَ ذُمَّ لَا تَذمُم سِواهَا

[بِعَيْبٍ] تُعاب به [فَهِي أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا].

ووفَّق الله الجميع لما يحب ويرضى؛ وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّـد وعلى آله وصـحبه وسلَّم.

الدّرس الثالث والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:
فهذا هو المجلس الثَّالث والعشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد على غرفة الإمام ابن أبي زيد القيرواني؛ وهو معقودٌ أصالة في الرِّياض.

وقد إنتهى بنا الكلام على المنظومة إلى قول النَّاظم:

وَنَفسَكَ ذُمَّ لَا تَذمُم سِواهَا ... بِعَيْبٍ فَهِي أَجدَرُ مَن ذَمَمتا

بعده قال -رحمه الله تعالى-:

وأنْتَ أَحقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي ... وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيب لَمَا نَطَقْتَا

هذا البيت وما بعده لايزال موصولًا بما قبله من ذكر النَّاظم خطاب نفسه على لسان من ناصحه بأنَّ له أن يقول هذه المقالة، يعني أنَّ المنصوح له أن يقول لهذا النَّاصح: أنتَ أيُّها النَّاصح أحقُّ بالتَّفنيد؛ لماذا يقول هذا؟ لأنَّه قد قال له فيما تقدَّم معنا من الأبيات:

وَفي صِغري تُخَوِّفُني المَنايا ... وَما تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْثُ شِخْتا

وما ذكرَ لهُ من الأعذار:

لَقَد صاحَبتَ أَعلامًا كِبارًا ... وَلَم أَرَكَ اِقتَدَيتَ بِمَن صَحِبتا

إلى آخر ما تقدَّم؛ فهو يقول بسبب ما تقدَّم أنتَ أيُّها النَّاصح:[أَحَقّ بالتَّفْنِيدِ مِنِّي] والتَّفنيد من الفَنَد وهو نوعٌ من التَّجهيل والتَّسفيه، بمعنى أنَّه يُفنِّدُ هذا القائل أي يُخرج قوله عن مسار الصَّواب -أو فعله أيضًا-، فهو نوعٌ من التَّجهيل والتَّسفيه والطَّعن بالخرف، ومنه قوله تعالى لمَّا حكى قصَّة يوسف مع أبيه يعقوب وإرسال يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام قميصه بقوله:﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] قال تعالى:﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ -القافلة يعني- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[2] الله أعلم بالمسافة الَّتي فصلت بها العير بينها وبين يعقوب عليه السَّلام، وليس هذا هو الَّذي تظهر فيه المعجزة وإنَّما تظهر المعجزة أو البيِّنة أو البرهان لهذين النَّبيَّين أنَّ الزَّمن الَّذي غاب يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام عن أبيه على قولٍ لبعض أهل العلم: (ثَلَاثِينَ عَامًا) وهو الَّذي اِختاره الشَّيخ السَّعدي[3]، وعلى قولٍ: (أَرْبَعِينَ عَامًا)[4] وهذا اختاره جماعة من المحقِّقين؛ يعني لقيَهُ بعد أربعين عامًا ومع هذا لما فصلت العير:﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾[5] يقول لولا أنَّكم ستُفنِّدون هذه المقالة وتُسفِّهونها وتُجهِّلون قائلها وترمونه بالخرف -كما جاء عن جماعةٍ من

---

[1] سورة يوسف: 93

[2] سورة يوسف: 94

[3] قال العلامة السّعدي رحمه الله: (فَحَصَلَ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً، لَا تَقْصُرُ عَنْ ثَلَاثِينَ سَنَةٍ، وَيَعْقُوبُ لَمْ يُفَارِقِ الْحُزْنُ قَلْبَهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ) ["تيسير الكريم الرحمن" ص:389]

[4] "تفسير الطبري" رحمه الله؛ الجزء:16، ص:273

[5] سورة يوسف: 94

السَّلف منهم ابن عبَّاس-[1] لأنَّهم قالوا بعد ذلك:﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾[2] فقالوها؛ ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ هذا معنى الفَند.

فهو يقول:[أَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ] أنتَ تُسفِّهني فأنتَ أحقُّ بهذا التَّفنيد منِّي، وهذا حالُ كثيرٍ من النَّاس أنَّه إذا نُصِح من قبل النَّاصحين يجعل بينه وبين النَّاصح حجابًا مستورًا -وهو عيُوب ذلك النَّاصح- فيقول: «أنتَ تنصحني وهذا حالك! أصلح من نفسك أوَّلًا» وهذا كلام حقٍّ ولكن مقامُه مقامُ باطلٍ، لماذا؟! لأنَّه سبيلٌ إلى ردِّ النُّصح، ولا يجوز للمسلم أن يردَّ النُّصح بأيِّ حالٍ من الأحوال، إذا كان النَّاصح يحمل حقًّا -الحقُّ أحق أن يُتَّبع-.

وقد ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في منزلة الذِّكر -فيما يغلب على ظنِّي- من «مدارج السَّالكين» ذكر في منزلة الذِّكر أنَّ من أسباب اِنتفاع العبد بالذِّكرى والموعظة: (الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ)[3]، وهذا جاء عن أبي الدَّرداء -وعن غيره من السَّلف- أنَّه كان يقول: (إِنِّي لآمُرُكُمْ بِالأَمْرِ وَمَا أَفْعَلُهُ، وَلَكِنْ لَعَلَّ اللهَ يَأْجُرَنِي فِيهِ)[4]، وهذا مرَّ معنا مُناقشته وتقريره في الأبيات الَّتي ذكرها النَّاظم سلفًا.

[1] قال الإمام القرطبي رحمه الله: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: لَوْلَا أَنْ تُسَفِّهُونِ؛ وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ أَيْضًا: تُهَرِّمُونَ؛ وَكُلُّهُ مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى التَّعْجِيزِ وَتَضْعِيفِ الرَّأْيِ) ["الجامع لأحكام القرآن"، الجزء:11، ص:448 (باختصار)]

[2] سورة يوسف: 95

[3] قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: شِدَّةِ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ) إلى أن قال: (وَأَمَّا الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ فَإِنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ حُرِمَ الِانْتِفَاعَ بِمَوْعِظَتِهِ، لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِكَلَامِ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِعَمَلِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ) وأضاف: (فَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ مِنْ شُرُوطِ تَمَامِ الِانْتِفَاعِ بِمَوْعِظَتِهِ) [المصدر: مدارج السالكين"، ص: 446 (باختصار)].

[4] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الثاني ، ص:345

وهو يقول:[أَنْتَ] أيُّها النَّاصح [أَحَقُّ بالتَّفْنِيدِ مِنِّي].

[وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ] العاقل الَّذي يعْقِلُ ويضع الأمور في أماكنها؛ [لَمَا نَطَقْتَا] هذا فيه أنَّ الكلمات الحسنة الجميلة الَّتي تخرج من أهل الباطل لا تهزُّ شخصيَّة المسلم. هذا الَّذي تضمَّن كلام النَّاظم رحمه الله -يُعبِّر به عن المنصوح- من حيث الظَّاهر هو أمرُ حقٍّ لكن من حيث الحقيقة ومنزلتها فيه باطل.

العاقل لا ينطق بالشَّيء السَّيء ولا يقف موقفَ السَّفه لأنَّ العقل مأخوذٌ من العقال الَّذي هو الرَّبط والحزم؛ عقال النَّاقة الَّذي يعقلها، فهو يمنع الشَّخص عن مواطن السَّفه والخلل؛ فهو يقول:

وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيب لَمَا نَطَقْتَا

هل أصاب في هذه المقال؟! أصاب في اللَّفظ لَا في المعنى، اللَّبيب لا ينطق بمواطن السَّفه، ولكن هل النَّاظم في مثل هذا المقام نطقَ بشيءٍ باطلٍ حتَّى وإن كان مقصِّرًا؟! لا؛ بلاشك، أعني أنَّك لا تنظر إلى ما يقوله أهل الباطل من المقالات والألفاظ في أهلِ الحق من نِسبتهم لأهل السُّنَّة مثلًا بأنَّهم: حشوية، جامية، مُجسِّمة، مُمثِّلة، إلى ما شابه ذلك من الألفاظ، أو طعنهم بأنَّهم لا يفقهون الواقع، أو أشياء من هذه الطُّعونات، لا تنظر إليها.

هو الآن كأنَّه مُتفاخر يقول: لو كنتَ أنت اللَّبيب لما نطقتَ بهذه المقالة.

وَلَــوْ كُنْتَ اللَّبِيب لَمَــا نَطَقْتَا

وَلَو بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا   لِذَنْبِكَ لَـمْ أقلْ لك قدْ أمِنتا

يقول: لو أنَّك بكيت وبدَل الدَّمع بكيت دمًا، بمعنى أنَّه اِشتدَّ بُكاؤُه حتَّى أُفرِغت قنوات دمعه من الدَّمع فبكى دمًا.

• وهل يبكي الإنسان دمًا؟!

ذكرَ الحافظ ابن الجوزي في كتابه «المدهش» عن فتح الموصلي أنَّه كان يبكي دمًا من الخوف[1]، وذكر في كتابه «صيد الخاطر» عن سُفيان بن سعيد الثَّوري أنَّه كان يبكي دمًا من الخوف[2]؛ والعلم عند الله في هذا.

أمَّا المباحث الطِّبيَّة المعاصرة فإنَّهم لا يُنكرون هذا ويقولون بأنَّ هذا من الممكنات، وجاء عن جماعة من السَّلف لكن في غير البكاء أنَّه كان يبول دمًا حُرقة من عدم تغيير المنكر[3].

فالنَّاظم يقول:[وَلَوْ] وهذا مُفيد -كما مرَّ معنا- مُفيد لامتناع ما بعده.

[ولَوْ بَكَتِ الدِّمَا] معناه أنَّ النَّاظم كأنَّه يرى أنَّه لا يقع البكاء بالدَّم.

[1] قال ابن الجوزي رحمه الله : (كَانَ فَتْح المَوْصِلِي يَبْكِي الدُّموع ثُمَّ يَبْكِي الدَّم) [كتابه "المدهش"، ص:238]

[2] كتاب "صيد الخاطر" ص: 70.

[3] قال سفيان الثوري رحمه الله: (إنِّي لَأَرَى الْمُنْكَرَ فَلَا أتَكَلَّم فَأَبُول دَمًا) ["سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء السابع، ص:259]

وَلَــو بَكَت الدِّمَـا عَيْنَاكَ خَوْفًا

والبُكاء من المنازل العظيمة الَّتي جعلها الله -سبحانه وتعالى- في أهل الخشية والخشوع والخوف منه، وصف بها أنبياءَه ورسله كما في سورة مريم لمَّا ذكر الله -سبحانه وتعالى- طائفة من الأنبياء، ثمَّ قال:﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1]، وذكر هذا الوصف أيضًا في المؤمنين في آخر سورة الإسراء فقال:﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2]، وهكذا كان شأن السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين وقَبلهم النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام كان يُسمع لصدره أزيز كأزيز المِرجل من البكاء[3]؛ وشأن الصَّحابة كما جاء في الصَّحيحين في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه لمَّا قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم لَضَحِكتُم قَليلًا وَلَبَكيتُم كَثيرًا**))[4] قال: (فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْه وسَلَّمَ يَومٌ أشدُّ مِنْه، غطُّوا رؤُوسهم وَلَهُم خنينٌ)[5].

والبكاء في ظاهر كلام أهل العلم ليس مُقتصرًا على دمع العين، ذكر الذَّهبي في ترجمة بعضهم أنَّه كان من شدَّة بلاغة وعظه يُبكي القلوب، هكذا قال: (يُبْكِي الْقُلُوبَ) -لا يحضرني من هذا العالم الَّذي ذكره-[6].

---

[1] سورة مريم: 58

[2] سورة الإسراء: 107-109

[3] عنْ مُطَرِّف وهو ابنُ عَبدِ اللَّه بْنِ الشِّخِّير، عنْ أَبيه، قال: ((أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ)) [صحَّحه الإمام الألباني في "مختصر الشَّمائل"]

[4] متفق عليه.

[5] متفق عليه، واللفظ لمسلم.

[6] لم يتيسَّر لي الوقوف عليه.

والله -جلَّ وعلا- قال في كتابه الكريم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾[1]، التَّأثُّر من الذِّكر والتَّأثُّر من القرآن ليس مقتصرًا على بكاء العيون، تفاعل المرء معه في اضطراب قلبه وتغيُّر حاله عند سماع القرآن، كما جاء في صحيح البخاري أيضًا في حديث جبير بن مطعم أنَّه قال: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِير)[2]، ما يجده المرء أيضًا عند قراءة القرآن أو سماعه بأن يقشعرَّ جلده أو يتغيَّر قلبه أو يبكي، فإنَّ هذا كلّه من مؤثِّرات القرآن على هذا العبد.

والقرآن له سلطان على جميع جوارح العبد وحواسِّه، كُلُّ حاسَّة لو اِستعملها المرء في حال سماعه للقرآن لوجد للقرآن تأثيرًا على نفسه -كما هو معلوم-، الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾[3] جواب الشَّرط محذوف: لَكان هذا القرآن؛ وللعلَّامة الشَّنقيطي -رحمه الله- في «الأضواء» مبحث في هذا الموضع حول حذف جواب الشَّرط[4].

وَلَــو بَكَت الدِّمَـا عَيْنَاكَ خَوْفًا

هذا مفعولٌ لأجله، يعني: لأجل الخوف من الله -سبحانه وتعالى-، بَكيت خائفًا من الله، والبكاء ليس مقصورًا على الخوف، وإن كان داخلًا فيه أيضًا الخوف بفوات المرغوب؛ يعني:

---

[1] سورة الزمر: 23

[2] عَنْ مُحَمَّد بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِب بِالطُّور، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِه الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ كَادَ قلبِي أنْ يطيرَ)) [رواهُ البخاري]

[3] سورة الرَّعد: 31

[4] قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: (جَوَابُ "لَوْ" فِي هَذِه الْآيَة مَحْذُوفٌ؛ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ تَقْدِيرُهُ: لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ تَقْدِيرُهُ: لَكَفَرْتُمْ بِالرَّحْمَنِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْأَخِيرِ قَوْلُهُ قَبْلَهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، وَقَدْ قَدَّمْنَا شَوَاهِدَ حَذْفِ جَوَابِ "لَوْ" فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ "يُوسُفَ" أَنَّ الْغَالِبَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ الْمَحْذُوفُ مِنْ جِنْسِ الْمَذْكُورِ قَبْلَ الشَّرْطِ لِيَكُونَ مَا قَبْلَ الشَّرْطِ دَلِيلًا عَلَى الْجَوَابِ الْمَحْذُوفِ) ["أضواء البيان" الجزء الثاني؛ ص:240]

_ الخوف من حصول المرهوب.

_ والخوف أيضًا من فوات المرغوب.

وكلُّه جالبٌ للبكاء والتَّحسر.

وَلَــو بَكَـت الدِّمَــا عَيْنَاكَ خَوْفًا

[لِذَنْبِكَ] واللَّام هنا لَام التَّعليل، يعني: لأجل ذنبك، بسبب ذنبك؛ وهذا من المواطن الَّتي يستجلب بها العبد البكاء من خشية الله -سبحانه وتعالى-، فإِستحضار الذَّنب وإِستحضار عظمته وإِستحضار كثرته هـذا ممَّـا يجلـب للعبـد التَّأمُّـل والتَّفكُّـر والتَّذكُّر حتَّى يصل به الأمر إلى أن يبكي على حاله، وما آل إليه هذا الحال.

وَلَــو بَكَـت الدِّمَــا عَيْنَاكَ خَوْفًا

[لِذَنْبِكَ] بسبب ذنبك [لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا] لن تأمن هذا، لأنَّ العبد لا يـأمن عـن نفسه؛ جاء عن جماعة من السَّلف حتَّى جاء عـن أبي بكـر –ومثـل هـذه الآثـار العلماء يتجوَّزون في روايتها- أنَّه قال: (لَوْ كَانَتْ قَدَمي اليُمْنَى فِي الجَنَّـةِ مَـا أَمِنْـتُ مَكْرَ اللهِ أَنْ أَدْخُلَ بِاليُسْرَى)[1]، وكذلك جاء عن سُفيان الثَّوري -رحمـه الله- عنـد الموت لمَّا قال -وأخذ عودًا-: (واَللهِ لَذُنُوبِي أَهْوَنُ عِنْدِي مِنْ هَذَا، وَلَكِـن أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ)[2] ومرَّ معنا في ضمن هذه الدُّروس تبويب البُخـاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه في «كتاب الإيمان»: (بَاب: خَـوْف الْمُـؤْمِن أَنْ يَحْـبَط عَمَلُه وَهُوَ لَا يَشْعُر، وَقَال إِبْرَاهِيم التَّيمِي: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ

[1] لَمْ أَقِف لَهُ عَلَى مَصْدَرٍ –مِنْ خِلَال بحثي القاصر–؛ وقد سُئل العلَّامة الألباني رحمه الله عن هذا الأثر، فقال: (ما أَعْرَفُـه) [سلسـلة الهـدى والنُّور"، شريط رقم: 376، الدَّقيقة الثَّامنة تقريبًا]

[2] "منهاج القاصدين" لابن قدامة رحمه الله؛ ص:296

أَكُونَ مُكَذِّبًا) أو قال: (مُكَذَّبًا)، (وقَال اِبْن أَبِي مُلَيْكَة: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلّى اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ كُلُّهم كَانَ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ)[1].

وهذا الخوف من الذَّنب لا يصل بالمرء إلى حدِّ القنوط والعجز عن العمل، يعني لا ينبغي أن يسترسل معه حتَّى يكون هو كلّ تفكيره، وينقطع عن العمل بسبب تفكيره في ذنبه والخوف منه فتصيبه نوع من الوجد النَّفسي الَّذي يمنعه عن القيام بالعمل.

وَلَو بَكَت الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا لِذنْبِكَ لَم أَقُلْ لك قدْ أَمِنتا

ومَنْ لكَ بالأَمَانِ وأَنْتَ عَبدٌ

من لك بأن تكون آمنًا لا تخاف وأنتَ ذلك العبد المُقصِّر؟!

ومَنْ لكَ بالأَمَانِ وأنْتَ عَبدٌ أُمِرتَ فمَا ائتَمَرْتَ ولَا أطَعْتَا

أنتَ عبدٌ لله، وحقُّ العبودية أن تكون مِلكًا لمعبودك، يأمرك وينهاك، وهذه حقيقة العبودية ﴿إِلَّالِيَعۡبُدُونِ﴾[2] إلَّا لآمرهم وأنهاهم.

[وَأَنْتَ عَبْدٌ، أُمِرْتَ] بالأوامر الَّتي في القرآن وفي السُّنَّة، ولكن مع هذه الأوامر لَا اِمتثلها وأطعتَ الله -سبحانه وتعالى- فيها ولا اِجتنبت النَّواهي الَّتي نهاك الله -عزَّ وجلَّ- عنها.

وهذا ممَّا يؤكِّد قول النَّاظم -رحمه الله تعالى- فيما يتعلَّق بالخوف، بمعنى أنَّ من الأسباب الجالبة للخوف: اِستحضار مقام التَّقصير عند أعتاب وأبواب العبودية،

[1] صحيح البخاري

[2] سورة الذاريات: 56

فإذا اِستحضر العبد ما عنده من التَّقصير وما عنده من النَّقص فإنَّ هذا يجلب له الخوف الَّذي يجلب له البكاء.

ومَنْ لكَ بالأمَانِ وأنْتَ عَبدٌ أُمِرتَ فما ائتَمَرْتَ ولَا أطَعْتَا

والواجب على العبد أن يمتثل أمر الله -سبحانه وتعالى-، كما قال ربُّنا سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1]، وكما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هُريرة أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**مَا نَهَيْتُكُمْ عنه فاجْتَنِبوه، وَمَا أمرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اِستَطَعْتُم**))[2]، مَن يؤمِّنك وأنتَ ذلك العبد المفرِّط؟!

أُمِرتَ فمَا ائتَمَرْتَ ولَا أطَعْتَا

ثَقُلتَ مِنَ الذُّنوبِ وَلَستَ تَخْشَى

يعني أنَّ الذُّنوب قد أثقلتك، لأنَّ الذُّنوب لها ثِقَلٌ كما قال ربُّنا -سبحانه وتعالى- في سورة العنكبوت قول الكافرين للمؤمنين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾[3] ثمَّ قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[4]، ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ يعني: أثقال

[1] سورة الأحزاب: 36
[2] متَّفق عليه، واللفظ لمسلم.
[3] سورة العنكبوت: 12
[4] سورة العنكبوت: 13

ذُنوبهم، وأثقال أيضًا الَّذين يُضلُّونهم بغير علمٍ، وهذا يُفسِّره أيضًا قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[1]، ولمَّا ذكر النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام حديث الغلول الطويل: ((لَا أُلفِينَّ أحدكم يجيءُ يَوْمَ القِيامةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعيرٌ..))، ((عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ))[2] هذا ثقل الذُّنوب أيضًا، فكما أنَّ الحسنات لها ثقل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾[3]، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾[4] في النُّصوص الَّتي ذكرها الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[5] فالذُّنوب والمعاصي والطَّاعات كلُّها لها ثِقل على العبد وأيضًا لها ثِقل في ميزانه.

ثَقُلت مَنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى … لِجَهْلِكَ أن تَخِفَّ إذا وُزِنتا

يُشير إلى أنَّ العبد يُوزن في يوم القيامة.

---

1 سورة النحل: 25

2 عَن أَبِي هُرَيْرَة، قَال: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُول فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: ((لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَته بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّه أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَة عَلَى رَقَبَته فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَة عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَة عَلَى رَقَبَته نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَة عَلَى رَقَبَته رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَة عَلَى رَقَبَته صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ)) [متَّفق عليه، واللفظ لمسلم]

3 سورة القارعة: 8

4 سورة القارعة: 6

5 سورة المؤمنون: 102-103

مرَّ معنا في دروس «الواسطية» أنَّ مُحصَّل ما ذُكر من كلام أهل العلم أنَّه يُوزن ثلاثة أشياء:

_ يُوزن العبد نفسه، ومن الأدلَّة على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **((لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ))**[1] -المتَّفق عليه-، وحديث ابن مسعود رضي الله عنه: **((لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِن أُحُدٍ))**[2].

_ ويوزن العمل، والدَّليل عليه حديث كلمتان[3].

_ ويُوزن صحائف الأعمال، ودليله حديث البطاقة، من صحابيه ومن أخرجه؟ حديث عبد الله بن عمر عند التِّرمذي[4].

-كما يقولون- أهتبلها نصيحةً: الكلام في العلم كثير ولكنَّ طالب العلم إذا درس متنًا فإنَّ ضبطه بأن يحفظ على كلِّ مسألة ما لا يقل عن دليلٍ أو دليلين؛ أنتَ الآن إذا درستَ الواسطية -مثلًا- كما مرَّ معنا، شرحناها، ولها شروح كثيرة جدًّا، عندك متن مُستقل، جرِّد هذه الأدلَّة من كلام الشَّارح ومن كلام غيره، من أجل أن تعتاد أن تُعبِّر عن هذا الدَّليل أنتَ بأُسلوبك -على مُقتضى ما يدل عليه

---

[1] ((إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ)) [متَّفق عليه]

[2] عَنِ ابنِ مسعودٍ، أَنَّهُ كانَ يَجتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأراكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَت الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ)) [حسَّنه العلامة الوادعي في "الصحيح المسند"]

[3] ((كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ)) [مُتَّفق عليه؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه].

[4] قال صلَّى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيه تِسْعَةً وتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيخرجُ بِطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ ورَسولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَا هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تُظلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، والْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ)) [صحَّحه الإمام الألباني في "صحيح التِّرمذي"]

العِلم ليس من جانب الرَّأي والهوى-، لكن لابدَّ أنَّ طالب العلم يُعوِّد نفسه على تصوير المسائل وإستحضار أدلَّتها، هذا هو العلم؛ إذا شرحَ متنًا أو تَدارس متنًا هذا -كما تعلمون- من المهمَّات.

يقُول:

ثَقُلتَ منَ الذُّنوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى

لست تخاف.

لجهْلِكَ أن تَخِفَّ إذا وُزِنتا

هنا أراد الميزان، لكن هل المراد هو نفس العبد؟ هل المراد صحائفه؟ هل المراد عمله؟

ثَقُلتَ منَ الذُّنوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى

لست تخاف؛ والخشية أخصُّ من الخوف، وهي فردٌ من أفرادها ولهذا وصف الله بها خواصَّ عباده -وهم أهل العلم-:﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

[وَلَسْتَ تَخْشَى] ما السَّبب أنَّك لست تخشى؟

لجَهلِكَ أن تَخِفَّ إذا وُزِنتا

_ بأن تكون خفيفًا في الميزان أنتَ من جهة ذاتك.

_ وأن تكون خفيفًا في الميزن من جهة عملك.

_ وأن تكون خفيفًا في الميزان من جهة صحائف عملك.

---
[1] سورة فاطر: 28

وتُشْفقُ للمُصِرِّ عَلَى المعَاصي　　　وتَرْحَمُهُ، ونَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا

تتجاوز الحدَّ، فيُشير إليه إلى أنَّك أنتَ الآن مُشفقٌ عليَّ وأنا في المعاصي، وتُشفقُ على أمثالي وعلى غيرنا.

وتُشْفـقُ للمُصـرِّ عَلَى المعَاصي

ولم يقلْ:«وتُشفق للعاصي» لأنَّ هذا أمرٌ لا يخلو منه عبدٌ -كما مرَّ معنا-: **((مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ))**[1]، وكما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: **((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُم))**[2]، وقال: **((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُم مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْه: الْعُجْبَ))**[3]، فكلُّ العباد لهم ذنوب: **((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))**[4]، -وهذه الأحاديث كلُّها في «السِّلسلة الصَّحيحة» للعلَّامة الألباني رحمه الله-[5].

ليس عيبًا أن يُذنب العبد إذا بادر بالتَّوبة، ولكن المعِيب أن يُصرَّ على ذلك الذَّنب -نسأل الله العافية والسَّلامة-، ولهذا قال الله -سبحانه وتعالى-:﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[6].

[1] ((مَا مِنْ عَبدٍ مُؤْمِنٍ إلَّا ولَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، أوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنيَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا، تَوَّابًا، نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق عبدالله بن عباس رضي الله عنهما]

[2] رواه مسلم؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] قال الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب": (حسن لغيره) اهـ؛ جاء من طريق أنس رضي الله عنه.

[4] حسَّنه الإمام الألباني في "صحيح الجامع"؛ من طريق أنس رضي الله عنه.

[5] جاء في "السلسلة الصحيحة": الحديث الأول (برقم: 2276)، الحديث الثاني: (برقم 1950)، الحديث الثالث: (برقم:658)، والحديث الرابع (برقم: 2984).

[6] سورة آل عمران: 135

وفي الصَّحيح أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ**)) هل تعرفون القُمع؟! الَّذي يكون واسع من الأعلى وضيِّق من الأسفل، فهو واسع في دخول الذُّنوب وضيِّقٌ في خروجها، ((**وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**))[1]، فالإصرار على الذَّنبِ ذنبٌ في حدِّ ذاته، وتأخير التَّوبة عن الذَّنبِ ذنبٌ في حدِّ ذاته.

ثَقُلتَ منَ الذُّنوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى لجهْلِكَ أن تَخِفَّ إذا وُزِنتا

وتُشْفِقُ للمُصرِّ عَلى المعَاصي

كان بعض السَّلف يرجو أجرَ نفسه إذا أشفق على أهل المعاصي، وهذا لاشكَّ فيه، ولهذا جاء عن إبراهيم التَّيمي -رحمه الله تعالى- أنَّه كان يقول: (إنَّ الرَّجُلَ لَيَظْلِمُنِي فَأَرْحَمُهُ)[2] بسبب عاقبة الظُّلم؛ كان عندهم اِستحضارٌ لمِثل هذه الأُمور في مُعاملة النَّاس، ولم يكونوا يغترُّون لَا بأعمالهم ولا بأقوالهم ولا بعلومهم على الإطلاق -رحمهم الله-، قال: (إنَّ الرَّجُلَ لَيَظْلِمُنِي فَأَرْحَمُهُ) أرحمُه بسبب أنَّه ظلمني، ممَّا سيجني عليه ذلكَ الظُّلم منَ الآثام والسَّيِّئات -نسأل الله العافية-.

وَتُشْفِقُ للمُصِرِّ عَلَى المَعَاصي وَتَرْحَمُهُ ونَفْسكَ ما رَحِمْتَا!

---

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

[2] "سير أعلام النُّبلاء" للذَّهبي رحمه الله؛ الجزء الخامس، ص:62

[وَنَفْسَكَ] الَّتي هي أحقُّ بك وأولى بك [مَا رَحِمْتَا!] ما ترحم نفسك من الذُّنوب، منَ المعاصي، منَ السَّيِّئات، من الغيبة، منَ النَّميمة، من الكذب، من البهتان، من قول الزُّور، من عقوق الوالدين، من قطيعة الرَّحم -ممَّا شابه ذلك من هذه الأُمور الَّتي يخاف العبد فيها على نفسه-؟!

وقد مرَّ معنا في الأبيات المتقدِّمة الكلام على معاملة العبد لنفسه.

بهذا القدر سنكتفي، والله أعلم؛ وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدَّرس الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّـلام على نبيِّنـا محمَّـد وعلى آله وصـحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الرَّابـع والـعشرون مـن مجـالس التَّعليـق والشَّرح على منظومـة الألبيري -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد على غرفة الإمام ابن أبي زيد القـيرواني -رحمه الله-؛ وأصل اِنعقاده هنا في مدينة الرِّياض.

واِنتهينا إلى قول النَّاظم -رحمه الله تعالى-:

رَجَعْتَ القَهْقَرى وَخَبَطتَ عَشْوَا ... لَعَمرُكَ لَو وَصَلتَ لَمـا رَجَعتا

وَلَـو وافَيتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنـبٍ

[وَنَاقَشَك] وفي نسخة:[وَنُوقِشْتَ].

وَنُوقِشْتَ الحِسابَ إِذًا هَلَكتا

وَلَم يَظلُمكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِـن ... عَسيرٌ أَن تَقـومَ بِمـا حَمَلتا

وَلَو قَد جِئْتَ يَومَ الحَشْرِ فَردًا ... وَأَبصَرتَ الْمَنازِلَ فيـهِ شَتّى

لَأَعظَمتَ النَّدامَةَ فيـهِ لَهَفًـا ... عَلى مَا في حَياتِكَ قَـد أَضَعتا

تَفِـرُّ مِـنَ الْهَجيـرِ وَتَتَّقيـهِ ... فَهَلَّا مِـن جَهَنَّمَ قَـد فَرَرتا!

وَلَسْتَ تُطِيــقُ أَهْوَنَها عَذابًا — وَلَــو كُنْتَ الْحَدِيدَ بِها لَذُبتا

فَـلا تُنْكِرِ فَـإِنَّ الأَمْـرَ جِـدٌّ — وَلَيسَ كَما حَسِبْتَ وَلا ظَنَنتا

هذه الأبيات لا يزال النَّاظم فيها يُوجِّه إلى نفسه الخطاب على لسـان مـن ناصـحه -فيما يظهر من سياق كلامه-، وقد يَحتمل أيضًا أنَّه رجع إلى خطاب ذلك المنصـوح؛ فيقول له:[رَجَعْتَ الْقَهْقَرى] والقهقـرى معناهـا الرُّجـوع إلى الخلـف تـأخُرًّا بعـد التقدُّم، كما جاء في حديث الحوض في الصَّحيحين[1].

[وَخَبَطْتَ عَشْوَا] وخبطُ العشواء السَّير بلَا معرفة بمواضع القدم، والعشواء تأنيثٌ للأعشى وهو الَّذي لا يُبصر إبصارًا جيدًّا وإنَّما بصره مُختلطٌ بشيءٍ من العَشى قالوا له:«الأعشى»، ولُقِّب بهذا اللَّقـب جماعـةٌ مـن العـرب وخصوصًـا مـن الشُّـعراء، فالعشواء قالوا: (هِيَ النَّاقة) وهذا المثل تضربه العرب مثلًا لمن لا يُحسـن السَّـير أو يمشي ثمَّ يرجِعُ بسبب تخبُّطه، فيقولون: (خَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاءَ) بسبب أنَّه لَا يُحسـن السَّير؛ هذا خبطُ العشواء، حتَّى أنَّهم قالوا بأنَّ سبب خبط العشواء عند هذه النَّاقة -والمثال بها-: هي أنَّها إذا سارت في الصَّحراء وبين الصُّـخور وعلى الجحـور سـارت قريبة من الحيَّات والعقارب فتُثيرها بسبب أنَّها تسير في هذا المقام.

فإذا قالت العرب: (خَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاء) فإنَّهم يعنـون: سـيْرَ النَّاقـة الَّـتي لا تُـبصر جيِّدًا.

فيقول:[رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى] إلى الخلف [وَخَبَطْتَ عَشْوَا].

[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى)) [رواه البخاري]

[لَعَمْرُكَ] هذا نوع من القسم اللَّفظي الَّذي تستعمله العرب، وقد تقدَّم الكلام عليه في المنظومة[1].

[لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ] إلى غايتك [مَا رَجَعْتَا] يقول: لو أنَّك حصَّلت الوصول إلى الغاية الَّتي تُريدها -وخصوصًا غاية أهل الايمان وهي رضا الله سبحانه وتعالى وطُمأنينة القلب به- لَمَا سَهُل عليك الرُّجوع عن هذا الطَّريق وقد وصلتَ إلى هذه المنزلة، يدلُّ على هذا ما جاء في البخاري في رحلة أبي سُفيان بن حرب رضي الله عنه -وكان على دين قومه- لمَّا دخل الشَّأم، فسأل هرقل عن أقرب النَّاس نسبًا بالنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم فقيل له: (أَبُو سُفْيَان) فسأله مسائل عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعن مَنْ معه ممَّن أسلم من العرب فكان منها أنَّه قاله له: (أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنقُصُون؟) قال: (بَلْ يَزِيدُون) قال: (وَكَذَلِكَ الإيمَان حَتَّى يَتِم) ثمَّ قال له: (وَهلْ يَرتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُم سَخطَةً لِدِينِه بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فيه؟) قال: (لَا)، وفي إجابات هرقل قال: (وَكَذَلكَ الإيمَان إِذَا خَالَطَ بَشَاشَة القُلُوب)[2] يعني أنَّ الإيمان إذا اِختلط بالقلب وصار القلب مُزيَّنًا بالإيمان كما قال ربُّنا -سبحانه وتعالى-:﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾[3] فإنَّه يصعب عن المرء أن يرجع عنه، ولهذا قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: (الْإِيمَانُ إِذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ وَخَالَطَتْهُ بَشَاشَتُهُ لَا يُسْخِطُهُ الْقَلْبُ بَلْ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ)[4] وقال -رحمه الله تعالى- أيضًا: (والاِسْتِقْرَاءُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ

---

[1] الصَّفحة: 146

[2] متفق عليه.

[3] سورة الحجرات: 7

[4] "مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ الجزء العاشر، ص:649

إذَا خَلَصَ الإيمَانُ إلَى الْقَلْبِ لَمْ يَرْجِعْ عَنْهُ)[1]، وهذا معنى ما قاله النَّبي عليه الصَّلَاة والسَّلام في الصَّحيحين في حديثِ أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوةَ الإيمانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُما، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرءَ لَا يُحبُّه إلَّا للهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بعْد أنْ أنْقَذَهُ اللهُ مِنْه كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّارِ**))[2].

فالألبيري يقول: يستحيل على إنسانٍ عرف الإيمان وأبصر النُّور الَّذي في الإيمان والهداية والاِستقامة وطُمأنينة القلب واِنشراح الصَّدر وراحة النَّفس وهدوء البال ثمَّ يَسهُل عليه أن يرجع عن هذا الإيمان.

فهو يقُول:

رَجَعتَ القَهْقَرى وَخَبَطْتَ عَشوا ... لَعَمرُكَ لَو وَصَلتَ لَمَا رَجَعتا

لو ذُقتَ حلاوة الإيمان، لو عرفتَ منازل أهله فيه لصعُبَ عليك أن ترجع عنه؛ ولهذا أعظم ما يكون عليه حياة المرء المؤمن في حال زيادة إيمانه -كما هو معلوم-، والكلام على هذا يطول.

ثمَّ يقُول لَه:

وَلَو وافَيتَ رَبَّكَ دونَ ذَنبٍ ... وَنُقِشْتَ الحِسابَ إِذًا هَلَكتا

يقول: [وَلَوْ وَافَيْتَ] بمعنى: رجعتَ؛ [وَافَيْتَ] من الموافاة وهي الرُّجوع.

وَلَو وافَيتَ رَبَّكَ دونَ ذَنبٍ

[1] "المستدرك على مجموع الفتاوى"، الجزء الأول، ص:149.
[2] متَّفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

وإنَّما عملتَ بكلِّ الطَّاعات وتركتَ كلَّ المعاصي والسَّيِّئات، ثمَّ:[نُوقِشْتَ الْحِسَابَ] نوقشتَ حسابك عند الله -سبحانه وتعالى-، [إِذًا] والحالة هذه [هَلَكْتَا] فلَم تقمْ طاعاتك وعباداتك وإِجتنابك للمعاصي والسَّيِّئات مقامَ النِّعم الَّتي أنعم الله -سبحانه وتعالى- بها على العبد، وهذا أمرٌ مُطبِقٌ عليه أئمَّة الإسلام، لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال -كما في الصَّحيحين-: **((لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ؛ قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ))**[1]، وأيضًا ما جاء في كثيرٍ من الأحاديث الَّتي في الِابتلاء وحكمتِه مِنْ أنَّ الله -جلَّ وعلا- يبتلي العبد بأنواع من الِابتلاءات ليُوصله إلى منزلةٍ لا يُدركها بعمله مهما عمل؛ -في أحاديث كثيرة عنه عليه الصَّلاة والسَّلام-.

وهنا يقُول:

وَلَو وافيتَ رَبَّكَ دون ذَنبٍ

جاء عن مُحمَّد ابن أبي عُمَيرة -مذكور في الصَّحابة- موقوفًا[2]، وجاء عن عُتبة بن عبدٍ مرفوعًا، وحسَّن السّيوطي إسناده في «الجامع»، وحسَّنَه كذلك العلَّامة الألباني في «الصَّحيحة» وفي «الجامع» -جاء مرفوعًا وموقوفًا-: **((لَوْ أَنَّ رَجلا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ هَرِمًا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعالَى لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))**[3]، ما معنى الحديث؟! يقول: **((لَوْ أَنَّ رَجلا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ))** يُسحب على وجهه **((مِنْ يَوْمِ وُلِدَ))** منذُ وِلَادته **((إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ هَرِمًا))** يعني قد وصل إلى أرذل العمر **((عَلَى وَجْهِهِ))** لأجل ماذا؟ لأجل رضا الله **((فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ))**، ثمَّ يأتي يوم القيامة قال: **((لَحَقَّرَهُ يَوْمَ**

---

[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ؛ قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنْ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا)) [متفق عليه؛ واللَّفظ للبخاري]

[2] قال الألباني رحمه الله -عن الحديث المذكور-: (وَلَهُ شَاهِد عِنْدَ أَحْمَد بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُحَمَّد بن أَبِي عميرَة رضِي الله عنْهُ موقوفًا) ["السلسلة الصحيحة" الجزء الأول، ص:807]

[3] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع".

الْقِيَامَةِ)) يعني لرأى أنَّ ذلك لا شيء، حقيرًا، ليس له أيّ قيمة أمام ما أنعم الله -سبحانه وتعالى- به على العبد.

فإذا عرفَ العبد هذه المنزلة من نفسه عند ربِّه -جلَّ وعلا- فإنَّه يجتهد في عمل الطَّاعات، حتَّى أنَّ ما جاء من الآثار عن النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام تُوضِّح مثل هذا، مثل قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنْ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**))[1] -الحديث الَّذي تقدَّم وهذه بدايته-: ((**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ؛ قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا**)) وهو الَّذي كان يقوم حتَّى تتفطَّر قدماه، وهُو الَّذي ما ترك بابًا من أبواب العبادات إلَّا ولجَه عليه الصَّلاة والسَّلام -ما نحتاج نقول مثل هذا الكلام-؛ ثمَّ يقول: ((**وَلَا أَنَا**)) وحتَّى أنَّه لمَّا كان يقوم اللَّيل -كما في الصَّحيحين في حديث عائشة رضيَ الله عنها- قالت: (يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِك وَمَا تَأَخَّرَ؟)[2] قال: ((**أَفَلَا أَكُونُ عَبدًا شَكُورًا**))[3] يعني أن يشكر الله -سبحانه وتعالى- على مثل هذا.

مرَّ معنا أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام لمَّا قال له أبو بكر -كما في الصَّحيحين في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص-: (عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي)[4] قال: ((**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**))[5]، ((**مِنْ عِنْدِكَ**)) هذا فضل الله -سبحانه وتعالى-.

---

[1] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري

[2] متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

[3] متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

[4] متفق عليه.

[5] متفق عليه.

فهو يقول:

وَلَو وافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنبٍ

ولذلك النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُم مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْه: الْعُجْبَ))[1] -والحديث في «السِّلسلة الصَّحيحة» للعلَّامة الألباني رحمه الله-.

وَنُوقِشْتَ الحِسابَ إِذًا هَلَكتا

يُشير إلى ما جاء في الصَّحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ نُوقِش الْحِسَابَ عُذِّب))[2] وكانت عائشة رضي الله عنها -كما في أوَّل الحديث-: (كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيئًا لَا تَعرِفُهُ، إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعرِفَه)[3]، قالت: (أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تعالَى:﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟)[4]، اِستشكلَتْ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((مَنْ نُوقِش الْحِسَابَ عُذِّب)) مع قوله تعالى:﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؛ فقال لها النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((إِنَّما ذَلِك العَرْضُ))[5] عرض الأعمال، أمَّا المناقشة:«فعلتَ كذا، وقلتَ كذا، كان منكَ كذا، ولم تفعل بكذا» فإنَّ هذا -والعياذ بالله- يهلك، على أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يمُنُّ على من يشاء من عباده كما جاء أيضًا في الصَّحيحين في حديث ابن عمر -فيما

---

[1] قال الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب": (حسن لغيره) اهـ؛ جاء من طريق أنس رضي الله عنه.

[2] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

[3] اللفظ للبخاري.

[4] سورة الانشقاق: 8

[5] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

يغلب على ظنّي-[1] في حديث المناجاة، أنَّ الله يُناجي عبده يقول: ((أتَعْرِفُ ذَنْبَ كذَا؟ أتَعرِفُ ذنبَ كَذَا؟ فيَقُولُ: نَعَم، أَيْ ربِّ؛ حتَّى إذَا قرَّرَهُ بِذُنُوبِه وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُها لَكَ الْيَوْمَ))[2].

فهو يقُول:

وَنُوقِشْتَ الحِساب إِذًا هَلَكتا

وفوق هذا:

وَلَم يَظْلمْكَ في عَمَلٍ وَلَكِن عَسيرٌ أَن تَقومَ بِما حَمَلتا

كما قال ربُّنا -سبحان وتعالى-:﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3] وهذا وإن كان جاء في صيغة المبالغة إلَّا أنَّها ليست مرادة هنا، لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- قال في كتابه الكريم:﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4]، وقال -جلَّ وعلا-:﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[5]، وقال -جلَّ وعلا-:﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[6]، وقال:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[7].

1 من طريق ابن عمر رضي الله عنهما.
2 متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.
3 سورة فصلت: 46
4 سورة الكهف: 49
5 سورة الإسراء: 71
6 سورة النساء: 124
7 سورة النساء: 40

فهو يقول هنا: هو لم يظلمكَ في أيِّ عملٍ لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- قال في كتابه الكريم -في سورة الكهف-:﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[1] فالرَّب -سبحانه وتعالى- لا يُضيع أجر أحدٍ أبدًا وكلُّ ذلك عنده مسطور في كتاب، حتَّى جاء في صحيح مُسلم في حديث أبي ذرٍّ -في الحديث الطَّويل-: ((**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلتهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَّالَمُوا**)) قال في آخره: ((**فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجدَ غيرَ ذلِكَ فلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**))[2].

وَلَم يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِن ... عَسِيرٌ أَن تَقُومَ بِما حَمَلْتَا

وَلَو قَد جِئتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَردًا ... وَأَبْصَرتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى

[وَلَوْ قَدْ جِئتَ يَوْمَ الْحَشْرِ] يوم القيامة؛ يوم حشر النَّاس ونشرهم على الله -سبحانه وتعالى- يوم القيامة.

[يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا] لوحدك، لأنَّ الإنسان يُحشر كما خلقه الله -سبحانه وتعالى- من جهة ذاته وهيئته وكذلك لا يحيطُ أحدٌ به من أصوله وفروعه وحاشيته وإنَّما يُحشر وحده:﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[3] ما الَّذي كانوا يزعمون؟! ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[4]، فهنا قال:﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ وفي الآية الأخرى في سورة الكهف:﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[5]، وجاء في الصَّحيحين في

---

[1] سورة الكهف: 30

[2] رواه مسلم.

[3] سورة الأنعام: 94

[4] سورة التغابن: 7

[5] سورة الكهف: 48

حديثِ عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرلًا**))[1] يعني غير مختونين، وقال ربُّنا -سبحانه وتعالى- أيضًا: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[2]، فكما بدأ الله هذا الخلق يُعيده، فيُحشر النَّاس على هذا الحال.

وَلَــوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا

والله -جلَّ وعلا- قال في كتابه الكريم: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[3]، كذلك قال ربُّنا -سبحانه وتعالى- في آخر سورة المعارج: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[4] إلى آخره، فالله -جلَّ وعلا- يحشر النَّاس على هذا الحال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

في قضية اِستحضار الآيات: لَا تنتظر أن تأتيك الآية من حيث الرَّأس الَّذي أردتَه، لأنَّك أحيانًا ستمضي ساعة؛ فخيرٌ من هذه السَّاعة الَّتي ستُمضيها: أن تُمضيَ دقيقةً في آيتين قبلها أو أن تقرأ من نفس السُّورة، أحسن.

---

1 متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

2 سورة الأنبياء: 104

3 سورة عبس: 33-37

4 سورة المعارج: 11-16

فهو يقول:[وَلَوْ قَدْ جِئْتَ] أيُّها المخاطَب [يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا] مَن اِستحضر هـذا المقـام مع اِستحضار الحبِّ لمن حوله في هذا الزَّمان اِنقطعت بين يديه علائق الدُّنيا وهَـان عليه كلُّ شيءٍ من أمر الدُّنيا، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ حتَّى قال العلماء: لِمَ قدَّم الأخ؟ لأنَّ الفزعات -يعني الفزع والهول- لا يأتِ مـن قِبَـل الزَّوجـة ولا مِـن قِبَـل الأبناء، فقُدِّم هنا، وهذا المقام مقامُ فزعٍ فهو يظنّ أنَّ فـزع الدُّنيـا كفـزع الآخـرة فينتفض -كما يقول أهل هذه البلاد-: [...][1] أخيه.

قـال:﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ وهي أرفـق ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ لا ينفع كلُّ هذا، -نفسي نفسي لا أسالك سواها-.

وَلَوْ قد جِئتَ يومَ الحَشْرِ فَردًا وَأَبصَرتَ المَنازِلَ فيـهِ شَتّى

أبصرتَ منازل النَّاس ودرجاتهم، [شتَّى] مُختلفة، متفرِّقة، بسبب أعمالهم كمـا قـال ربُّنا -سبحانه وتعالى-:﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾[2] والآيات في هذا كثـيرة، في أوَّل الواقعـة وفي آخرهـا:﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[3]، ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[4]، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾[5] هـــذه منازلُ في الآخرة، حتَّى أصحاب الجنَّة منازلهم متفاوتة ومُختلفة، وكـذلك في قـوله -سبحانه وتعـالى-:﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ

[1] كلمة غير واضحة.
[2] سورة الزمر: 20
[3] سورة الواقعة: 10-11
[4] سورة الواقعة: 27
[5] سورة الواقعة: 41

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[1] هؤلاء كلُّهم من أمَّة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، فكلُّهم -الظَّالم والمقتصد والسَّابق-: من أهل المنازل، ولكن هل منزلتهم واحدة؟! هو يقول:

وَأَبصَرتَ المَنازِلَ فيهِ شَتّى

حتَّى جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((أَوَّلُ زُمرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمرِ لَيْلةَ البَدْرِ، والَّذِينَ عَلَى آثَارِهِم كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّماءِ إِضَاءةً))**[2].

وجاء في صحيح مسلم في حديث المُغيرة بن شُعْبة أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؛ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ؛ فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ؛ قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ))** -اصطفاهم الله سبحانه- **((أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))**[3] -وهذا في صحيح مُسلم في حديث الْمُغِيرة بن شُعبة-.

فهو يقول:[وَأَبْصَرْتَ] يعني: رأيتَ [المَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى]؛ ما الَّذي ستفعله؟! قال:

---

[1] سورة فاطر: 32

[2] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

[3] رواه مسلم.

لَأَعظمت النَّدامَةَ فيـــهِ لَهفًا

تُعْظِم النَّدامة وتُعظِّمها وتندم، [لَهفًا] لأيِّ شيءٍ؟!

عَلى مَـا فِي حَياتِكَ قَـد أَضَعْتَا

ولهذا قال ربُّنا -سبحانه وتعالى- في آخر سورة الفجر: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾[1]، وكذلك قال ربُّنا -سبحانه وتعالى-: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[2]، وقال ربُّنا -جلَّ وعلا- عنهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[3].

وَلَو قَد جِئْتَ يَومَ الْفَصْلِ فَرْدًا ... وَأَبْصَرتَ المَنازِلَ فِيـهِ شَتَّى
لَأَعْظَمتَ النَّدامَةَ فيـــهِ لَهَفًا ... عَلَى مَا فِي حَياتِكَ قَد أَضَعتَا

مرَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم على قبرٍ ثمَّ قال لأصحابه: ((**رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانَ مِمَّا تَحْقِرُونَ وتَنفلُونَ يَزِيدُهُما هَذَا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بقيَّةِ دُنْيَاكُم**))[4] -والحديث في «السِّلسلة الصَّحيحة»-، تأمَّل في هذا الحديث: ((**مِمَّا تَحْقِرُونَ**)) معناه أنَّها ليست فرضًا، كثير من النَّاس يقولون: «سُنَّة»، «تحيَّة المسجد سُنَّة»، «القَبْلِيَّة سُنَّة»، «البَعْدِيَّة سُنَّة»، «ما هي فرض»، «مَا هي مفرُوضة عليَّ» يحقرون، يقول: ((**رَكْعَتانِ خَفِيفَتَانَ مِمَّا تَحقِرُونَ وتَنفلُونَ يَزِيدُهما هَذَا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِن**

[1] سورة الفجر: 24-26
[2] سورة الزمر: 56
[3] سورة الأنعام: 31
[4] قال الإمام الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة": صحيح بمجموع طُرقه.

بقيَّةِ دُنْيَاكُم)) والحديث في «السِّلسلة الصَّحيحية» -لا يحضرني الآن من صحابيُّه ولا من أخرجه-.[1]

((رَكْعَتَانِ خَفيفَتَانَ مِمَّا تَحقِرُونَ وتَنفلُونَ يَزِيدُهُما هَذَا فِي عَمَلِهِ)) يُخبر عن الحالة الَّتي هو فيها في قبره، **((أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بقيَّةِ دُنْيَاكُم))**.

لَأَعظمتَ النَّدامَةَ فيهِ لَهَفًا | عَلى ما فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعتا

ما حالك؟! قـال:

تَفِـرُّ مِــنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ | فَهَلَّا مِـن جَهَنَّمَ قَـد فَرَرْتَا

يقيس لك حياتك الدُّنيا بما فيها من فراك من المؤذيات والمؤلمات على أنَّك تكون أعقل إذا فررتَ من نار جهنَّم، ولهذا جاء في التِّرمـذي في حـديث أبي هريـرة عـن النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: **((مَا رَأَيْتُ مِثْـلَ النَّـارِ نَـامَ هَارِبُهـا، ولَا مِثْـلَ الجنَّةِ نامَ طَالبُها))**[2] -والحديث حسَّنه الشَّيخ[3] أيضًا في «صحيح التِّرمذي».

الله -جلَّ وعلا- قال في المنافقين يُحرِّض بعضهم بعضًا على ترك الغَزْوِ والجهـاد مـع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾[4] أتخرجـون وتُجاهـدون وتُقاتلون وتتركون أموالكـم وأولادكـم وأزواجكـم؟ تخرجون في هذا الحرِّ -في حرِّ المدينة وشدَّته في الصَّحراء-؟! ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، قـال الله -عـزَّ وجـل-:﴿قُلْ نَارُ

---

[1] جاء من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] حسَّنة الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي".

[3] أي: الشَّيخ الألباني رحمه الله

[4] سورة التوبة: 81

جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

هو يقول:[تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ] الهجير والهاجرة: شِدَّة الحر، ولذلك تُسمَّى صلاة الظُّهر بـ:«صلاة الهاجرة».

[تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ] تهرب من الهجير [وَتَتَّقِيه] كما يهرب الإنسان من التُّراب ويتأثَّر منه، ولو وُضع في قبره فلن يُغطَّى إلَّا بأمثاله من التُّراب.

[فَهَلَّا مِنْ جَهَنَّم] هل لك عقلٌ ورزانة ولبٌّ وحياةُ قلبٍ فتفرّ وتهرب من نار جهنَّم؟!

فَهَلَّا مِـنْ جَهَنَّم قَـدْ فَرَرْتَا

لِم؟! أجابك فقال:

وَلَستَ تُطيقُ أَهوَنَهَا عَذابًا

لن تُطيق أهون عذابِ أهل النَّار.

وَلَـو كُنتَ الحَديدَ بِها لَذُبْتَا

جاء في أهون عذاب أهل النَّار أنَّه أبو طالب[2] -عمُّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام- كما في حديث العباس بن عبد المطلب في الصَّحيحين لمَّا قال: (يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟)[3] قال: ((**نَعَمْ؛ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَان فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**))[4]، وجاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**إنَّ أهوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا يومَ القِيَامةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ**

---

[1] سورة التوبة: 81-82

[2] -أي من الكفار-.

[3] متفق عليه

[4] متفق عليه.

قَدَمَيْه جَمرةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُه))[1] هذا أهون أهل النَّار عذابًا، فلا تسأل عمَّن قال الله فيهم:﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[2] و ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾[3] إلى آخر ما ذكره الله -سبحانه وتعالى- في هذا.

وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا

جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((نَارُكُمْ))** هذه نار الدُّنيا الَّتي بها البراكين وبها ما تُوقدون وبها كُلُّ شيءٍ ممَّا تستعملون، يقول: **((نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ))**[4] قالوا: (يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً)[5] يعني نار الدُّنيا تكفي في التَّعذيب، فقال: **((فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا))**[6] فهل يُطيق أحدٌ العذاب بنار الدُّنيا؟! فكيف يُطيق بسبعين جزءً من نار الآخرة؟! عذابٌ شديدٌ، ولذلك الله -عزَّ وجلَّ- جعل نار الدُّنيا ذِكرى لِنار الآخرة، قال الله -سبحانه وتعالى-:﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[7] هذان سببان لوجود هذه النَّار في الدُّنيا -ذكرهم الله في سورة الواقعة-؛ هل رأيتم هذه النَّار الَّتي تُشعِلونها وتُورونها؟! ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾[8] لِم يا ربِّ؟! قال:﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾

---

[1] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.
[2] سورة النساء: 145
[3] سورة الحج: 19
[4] متفق عليه؛ واللَّفظ للبخاري.
[5] متفق عليه؛ واللَّفظ للبخاري.
[6] متفق عليه؛ واللَّفظ للبخاري.
[7] سورة الواقعة: 71-73
[8] سورة الواقعة: 71-72

تُذكِّر بنار الآخـرة، ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[1] المُقْـوي هـو المسـافر المبتعـد في شـدَّةٍ -صحراءٍ- يُوقد النَّار من أجل أن يستدفئ بها أو من أجل أن يطرد عنه الْهَوَامّ بهـا، إلى آخر ما فيها من المصالح والأسباب.

فهُـو يقُـول:

وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهوَنَهـا عَذابًا وَلَـو كُنتَ الحَدِيدَ بِها لَذُبتَا

[وَلَا تُنْكِرْ] ولا تُنكر كلَّ هذا لأنَّه حقٌّ ودينٌ وكلُّه جاء في نصوص الكتاب والسُّنَّة.

وَلا تُنْكِر فَـإِنَّ الأَمـرَ جِـدٌّ

واقعٌ وحقٌّ.

وَلَيْسَ كَما حَسِبْتَ وَلَا ظَنَنْتَا

الله أعلم ما الَّذي ظنَّه وما الَّذي حسبه.

نسأل الله -سبحانه وتعالى- التَّوفيق والسَّداد والهُدى والرَّشاد؛ وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[1] سورة الواقعة: 73

الدَّرس الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:
فهذا هو المجلس الخامس والعشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة الإمام المقرئ الفقيه أبي إسحاق الألبيري الأندلسي -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد على غرفة الإمام ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله-؛ وأصلُ اِنعقاده هنا في مدينة الرِّياض.

وانتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم -رحمنا الله وإيَّاه-:

أَبا بَكرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكثَرهُ وَمُعظَمَهُ سَتَرتا
فَقُل ما شِئْتَ فِيَّ مِنَ المَخَازِي ... وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَد صَدَقتا
وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمِي

[بِبَاطِنَتِي] أو [بِبَاطِنِهِ] كما في نُسخةٍ أُخرى.

بِباطِنَتِي كَأَنَّكَ قَد مَدَحتا
فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهْوَ عارٌ ... عَظيمٌ يُورِثُ المَحْبُوبَ مَقْتَا
وَيَهْوِي بِالوَجيهِ مِنَ الثُّرَيَّا ... وَيُبدِلُهُ مَكانَ الفَوْقِ تَحْتَا
كَما الطَّاعَاتُ تُبدِلُكَ الدَّراري ... وَتَجعَلُكَ القَريبَ وَإِن بَعُدتَا

وَتَنشُرُ عَنـكَ فِي الدُّنيَا جَمِيـلًا   وَتَلقَى البِرَّ فِيهَـا حَيْثُ كُنْتَا

هذه الأبيات رجعَ فيها الإمام الألبيري -رحمه الله تعالى- إلى مخاطبة من كنَّاه بـ:«أبي بكر»، على ما تقدَّم في أوَّل التَّقرير والشَّرح على هذه المنظومة:

_ إذا قلنا بأنَّه ولده.

_ أو قلنا بأنَّه أحد أقرانه الَّذي حصلت بينه وبينه فجَّة.

_ أو قُلنا بأنَّه مِنْ تصوُّر الشَّاعر في باب النُّصح، فيعمّ آخرين؛ فمثَّل بأبي بكرٍ وأراد به من كان حاله كحال هذا الَّذي صوَّره في المنظومة.

فيقُول:

أَبـا بَكرٍ كَشَفتَ أَقَـلَّ عَيْبِي

توجَّهتَ إليَّ يا أبا بكرٍ بالنَّقد والذَّم وكشفِ العُيوب وهتكِ السِّتر وإنَّما أظفرك الله -سبحانه وتعالى- بقليلٍ من المعايب، وأنتَ لَا تدري بما بيني وبين الله -جلَّ وعلا- منها، ولَم تُحِط به علمًا.

[كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي] إنَّما ما أظفرَك الله به وظَهَرتَ عليه وسار معلومًا لديك إنَّما هو قليلٌ ولَم تُحطْ علمًا بما عندي، وإلَّا فإنَّ لك الحقّ أن تقوله.

أَبا بَكرٍ كَشَفتَ أَقَلَّ عَيْبِي   وَأَكثَرهُ وَمُعظَمَـهُ سَتَرتَا

فهو يتمدَّحه بهذا الأمر، وأنَّه لَم يبلغْ إلى حدِّ الفجور في الخُصومة حتَّى يذكر كلَّ ما يعلم أو يزيد عليه كحال من يُخاصم في ذلك.

وَأَكثَرهُ وَمُعظَمَـهُ سَتَرتـا

وذلك أنَّ سِتر الله على العبد عظيمٌ جدًّا يمنع من الاِطلَّاع على كلِّ ذنوبه أحدٌ من النَّاس، كما قال بعض السَّلف: (لَوْلَا سِتْرُ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مَا جَالَسْنَا أَحَدًا)[1] وأيضًا: (لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ مَا جَلَسَ إِلَيَّ أَحَدٌ)[2]، وهذا جاء عن جماعةٍ من الأئمَّة -رحمهم الله تعالى-؛ وكما يقول القحطاني في نونيته:

وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيح سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي
وَلَأَعْرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحبَتِي ... وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهَوَانِ
لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَايِبِي وَمَثَالِبِي ... وَحَلُمْتَ عَنْ سَقَطِي وَعَنْ طُغْيَانِي[3]

فالعبد إنَّما هو بستر الله -تبارك وتعالى- عليه، و **((مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفينَةِ))**[4] وستر الله عظيمٌ، وعند طائفةٍ من أهل العلم محسَّن حديث: **((إنَّ اللهَ تعَالَى حَيِيٌّ سِتِّيرٌ))**[5] بمعنى أنَّه يستر العبد، وقد جاء في الصَّحيحَين في مُناجاة العبد ربَّه يوم القيامة أنَّه يقول: **((سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ))**[6].

فهو يقول:[أَبَا بَكْرٍ] أنتَ توجَّهت إلى نَقدِي فكشفتَ أقلَّ عيبِي، وأكثر هذا العيب ومُعظمه سترت.

ثُمَّ يقُول لهُ:

---

[1] "شعب الإيمان" للبيهقي رحمه الله؛ الجزء السادس، ص:290؛ عن سُفيان بن عُيَيْنَة رحمه الله.

[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء السادس، ص:121؛ عن محمَّد بن واسع رحمه الله.

[3] نُونية القحطاني رحمه الله.

[4] ((مَا مِنْ عَبدٍ مُؤْمِنٍ إلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، أوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنيَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا، تَوَّابًا، نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"؛ من طريق عبدالله بن عباس رضي الله عنهما]

[5] ((إنَّ اللهَ تعالى حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُم فَلْيَسْتَتِرْ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"، من طريق يَعْلَى بن أُميَّة رضي الله عنه]

[6] متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

فَقُل مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ المَخَازِي وَضاعِفهـا فَإِنَّكَ قَــد صَدَقتا

[قُلْ مَا شِئْتَ] لأنَّ هذا حال البشر، ولأنَّ هذا الكلام صادرٌ من إمام في الدِّين معلوم التَّواضع، وهؤلاء القوم لا ينظرون إلى الذَّنب كنظرنا إليه نحن، كما جاء ذلك في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضيَ الله عنه لمَّا قال: (إنَّ المؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَه كَأَنَّه قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أنْ يَقعَ عَلَيْهِ، وإنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَه كَذُبابٍ مرَّ عَلَى أنْفِـهِ، فقَالَ بِهِ هَكَذَا)[1]، وكما جاء أيضًا في الصَّحيح عن أنس رضيَ الله عنه أنَّه قال: (إنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمُوبِقَاتِ)[2] -أو نحو هذا المعنى، رضي الله عنهما-، فنظرتهم للذُّنوب ونظرتهم للآثام ونظرتهم للمعاصي ليست كنظرتنا نحن -نظرةُ المحقِّر للذَّنب-، قد قال عليه الصَّلاة والسَّلام -وجاء هذا مرفوعًا وموقوفًا في حديث عائشة[3] وغيرها-: **((إيَّاكُمْ ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاء ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أنْضَجُوا خبزَتهم، وَإنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنوب متَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُها تُهلِكُه))**[4] -أو كما قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام-، وهو في «السِّلسلة الصَّحيحة».

فهو يقُول:

فَقُل ما شِئتَ فِيَّ مِنَ المَخَازِي

قل ما شئتَ فيَّ من الأُمور المُخزية، [وَضَاعِفْهَا] ضاعف ما تعلم وضاعِف ما قلتَ [فَإنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا] فأنا لا أُبرِّئ نفسي؛ على الخلاف بين المفسِّرين في قوله

---

[1] رواه البخاري.

[2] رواه البخاري.

[3] عَن عائِشَة رضي الله عنها أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: ((يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب"].

[4] قال الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة": إسناده صحيح على شرط الشيخين.

تعالى:﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[1] هل هو يوسف أو اِمرأة العزيز.

ومن نظر إلى نفسه في مقام العبودية بهذا النَّظر كفاه الله شرَّ نفسه، لأنَّ العبد يُذنب الذَّنب فلاتزال حرارته في قلبه فيرى الله منه ذلك ويرى تواضعه وعدم قيامه بمقام العبودية فيعفو الله -سبحانه وتعالى- والله كريم، وربَّما يعمل الرَّجل الحسنة الصَّغيرة فيَعدُّها من جبال الحسنات ولا يرى الله -جلَّ وعلا- في قلبه إلَّا العُجب والكبر، ولهذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُم مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْه: الْعُجْبَ**))[2].

فهو يقُـول:

وَضاعِفها فَإنَّكَ قَـد صَدَقتا

[وَمَهْمَا عِبْتَنِي] مهما قلتَ من العيب.

وَمَهما عِبتَني فَلِفَـرطِ عِلْمي

[بِبَاطِنَتِي] أي: بما أُبطِنه؛ أو [بِبَاطِنِهِ] بباطن أمري.

بباطِنَتي كَأَنَّكَ قَـد مَدَحتـا

أنا أعلمُ بنفسي وأعلمُ بتقصيري وأعلمُ بما عندي من التَّقصير وأنَّ قولك هذا نوعٌ من الصِّدق، فأنتَ ذممتني بما فيَّ فهذا مدحٌ -هذا نوعٌ من المدح-.
هكذا يريد أن يُصوِّر الألبيري -رحمه الله تعالى-، وقد جاء عن بعض الأئمَّة -أظنُّه رُوَيْم بن أحمد- أنَّه كان يقول -عن حقيقة الإخلاص-: (الإِخْلَاص: اسْتِوَاءُ الْمَدْحُ والذَّم)[3] وهذا الأمر ثقيلٌ وصعبٌ جدًّا، ولكن هكذا كانوا يقولون؛ والإنسان لا

[1] سورة يوسف: 53

[2] قال الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب": (حسن لغيره) اهـ؛ جاء من طريق أنس رضي الله عنه.

[3] "بستان العارفين" للإمام النووي رحمه الله، ص:74؛ عن ذي النُّون المصري.

يقوى على مثل هذه المقامات إلَّا أن يشاء الله -سبحانه وتعالى- في هذا المقام الَّذي يستحضر فيه أنَّ تسلُّط النَّاس عليه بسبب ذنبه لَا بسبب ظُلمهم، يعني أنَّ الله سلَّطهم عليه بسبب ذنوبه هو لَا لأنَّهم قد ظلموه؛ فإذا اِستحضر المرء مثل هذا المقام قد ينجو في مثل هذه المحنة والفتنة، عند طائفةٍ من الأئمَّة أنَّ حقيقة الإخلاص اِستواء المدح والذم، وإلَّا فإنَّ هذا معيار ثقيلٌ جدًّا.

وَمَهمَا عِبتَني فَلِفَرطِ عِلْمِي ... بِبَاطِنَتِي كَأَنَّك قَدْ مَدَحْتَا

كأنَّك في حال قولكَ هذا: مدحتَ وأثنيتَ وأحسنتَ المقال [كَأَنَّك قَدْ مَدَحْتَا].

كما قلتُ لكم إنَّ هذا المقام -إن قصده الألبيري رحمه الله- فهو مقامٌ لِمن اِستحضرَ حكمة الله -سبحانه وتعالى- وأنَّه قد يقع العقاب بتسلُّطِ النَّاس عليه -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

ثُمَّ يقُول له:

فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهُوَ عارٌ ... عَظيمٌ يُورِثُ المَحْبُوبَ مَقتا
وَيَهوي بِالوَجيهِ مِنَ الثُّرَيّا ... وَيُبدِلُهُ مَكانَ الفَوقِ تَحتا

هذه المنظومة أحسن فيها الألبيري إلى طلبة العلم الَّذين يُريدون أن يُربُّوا أنفسَهم على عدم الاِلتفات إلى أنفسهم، وأن يستحضروا أنَّ مقام الحسنة ليس كمقام السَّيِّئة، ومقام الطَّاعة ليس كمقام المعصيَّة، وأنَّ القبائح مُورثة للذِّلَّة والمهانة، والطَّاعة مُورثة للعزَّة والرِّفعة.

فهو يقُول: يا أيُّها المنصوح [لَا تَرْضَ الْمَعَايِبَ] لَا ترضَ بأن تكون مَعيبًا وتضع نفسك في مقامٍ يعِيبُك النَّاس عليه؛ وإذا نظرتَ في كتب أئمَّة الحديث عند ذكرهم لخوارم المروءة رأيتَ أطرافًا من قولهم -من منثوره ومنظومه- الَّذي يُعاب ويُقدح به المرء.

كما أنَّ الرَّفيق والصَّديق والأخ والمُشاكل الَّذي يُرافقك إذا رأى مقام المعايب فإنَّه يُبغضك ويقع في قلبه نوعٌ من البُعد، فكيف إذا كان هذا الأمر فيما يَتعلَّق بمعاملة العبد لربِّه بأن لا يكون منه مع الله إلَّا المعايب والمخازي ولا يخش أن يقع من الله -سبحانه وتعالى- القِلَة -وهو: البغض ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1]-، ولهذا جاء عن الحسن البصري -رحمه الله تعالى- أنَّه قال: (يَا اِبْنَ آدم إنَّ الخَضر صحِبَ مُوسَى فقَالَ لَهُ فِي الثَّالِثَةِ:﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[2] أمَا تَخْشَى أَنْ يَقُولَ الله لَكَ هذَا وأَنْتَ تُبَارِزُه بالذُّنُوبِ؟)[3] -نسأل الله السَّلامة والعافية-، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[4].

فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهُوَ عارٌ

والمعايب لا يرضَى بها الإنسان في مَنْ يُصاحبه، ولا يرضى بمعايبِ النَّاس إلَّا من شاكلهم عليها وهذا ما يُسمَّى بـ:«المشاكلة» وهي تقارب الأرواح و ((**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مجنَّدةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اِئتَلَف، وَمَا تَنَاكَر مِنْهَا اِخْتَلَف**))[5] هذا ليس فقط فيما تعارفوا عليه من المعروف الحَسَن ولكن ممَّا تعارفوا عليه أيضًا من المعروف

[1] سورة الضُّحى: 3

[2] سورة الكهف: 78

[3] لَم يتيسَّر لي الوقُوف على مصدرٍ للأثر المَذْكُور؛ وقد جاء بنحوه عن ابن الجوزي رحمه الله، قال: (خَالَفَ مُوسَى الْخَضِرَ فِي طَرِيقِ الصُّحْبَةِ ثَلَاثَ مَرَّات، فَحَلَّ عُقْدَةَ الْوِصَالِ بِكَفٍّ:﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أَمَا تَخَافُ يَا مَنْ لَمْ يَفِ لِمَوْلَاهُ أَبَدًا أَنْ يَقُولَ فِي بَعْضِ خَطَايَاكَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ؟) [من كتابه "التَّبصرة"، ص:239]

[4] سورة الكهف: 78

[5] رواه البخاري ومسلم.

السَّيِّءِ، فإنَّك تجد أهل السُّوء يُشاكل بعضهم بعضًا، وكما قيل: (الطُّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَع)، والنَّاس كما يقول شيخ الإسلام -وغيره من الحكماء-: (النَّاسُ كَأَسْرَابِ الْقَطَا مَجْبُولونَ عَلَى تَشَبُّهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ)[1]، والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال -وقوله أصدق-: ((**الرَّجلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**))[2].

فهُـو يقُـول:

فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهُـوَ عارٌ

إنَّما يردُّ المعايب من يبغضها وينكرها، أمَّا من كان معك على نفسِ الشَّاكلة فإنَّه يُشاكلك ويُشاركك في المعايب والمساوئ.

فيقُـول:

فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهُـوَ عارٌ

[عَظِيمٌ] ما الَّذي يُؤدِّ إليه؟ [يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتًا] فهذه المعايب الَّتي تكون بين الصَّاحب وصاحبه لا تُورث إلَّا المقت، فكيف بالمعايب الَّتي هي الذُّنوب والمعاصي في معاملة العبد لربِّه؟! لِهذا قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[3]، والنَّبي عليه الصَّلاة السَّلام قال -كما في حديث عبد الله بن عمرو في المسند-: ((**وجُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**))[4]، وجاء عن أبي الدَّرداء في مسألة المصاحبة والمشاكلة أنَّ الإنسان قد يُبتلى ببعض النَّاس فإذا خالطهم وعاشرهم وَقَعَتِ المصائب من قِبَلهم، فقال في قولته المشهورة الَّتي يُردِّدها النُّحاة

---

[1] "مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ الجزء:28، ص: 150

[2] حسَّنه الإمام الألباني في "صحيح الجامع"، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] سورة الحج: 18

[4] قال الشَّيخ أحمد شاكر في "مسند أحمد": إسناده صحيح.

والبلاغيون: (أُخْبُرْ تَقْلِهْ)[1] أو (تَقْلَه)، يعني: انظر المَخبر والحال الَّذي عليه الإنسان فإذا ظهر فإنَّه لن تجد من نفسك إلَّا القِلَة له -تقْلُوه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2] كما قُلنا قبل قليل-.

فالإنسان إذا خَبَرَ النَّاس وعرف حقائقهم قَلَاهم -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

وصنَّف بعض العلماء كتابًا هو من أعجب ما يكون في الصُّحبة للأسف الشَّديد عُنوانه يُثير التَّشنُّج فكيف بحقيقته ومَخبره! صنَّف كتابًا سمَّاه «تفضيلُ الكلاب على كثيرٍ ممَّن لبِس الثِّياب» والكتابُ مطبوع.

_ كذلك من أراد أن يتسلَّى عن صحبة النَّاس ويعرف أنَّ المُصاب جلل ببعضهم فليقرأ كتاب «العُزلة» للخطَّابي، فإنَّه من أنفس الكتب في هذا الباب[3].

فهو يقُول:

فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهُوَ عارٌ

لا ترض أن تكون ممَّن تلبَّسوا بها فصارت ثوبًا له وصارت شعاره ودثاره.

فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهُوَ عارٌ

فإنَّ هذه المعايب عارٌ.

فَلا تَرضَ المَعايِبَ فَهُوَ عارٌ عَظيمٌ يُورِثُ المَحْبُوبَ مَقتا
وَيَهوي بِالوَجيهِ مِنَ الثُّرَيّا وَيُبدِلُهُ مَكانَ الفَوقِ تَحْتَا

---

[1] "عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينوري رحمه الله؛ الجزء الثاني، ص:1

[2] سورة الضُّحى: 3

[3] منْ بَابِ مَزِيد فَائدة: قَالَ شيْخنَا مُصطَفَى مَبرَم حَفِظَه اللهُ -ثَناءً عَلَى كتَابِ "العُزْلَة" للْخطَّابي-: (يَا لِهَذَا الْكِتَاب مَا أَحْسَنَهُ وَأَرْوَعَهُ، وَإنْ كَانَ ذكَرَ فِيه جُمْلَةً مِنَ الضِّعَاف وَمَا أشْبَهَهَا، إلَّا أَنَّهُ كِتَابٌ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ طَالِبُ الْعِلْمِ وَخصُوصًا فِي أَزْمِنَة الفتَنِ، فَإنَّهُ سَلْوَةٌ لِكُلِّ حَزِينٍ وَأُنْسٌ لِكلِّ مُسْتَوْحشٍ، وَمَازِلْتُ أُوصِي إخْوَانِي وَمَنْ لَنَا وُصُول إِلَيْهِم بِهَذا الْكِتَاب وَالعِنَايَة بِهِ، فَإنَّه كِتَابٌ عَظِيمٌ) [مِنْ شَرْحِه للنُّخبة].

تَقْلِبُ الموازين، تُؤثِّر على نفسيَّة هذا الإنسان، فيكون المرءُ عاليًّا مُرتفعًا فإذا ظهرت معايبه وظهرت مساوئه: يهوي، يسقط، ويتبدَّل من الفوق إلى تحت -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

وإنَّما هو ستر الرَّب -جلَّ جلاله- على خلقه وعلى عباده، -نسأل الله أن يُسبل علينا السِّتر ظاهرًا وباطنًا وأن يعفو عن زلَّاتنا ويغفر ذنوبنا وحوبنا فهو القدير على ذلك-.

كَما الطَّاعَات تُبدِلُك الدَّرَارِي

وجاء في بعض النُّسخ -وأظُنُّها المطبوعة في الدِّيوان- ضبطوها:[تُنْعِلُكَ الدَّرَارِي] يعني النَّعل -أكرمكم الله-، يقول لك: الطَّاعات هذه تجعلك كالملك على الدَّراري الَّتي هي جمعُ دُرَّة، وهي: الكوكب الدُّريُّ، قصد به الكواكب؛ فيكون هذا حالك.

[كَمَا الطَّاعَاتُ] فكما أنَّ الذَّنب يحمل العبد إلى المهانة والذِّلة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾[1] على قدر ما يكون عند الإنسان -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

كَما الطَّاعَات تُبدِلُك الدَّرَارِي   وَتجعَلُكَ القَرِيبَ وَإِن بَعُدتا

هذه الطَّاعات تُقرِّب العبد من الله -سبحانه وتعالى-، ولهذا جاء في صحيح مسلم: ((**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبدُ مِن رَبِّه وَهُوَ سَاجِدٌ**))[2] مقام الطَّاعة، فالعبد قريبٌ من الله -سبحانه وتعالى- في حالِ سُجوده.

وأثر الإيمان والعمل الصَّالح على العبد تُجاه مخالطيه ومُصاحبيه عظيمٌ جدًّا، كما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي موسى الأشعري فيما مثَّل به النَّبيُّ عليه الصَّلاة

[1] سورة المجادلة: 20

[2] رواه مسلم؛ من طريق أبي هريرة رضيَ الله عنه.

والسَّلام للجليس الصَّالح والجليس السُّوء بنافخ الكير وحامل المسك[1]، وكذلك قول ربِّنا -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[2] والوُدُّ: خالصُ المحبَّة، المحبَّة القويَّة، لأنَّ من عمل الصَّالحات جعل الله له في القُلوب منَ المحبَّة.

وإذا كان العبد فيما يُحسن به إلى النَّاس يؤثِّر على قلوبهم فكيف إذا اِجتمع فيه الإحسان في حقِّ الله والإحسان في حقِّ الخلق؟! ولهذا قال البُستي -رحمه الله- في «عُنوان الحِكَم»:

أَحْسِنِ إِلَى النَّاس تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهُم ... فَطَالَمَا اِسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ[3]

وهنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ما حالهم؟! ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، يُوضِّح هذا ما جاء أيضًا في الصَّحيحين أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: **((إنَّ اللهَ إِذَا أَحبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّه، قالَ: فيُحبُّه جِبريلُ؛ ثمَّ يُنَادِي في السَّماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السَّماءِ))**[4] حتَّى يخرج هذا الأمر إلى وضع القبول له في الدُّنيا عند أهل الصَّلاح والخير، فقال: **((ثمَّ يُوضعُ لَهُ القَبولُ فِي الأَرضِ))**[5]، **((أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ))**[6] وإنَّما المُعتبر به شهادة العدول.

كَما الطَّاعات تُبدِلُك الدَّرارِي ... وَتَجعَلُكَ القَريبَ وَإِن بَعُدتَا

---

1 ((إنَّما مثلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ والجليسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكيرِ)) [متَّفق عليه؛ من طريق أبي موسى الأشعري رضي الله عنه].

2 سورة مريم: 96

3 نونية البستي رحمه الله.

4 متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

5 اللفظ لمسلم.

6 عن أَنس بْن مَالك رَضِي اللهُ عَنْه قال: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَجَبَتْ)) ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: ((وَجَبَتْ)) فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: ((هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)) [متَّفق عليه؛ واللفظ للبخاري]

وَتَنشُرُ عَنكَ فِي الدُّنيا جَميلًا

تنتشر وتُظهر، وليس مقصودًا للعبد، لأنَّ هذا إذا كان مقصوده فـ: **((مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ))**[1] و **((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ))**[2] -كما في صحيح مُسلم-؛ ولكن أبى الله -سبحانه وتعالى- إلَّا أن يُظهِر محاسن عباده الَّتي أخلصوا لله -سبحانه وتعالى- فيها، وأن يُبيِّن إمامتهم للنَّاس، ولهذا أظهر الله إمامة أئمَّة الدِّين والسُّنَّة من السَّلف الَّذين لزموا الصِّراط المستقيم وأسقط أهل البدع مع أنَّ ما ذُكر من حفظهم الشَّيء العظيم كـ «الكرابيسي»، ومن عِبادتهم الشَّيء العظيم كـ «عمرو بن عُبيد»، وإذَا ذُكروا ذُكروا بالذَّم والبدعة، وحتَّى أنَّ أرباب مذاهبهم لا يجرءون على ذكرهم والثَّناء عليهم إلَّا فيما بينهم.

يقُول:

وَتَنشُرُ عَنكَ فِي الدُّنيا جَميلًا وَتَلقى البِرَّ فِيهَا حَيثُ كُنتَا

[وتَلْقى البِرَّ] أو [البَرَّ]:

_ [البِر]: نوعُ الإحسان **((البِرُّ حُسْنُ الْخُلُق))**[3] -كما جاء في صحيح مسلم-، فتلقى البِرَّ والإحسان من الله -سبحانه وتعالى- إذا كان هكذا حالك.

_ أو [تَلْقَى البَرَّ] الَّذي هو صاحبك، فيجعل الله لك ويُقيِّض من النَّاس من يكون على شاكلتك ويُعينك على الطَّاعة وعلى الإحسان.

وَتَلقى البِرَّ فِيهَا حَيثُ شِئْتَا

---

1 رواه البخاري، ومسلم واللفظ له.

2 عَن عَامِر بْن سَعْد قَالَ: كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبله، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَال: أَعُوذُ بالله مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِب، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: ((إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ)) [رواه مسلم].

3 رواه مسلم؛ من طريق النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه.

وَتَمْشِي فِي مَناكِبِهَا عَزِيزًا وَتَجْنِي الْحَمْدَ مِمَّا قَدْ غَرَسْتَا

يقول أنتَ تمشي في مناكب هذه الأرض عزيزًا وإن كنتَ وحدك لأنَّ الله أعزَّك بالإسلام:﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، (الْجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الْحَقّ وَلَوْ كُنْتَ وَحْدَكَ)[2].

[وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا] في هذه الأرض أينما كنتَ، أينما حللتَ، أينما نزلتَ.

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزًا وَتَجْنِي الْحَمْدَ مِمَّا قَدْ غَرَسْتَا

ما الَّذي غرسته؟! العمل الصَّالح، والبِرُّ، والإحسان، وطاعة الله، ونشر العلم، والدَّعوة، والولاء على التَّوحيد والسُّنَّة، والبراءة على الشِّرك والبدعة؛ يجعل الله لك هذه العزَّة كما جعلها لأصحاب الكهف، وكما جعلها لأقوام من الأُمَم قبلنا، وكما جعلها لأصحاب النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام بعده.

انظر أنَّ الأمر الظَّاهر الَّذي قد يُبتلى بسببه العبد ليس عليه الحكم، أضرب لك مثلين:

_ إذا تأمَّلت في قصَّة يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام رأيتَ أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم لمَّا سُئل عن الكريم قال: ((**يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ**))[3]، ((**الْكَرِيمُ، ابنُ الكَرِيمِ، ابنِ الْكَرِيمِ، ابنِ الكَرِيمِ**))[4] عليه الصَّلاة والسَّلام، هو كذلك نبيّ من أنبياء الله ورُسله، أينَ ظاهر الأمر في القرآن؟ تجد أنَّ

---

[1] سورة آل عمران: 139

[2] "إعلام الموقعين" الجزء الخامس، ص:388، و " إغاثة اللهفان"، ص:142؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[3] رواه البخاري، من طريق عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

[4] رواه البخاري، من طريق عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

يُوسف أُخذ من أبيه فأُلْقِيَ فِي الجبِّ، تجد أنَّ يوسف عليه السَّلام أُخرج من الجبِّ وبِيع بدراهم معدودة ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[1] وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ وبِيع بدراهم معدودة وظلَّ في بيتِ العزيز مملوكًا، بعض المفسِّرين يقول: (ثَلَاثِينَ عَامًا)، وبعضهم يقول: (أَرْبَعِينَ عَامًا)[2] على هذا الحال وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم.

أنتَ حالك هو ما عند الله سبحانه، وليس ما عند الخلق وتصوُّراتهم ونظراتهم وأفكارهم وموازينهم، لو نظرتَ إلى نفسك بموازين النَّاس سُقِط في يدك -وخصوصًا أهل الغربة والصَّلاح والدِّين-.

ودخل السِّجن: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[3]، ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[4] وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، ويصبر، ويقول بعد ذلك: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[5] عليه الصَّلاة والسَّلام.

_ وهكذا إذا نظرتَ إلى إمام أهل السُّنَّة والجماعة: الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-، حُمِل إلى دولة الخلافة وأُرْغِم على القول بخلق القرآن، وعُرِض على السَّيفِ، وضُرب، وسُلْسل بالأغلال والحديد حتَّى لَم يستطع أن يحملها، وشدَّ عليه سراويله مخافة أن ينكشف، وسُجِن، وتَرك التَّحديث -أو مُنع منه-؛ وهو إمام أهل السُّنَّة والجماعة، إذا ذُكرت السُّنَّة والجماعة ذُكر في مقدّمة أئمَّتها.

---

[1] سورة يوسف: 20

[2] "تفسير الطبري" رحمه الله؛ الجزء:16، ص:274

[3] سورة يوسف: 36

[4] سورة يوسف: 32

[5] سورة يوسف: 90

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَــا عَزِيزًا

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

نسأل الله -سُبحانه وتعالى- أن يجعلنا ممَّن إذا أُعطيَ شكر، وإذا اِبتُليَ صبر، وإذا أَذنب اِستغفر؛ نسأل الله -سبحانه وتعالى- التَّوفيق والسَّداد للجميع.

والحمد لله ربِّ العالمين.

[1] سورة آل عمران: 139

الدَّرس السادس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس السَّادس والعشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد على غرفة الإمام ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله تعالى-.

وقد اِنتهى بنا القول إلى قول النَّاظم -رحمنا الله وإيَّاه-:

وَأَنتَ الآن لَمْ تُعْرَف بِعَيْبٍ ... وَلَا دَنَّست ثَوبَكَ مُذ نَشَأتا
وَلَا سابَقت فِي مَيْدَانِ زُورٍ ... وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَببتا
فَإن لَمْ تَنْأَ عَنْهُ نَشِبْتَ فيهِ ... وَمَن لَكَ بِالخَلاصِ إذا نَشِبتَا
تُدَنِّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى ... كَأَنَّكَ قَبلَ ذَلِكَ مَا طَهُرتَا

لا يزال الإمام الألبيري -رحمه الله تعالى- يخاطبُ من ناصحه وكنَّاه بـ «أبي بكر»؛ أحيانًا يُوجِّه الخطاب لأبي بكرٍ وأحيانا يوجِّه الخطاب من أبي بكرٍ إلى نفسه -نفس النَّاظم- وإلى هنا اِنتهى هذا الموضع، يعني هذا النَّظم مقسوم إلى ثلاثة أقسام:

_ قِسْمٌ بدأه بخطاب «أبي بكرٍ»؛ وانتهينا منه.

_ والقسمُ الثَّاني شرع فيه فخاطب به نفسه على لسان أبي بكر.

_ ثمَّ رجع في القسم الثَّالث إلى مُخاطبة أبي بكر؛ فقال له:

وَأَنتَ الآن لَم تُعرَفْ بِعَيْبٍ وَلَا دَنَّست ثَوبَكَ مُـذ نَشَأتا

وهذا البيت ممَّا يدلُّ على أنَّه لَم يُرِدْ شخصًا مُعينًّا بعينه، لا على أنَّه اِبنُه ولا على أنَّه قرينه؛ لأنَّه أحيانًا يُخاطبه بما قد مضى من عمره بسبب البعد عن العلم والبعد عن مجَالسه، والآن يُخاطبه على أنَّه نَشْءٌ لَم يُعرف بعَيبٍ ولا بِما يُذم.

فقال:[وَأَنْتَ الآنَ] يا أبا بكر [لَمْ تُعْرَف بِعَيْبٍ] فلم تشتهر بين النَّاس بما يَعِيبك أو يُشينُك، وأعظم من هذا أنَّك لَم تُعرف بما يقدح في دينك، [لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ]

وَلا دَنَّست ثَوبَكَ مُـذ نَشَأتا

منذ النَّشأة، المراد بها هنا: البلوغ، مرحلة بلوغه، لأنَّها المرحلة الَّتي يجري على العبد فيها قلمُ التَّكليف -كما يُعبِّر الأصوليُّون-، فإذا بلغ صار مخاطبًا بأمور العُبودية.

فهو يقول له عند النَّشأة هذه:[لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ] بما يُشين، والإنسان لا يقول فيما يَقدح في دينه:«أنا لا أُبالي بما يعتقدُه النَّاس فيَّ»، لأنَّ هذا غلط وخطأ في التَّفكير وخطأ في الشَّرع؛ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام لَمَّا جاءته صفيَّة رضي الله عنها وهو مُعتكف في مسجده وحدَّثته ليلًا ثمَّ أراد أن يقلبها إلى منزلها، خَرجَ وكانت تمشي خلفه فرآه رجلَانِ من الصَّحابة، فلمَّا رآه أسرعَا المشي، فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**عَلَى رِسْلِكُمَا إنَّها صَفِيَّة**))[1]، فقالَا: (سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله)[2]، فقال

---

[1] متَّفق عليه.

[2] متَّفق عليه.

النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **((إنَّ الشَّيطَانَ يَجْرِي مِنَ الإنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ))**[1] هذا وهو رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم دفع عنهم باب الْمَسَاءَةِ، وهكذا العُلماء لمَّا عقدوا -كما مرَّ معنا- لمَّا عقدوا ما يتعلَّق بخوارم المروءة من أجل أن لا يقدح في الإنسان بشيءٍ في دينه، ولأنَّ هذا أيضًا يستوجب أحيانًا ردَّ الحقوق، فتُردُّ شهادته بسبب ما ظهر منه من السُّوء، ولأنَّه إذا ظهر منه السُّوء خرج من المعافاة، لأنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال -كما في الصَّحيحين-: **((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أنْ يَعْمَلَ الرَّجلُ باللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولَ: يَا فُلَان عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ))**[2] -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

فهو يقول له: أنتَ لَم تُعرفْ الآن بِما يَعيبُك وما يشينُك ويُسقط شهادتك أو عدالتك.

[وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ] الدَّنَس: معناه الوسخ في أصل لُغة العرب، ويُطلق على النَّجاسات -وما أشبه ذلك-، ويُطلق أيضًا على الذُّنوب، ومنه قول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لمَّا كان يستفتح الصَّلاة يُكبِّر ويسكتُ هُنَيهة[3]، فقال له أبو هريرة رضي الله عنه: (يَا رَسُولَ اللهِ بِأبِي أنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبيرِ والْقِرَاءةِ، مَا تَقُولُ؟) قال: **((أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرقِ وَالْمَغْربِ، اللَّهُمَّ نقِّني مِنْ**

---

[1] متَّفقٌ عليه.

[2] متَّفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

[3] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ؟...) الحديث. [متَّفق عليه واللفظ لمسلم]

خَطَايَايَ كَمَا يُنقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ)) يعني الوسخ، **((اللَّهُمَّ اِغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ والمْاءِ والبَرَدِ))**[1]، وهذا الحديث عظيم تكلَّم عليه ابن القيم -رحمه الله تعالى- في جُملة من كتبه بكلَامٍ عظيمٍ جدًّا.

وهنَا قَال:

وَأَنتَ الآن لَم تُعرَف بِعَيْبٍ وَلَا دَنَّست ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

ما المراد بالثَّوب؟! الثِّياب أحيانًا -كما ذكر العرب وذكر غيرهم من العلماء-: تُطلق على الإنسان نفسه.

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّة[2]

أراد أجسادهم؛ -قول امرؤ القيس-.

قالوا: ومنه قول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: **((الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ))**[3]، وفي إطلاق قوله -جلَّ جلاله-:﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[4] من أهل العلم من قال: (الثِّياب هِيَ الْمُرَادَة)[5] يعني الملبوسة، هي اللّبس الَّذي يلبسه الإنسان، قال ابن القيم: (وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالثِّيَابِ هَاهُنَا: الْقَلْب)[6] ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ يعني: وقلبك فطهِّر، ومنهم من قال الَّذي قلتُ لكم سابقًا وهذا اِستدلُّوا بها في مسألة اِشتراط الطَّهارة أو وجُوب الطَّهارة للصَّلاة، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ومن أهل

---

[1] متَّفق عليه، واللفظ لمسلم.

[2] امرؤ القيس.

[3] مُتَّفق عليه؛ من طريق أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

[4] سورة المدثر: 1-5

[5] "تفسير الطبري"؛ الجزء:24، ص:13

[6] "إغاثة اللهفان" لابن القيم رحمه الله؛ ص:58

العلم من قال: (تُحْمَلُ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا)[1]، فيصحُّ الاِستدلال بها في هذا الموضع وفي هذا الموضع.

فهنا هو يقول له: أنتَ لَم تتدنَّس ثيابُك -قلنا: بالقلب أو البدن أو الثِّياب-.

وَلا دَنَّسْتَ ثَوبَكَ مُــذْ نَشَأْتَا

لأنَّ الإنسان في أوَّل النَّشء وعند وُقوع قلم التَّكليف عليه تقعُ منه عُنفوانية الشَّباب -وهو ما يُسمَّى بخطورة مرحلة المراهقة- مع ما يتجاذبه إليه الشَّيطان والهوى والنَّفس؛ فإذا نشأ المرء على سلامةٍ وطُهرٍ وعدم تنجُّسٍ وذنوبٍ فإنَّ هذا من أعظم نِعَم الله -سبحانه وتعالى- عليه، ولهذا جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هُريرة في السَّبعة الَّذين يُظلُّهم الله في ظلّه يوم لَا ظلَّ إلَّا ظلُّه، قال: ((**وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**))[2]؛ هذه الأشياء السَّبعة إذا نظرتَ في تأمُّلات أهل العلم عليها تجدُ أنَّهم قد فاتهم شيءٌ دقيقٌ فيها وهو: نُدْرَة أصحابها، ولذلك قال: ((**إمَامٌ عَدلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجلٌ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ**))[3] -هذه قد يكون فيها نوعٌ من الكثرة-، لكن بعض هذه الصِّفات مُعارضة للفطرة الَّتي فُطر عليها الإنسان:

_ من حبِّ التَّسلُّط في ((**الإِمَام الْعَادِل**))[4].

_ من حبِّ الظُّهور في ((**رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُه مَا صَنَعَتْ يَمِينُه**))[5].

---

[1] "تفسير الطبري"، الجزء:24، ص:12

[2] متَّفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

[3] متَّفقٌ عليه؛ واللفظ للبخاري.

[4] متَّفق عليه.

[5] متفق عليه؛ واللَّفظ للبخاري.

_ ((**رَجُلٌ ذكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**))[1].

_ ((**رَجُلٌ دَعَتْه اِمْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**))[2].

هذا للنُّدْرة فيما يتعلَّق بما جُبل عليه الإنسان من أضداد هذه الأشياء، فالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**))، ولهذا لمَّا قال الإمام أحمد والإمام ابن شَوْذَب -رحمهم الله-: (إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الشَّابِ إِذَا نَسَكَ أَنْ يُؤَاخِيَ صَاحِبَ سُنَّةٍ يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا)[3] لنُدرة هذه الأشياء.

وأمَّا حديث: ((**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ**)) فإنَّه معلولٌ، ضعيفٌ، ضعَّفه أكثر أهل العلم.

وابن الجوزي -رحمه الله- له كلامٌ جميلٌ جدًّا في مراحل نشأة الإنسان وما يقع في كلِّ مرحلةٍ، في كتابٍ اسمه «تنبيه النَّائم الغمر على مواسم العمر»، وذكر فيه أشياء من هذا القبيل -من هذه الفوائد-.

ويدخل في هذا الَّذي نحن بصدده:

وَأنتَ الآن لَم تُعرف بِعَيْبٍ ... وَلَا دَنَّسْتَ ثَوبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

قوله عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث ابن عبَّاس عند الحاكم[4] وغيره: ((**اِغْتَنِمْ خَمْسًا قَبلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبلَ هَرَمِكَ**))[5]، وأيضًا قول النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث ابن مسعود، أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**لَا تَزُول قَدَمَا ابْن آدَم يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ**)) قال: ((**وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاه**))[6].

---

1 متَّفق عليه.

2 متفق عليه.

3 "تلبيس إبليس" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:12

4 أخرجه في "المستدرك" برقم: 7846.

5 عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنهُما قَالَ: قالَ رسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعظُهُ: ((اغْتَنِم خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَك قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغلِكَ، وَحَيَاتك قَبْلَ مَوْتِكَ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب"]

6 ((لاَ تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاه؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاه؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِم؟ [حسَّنه الإمام الألباني في "صحيح الجامع" برقم:7299].

كُلُّ هذا أراد الألبيري -رحمه الله- أن يُلفت النَّاصح إلى أنَّك ما دُمتَ في أوَّل ريعان الشَّباب فاحتفظ بهذه المرحلة وبهذه المكانة وباِغتنامها وبالإحسان فيها لأنَّ الأسف على ما سلف مُحال، يعني ما ينفع الإنسان إلَّا مع التَّوبة والاِستغفار والإنابة والرُّجوع إلى الله -سبحانه وتعالى-.

وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعرَفْ بِعَيْبٍ

[وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ] بالمعاصي والسَّيئات والمُنكرات، [مُذْ نَشَأْتَا]

وَلَا سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ　　　وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَبْتَا

ما سابقتَ في ميدان زور، ما أدركتَ المرحلة الَّتي تكون مُسابِقًا فيها.

[فِي مَيْدَانِ] الميدان: المكان الواسع؛ [زُورٍ] والزُّور: كلُّ اِعتقادٍ أو قولٍ أو عملٍ باطلٍ؛ هذا الشَّيء يجمع لك ما تفرَّق من تفاسير السَّلف في هذا الباب، لأنَّ مِن تفاسير السَّلف ما يقع فيه الاِختلاف في التَّنوُّع -يعني تنوُّع الألفاظ- فتجد من يقول في تفسير قوله تعالى -في سورة الفرقان-: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾[1]:

_ قال بعض السَّلف: (﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ يَعْنِي عِبَادَةَ الأَصْنَامِ)[2].

_ وقال بعضهم: (مَوَاطِنَ اللَّهْوِ)[3].

_ وقال بعضهم: (الْكَذِبَ وَالْبَاطِلِ)[4].

---

[1] سورة الفرقان: 72

[2] "تفسير الطبري"؛ الجزء:19، ص:313

[3] "تفسير البغوي"؛ الجزء السَّادس، ص:98

[4] "تفسير الطبري"؛ الجزء:19، ص:314

والمعنى الجامع لهذا كلِّه: أنَّهُ كلُّ باطلٍ اِحتوى عليه القلب أو نطق به اللِّسان أو عملت به الجوارح، هذا كلُّه يُسمَّى: زورًا؛ ومنه: عبادة الأصنام، عبادةُ غير الله -سبحانه وتعالى-، الاِعتقادات الباطلة، الأقوال الباطلة؛ ومنه أيضًا: شهادة الزُّورِ الَّتي يشهدها الإنسان على غيره لإحقاق باطلٍ أو إبطال حقٍّ فإنَّ هذه شهادة زورٍ وهي من الكبائر كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حديث أبي بَكْرة نُفَيْع بن الحارث: ((**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ؛ قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ**))[1] لماذا؟ إشفاقًا على النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام من شدَّة الوجد الَّذي وجده وهو يتكلَّم، عندما رآه الصَّحابة عندما كان يُحذِّرهم من هذا المقام.

وَلَا سَابَقْتَ فِي مَيْــــدَانِ زُورٍ

[وَلَا أَوْضَعْتَ] وهو الإسراع، ومنه قوله تعالى:﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ خلالكم: يعني في داخلكم، يُسرعون في الباطل معكم -أراد المنافقون جلَّ جلاله-، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ الخَلَل: يعني الفراغات، يدخلون بينكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[2].

وهنا قال:

وَلَا أَوْضَعْتَ فِيــــهِ وَلَا خَبَبْتَا

يعني لا أسرعتَ فيه السُّرعة المفرطة، ولا سرتَ فيه أيضًا السَّير المقتصد.

---

[1] متَّفق عليه، واللفظ للبخاري.

[2] سورة التوبة: 47

وإلَّا فإنَّ كثيرين من أهل اللُّغة وكثيرين من الشُّرَّاح يجعلون «الإيضاع» بمعنى: الخَبب، وبعضهم عندما يُفسِّر اللَّفظ يقول: (وَأَوْضَعَ بِمَعْنَى: خَبَبَ)، وهذا نبَّهتكم في كثيرٍ من المرَّات على أنَّه يُضيِّق على طالب العلم أمرًا وسَّعه الله.

أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِن

يقصدُ ماذا؟ لغة العرب؛ إذا قلنا بالتَّرادف اللَّفظي بين الألفاظ المُطلقة أسقطنا كثيرًا من المعاني الَّتي أرادها العرب، فعندما نُفسِّر اللَّفظ بلفظٍ فهذا الَّذي يُسمَّى«التَّرادف» وهو: (اِتِّحَادُ الْمَعْنَى مَعَ اِخْتِلَافِ اللَّفْظِ) فالعرب ما تُغاير بين لفظين إلَّا لزيادة في المعنى، ولهذا شيخ الإسلام -رحمه الله- قال بأنَّ القول بعدم التَّرادفِ قول محقِّقي نُحاة البصرة؛ والكوفيِّين يقولون بأنَّ هناك ترادف، ثُمَّ ذكر أنَّه إذا وقع فهو شيءٌ نادرٌ[1].

فهنا النَّاظم يقُول:

وَلَا أَوْضَعْت فِيهِ وَلَا خَبَبْتَا

والإيضاع فيه نوعٌ من الحرص، ولهذا اِستعمله الرَّب -جلَّ وعلا- فيما يتعلَّق بالمنافقين لتَثْبِيطِ المؤمنين:﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾[2] -الدُّخول معكم-، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[3] هذا خَطر؛ فهنا قَال:

وَلَا أَوْضَعْت فِيهِ وَلَا خَبَبْتَا

---

[1] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فَإِمَّا نَادِرٌ، وَإِمَّا مَعْدُومٌ) ["مقدمة في أصول التَّفسير"، ص:5]

[2] سورة التوبة: 47

[3] سورة التوبة: 47

الفائدة في هذا أنَّه يقول لك: ينبغي لك أن تكون في مقامات من الحمد والشُّكر لله -سبحانه وتعالى-، لأنَّ من عصمه الله -جلَّ وعلا- من الوقوع في شيءٍ من الفتن والمعاصي يلتفتُ بقلبه إلى شُكر الله -جلَّ وعلا-، النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام علَّمنا هذا فيما يتعلَّق بماذا؟ بمغفرة الله -سبحانه وتعالى- له، لمَّا قالت عائشة رضي الله عنها: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تفطَّر رِجْلَاه)[1] كما في الصَّحيحين، وفي رواية: (حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاه)[2] وفي رواية: (حَتَّى اِنْتَفَخَتْ قَدَمَاه)[3]، وهذا حصل حتَّى لبعض التَّابعين -مثل-: مسروق، كما جاء عنه بسندٍ صحيح كانَ يقوم اللَّيل حتَّى تتفطَّر قدماه وكانت اِمراته تبكي عند قدميه إشفاقًا عليه[4] -رحمهم الله ورضي عنهم-؛ فعائشة تقول: (يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟)[5] فيقول: (**(أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)**)[6].

فالألبيري يقول لك الآن: تذكَّر هذه النِّعمة عليك من أجل أن يحفظها؛ ابن المبارك يقول:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوب ... وقَــدْ يُورِثُ الذُّلَّ إدْمَانهَا
وتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

فهو يقول لكَ:

وَأَنْتَ الآن لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ ... وَلَا دَنَّستَ ثَوبَكَ مُذ نَشَأتَا
وَلَا سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ ... وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَبْتَا

---

[1] متفق عليه؛ واللَّفظ لمسلم.

[2] متفق عليه؛ من طريق المغيرة بن شُعبة رضي الله عنه [واللفظ للبخاري]

[3] متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

[4] روى أَنَسُ بْنُ سِيرِينَ، عَنِ امْرَأَةِ مَسْرُوقٍ قَالَتْ: (كَانَ مَسْرُوقٌ يُصَلِّي حَتَّى تَوَرَّمَ قَدَمَاهُ، فَرُبَّمَا جَلَسْتُ أَبْكِي مِمَّا أَرَاهُ يَصْنَعُ بِنَفْسِهِ) ["سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء الرابع، ص:65]

[5] متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

[6] متَّفق عليه.

إذًا ما الواجب عليك؟ شُكر نعمة الله عليكَ، معرفة هذه المنزلة الَّتي أنزلك الله إيَّاها بأن عصمك من مواطن الذُّنوب والمعاصي والشُّبهات والشَّهوات.

ثُمَّ قَال:

فَإِن لَمْ تَنْأَ عَنْهُ نَشِبْتَ فِيهِ وَمَن لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَا

هذه إشارة من الألبيري عجيبةٌ جدًّا؛ -هؤلاء عندهم النَّظر والتَّأمُّلات في النُّصوص وفي مسالك العلماء وفي مسالك من كان قبلهم-، يقول لك: الآن إذا ذُقتَ حلاوة الذَّنب المتوهَّمة في الدُّنيا [نَشِبْتَ] كأنَّك خُطِف بكَ في كلاليب، أو وَقعتَ في شَوْك السَّعدان، من يخلِّصك؟! هذا ما يُسمَّى بالإدمان عند المعاصيرين.

فهو يقول لكَ:[فإِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ] إذَا لَم تَبعُد عن تدنيس ثوبكَ وعن فعلك ما تُعاب عليه [نَشِبْتَ] فإذا نشبتَ:[وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ؟] كيف تتخلَّص من هذه النَّشبة إذا نَشبتَ فيها ووقعتَ فيما اِلْتذَّت به نفسك؟!

لأنَّ المعصية هي لذَّة وإن كانت تعقبها الحسرات -نسأل الله العافية-، ولهذا ابن القيِّم -رحمه الله- عالج هذه المسائل مُعالجة دقيقةً جدًّا وأطال -عليه رحمة الله وكتب الله أجره- في كتابه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشَّافي» أو يُعرف باسم «الدَّاء والدَّواء».

فهو يقُول: إذا لَم تنأَ عن ما يَعيبُ وعن ما يُدنِّسُ [نَشِبْتَ] فإذا نشبت:[وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ؟] إلَّا أن يُوفِّقك الله -جلَّ جلاله-.

وهذا الأمر خطيرٌ جدًّا لأنَّ الاِعتياد على فعل المعصية -كما يقولون-: يصيرُ إدمانًا، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ**))[1].

طبعًا هذه المنظومة -منظومة الألبيري- أنتم لاحظتم كثرة الدَّقـائق والمعـاني فيهـا، الأبيات بعضها دقيقةٌ جدًّا ما تستطيع أن تـمشي وأن تخـتم المجلـس أو الدَّرس في أُسبوعٍ أو أسبوعين.

فهنا الألبيري -رحمه الله- يقول:

وَمَــن لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَا

النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَـنٍ**))[2] هذا التَّشبيه ذكرنا من قبل قاعدة في أنَّ البلاغيين يقولون بأنَّه لا يُشترط أن يتكافأَ المشبَّه والمشبَّه بـه من كلِّ وجهٍ؛ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام هنا لمَّا قال: ((**مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وثَنٍ**)) بماذا أراد أن يُشبِّهه؟ بالشِّرك وأنَّه كافرٌ؟ لا؛ بلاشك، لا يقول هـذا أهـل السُّـنَّة ولا يدينون الله -سبحانه وتعالى- به، وإنَّما أراد أنَّه كعابد وثن في بـاب الملازمـة ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[3] والعكوف: معناه اللُّزوم -لُزوم المكان للعبادة- ، فأراد النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا كما قال العلماء -رحمهم الله- وهذا ممَّا سمعتُ شيخنا العلَّامة ابن غديان -عليه رحمة الله- يُقرِّره، يقول: (إِنَّمَا أَرَادَ تَشْبِيهَ مُدْمِنِ الْخَمْرِ بِمُلَازِمِ الصَّنَمِ) فالجامع بينهما:«الملازمة».

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"، من طريق أبي هريرة رضي الله عنهُ.

[2] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"، من طريق عبدالله بن عمرو رضي الله عنهُ.

[3] سورة الأنبياء: 52

ولهذا -كما قلتُ لكم- الألبيري يقول لك: من رزقه الله العافيـة لا ينظـر إلى غيرها، ويُحافظ على هذه العافية، ولذلك النَّبيُّ عليـه الصَّـلاة والسَّـلام علَّمنـا الدُّعاء بالعافية في مواطن كثيرة في أذكار الصَّباح والمساء، وكان يقول للعبَّاس: **((سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ))**[1]، و **((سَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْـدَ الْيَقِـينِ خَـيْرًا مِنْ الْعَافِيَةِ))**[2] -أو كما قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام-.

فهو يقُـول لكَ:[فَإِنْ لَمْ تَنْأَ] النَّأيُ: معناه البُعد.

نَأَتْ بِسُعَـــادَ عَنْكَ نَوى

ومعناه البُعد، نأى الدَّار: بَعُد الدَّار، فإن لَم تنأَ عن هذا الموضع وهو ما يُعاب ويُدنَّس به [نَشِبْتَ فِيهِ].

وَمَن لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَا؟

وبعد أن تَنشب يَرجعُ لك إلى الثِّياب الَّتي كانت نظيفة؛ فيقُـول:

تُدَنِّس مَا تَطَهَّرَ مِنكَ حَتَّى كَأَنَّكَ قَبْـلَ ذَلِكَ مَا طَهُرتَا

بدأ الوقوع في هذه الأمور -نسأل الله العافية والسَّلامة-، فيقول:

تُدَنِّسُ مَـا تَطَهَّرَ مِنكَ حَتَّى

رزقك الله الطُّهـر، والعفـاف، والعافيـة، لأنَّ العافيـة تُسـتعمل مُقابـل الذَّنـب أو المجـاهرة بـه، مـا الدَّليـل؟! الحـديث الَّذي قـدَّمناه سـابقًا: **((كُلُّ أُمَّـتِي مُعَـافًى إِلَّا**

[1] ((يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)) [صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"]

[2] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع"، من طريق أبي بكر الصِّدِّيق رضيَ الله عنه.

الْمُجَاهِرِينَ))[1] وابن القيِّم يقول أنَّ «المعافاة» السَّلامة مِنَ الذَّنب، والذَّنب عدم معافاة؛ ولكن على حسبه.

تُدَنِّس مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهُرْتَا

قد يقول قائل -ككثير من النَّاس اليوم، وجاء اِتِّصال من بعض النَّاس يقول-: «أنا أُريد أن أتخلَّص من بعض الذُّنوب لكنَّني ما أقدر» هذا التَّعبير خطأ، لأنَّ الله -عزَّ وجل- ما أمر بالتَّوبة إلَّا مع قدرة العباد عليها، ولا أمر بالإقلاع عن الذَّنب إلَّا مع قدرة العبد عليه، لأنَّ أهل السُّنَّة يقولون بأنَّه: (لَا تَكْلِيفَ بِمَا لَا يُطَاق) التَّكليف بما لَا يُطاق مذهب المعتزلة، فالعبد قادر؛ والجواب عن هذا أنْ يُقال: مَن حقَّقَ شرُوط التَّوبة اِستطاع أن يترك هذه المعاصي وهذه السَّيِّئات.

_ النَّدم.
_ الإقلاع.
_ عدم العودة إليها.
_ ردّ المظالم إلى أهلها -إن كانت مُتعلِّقة بحقوق الخلق والعباد-.

إلى آخره، على أنَّ ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- ذكر في بعض كُتبه عشرين طريقةً لترك العوائد، وهو كلام مُهمٌّ -إن شاء الله نذكره في موضع آخر أو ينزل في مقال-، مُهمٌّ جدًّا لأنَّ العوائد بلاشكّ تركها صعبٌ جدًّا ولكن قد يقع في قلب العبد من المؤثِّرات الَّتي تحمله على تركِ هذا الذَّنب، النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام لمَّا ذكر قصَّة

[1] متَّفق عليه؛ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

البغيِّ من بغايَا بني إسرائيل؛ -والتَّوبة شروطها في كلِّ زمان ومكان هي واحدة، في كلِّ ديانات الأنبياء واحدة، أنَّه-:

_ النَّدم.

_ والإقلاع عن الذَّنب.

_ والعزم على عدم العودة إليه.

_ وردِّ المظالم -إن كان مُتعلِّقًا بحقوق العباد-.

هل تظنُّون من هذا الحديث -حديث البـغيِّ-[1] أنَّ الله -عـزَّ وجـلَّ- غفـر لها مـع اِستمرارها على الذَّنب؟! لا؛ هذا لا يُمكن لأنَّه مُخالفٌ لما جاء في الشَّرائع؛ إذًا قام في قلبها من الرَّحمة والاِحتراق على هذا الكلب في غَيْبَة أنظار العالَم كلِّه فهي تعلم أنَّـه لا يراها أحدٌ، حتَّى هذا الكلب ما يعقل ماذا تفعل، فتَنْزِع مُوقَهـا وتـنزل إلى البـئر وتستقي له ثمَّ تسقيه من شدَّة اللَّهث الَّذي هـو فيـه فغفـر الله لهـا؛ يعـني أنَّ الله - سبحانه وتعالى- جعل لها مـن الأسـباب مـا أعانهـا على تـرك هـذا الذَّنـب وعـدم الاِلتفات إليه.

وكما جاء في حديث الرَّجل الَّذي تصدَّق على بغيٍّ وتصدَّق على سـارقٍ وتصـدَّق على غنيٍّ، وذكر النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: البغيِّ لعلَّها أن تتعفَّـف، والغـنيِّ لعلَّـه أن يتصدَّق، والسَّارق لعلَّه أن يتعفَّف عن السَّرقة[2].

[فَإِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ] لم تبعُـدْ عـن هـذا الذَّنـب [نَشِـبْتَ فِيـهِ] -نسـأل الله السَّـلامة والعافية-.

---

[1] عَن أَبِي هُرَيْرَةَ، قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِـنْ بَغَايَـا بَنِـي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ)) [متفق عليه، واللفظ لمسلم]

[2] عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِـيٍّ، فَأَصْـبَحُوا يَتَحَـدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْـتَعِفَّ عَـنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ)) [متفق عليه، واللفظ للبخاري].

وَمَـن لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَا؟

تُدَنِّسُ ما تَطَهَّرَ مِنكَ حَتّى كَأَنَّكَ قَبلَ ذَلِكَ ما طَهُرتا

لاحِظ إلى الرَّبط الَّذي يربطه الألبيري -رحمه الله تعال- يقول:

وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنبِكَ فِي وَثاقٍ وَكَيفَ لَكَ الفكَاكُ وَقَد أُسِرْتَا

يقول:[نَشِبْتَ]، وهنا عبَّر بـ:«الوثاق» وعبَّر بـ:«الأَسْر» لأنَّ هذه الذُّنوب إذا أحاطت بصاحبها -وخصوصًا مع التَّحقير-، فرقٌ بين من يعمل الذَّنب وهو يرى جبال الدُّنيا تسقط عليه مخافة الله -عزَّ وجلَّ- واعترافًا منه بتقصيره في حقِّ الله -سبحانه وتعالى-، كما مرَّ معنا في أثر أنس وأثر ابن مسعود: (إنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَه كَأَنَّه قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أنْ يَقعَ عَلَيْهِ، وإنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَه كَذُبابٍ مرَّ عَلَى أنْفِهِ، فقَالَ بِهِ هَكَذَا)[1] وأنسٌ يقول: (إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمُوبِقَاتِ)[2]، وهذا الفرق بيننا وبينهم؛ إذا جمعت بين أثرِ أَنَس وأثر اِبن مسعود فهو يقول: الذُّنوب نفسها لكن نظرتُنا لَها أنَّنا كنَّا نعُدُّها من الموبقات، ونظرتكم لها أنَّكم مثلما وقع الذُّباب على أنف أحدكم فقال به: هِشْ.

فالَّذي يتأمَّل في مثل هذه المواقف للصَّحابة رضي الله عنهم ينظر إلى الفرق بيننا وبينهم، ليسوا معصومين كما نصَّ على هذا أئمَّة السَّلف في كتب الاِعتقاد.

---

[1] رواه البخاري؛ من طريق ابن مسعود رضي الله عنه.

[2] رواه البخاري؛ من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

كذلك إذا نظرتَ حتَّى فيما يتعلَّق بالعلاقات والإشكالات، تقع بالأشياء الَّتي تقع بين البشر في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، لكن:

_ الجامع بيننا وبينهم: أنَّ الحلول موجودة.

_ والفارق بيننا وبينهم: أنَّ النُّفوس غير النُّفوس.

سأضرب لكم قصَّة من أعجب ما يكون حصلتْ بين الخيِّرَين -خير الأُمَّة-:«أبو بكر وعمر رضي الله عنهما»، والحديث في صحيح البخاري في حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه -يحكيها أبو بكر رضي الله عنه-، قال: (إنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ)[1] هل ذَكَره؟! لَم يذكرْه رضي الله عنه وأرضاه؛ انظر إلى الفرق بيننا وبينهم، اليوم تأتي إلى عند الشَّخص تريد أن تحكّمه، بعض الأحيان يجيني ناس يقول لِي:«أنا اِختلفتُ أنا وهذا» أقول لهم:«اطووا صفحة الماضي، اِقصدوا الصُّلح، لَا تذكر ما قاله فيك»، لأنَّه سيزيد، إذا ذكر كلُّ واحدٍ من المتخاصمين ما عنده على الآخر كذبه الآخر ولو بالكِبر، وخصوصًا إذا أدخلا بينهما حكمًا؛ فانظر إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه: (إنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابن الخَطَّابِ شَيْءٌ).

ثُمَّ قال -أبو الدَّرداء-: (فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ)[2] فحاول معه أبو بكرٍ فلم يرضَ، فذهبَ إلى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، فلمَّا رآه رسول الله -

[1] رواه البخاري.

[2] رواه البخاري.

صاحبه في الغار- لمَّا رآه وهو قادم وقد رفع ثوبه حتَّى كشف عن ركبتيه[1]، قال: ((**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ**))[2] يعني: دخل في غمرة الخصومة، فأتى إلى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام فقال: (إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأقبلْتُ إِلَيْك)[3].

وجاء عُمر نادمًا[4] يبحث عن من؟ عن أبي بكرٍ، وعلم أنَّه لن يأتي إلَّا عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فجاء عمر وهم على هذه الحال، فلمَّا رآه النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام قام فخطب خُطبة فِي أبي بكرٍ، وذكر أنَّه قال: ((**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُم: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبو بَكْرٍ: صَدَقَ؛ وَوَاسَانِي بِنَفْسِه وَمَاله، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي**))[5].

قال أَبو الدَّرداء: (وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ)[6]؛ قصَّةٌ تحتاج منك إلى تأمُّل.

فالحلول [...][7] موجودة؛ الكتاب والسُّنَّة وما كان عليه السَّلف أنزلهُ الله لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، لكن الفرق في قلوبنا، الفرق في نفوسنا، الفرق في تقبُّلنا لهذه الحلول وتجاوزنا عن أنفسنا وعن بعضنا.

---

[1] قال أبو الدَّرداء رضي الله عنه: ((أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِه، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِه)) [رواه البخاري]

[2] رواه البخاري..

[3] رواه البخاري.

[4] قال أبو الدَّرداء رضي الله عنه: (ونَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنه، فَأقبَل حَتَّى سلَّم وَجَلَس إِلَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّم) [رواه البخاري]

[5] رواه البخاري.

[6] رواه البخاري.

[7] كلمة غير واضحة.

وفَّق الله الجميع لما يُحب ويرضى؛ وصلَّى الله على نبيِّنـا مُحمَّـد وعلى آله وصـحبه أجمعين.

الدَّرس السابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس السَّابع والعشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري -رحمه الله تعالى-، والَّذي ينعقد على غرفة الإمام ابن أبي زيد القيرواني -رحم الله الجميع-.

وقد اِنتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم:

فَخَف أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُم ... كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى

وَخَالِطْهُم وَزَايِلْهُمْ حِذَارًا ... وَكُنْ كَالسَّامِرِي إِذَا لُمِسْتَا

لا يزال كلام النَّاظم -رحمنا الله وإيَّاه- فيما يتعلَّق بالوصايا الَّتي أوصى بها من كنَّاه بـ «أبي بكرٍ»، ومن يبلُغه هذه الوصايَا، لأنَّه حتَّى ولو سلَّمنا بأنَّ المعنِيَّ بها شخصٌ واحدٌ فإنَّها ليست مُختصَّة به وإنَّما هي وصايا لكلِّ من ينتفع بها وتبلغه؛ فهنا يوصيه بهذه الوصايا العظيمة.

وهذه الأبيات -وما يُستقبل أيضًا- هي من أجلِّ أبيات -أيضًا- هذه المنظومة، وأنتم قد رأيتم ما بثَّ فيها الألبيري -رحمه الله- من نفائس الدُّرر والغُرر الَّتي اِستقاها من كتاب الله ومن سُنَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وآثار سلف الأُمَّة.

وهنا يقول:[فَخَفْ أَبْنَاء جِنْسِكَ] خف منهم، ما هذا الخوف؟ المراد به الخوف الطَّبيعي: أن يتسبَّبوا لك في الأذى؛ وإنَّما تأتي مثل هذه الوصايا في الكتاب والسُّنَّة وكلام أهل العلم ويُراد بالخوف مِنَ الأذى في الدِّين، لأنَّه لا يُخاف على المؤمن ما بقيَ على دينه وثابتًا على إيمانه من الأذى في أُمور الدُّنيا، كما قال -جلَّ وعلا-:﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1]، وكما قال أيضًا ربُّنا سبحانه:﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[2] فتنة الدِّين -كما مرَّ أيضًا- أشدُّ من أن يُقتل المرء ((**لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِّعْتَ وَحُرِّقْتَ**))[3] -كما في حديث أبي الدَّرداء عند أحمد وابن ماجه وغيرهم-.

فالمراد بـ:[خَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ] من أن يكونوا سببًا في فتنك، وسببًا في ذهاب دينك وإيمانك.

وهنا قوله:[أَبْنَاءَ جِنْسِكَ] المخالِطين لكَ؛ فاسم الجنسِ يُطلق على الجماعة من النَّاس، أو الجماعة الَّذين يجمعهم وصفٌ؛ وأراد بهم الإنس، والجنّ أيضًا داخلون في هذا، إلَّا أنَّ فتنة الإنس بالنِّسبة للإنسيِّ أعظم، وذلك:

_ أنَّ فتنة الجنيِّ والشَّياطين تندفع بالاِستعاذة وذكر الله -سبحانه وتعالى- وقراءة القرآن وسورة البقرة.

[1] سورة العنكبوت: 1-3
[2] سورة البقرة: 191
[3] حسَّنه الإمام الألباني في "صحيح ابن ماجه".

_ أمَّا شيطان الإنس -لأنَّ الله جعل شياطين من الإنس وشياطين من الجنِّ-: فإنَّك لو قرأتَ عليه القرآن والسُّنَّة ما اِنصرفَ عنك، وقد مرض قلبه فيُمرِض قلبك معه.

فيقول هنا:[فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ] خف من بني آدم مَنْ يكون سببًا لِفتنتك؛ وزاد هذا إلى ما هو أدقُّ من الخوف وهو:«الخشية»، فقال:[وَاِخْشَ مِنْهُمْ] وهذا فيه تدقيقٌ من الألبيري -رحمه الله تعالى- في معاملة النَّاس والحذر منهم وأنَّ المرء **ينبغي** له.

- كلمة «ينبغي» هذه عندما تُستعمل هيَ أشدُّ مِن «يَجب»[1]، كما نصَّ عليه الإمام أحمد وغيره.

فينبغي له أن يكون في حصانةٍ وحِفظٍ لدينه من جُلساء وخُلَّاط السُّوء أكثر من أيِّ شيءٍ؛ حتَّى قال:[وَاِخْشَ مِنْهُمْ] مثل ماذا؟! قال:[كَمَا تَخْشَى] -هنا قلنا بأنَّ ما أراده الألبيري رحمه الله تعالى مِن أنَّ الخوف في أُمور الدِّين-؛ فهو يقول بأنَّكَ تخافُ وتخشَى على دينك كما تخشى على جسدكَ وحياتك -وأشد- من الضَّراغم.

و[الضَّرَاغِمَ] هو جمعُ: ضِرْغام، الأسد الفاتك، فهو أسدٌ ومع هذا فيه فَتْكٌ.

[وَالسَّبَنْتَى] المراد به الفهد أو النَّمر.

فكما أنَّك تخشى الأسد وتَخشى النَّمر على دُنياك وعلى جسدك وعلى لَحمك ودمك من أن يُقطَّع فإنَّك تخشى وتخاف أيضًا من جليس السُّوء على دينك من أن يكون سببًا في فساده وذهابه، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه عند ابن أبي شيبة

[1] مِنْ بَاب مَزِيد فَائِدَة: قَال شَيْخُنَا مُصطَفَى مَبْرم -حَفِظَهُ الله-: (مَا مَعْنَى "لَا يَنْبَغِي"؟ بَعْضُ الْمُصْطَلَحات صَارَتْ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مُغَيَّرَةً عَمَّا كَانَتْ عَلَيْه عِندَ الْمُتَقَدِّمين..؛ لَفْظُ "لَا يَنْبَغِي": كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأخِّرِينَ يَسْتَعْمِلُ مِثْلَ هَذِه اللَّفْظَة فِيمَا لَا يَحْتَمِلُ التَّحْرِيمَ يَحْتَمِلُ الْكَرَاهَةَ، مَعَ أَنَّ لَفْظَةَ "لَا يَنْبَغِي مِنْ أَشَدّ الأَلْفَاظ الدَّالَة عَلَى التَّحْرِيم؛ وَلِهَذَا اسْتُخْدِمَت حَتَّى فِي الشِّرْك:{وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا}، أَقْصِدُ مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ أَنَّ طَالب الْعِلْمِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَنِي بِمَعْرِفَة هَذه المُصْطَلَحَات، فَإِذَا قَرَأَ لِلشَّافعي مَثَلًا أو لأَحْمَد أو لمَالك: (وَلَا يَنْبَغِي فِعْلُ كَذَا) يَنْبَغِي أن يَنْظُرَ فِي الْقَرَائِنِ الْمُحِيطَة بِهَذِه الْمَسْأَلَة: الأدِلَّة، عَدَم وُجُود الْخِلَاف، هَلْ قَالَ أَحَدٌ غَيْرُه بِهَذِهِ اللفْظَةِ؛ حَتَّى يَخْرُجَ لَهُ مُحَصَّل مِنْ كَلَامِ هَذَا الإِمَامِ) [من شرحه لكتاب التوحيد باختصار يسير]

أنَّه قال: (خَالِطُوا النَّاسَ) -نفسُ البيت الَّذي قاله الألبيري رحمه الله-، (خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ وَصَافِحُوهُمْ وَدِينكُمْ لَا تَكْلِمُونَهُ)[1] -هذا عند ابن أبي شيبة-، (خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ) -سنرجع إلى مسألة الْمُزايلة-، (وَصَافِحُوهُمْ) وفي نفس الوقت: (وَدِينكُمْ لَا تَكْلِمُونَهُ) الكَلْم معناه: الجرح؛ فلابدَّ في مُعاملة النَّاس من أن يكون ثمَّة حيطة بحيث إنَّ الإنسان لا يُخالطهم حتَّى يجرح دينه.

والألبيري -رحمه الله تعالى- هنا قال:

كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى

ثُمَّ قَال:

وَخالِطهُم وَزَايِلهُم حِذَارًا وَكُن كَالسَّامِريّ إِذا لُمِستا

[وَخَالِطْهُمْ] خالط النَّاس، لأنَّه لابُدَّ من مخالطة النَّاس في جُمَعِهم وجماعاتهم وأعيادهم، ولابُدَّ من مُناكحتهم وفي المناكحة تقع الصَّهارة -وما أشبه ذلك-، لابدَّ للإنسان من هذا، ولهذا جاء في حديث ابن عُمر -عند التِّرمذي[2] وغيره-: **((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ))**[3].

---

[1] "مصنَّف ابن أبي شيبة"؛ كتاب الآداب، رقم: (26221)، الجزء الخامس، ص:293.

[2] جاء في "سنن الترمذي" برقم: (2507)؛ الجزء الرابع، ص:278، بلفظ: (الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ).

[3] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الأدب المفرد".

وهذا البيت من أحسن الأبيات الَّتي تجمع لك مسألة التَّرجيح في الخلاف بين أهل العلم في أيِّهما أفضل: هل هي العُزلة أم الخُلطة؟ لأنَّ المسألة فيها خلاف بين أهل العلم:

_ منهم من يقول: (الْعُزْلَةُ أَفْضَل)، ويُطلق القول، وهذا القول ليس بصحيح.

_ ومنهم من يقول: (الْخُلْطَةُ أَفْضَل)، ويُطلق القول، وهذا القول ليس بصحيح.

والَّذي عليه المحقِّقون أنَّ العزلة والخلطة تختلف باِختلاف الإنسان والزَّمان والمكان، فهذه الثَّلاثة الأشياء عليها مدار العزلة والخلطة.

_ من جهة المكان: تعرفون ما جاء في الصَّحيحين في حديثِ أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه في قصَّة الرَّجل الَّذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا لمَّا قال له: (انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ)[1].

_ ومن جهة الزَّمان: قد مرَّ معنا أيضًا الكلام عليه فيما ذكره الألبيري -رحمه الله تعالى- في مواضع متقدِّمة، من جهة أنَّ الإنسان قد يُلقي بالمعايب على الزَّمان والعيب فيه، كما قال الشَّافعي:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
وَنَهْجُو ذَا الزَّمَان بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَانَا

انظرْ لو تكلَّم الزَّمان لكنَّا نحن؛ لأنَّنا نحن الَّذين نتصرَّف فيه ونعايشه ليلًا ونهارًا.

_ فالشَّاهد أيضًا الإنسان فيما يُخالط غيره.

لهذا جاءت الأحاديث في العُزلة، وجاءت الأحاديث في الخلطة.

_ فنحمل أحاديث العزلة حيث فسد الزَّمان أو الإنسان أو المكان.

_ ونحمل أحاديث الخُلطة مع وجود هذه الأشياء لو وُجدت واِحتاج الأمر إلى أن يُخالط المرء النَّاس أو كان الصَّلاح موجودًا في الزَّمان والمكان والإنسان.

---

[1] متَّفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

فإذا وُجد الفساد خالطنا وحاذَرنا؛ وقد يأتي زمان ليس فيه إلَّا الفساد فيعمد الإنسان إلى شَعَف الجبال كما جاء في حديث أبي سعيد[1] وغيره، والأحاديث في هذا كثيرة.

حتَّى أنَّ العلَّامة ابن باز -رحمه الله- سُئل على مسألة العُزلة والخُلطة في هذه البلاد -في المملكة-، فقال: (الاِخْتِلَاط أَفْضَل) لأنَّ البلَد فيها خيْر وفيهَا صلَاح، فقال: (الْخُلْطَةُ بِهِمْ أَفْضَل).

- ومن سَفَه العُقول أنْ يُظنَّ أنَّ العلم هو كثرة الكلام -مثل ما نفعله الآن- [نحن][2] كثيروا الكلام، لكن لا نُريد بهذا أنَّ هذا هو العلم، ولكنَّ الزَّمان يَختلف باِختلاف المتلقِّي، فبعض النَّاس لابُدَّ أن تشرح له ليس كلَّ كلمةٍ بل كلَّ حرفٍ، وبعضهم يُمكن أن تُعطيه الكلمة الواحدة فيفهمها.

أبواب البُخاري -رحمه الله- هي العلم، ولهذا نظمَ البلقيني -رحمه الله- أبواب البُخاري وما فيها من الدِّقَّة والفقه بأبياتٍ من أجلِّ ما تكون.

وأنا أقول هذا الكلام للمناسبة عندما رأينا الطَّعن في «كتاب التَّوحيد» من دكتور متخصِّصٍ في العقيدة ويزعم أنَّه يُجلِّ الشَّيخ الفُلاني والعالِم الفلاني ممَّن نُجلُّهم ونحترمهم.

«الرَّضواني» وكلامه معروف، من أين أُوتي؟! من كثرة الكلام، وإلَّا فإنَّ «كتاب التَّوحيد» -كما قال بعضهم- قِطعةٌ مِن صحيح الإمام البُخاري لَا فرق فيه، والَّذي

---

[1] عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يُوشِكَ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ)) [رواه البخاري].

[2] كلمة غير واضحة.

يقول بأنَّه:«ليس فيه تأصيلٌ» فيه إسقاطٌ لجميع كُتب الحديث، لأنَّها سائرة على هذا المعنى، لكن الَّذي لا يفهم يريد الكلام الكثير حتَّى يفهم.

البُخاري -رحمه الله- قال في صحيحه: (بَابٌ: الْعُزْلَةُ خَيْرٌ مِنْ خُلَّاطِ السُّوءِ)[1] هكذا وقع في النُّسخة الَّتي شرح عليها الحافظ ابن حجر وذكر أنَّه وقع في رواية الإسماعيلي: (مِنْ خُلَطَاء السُّوء)[2]، والَّذي رأيته أيضًا في مُصنَّف ابن أبي شيبة: (مِنْ خُلَطَاء السُّوء)[3]؛ وهذا الأثر أيضًا جاء عن عمر رضي الله عنه -كما ذكر الحافظ في «الفتح»-، جاء عن عمر رضي الله عنه مُعلَّقًا إلَّا أنَّه أعلَّه بالاِنقطاع -رجاله ثقات وأعلَّه بالاِنقطاع- جاء عند ابن أبي شيبة وغيره، والَّذي عند ابن أبي شيبة: (مِنْ خُلَطَاء) لأنَّ بعض الشُّرَّاح أنكر هذا الجمع: (خُلَّاط السُّوء) كابن حجر والكرماني وغيرهم.

فالبخاري بوَّب بهذا الباب، وهذا الباب هو عبارة عن أثر عن عُمر رضي الله عنه وأرضاه، ومرَّ معكم قوله ابن مسعود رضي الله عنه: (خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ وَصَافِحُوهُمْ وَدِينكُمْ لَا تَكْلِمُونَهُ)[4] يعني: لا تتسبَّبوا في كَلْمِ هذا الدِّين؛ وهنا البخاري قال: (بَاب: الْعُزْلَةُ خَيْرٌ مِنْ خُلَّاطِ السُّوءِ) وهذا جاء عن عمر رضي الله عنه -وإن كان فيه اِنقطاع لكن مثل هذه الأشياء يُتسمَّح فيها-؛ ولذلك قال الخَطَّابي في كتاب «العزلة» بأنَّه: (لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعُزْلَةِ إِلَّا السَّلَامَةُ مِنَ الْغِيبَةِ وَمِنْ رُؤْيَةِ الْمُنْكَرِ الَّذِي لَا يقْدرُ عَلَى إِزَالَتِهِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ خَيْرًا كَثِيرًا)[5]، بل حسَّن الحافظ ابن حجر -رحمه الله- حديث أبي ذرٍّ مرفوعًا بلفظ: (الْوحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسَ

---

[1] "صحيح البخاري"، كتاب الرقاق.

[2] قال ابن حجر رحمه الله: (وَقَعَ عِنْدَ الإِسْمَاعِيلِي:"خُلَطَاء"، بَدَلَ: "خُلَّاط") ["فتح الباري"؛ الجزء 14، ص:656].

[3] "مصنف ابن أبي شيبة"، رقم: (34477)؛ الجزء السابع، ص:98.

[4] "مصنَّف ابن أبي شيبة"؛ كتاب الآداب، رقم: (26221)، الجزء الخامس، ص:293.

[5] نقله عنه الحافظ ابن حجر في "الفتح"؛ الجزء:14، ص:656

السُّوءَ)، قال: (وَسَنَدُهُ حَسَنٌ، لَكِن الْمَحْفُوظ أَنَّه مَوْقُوفٌ)[1]، وإن كان حتَّى هذا الموقوف إسنادُ عمرَ أحسنُ من إسناده، ومع هذا حسَّن الحافظ -رحمه الله تعالى- هذا الحديث.

ومثل هذا كثير في كلام أهل العلم -رحمهم الله تعالى- من جهة الكلام على الخلطة وعلى العزلة والتَّرجيح بينها.

وهذا الباب من أدقّ الأبواب الَّتي يحتاجها طالب العلم خصوصًا في هذه الأزمان الَّتي كثُرت فيها الفِتن حتَّى لا يأمن المرء فيها من ثوبه أن يكون سببًا في سوءِ سُمعته وأن يَنظر النَّاس إلى لُبسه بأنَّه مُخلٌّ للمروءة، فكيف يأمنُ فيها الإنسان على جليسه؟!

ذكرتُ لكم في بعض المجالس أنَّ بعضهم ألَّف كتابًا سمَّاه: «تفضيل الكلَاب على كثيرٍ ممَّن لَبس الثِّياب».

ومن قرأ في كتاب «العزلة» عرف ما كان يُعانيه السَّلف وما يُعانيه كلُّ من اِنبسط في العلم واِنبسط في التَّمسّك بالسُّنَّة.

- «اِنبسط» بمعنى ماذا؟! توسَّع، بسَط الأمر في العلم وبسط الأمر في التَّمسُّك بالسُّنَّة، كلَّما نظر بعينٍ لَا ينظر بها النَّاس، وهذا أمرٌ واضحٌ، مَن نظر في كتاب ابن القيِّم -رحمه الله- «المدارج» كيف تكلَّم على: غربة **العلم**، غُربة **التَّوحيد**، غربة **السُّنَّة**[2]، -وهذه الثَّلاثة المرتكزات هي الَّتي تَدور عليها الغربة-.

_ وأشدّ ما تكون **السُّنَّة** غربتها بين أهلها غُلوًّا وجفاءً، أو إفراطًا وتفريطًا، فيظنُّ الإنسان أنَّه على السُّنَّة وقد غلا فيها أو فرَّط فيها ولَم يلزم الطَّريق الوَسَط.

---

[1] "فتح الباري"؛ الجزء:11، ص:339.

[2] "مدارج السالكين"؛ الجزء الثالث، ص:185.

_ وهكذا في **العلم**: يظنُّ أنَّه يطلب العلم بينما هو يعيش غربته، ولا يزيده العلم إلَّا بُعدًا عن أهله وسمت أهله، وهو يظنُّ أنَّه هو طالبُ العلم وهو المقدَّم وهو الموجِّه -وما أشبه ذلك-؛ وكلُّ هذا فيه خطرٌ وغضاضةٌ على دين المرء.

_ وغُربة **التَّوحيد** أيضًا بين أهل الشِّرك، فهي غُربة العِلْم بين أهل الجهل، هذا ما قاله ابن القيِّم.

ويحقُّ لنا أن نقول: وأيضًا غُربة العلم بين من يطلبُ العلم ولا يدري أنَّه على غير السَّبيل والطَّريق، ما دليلي؟! ما جاء في صحيح مُسلم -في حديث ابن عُمر- في حديث حُميد بن عبد الرَّحمن ويحي بن يَعْمَر لمَّا قال: (وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ)[1] يتقفَّرون العلم وهم على مذهب القدرية، (يَتَقَفَّرُونَ) يعني: حريصين جدًّا على العلم؛ وأنتَ تطلبُ العلم: اِلتفتْ يُمنة واِلتفتْ يُسرَة إلى أين يسير بك هذا العلم؟! هل يُصلح باطنك؟ هل يُصلح ظاهرك؟ هل يُقرِّبك إلى الله؟ هل يُباعدك عن الله؟ لا بدَّ منْ مُراجعة النَّفس في مسألة الإخلال في هذه الأُمور وإلَّا فإنَّ المرء على خطَرٍ -نعوذ بالله-.

ابن القيِّم -رحمه الله- له كلامٌ في مسألة الخُلطة من أنفس ما يكونُ وأروعه، -وكنتُ سأُحيلكم عليه ولكن في الغالب أحيانًا قد لا يجد المرء الكتاب أو لا يجد الوقت لقراءته-، يقول ابن القيِّم -رحمه الله- في مخالطة النَّاس: (إنَّ فُضولُ الْمُخالَطَةِ هِيَ الدَّاءُ العُضالُ الجالِبُ لكلِّ شرٍّ، وكَمْ سَلَبَت الْمُخالَطَةُ والمعاشَرَةُ من نِعمةٍ، وكم زَرَعَتْ مِن عَداوةٍ، وكم غَرَسَتْ في القلْبِ من حَزَازَاتٍ تزولُ الجبالُ

---

[1] عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ: مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ، حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، **وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ**، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ؛ قَالَ: ((فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ)) [رواه مسلم].

الرَّاسياتُ وَهِي فِي القُلوبِ لَا تَزُولُ؛ ففُضولُ الْمُخالطةِ فِيهَا خَسارةُ الدُّنيا والآخـرةِ)

«فضول»: هو الشَّيءُ الزَّائد، وكما مرَّ معنا مرارًا قول الحميدي الأندلسي -لمَّا قال-:

لقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفيدُ شَيْئًا سِوَى الإِكْثَارِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ

فَأَقْلِلْ مِـنْ لِقَاءِ النَّاس إِلَّا لأَخْذِ العِلْمِ أَوْ إِصْلَاح حَالِ[1]

ففُضول المخالطة هو المذمُوم، متَى يأتِي الذَّم؟! إذا كثُر الكلام في غيرِ مَنفعـةٍ فِي ديـنٍ ولَا دُنيا؛ فهو يقول[2]: (وكَم غَرَسَتْ في القلْبِ من حَزَازَاتٍ تَزولُ الجبـالُ الرَّاسـياتُ وَهِي فِي القُلوبِ لَا تَزُولُ؛ ففُضولُ الْمُخالطَةِ فيها خَسارةُ الدُّنيا والآخرةِ، وإنَّما يَنبغِي للعَبْدِ أن يَأْخُذَ من المخَالَطَةِ بِمِقْدارِ الحَاجةِ، ويَجعلَ النَّاسَ فيها أربعةَ أقسـامٍ مَـتَى خَلَطَ أَحَد الأقْسامِ بالآخرِ ولَم يُميِّزْ بينَهما دَخَلَ عَلَيه الشَّرُّ:

_ **أحدُها**: مَن مُخالَطَته كالغذاءِ لَا يُسْـتَغْنَى عنـه في الْيَـومِ واللَّيلـةِ، فَـإذا أَخَـذَ حاجَتَه منه تَرَكَ الخُلطةَ، ثمَّ إذا احْتَاجَ إلَيْه خَالَطَه، هكَذَا عَلَى الدَّوامِ؛ وهَذَا الضَّرْبُ أعَزُّ من الكِبريتِ الأحمَرِ، وهُم العُلماءُ باللهِ تَعالى وأَمْـرِه ومَكايِـدِ عَـدُوِّه وأمْـرَاضِ القُلوبِ وأَدْوِيَتِها، النَّاصِحُونَ للهِ تَعالى ولكتابِه ولرَسُـولِه ولِخَلقِـه، فهـذا الضَّرْبُ في مُخالَطَتِهم الرِّبْحُ كلُّه.

_ **القِسمُ الثَّاني**: مَن مُخالَطَته كالدَّواءِ يُحتاجُ إليه عندَ الْمَرضِ فمَا دُمْتَ صَـحيحًا فلَا حَاجةَ لكَ في خُلطتِه، وهُمْ مَن لَا يُسْتَغْنَى عَـنْ مُخَـالطَتِهم في مَصـلحَةِ المعـاشِ وقِيامِ ما أنْتَ مُحتَاجٌ إلَيْهِ مِنْ أَنْواعِ الْمُعاملاتِ والْمُشارَكاتِ، والاِستِشَارةِ والعِـلَاجِ للأدواءِ ونحوِها، فَإذَا قَضَيْتَ حاجَتَكَ من مُخَالَطَةِ هذا الضَّرْبِ بقِيَتْ مُخالطتُهم مِنَ:

_ **القِسمِ الثَّالثِ**: وهُمْ مَن مخالَطَته كالدَّاءِ عَلَى اِخْتِلَافِ مَراتبِـه وأنْوَاعِـه وقُوَّتِـه وضَعْفِه؛ فَمِنْهُم مَن مُخالطَته كالدَّاءِ العُضالِ والمَرَضِ الْمُزمِنِ، وهُو مَن لَا تَرْبَحُ عليْهِ فِي دِينٍ ولَا دُنْيا، ومع ذلك فلَا بدَّ مِنْ أن تَخْسَرَ عليه الدِّينَ والدُّنيا أو أحدهما، فهذا

---

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ الجزء:19، ص:127.

[2] أي ابن القيِّم رحمه الله في كتابه "بدائع الفوائد"

إذا تَمكَّنَتْ مُخالَطَته واتَّصلَتْ فَهِي مَرَضُ الموْتِ المَخُوفُ؛ ومِنْهُم مَن مُخالطته كوَجَع الضِّرْسِ يَشْتَدُّ ضَربًا عَلَيْك فإذَا فارَقَكَ سكَنَ الألَمُ؛ ومِنهم مَن مُخالَطَتُه حُمَّى الرُّوح وهو الثَّقيلُ البَغيضُ العَقْلِ الَّذي لَا يُحْسِنُ أن يَتكلَّمَ فيُفِيدك ولا يُحْسِنُ أن يُنْصِتَ فيَسْتَفيدَ مِنْكَ، ولا يَعرِفُ نَفْسَه فيَضَعَها في مَنزِلتِها، بَلْ إنْ تَكَلَّمَ فكَلَامُه كالْعِصِيِّ تَنْزِلُ عَلَى قُلُوبِ السَّامِعِينَ مَعَ إعْجَابِه بكَلَامِه وفَرَحِه به، فهو يُحَدِّثُ مِن فيه، كُلَّمَا تَحَدَّثَ ويَظُنُّ أنَّه مِسْكٌ يَطيبُ بِهِ المجلِسُ، فإنْ سَكَتَ فأَثْقَلُ مِنْ نصفِ الرَّحَا العظِيمَةِ الَّتي لا يُطاقُ حَمْلُها ولا جَرُّها على الأرْضِ، ويُذْكَرُ عن الشَّافعيِّ -رَحِمَه اللهُ- أنَّه قالَ: «ما جَلَسَ إلى جَانِبِي ثقيلٌ، إلَّا وَجَدْتُ الجانِبَ الَّذي هُوَ فيه أَنْزَلَ من الجَانِبِ الآخَرِ»، ورأيْتُ يومًا عندَ شَيخِنا) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- (ورأيْتُ يومًا عندَ شَيخِنا -قَدَّسَ اللهُ رُوحَه- رَجُلًا مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، والشَّيْخُ يَحملُه، وقَدْ ضَعُفَت القُوَى عَنْ حَمْلِه، فالْتَفَتَ إليَّ، وقَالَ: «مُجالَسَةُ الثَّقيلِ حُمَّى الرِّبْعِ» ثُمَّ قالَ: «لكن قد أَدْمَنَتْ أَرواحُنا على الحُمَّى فصارَتْ لها عادةً» أَوْ كَمَا قالَ، وبالجُملةِ فمُخالَطَةُ كُلِّ مخالِفٍ حُمّى للرُّوح فعَرَضِيَّةٌ ولازِمَةٌ، ومِن نَكَدِ الدُّنيا على العَبْدِ أن يُبْتَلَى بواحِدٍ من هذا الضَّرْبِ، وليس له بُدٌّ من مُعاشَرَتِه ومُخالَطَتِه فلْيُعَاشِرْه بالمعْرُوفِ حتَّى يَجعَلَ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا.

_ **القِسمُ الرَّابعُ**: مَن مُخالَطَتُه الْهَلَكُ كلُّه، ومُخالَطَتُه بمنزِلَةِ أَكْلِ السُّمِّ، فإنْ اتَّفَقَ لآكِلِه تِرياقٌ، وإلَّا فأَحْسنِ اللهُ فِيه العَزَاءَ، وما أَكْثَرَ هَذا الضَّرْبَ في النَّاسِ -لَا كَثَّرَهُمُ اللهُ-، وهم أَهْلُ البِدَعِ والضَّلالةِ الصَّادُّون عن سُنَّةِ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أهل البدع الآن؛ فالدَّرجات الأولى قد يكون سُنِّيًّا، اِنتبه! (الصَّادُّون عن سُنَّةِ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّاعون إلى خِلافِها، الَّذين يَصُدُّون عن سَبيلِ اللهِ ويَبغونَها عِوَجًا، فيَجعلون البِدْعَةَ سُنَّةً، والسُّنَّةَ بِدْعَةً، والمعروف مُنْكَرًا، والمنكَرَ مَعروفًا، إن جَرَّدْتَ التَّوحيدَ بينَهم قالُوا: «تَنَقَّصْتَ جَنابَ الأولياءِ

والصَّالحينَ!!»، وإن جرَّدْتَ الْمُتابَعَةَ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالُوا: «أَهْدَرْتَ الأئمَّةَ المتبوعينَ!!»، وإن وَصفْتَ اللهَ بما وَصَفَ به نفسَه وبما وَصَفَه به رسولُه من غيرِ غُلُوٍّ ولا تَقصيرٍ قالُوا: «أنتَ من الْمُشَبِّهِينَ!!»، وإن أَمَرْتَ بما أَمَرَ اللهُ به ورَسولُه من المعروفِ ونَهَيْتَ عمَّا نَهَى اللهُ عنه ورَسولُه من الْمُنْكَرِ قالُوا: «أنت من الْمُفْتِنِين!!»، وإن اتَّبَعْتَ السنَّةَ وتَرَكْتَ ما خالَفَها قالُوا: «أنت من أَهْلِ البِدَعِ الْمُضِلِّينَ!!»، وإن انْقَطَعْتَ إلى اللهِ تعالى وخَلَّيْتَ بينَهم وبين جِيفةِ الدُّنيا قالُوا: «أنت من الْمُلَبِّسِينَ!!»، وإن تَرَكْتَ ما أنتَ عليه واتَّبَعْتَ أهواءَهم فأنتَ عندَ اللهِ من الخاسرينَ وعندَهم من المنافقينَ!! فالحزْمُ كلُّ الحزْمِ التماسُ مَرضاتِ اللهِ تعالى ورسولِه بإغضابِهم، وأن لا تَشتغلَ بإعْتَابِهم ولا باستعتابِهم، ولَا تُبالِي بذَمِّهم ولا بُغْضِهم، فإنَّه عَيْنُ كَمَالِكَ كما قالَ:

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي من نَاقِصٍ فهي الشَّهادةُ لي بأنِّيَ كاملُ

وقالَ آخرُ:

وقد زَادَنِي حُبًّا لنَفْسِي أنَّنِي بَغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طائلِ

فمَن كَانَ بوَّابَ قلْبِه وحَارسه منْ هَذِه الْمَداخلِ الأَرْبعةِ الَّتِي هي أَصْلُ بلاءِ العالِمِ، وهي: فُضولُ النَّظرِ والكَلامِ والطعامِ والمخالَطَةِ) لأنَّه كان يتكلَّم على فضول النَّظر والكلام والطَّعام والمُخالطة، وإنَّما اِخترنا ما يتعلَّقُ بمجلسنا، قال: (واستَعْمَلَ ما ذَكَرْناه من الأَسْبابِ التِّسعةِ الَّتي تُحْرِزُه من الشَّيطانِ فقد أَخَذَ بنصيبِه من التَّوفيقِ)[1] وكلامه في هذا -رحمه الله- كثيرٌ ومُحقَّق.

هذا ما يتعلَّق بقولِ النَّاظم -رحمه الله-:

[1] "بدائع الفوائد"، الجزء الثاني، ص: 273

فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنهُم | كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى
وَخَالِطْهُم وَزَايِلْهُم حِذَارًا | وَكُن كَالسَّامِرِيّ إِذَا لُمِسْتَا

[وَزَايِلهُم] الْمُزايلة هي البُعد، كما في قوله تعالى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا﴾[1] البعد والاِنفصال، ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡ﴾[2]: باعدنا بينهم.

[وَخالطهُم وَزايِلهُم] خالطهم وابتعد عنهم، ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾[3]، ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والآيات في هذا ظاهرةٌ في المعنى، يعني أنَّ الْمُزايلة هي مُفاعلة من المباعدة، بمعنى أنَّك تبتعد عنهم، وهذا من أشدِّ ما يكون في فِقه النَّفس أن تُخالط النَّاس حيث اِحتاج الخُلطة، وكان بعض السَّلف إذا أذّن للصَّلاة قال: (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، كَرَاهِيَةَ أَنْ أَلْقَى النَّاسَ فَيَشْغَلُونِي عَنْ رَبِّي)[4] -وهذا جاء عن جماعة من السَّلف-، ولو ذكرنا كثيرًا مِنَ الآثار لأطلنا، وسُقنا كتاب «العُزلة»، وهناك كتاب لابن أبي الدُّنيا كتاب «العزلة والاِنفراد» وغيرها من الكتب.

وهناك كلماتٌ نفيسة -بأنَّ العُزلة لابدَّ فيها من علمٍ وزهدٍ-، قيل: (الْعُزْلَةُ بِغَيْرِ عَيْنِ الْعِلْمِ زَلَّةٌ وَبِغَيْرِ زَايِ الزُّهْدِ عِلَّةٌ)[5] إذا فَصَلْنا عنها عين العلم ماذا ستكون؟! زلَّة، فإذا اِعتزل الجاهل وقع في الزَّلل والضَّلال -نسأل الله العافية والسَّلامة-؛ وبدون زاي الزّهد: علّة، مُعتزِلٌ لكنّه وراء الدُّنيا وأهلها يأخذها بكلّ مشتهياته.

---

[1] سورة الفتح: 25

[2] سورة يونس: 28

[3] سورة يونس: 28

[4] كانَ الفُضيل بن عياض يقُول: (مَا أَجدُ لَذَّةَ رَاحَة، وَلا قُرَّةَ عَيْنٍ، إلَّا حينَ أَخْلُو فِي بَيْتِي بِرَبِّي، فَإِذَا سَمِعْتُ النِّدَاءَ قُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، كَرَاهِيَةَ أَنْ أَلْقَى النَّاسَ فَيَشْغَلُونِي عَنْ رَبِّي -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-) ["الزهد الكبير" للبيهقي رحمه الله، رقم: (151)، ص:100].

[5] (وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: الْعُزْلَةُ بِغَيْرِ عَيْنِ الْعِلْمِ زَلَّةٌ وَبِغَيْرِ زَايِ الزُّهْدِ عِلَّةٌ) ["مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" للقاري رحمه الله؛ الجزء التاسع، ص:282]

وهنـا يقـول:

وَكُـن كالسَّامِريّ إِذا لُمِسْتَا

[السَّامِرِيّ] هو صاحب قصَّة العِجل، والله ذكر قصَّة العجل في سورة البقرة إجمـالًا ولَم يذكر مَن صاحبها، وذكرها في سورة الأعراف أيضًا ولـم يـذكر صـاحبها:﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[1] قال الحافظ ابن كثير: (وَقَـدْ قَـالَ بَعْـضُ السَّـلَفِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ مُسَجَّلَةٌ لِكُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَـةِ)[2] في «البدايـة والنِّهايـة»، وهذه فائدةٌ عزيزة قلَّ أن تجدوا من يذكرها في هجران أهل البدع، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[3] إلى يوم القيامة.

[وَكُن كالسَّامِريّ] ذكر الله تفاصيل هذه القصَّة -العجل وصاحب العجـل وكيـف كانت- بالتَّفاصيل في سورة طه.

وذكر -جلَّ وعلا- فِي سورة البقرة -قول موسى عليه السَّـلام-:﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[4]، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[1] الآيات في قصَّة العجـل كثيرة، لكنَّها جاءت في سورة طه مُفصَّلة مع ذكر صاحبها وهو: السَّامريُّ.

---

[1] سورة الأعراف: 152

[2] "البداية والنهاية" لابن كثير رحمه الله؛ الجزء الثاني، ص:152.

[3] سورة الأعراف: 152

[4] سورة البقرة: 54

وقد أطال ابن القيِّم -وهو أطول من رأيه حتَّى من المفسِّرين- تكلَّم على قصَّة السَّامريِّ والعجل في كتاب «إغاثة اللَّهفان»[2]، أطال جدًّا، -يعني أطال جدًّا بالنِّسبة للكتاب، [ما هو][3] عشرة مجلَّدات فالكتاب من مُجلَّدين-، لكن بالنِّسبة لغيره ذكر تفاصيل هذه القصَّة وما عبث به الشَّيطان في قصَّة العجل.

وَكُنْ كَالسَّامِـــرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا

وذلك أنَّ الله -سبحانه وتعالى- أخبَرَ أنَّ موسى قال له:﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[4] قال المفسِّرون -كابن عبَّاسٍ وغيره-: (لَا أَمَسُّ وَلَا أُمَسُّ)[5] وذلك أنَّ المفسِّرين ذكروا بأنَّه قد اِبتلاه -جلَّ وعلا- بمرضٍ من شدَّة الحمَّى فإذا أمسكه شخصٌ اِزدادت عليه وأُصيب بها اللَّامس؛ حتَّى ذكر بعض العلماء -أظنُّه اِبن الجوزي- أنَّ سُلالته في بلاد الشَّأم -إلى ذلك الوقت الَّذي يحكيه هو والعلم عند الله-، وأنَّه مَنْ لَمَسَهم وجد هذا، -مِن السَّامريَّة-، وهذا فيه ما فيه، لكنَّهم ذكروا هذا أيضًا وأظنُّه ابن الجوزي[6] أو ابن رجب أو غيره -تُراجعونه على كلِّ حالٍ-.

والسَّامريُّ أيضًا لمَّا اِتَّخذ العجل -فيما يظهر من كلامِ بعض المفسِّرين فيما جاء من بعض الإسرائليات-: أنَّه كانت فيه حياة، دبَّ فيه حياة؛ ولَم يُنكر أحدٌ من الأئمَّة أنَّ السَّامريَّ رأى فرس جبريل، وليس في تَصَارِحِهم أنَّه رأى جبريل، ﴿قَالَ بَصُرْتُ

---

[1] سورة البقرة: 51

[2] "إغاثة اللهفان"، ص:529

[3] كلمة غير واضحة.

[4] سورة طه: 97

[5] "تفسير الطبري"؛ الجزء:18، ص:364.

[6] قال ابن الجوزي رحمه الله: (وَصَارَ ذَلِكَ عُقُوبَةً لِوَلَدِه، حَتَّى إِنْ بَقَايَاهُمُ الْيَوْمَ فِيمَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ بِأَرْضِ الشَّامِ يَقُولُونَ ذَلِكَ؛ وَحُكِيَ أَنَّهُ إِنْ مَسَّ وَاحِدٌ مِنْ غَيْرِهِمْ وَاحِدًا مِنْهُمْ، أَخَذَتْهُمَا الْحُمَّى فِي الْحَالِ) ["زاد المسير في علم التفسير"؛ الجزء الخامس، ص: 219]

﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[1] يعني: من أثر فرس الرَّسُول -كما هي قراءة ابن مسعود-[2]؛ لأنَّنا اليوم تكلَّمنا على قضيَّة السَّامريّ وما سيحضرني فيها طويلٌ جدًّا، وهذا تفصيل، لكن أنَّهم ذكروا: أنَّ الحياة قد دبَّت فيه حقيقة، ومن المفسِّرين من يقول بأنَّه كان فَمُه مفتوحًا وكان في آخره خرقٌ فإذا دخل فيه الهواء أحدثَ صوتًا[3] وهو الَّذي قال الله فيه:﴿لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾[4] فإنَّها دبَّت فيه الحياة وأَقْدَرَ الله السَّامريّ على هذا لـ[...][5] هذه الفتنة.

ومن العجائب أنَّك ترى في بعض كتب المفسِّرين والعلماء كالزَّركشي، -وهذا ظاهر فيما يحضرني في كلام ابن القيِّم-: أنَّ بعضهم قال بأنَّ السَّامريَّ هو الدَّجَّال الأعور[6]، وتبنَّى هذا بعض العصريِّين وأقام عليه معركة في مثل هذا الأمر، وليس فيه حُجَج قويَّة على هذا، وهي من الأشياء الَّتي أجمل لنا الله -سبحانه وتعالى- فيها القصَّة، فنأخذ ما ذكره الرَّبُّ -سبحانه وتعالى- على ذلك.

لكن الشَّاهد أنَّه يقول:

وَكُن كالسَّامِـريِّ إِذَا لُمِسْتَا

(لَا أَمَسُّ وَلَا أُمَسُّ)، فمن رأيتَ أنَّك تتضرَّر فيه بدينك فلا تأخذك المجاملات، ويكفي أن تُعطيَه البشاشة في أوَّل مَدخله اِتِّقاءً لِسوء شرِّه كما جاء في حديث عائشة رضيَ الله عنها -في الصَّحيحين- لمَّا دخل الرَّجل فهشَّ النَّبي عليه الصَّلاة

---

[1] سورة طه: 96

[2] قال ابن القيِّم رحمه الله: (قَالَ سُفْيَان: وَكَانَ ابْنُ مَسْعُود يَقْرَؤُهَا: فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُول) ["إغاثة اللهفان"، ص:530]

[3] (فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، فَكَانَ يَدْخُلُ الرِّيح مِنْ دُبُرِهِ وَيَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، يُسمَعُ لَهُ صَوْتٌ) [ذكره ابن القيِّم في كتابه "إغاثة اللهفان" ص:530؛ من قول ابن عباس رضي الله عنهما]

[4] سورة طه: 88

[5] كلمة غير واضحة.

[6] قال بهذا الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، الجزء الثاني، ص:140.

والسَّلام له فلمَّا ولَّى قال: ((**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ**))[1]، قال: ((**إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**))[2]، هذا يحتاج إلى علمٍ وإلى فقهٍ، لأنَّ مِن النَّاس مَن تُقرِّبه خَشيَةَ أنَّك إذا أبعدته اِزداد شرُّه وفتنَتُه وانفراده بنفسه -والكلام طويلٌ-؛ وأحيانًا قد تُدخل الشَّخص لما ترى فيه من المصلحة، أو لِما ترى من قبوله منك.

نكتفي بهذا القدر إن شاء الله، وفيما حصل كفاية؛ والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[1] متَّفق عليه، واللفظ للبخاري.

[2] عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: ((اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ائْذَنُوا لَهُ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ أَوْ ابْنُ الْعَشِيرَةِ؛ فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْكَلَامَ؟ قَالَ: أَيْ عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ)) [متَّفق عليه، واللفظ للبخاري]

الدّرس الثّامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:

فهذا هو المجلس الثَّامن والعشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على تائية الألبيري؛ -ونرجو الله أن يكون هو آخر هذه المجالس-.

وانتهى بنا الكلام إلى قول النَّاظم:

فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ ... كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى

وَخَالِطْهُمْ وَزايِلْهُمْ حِذَارًا ... وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا

هذا قد شرحناه، ولكنَّما ذكرته لأنَّه مُتعلِّق بما بعده، لأنَّه لَمَّا قال:

وَخَالِطْهُمْ وَزايِلْهُمْ حِذَارًا ... وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا

قال بعد ذلك:[وَإِنْ جَهِلُوا] فالعطف هنا فيه ترتيب على من تُخالطهم، فإذا وقعت المُخالطة فإنَّه ولاشك سيقع فيها الغلط، وخصوصًا إذا كثُرت الخلطة؛ ولهذا قال:

وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيكَ فَقُلْ: سَلَامٌ ... لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا

فهو يقول: إنَّ مُقتضى الإكثار من المُخالطة يُؤدِّي إلى الغلط، ولكنَّ الغلط إذا وصل إلى حدِّ الجهالة من المُخالط فهنا ينبغي الابتعاد طلبًا للسَّلامة.

فيقول:[وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ] والجهل هنا المراد به ما يُقابل الحِلْم، لأنَّ الجهل من الألفاظ المشتركة، والمشترك هو عكس المترادف -عند من يقول به-، وهو: (اِتِّحَادُ اللَّفْظِ وَاِخْتِلَافُ الْمَعْنَى).

فالجهل في كلام العرب جهلان، كلام العرب عمومًا -وإن كان له في المُصطلح الشَّرعي أيضًا اِسمٌ آخر أو معنى آخر-:

_ يُطلق الجهل في مقابل العِلْم، وهذا أكثر اِستعمالًا.

وَالْجَهْلُ قُلْ تَصَوُّر الشَّيْءِ عَلَى   خِلَافِ وَضْعِهِ الَّذِي بِـهِ عَلَا[1]

هذا هو الاِستعمال في الغالب عند العرب وعند الأُصوليين وعند العُلماء، أنَّهم يستعملون الجهل في مقابل العِلم؛ ثُمَّ يقولون: (الْجَهْلُ جَهْلَانِ: جَهْلٌ بَسِيطٌ، وَجَهْلٌ مُرَكَّبٌ).

_ والنَّوع الثَّاني: الجهل الَّذي هُو ضدُّ الْحِلْمِ، وهو السَّفَه.

فهو يقول:[وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ] بمعنى أنَّهم تجاوزوا حدَّ الحِلْم والأَناة، فينبغي لكَ أن تستحضر أنتَ هُنا مقام الحِلم.

والجهل الَّذي أراده هنا هو الجهل الَّذي أراده عمرو بن كلثوم التَّغلبي لمَّا قال:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

وهذا شأن بعض أهل الجاهلية أنَّهم إذا جَهِل عليهم إنسانٌ جهلوا عليه فوق جهله.

لكن النَّاظم هنا يُؤدِّبنا بِما أدَّبنا به القرآن، بما أدَّبنا به الإسلام، مِن أنَّه في حال الجهل علينا لا نجهل بما يُساوي جَهل الجاهلين فضلًا عن أن يكون فوق جهل الجاهلين.

---

[1] نظم الورقات، للعمريطي رحمه الله.

فالنَّاظم يقُـول:

وَإن جَهِلوا عَلَيك فقُـــل: سَلامُ

[سَلَام] أي: طلبًا للسَّلامة؛ أو الِابتعاد طلبًا للسَّلامة، هـذا قـولُ أكـثر المفسِّريـن الَّذين يُفسِّرون قوله -سـبحانه وتعـالى-:﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[1]، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قـــالوا قولًا سالِمًا في أَنفُسهِمْ طلبًا للسَّلَامة، وعلى هذا أيضًا حملوا قوله -سبحانه وتعـالى-: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[2]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ كُلَّ باطل، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ بمقتضى الجهل، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ طلبًا للسَّلامة؛ على أنَّه قـد جاء في مُسند الإمام أحمد أنَّه تسابَّ رجلان عند النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام فقال: ((**كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا**))، والحديث قال الحافظ ابن كثير: (إِسْنَادُهُ حَسَنٌ) في «التَّفسير» على قلَّة شُهرته في كتب أهل العلم -معنا في مسند الإمـام أحمـد-، فكثير مـن المفسِّرين لا يذكرون مثل هذا الحديث، وهذا ممَّا يُميِّز تفسير الحافظ ابـن كثـير -رحمه الله تعالى-: اِستعابه للأحاديث الواردة في تفسير آيات القُرآن[3].

الشَّاهد من هذا: أنَّ هذا الرَّجل كان كلَّما سابَّهُ ذلك الرَّجل قال: (عَلَيْـكَ السَّـلَام) فقال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام: ((**أَمَا إِنَّ ملَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ، كُلَّمَـا شَـتَمَك**

---

[1] سورة القصص: 55

[2] سورة الفرقان: 63

[3] من باب الفائد: قال شيخنا مُصْطَفى مَبْرم حَفظهُ الله -ثناءً على تفسير ابن كثير-: سَمِعْتُ شَيْخَنَا الوَادْعي يَقُولُ: الشَّوْكَاني يَقُولُ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ: (وَتَفْسِيرُهُ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحْسَنهَا) -قَالَ ذَلِكَ فِي "الْبدرِ الطَّالع"، وَكَذَا السُّيُوطِي-؛ وَأَيْضًا سَمِعْتُه يَقُولُ: (جَزَى اللهُ الْحَافظَ ابْنَ كَثِيرٍ فَقَدْ حَفظَ لَنَا كَثِيرًا مِنْ أَسَانِيدِ الأَحَادِيثِ الَّتِي فُقِدَتْ مُصَنَّفَاتُهَا) اهـ؛ وهَذِهِ الْمِيزَةُ لَا تُوجَدُ إِلَّا عِنْدَ ابْنِ كَثِيرٍ؛ فِي الْغَالِبِ مَا يَكَادُ يَذْكُرُ حَدِيثًا فِي مُصَنَّفِهِ إِلَّا وَيَسُوقُهُ بِسَنَدِهِ، وَكَمْ كَانَ فِي هَذَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ لِلْبَاحِثِينَ -رحمه الله-[من شرحه لكتاب التوحيد (بتصرُّف يسير)].

هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحق بِهِ؛ وَإِذَا قَالَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَام، قَالَ: لَا بَلْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ أَحق بِهِ))[1]؛ فهنا النَّاظم يُؤدِّبنا بهذا الأدب.

على أنَّه إذا قال الإنسان قولًا لَا يُخرجه عن العُرف الشَّرعيِّ في الاِنتصار لنفسه فإنَّه لا يُؤثم في هذا؛ والنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام جاء عنه في الصَّحيحين في حديث سليمان بن صُرَد رضي الله عنه أنَّه قال: (اِسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ وتَنْتَفِخُ أوداجُهُ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِد: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**))[2] لأنَّ الجهل والسَّفه من عَمل الشَّيطان.

فالنَّاظم هنا يقول:

وَإِن جَهِلوا عَلَيكَ فَقُل: سَلامٌ

فقُل قولًا سالِمًا؛ قال العلماء: (لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ سَلَامُ التَّحِيَّةِ)[3]، وقد قيل إنَّ آية سورة القصص نزلت في أهل الكتاب[4] في أنَّهم إذا سمعوا الباطل ممَّا يُنسب إلى كتاب الله -سبحانه وتعالى- من التَّوراة أو الإنجيل قالوا:﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[5] أنتم تنسبون إلى الله الجهل.

---

[1] قال ابن كثير رحمه الله: (قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي خَالِدٍ الْوَالِبِيِّ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ-، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمَسْبُوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ؛ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قَالَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا بَلْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ)) إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ. اهـ ["تفسير ابن كثير"، الجزء السادس، ص:123].

[2] مُتَّفقٌ عليه، واللفظ لمسلم.

[3] "تفسير البغوي"، الجزء السادس، ص:215؛ وأيضًا "زاد المسير" لابن الجوزي رحمه الله، الجزء السادس، ص:230.

[4] قال الطبري رحمه الله: (قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ:﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا﴾ [إِلَى آخِرِ الْآيَةِ] قَالَ: هَذِهِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ الَّذِي كَتَبَ الْقَوْمُ بِأَيْدِيهِمْ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِذَا سَمِعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، وَمَرُّوا بِهِ يَتْلُونَهُ، أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا) [من "تفسيره" الجزء:6، ص:36]

[5] سورة القصص: 55

ثُمَّ قال النَّاظم -رحمه الله-:[فقُلْ: سَلَامٌ، لَعَلَّكَ] ترجِّي، وهذا التَّرجي من المخلوقين لا يُعلم حاله، بعكسِ ما إذا كان من الخالق فإنَّه على الجزم والوجوب -كما قال العلماء-.

فهو يقول:[لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ] تَسْلم منَ النَّاسِ، وتَسْلم أيضًا في عِرضك وفي دينك بالبعد عن هذه المواطن الَّتي هي مواطن السَّفه.

لَعَلَّكَ سَوفَ تَسلَمُ إِن فَعَلتا

ثمَّ ممَّا يدلُّ على أنَّ «لعَلَّ» هذه للتَّرجِّي -عند النَّاظم- الَّذي قد يكون بعيد الْمَحمل أنَّه قال:[وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ] مِن أين ستَجِد السَّلامة؟!

وَمَن لَكَ بِالسَّلامَةِ في زَمانٍ

[تَنَالُ الْعِصْمَ] أي تكون معصومًا فيه [إِلَّا إِنْ عُصِمْتَا] ولَا يُعصم إلَّا مَن عَصمه الله -جلَّ وعلا-، كما قال الله -عزَّ وجلَّ- عن نوح وابنه:﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[1] فمن رحمه الله -سبحانه وتعالى- هو المعصوم.

فهو يقُول:[وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ] مِنْ أين تأتي بهذه السَّلامة وأنتَ تعيش بين هؤلاء النَّاس الَّذين تَرامت أطرافُ أفكارِهم ومعتقداتهم؟

النَّاسُ شَتَّى وَآرَاءٌ مُفَرَّقَةٌ ... كُلٌّ يَرَى الْحَقَّ فِيمَا قَالَ وِاعْتَقَدَا

[1] سورة هود: 43

ومادُمت بين طائفتين تتجاذبها -أو يتجاذبها- طريقًا الشَّيطان: إمَّا إلى غُلوٍّ وإمَّا إلى جفَا، إمَّا إلى إفراطٍ وإمَّا إلى تفريط، فإنَّك إذا لَم تلزم الطَّريق الوسط الَّذي هو الصِّراط المستقيم -وحتَّى ولو لزمته- فإنَّك لن تسلم من الطَّرفَين أو من أحدهما.

فالمعصوم على الحقيقة ليس من أثنى عليه النَّاس أو مدحوه أو رضوا عنه، وإنَّما المعصوم من لَزم أمر الله وإن ردَّهُ النَّاس ورفضوه؛ هذا هو المعصوم، هذا هو الَّذي عُصم وحصَلتْ له النَّجاة.

الشَّافعي -رحمه الله- كما جاء عنه بإسنادٍ حسنٍ مشهورٍ رواه عنه كلُّ من صنَّف على التَّقريب في كتب مَناقب الشَّافعي وما رُوِيَ عنه منَ الزُّهد، أنَّه قال ليونس بن عبد الأعلى: (اعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّاسِ سَبِيلٌ)، (اِعْلَمْ) يعني: كُن مُستَيقِنًا (أَنَّهُ لَيْسَ إِلَى السَّلامَةِ مِنَ النَّاسِ سَبِيلٌ، فَانْظُرِ الَّذِي فِيهِ صَلاحُكَ، فَالْزَمْهُ)[1].

وهذا قول الشَّافعي -رحمه الله- تَتابع عليه العلماء وكانوا يسِيرُون عليه بأنَّه ليس هناك سبيل يُوصل إلى رضَا النَّاس، وكما قيل: (رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَك) كما جاء هذا عن سُفيان الثَّوري أنَّه قال: (رِضَا النَّاس غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، فَأَحْمَقُ النَّاسِ مَنْ طَلَبَ مَن لَا يُدْرَك)[2]، وقال أبو طالب المكي -بعد أن ذكر هذا الأثر-: (قَدْ قَالَ بعْضُ الحُكَمَاء فِي مَعْنَاه قَوْلًا مَنْظُومًا:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا   وفَازَ باللَّذةِ الجَسُورُ[3]

يعني الَّذي يمضي.

---

[1] "آداب الشافعي ومناقبه"، لأبي حاتم الرَّازي؛ ص:212.

[2] كتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكِّي، ص: 1594

[3] نفس المصدر السَّابق.

فالإنسان الَّذي يُراقب ويَنظر ماذا قال فيه زيد؟ وماذا قال فيه عُبيد وماذا فعل؟ وهل فلانٌ عنه راضٍ؟ وهل فلانٌ عنه غاضب؟! وأين منزلته من فلان؟ وأين منزلته من علّان؟!

هذا يموتُ همًّا وغمًّا وكمدًا وحسرةً طلبًا لِعلمه عن حاله عند النَّاس، هل هذا هو العاقل؟! لا؛ بلاشك، ولذلك قال:

وفَــازَ باللَّذَّةِ الجَســورُ[1]

«الجسور» هو الَّذي يَمضي ولا يُبالي بما عليه النَّاس.

وَإِنَّ امْرَأً يُمْسِي وَيُصْبِحُ سَالِمًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ

يعني: ما جناه هو على نفسه، أن يتأمَّل فيه، وأن يحصل له به الهمّ، فهذا هو السَّعيد.

الخطَّابي -رحمه الله- في كتابه الفذِّ «العزلة» الَّذي دائمًا ما نذكره جعل فيه فصْلًا، قال: (بَابٌ فِي تَرْكِ الِاعْتِدَادِ بَعَوَامِ النَّاسِ وَقِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ بِهِمْ وَالتَّحَاشي لَهُمْ)[2] كان بعض السَّلف -وهذا مِمَّا بوَّب عليه الخطَّابي رحمه الله- كان بعض السَّلف يَخشى من كثرة ثناء النَّاس عليه أو أنَّه يكره اِجتماع ثناء النَّاس عليه وأنَّ هذا مِمَّا يُشكِّكه في أمرِ دينه، كان النَّضر بن شُميل -وهذا ذكره الخطَّابي تحت هذا الباب- كان النَّضِر بن شُمَيْل يقول: (كَتَبَ إِلَيَّ الخَلِيلُ: وَأَنْ دَعِ النَّاسَ وَاشْمِئْزَازَهُمْ، إِذَا عَرَفْتَ الحَقَّ فَالْزَمْ)[3] ثُمَّ ذكر الخطَّابي ما أُنْشِدَهُ -وساق سنده لِمَن أَنْشَدَهُ-:

دَعِ النَّاسَ مَا شَاءُوا يَقُولُوا فَإِنَّنِي لِأَكْثَرِ مَا يُحْكَى عَلَيَّ حَمُولُ
فَمَا كُلُّ مَنْ أَغْضَبْتُهُ أَنَا مُعْتِبٌ وَلَا كُلَّ مَا يُرْوَى عَلَيَّ أَقُولُ[4]

وذكر أيضًا[5] عن أَكْثَم بن صَيفِيٍّ أنَّه قال: (رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، وَلَا تَكْرَهْ سَخَطَ مَنْ رِضَاهُ الجُورُ)[1] هذا اِبتعد بنا بعيدًا، يقول: لا ترض ولا تكره سخط من

[1] البيت لسَلم الخاسر [المصدر: "البداية والنهاية" لابن كثير رحمه الله، الجزء العاشر، ص:188]
[2] "العزلة"، ص:76.
[3] "العزلة"، ص:76.
[4] "العزلة"، ص:76.
[5] أي: الخطَّابي رحمه الله في كتاب "العزلة".

رضاه الجور، لأنَّ بعض النَّاس قد يَرضى عليك لكن فِي رضاه هذا الجور والظُّلم ومُجاوزة الحدِّ، لأنَّه قد يرضى عليك في غير مقام الرِّضا وفي غير محلِّ الرِّضا.

جاء بأثر الشَّافعي -رحمه الله- الَّذي تقدَّم ذكره رواية طويلة: أنَّ رجُلين كانا يتعاتبان والشَّافعيُّ يسمع كلامهما -هذه رواية البيهقي في كتاب الزُّهد- والشَّافعيُّ يسمع كلامهما، فقال لأحدهما: (إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ تُرضي النَّاسَ كُلَّهُمْ، فَأَصْلِحْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَإِذَا أَصْلَحْتَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَلَا تُبَالِ بِالنَّاسِ)[2].

ومِمَّا يُنقل من محاسن الشِّعر في هذا -لَا أدري من قائله- قولُ مَن قالَ:

ضَحِكْتُ فَقَالُوا: أَلَا تَحْتَشِم ... بَكَيْتُ فَقَالُوا: أَلَا تَبْتَسِم!

بَسمْتُ فقَالُوا: يُرَائِي بِهَا ... عَبَسْتُ فَقَالُوا: بَدَى مَا كَتَم!

-خرَّج ما في نفسه-.

صَمتُ فَقَالُوا: أَكلِيل اللِّسَان؟

-يعني ما يعرف يتكلَّم-.

صَمَتُ فَقَالُوا: أَكلِيل اللِّسَان ... نَطَقَتُ فَقَالُوا: كَثِير الْكَلِم!

حَلِمْتُ فقَالُوا: صَنِيعُ الْجَبَان ... وَلَو كَان مُقْتَدِرًا لَانْتَقَم!

بَسلْتُ فقَالُوا: لِطَيْشٍ بِهِ ... وَمَا كَان مُجْتَرَءًا لَو حَكَم!

يَقُولُونَ شَذًّا إذَا قُلْتَ: لَا ... وَإِمَّعَةً حِينَ وَافَقْتَهُم!

فَأَيْقَنْتُ أَنِّي مْهمَا أُرِد ... رِضَا النَّاس لَابُدَّ أَنْ أُذَم

هذا من محاسن ما يُقال، لا يُمكن أن تُرضي النَّاس وأن تصل فيهم إلى [مُبتغاك][3]، ولَم يُكلِّفك الله -جلَّ وعلا- بهذا، نعم تقدَّم معنا في الدُّروس أنَّ دفع مواطن الشُّبَه والرِّيب عن النَّاس، وأنَّ الإنسان يكون حيث أراده الله -سبحانه وتعالى-؛ هذا أمرٌ لابُدَّ منه.

---

[1] "العزلة"، ص:76.

[2] "الزُّهد الكبير" للبيهقي رحمه الله، ص:105.

[3] كلمة غير واضحة.

روى أيضًا البيهقي في كتابه «الزُّهد الكبير» أنَّ مُحَمَّد بن حمدان الطَّرائِفيِّ يقولُ: (سَمِعْتُ الرَّبِيعَ بْنَ سُلَيْمَانَ يَقُولُ: أَنْبَأَنَا أَسَدُ بْنُ مُوسَى، أَنْبَأَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ قَالَ: قِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: إِنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ لِيَأْخُذُوا سَقطَ كَلامِكَ فَيَجِدُونَ الْوَقِيعَةَ فِيكَ، فَقَالَ:«هَوِّنْ عَلَيْكَ») هذا الطَّالب يقُول للحسن: بعضُ النَّاس يأتي ويَجلس في مجلسك؛ لِماذا؟ ليأخذ ما تتكلَّم به، فيبحثُ عن سقطاتك «اليوم قال: كذا»؛ ولو كان ناصحًا، لو كان دَيِّنًا، لو كان يُريد نجاة نفسه لَفعل أمرين اِثنين يفعلهما السَّلف -فيمن يحضر مجالس الشُّيوخ-:

_ **الأمر الأوَّل**: أنَّ بعض السَّلف -كما ذكر ابن جماعة في «تذكرة السَّامع والمُتكلِّم»- كان يقول إذا حَضر مَجلِسَ شيخه: (اللَّهُمَّ اسْتُر عَيْبَ شَيْخِي عَنِّي، وَلَا تُذْهِب بَرَكَةَ عِلْمِهِ مِنِّي)[1] لماذا فِقْه السَّلف بهذه الصُّورة؟ لأنَّك إذا ظَهَرَتْ لك مَعايبُ شيخك وصِرت تضعه تحت المجهر أذهَبتَ ما تستفيدُه منه، وقد لَا يبقى لك شيخٌ على وجهِ الأرض، فهو بشر لابُدَّ وأن يقع منه الخطأ؛ الخطأ الموجب للتَّرك إذا كان قادحًا في دينه لسنا نتكلَّم عليه، وإنَّما نتكلَّم على ما تنطوي عليه الطَّبيعة البشريَّة.

_ **والأمر الثَّاني**: أنَّه إذا ظهر الخطأ جاء باب النُّصح.

فإذا لَم يفعلْ بهذين الأمرين فسد وأفسد؛ فهنا يقول جرير بن حازم: (قِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِي: إِنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ لِيَأْخُذُوا سَقْطَ كَلامِكَ فَيَجِدُونَ الْوَقِيعَةَ فِيكَ، **فَقَالَ**:«هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَطْمَعْتُ نَفْسِي فِي جِوَارِ اللَّهِ فَطَمِعَتْ، وَأَطْمَعْتُ نَفْسِي فِي الْجِنَانِ فَطَمِعَتْ، وَأَطْمَعْتُ نَفْسِي فِي الْحُورِ الْعِينِ فَطَمِعَتْ، وَأَطْمَعْتُ نَفْسِي فِي السَّلامَةِ مِنَ النَّاسِ فَلَمْ أَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلا، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ لا يَرْضَوْنَ عَنْ

[1] "تذكرة السَّامع والمتكلِّم" لابن جماعة رحمه الله، ص: 98.

خَالِقِهِمْ عَلِمْتُ أَنَّهُمْ لا يَرْضَوْنَ عَنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِمْ»)[1] هـذا قـولُ الحسـن البصري -رحمه الله- عند البيهقي في «الزُّهد الكبير».

وبمثل هذه الطَّريقة كانوا يتعاملون مع نفسيَّاتهم، فكثير من النَّاس الَّذين يلتفتُون -كما قلتُ لكم سابقًا-: إلى ما يقوله النَّاس فيهم، وماذا قال فُلان عنِّي؟ وماذا كان قول فُلان؟ يُصاب بحالاتٍ منَ اليأس والأسى وضيق النَّفْس والاِضطرابات، ولكن انظر إلى [...][2] نفسك عند الله -سبحانه وتعالى- فافعله.

النَّاظم يقول:

وَمَن لَكَ بِالسَّلامَةِ فِي زَمانٍ ... تَنَالُ العُصْمَ إِلَّا إِن عُصِمْتَا

وَلَا تَلْبَث بِحَيٍّ فِيهِ ضَيمٌ ... يُمِيتُ القَلبَ إِلَّا إِن كُبلْتَا

المرء يعيش حيث يجد صلاح نفسه وقلبه، وكان الشَّافعي -رحمه الله- يقول بأنَّه لَا ينبغي لأَحدٍ أن يُقيم بِبلدٍ ليس فيها أهل علم -أو ليس فيها عالم-[3].

فالنَّاظم هنا يُرشدنا إلى معنى آخر: النَّفس البشرية طبيعتها أنَّها تُحبُّ المكان الَّذي خُلقت فيه، أَلِفَتْهُ، رَبَتْ فيه؛ هذه فطرة في الإنسان لاشكَّ فيها، ولكن إذا كان المقام في هذا المكان وفي هذا البلد [يضرُّه في دينه][4] فإنَّه يبتعد عنها، جاء في الصَّحيحين في حديثِ أبي سعيدٍ الخدري رضيَ الله عنه في قصَّة الرَّجل الَّذي قتل تسعة وتسعين نفسًا لمَّا سأل العابد هل له من توبة؟ أجابه: (لَا) ولمَّا سأل فأجابه

[1] " الزُّهد الكبير" للبيهقي رحمه الله؛ ص:105.

[2] كلمة غير واضحة.

[3] قال الشَّافعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تَسْكُنَنَّ بَلَدًا لا يَكُونُ فِيهِ عَالِمٌ يُفْتِيكَ عَنْ دِينِكَ) ["آداب الشَّافعي ومناقبه"، لأبي حاتم الرَّازي رحمه الله، ص:244].

[4] من إضافتي.

العالِم قال: (نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟) ثُمَّ أرشده إلى ما فيه صلاح نفسه وصلاحُ دينه فقال: (انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ)[1] وهو في طريقه تُوفي -والقصَّة معروفةٌ-؛ والشَّاهد منها أنَّه أرشده إلى أن يكون في البلد الَّتي فيها صلاح نفسه وما يوصله إلى رضا الله -جلَّ جلاله-.

والشَّافعي -رحمه الله- من محاسن المنقول عنه في أبياته المشهورة:

سَافِر تَجِد عِوَضًا عَمَّن تُفارِقُهُ ... وَانْصِبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إِنِّي وَجَدتُ رُكُودَ الْمَاءِ يُفْسِدُهُ ... إِنْ سَالَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

هنا يقول:[وَلَا تَلْبَث] والأبيات الَّتي بعدها سيتضمَّن الشَّرح لها؛ لأنَّه قال:

وَلا تَلْبَث بِحَيٍّ فيهِ ضَيمٌ

ظلمٌ، وضنكٌ، وما لا تستطيع أن تتعايش معه، ولا تستطيع أن تُغيِّره.

قال:

وَغَرِّب فَالتَّغَرُّب فِيهِ خيرٌ ... وَشَرِّق إن بِرِيقَكَ قَد شَرِقْتَا

لا تستطع أن تتحمَّل الحياة في هذه الأماكن الَّتي أنتَ فيها، وعلى هذا فاطلب الرَّاحة ولو كان في مَنْأَى وبُعدٍ عن النَّاس وبُعد عن الخلق أو عن المكان الَّذي أَلِفْتَهُ.

[وَغَرِّب] أي: اطلب الغربة بعيدًا عن ذلك.

---

[1] عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: (لَا) فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً؛ ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ) فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: (قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ) فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ)) [متَّفق عليه، واللفظ لمسلم].

وَغَرِّب فَالتَّغَــرُّب فِيــــهِ خيــرٌ

[وَشَرِّق] أي طلبًا للمشرق.

وَشَرِّق إن برِيقكَ قَــــد شَرِقتَا

الشَّافعيُّ -رحمه الله- يقول:

مَـــــا فِي الْمَقـــــامِ لِذِي عَقْـــــلٍ وَذِي أدبِ
مِـــنْ رَاحَـــةٍ فَـــدَعِ الأَوْطَـــانَ واغْـــتَرِبِ
سَـــافِر تَجِـــد عِوَضًـــا عَمَّـــن تُفارقـــهُ
وَانْصِـــبْ فَـــإِنَّ لَذِيـــذَ الْعَـــيْشِ فِي النَّصَـــبِ
إنِّي رأَيْـــــتُ رُكُـــــودَ الْمَـــــاءِ يُفْسِـــــدُهُ
إنْ سَـــاحَ طَـــابَ وَإنْ لَـــمْ يَجْـــرِ لَـــمْ يَطِـــبِ
والأُسْـــدُ لَـــوْلَا فِـــراقُ الأَرْضِ مَـــا افْتَرَسَـــتْ
والسَّـــهمُ لـــولا فِـــراقُ القَـــوسِ لـــم يُصِـــب
والشَّـــمْس لَـــوْ وَقَفَـــت فِي الْفُلْـــكِ دَائِمَـــةً
لَمَلَّهَـــا النَّـــاسُ مِـــنْ عجـــمٍ وَمِـــنَ عَـــرَبِ
والتّـــبْر كـــالتُّرْبَ مُلْـــقَى فِي أَمَاكِنِـــهِ
والعـــودُ فِي أَرْضِـــه نَـــوْع مِـــنَ الحطَـــبِ
فـــإنْ تَغـــرَّب هَـــذَا عـــزَّ مَطْلَبـــهُ
وإنْ تَغَـــرَّبَ ذَاكَـــــ عَـــزَّ كالذَّهَـــبِ

فالنَّاظم -رحمه الله- هنا يقول:

وَغَرِّب فَالتَّغَرُّب فِيـــهِ خيرٌ وَشَرِّق إنْ برِيقَكَ قَـــد شَرِقْتَا

ثُمَّ لفت اِنباهَهُ إلى قضيَّة: الزُّهد في الدُّنيا.

لكن نَبقى على هذا؛ لأنَّ قضيَّة الزُّهد وفِقْهَ الزُّهد وما يتعلَّق بحقيقة معرفةِ الزُّهد هذا يحتاج إلى مجلسٍ خاصٍّ به، ومادامت الصَّلاة بعد خمسة دقائق فسنقف على هذا المقام إن شاء الله، ونجعل خاتمةَ الدَّرس في الأسبوع القادم.

وفَّق الله الجميع لمحابِّه ومراضيه؛ وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدَّرس التاسع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعد:
فهذا هو المجلس التَّاسع والعشرون من مجالس التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري «التَّائية» الَّتي جعلها في حقيقة العلم والعمل به والزُّهد في الدُّنيا.

وانتهى بنا الكلام إلى قوله -رحمه الله تعالى-:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا ... لأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهَدْتَا
وَلَو فَوْقَ الأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا ... سُمُوًّا وَارْتِفَعًا كُنتَ أَنْتَا

هذا هو ختم هذه المنظومة بالوصيَّة بالزُّهد، مع أنَّ النَّاظم -رحمه الله تعالى- جعل هذه المنظومة كلَّها في الوصيَّة بهذا الزُّهد وبيان ما عليه الدُّنيا وكشف حقيقتها وعَوارِها؛ كما مرَّ معنا في قوله -رحمه الله-:

فَلَيسَت هَذِهِ الدُّنيا بِشَيءٍ ... تَسوؤُكَ حقبَةً وَتَسُرُّ وَقتا
وَغايَتُها إِذا فَكَّرتَ فيها ... كَفَيئِكَ أَو كَحُلمِكَ إِذ حَلَمْتَا
سُجِنتَ بِها وَأَنتَ لَها مُحِبٌّ ... فَكَيفَ تُحِبُّ ما فيهِ سُجِنتا؟
وَتُطعِمُكَ الطَعامَ وَعَن قَريبٍ ... سَتَطعَمُ مِنكَ ما فِيها طَعِمتا

هو يُبيِّن لكَ أنَّ هذه الدُّنيا هذا هو حالها:[تَطعَمُ مِنكَ ما فِيها طَعِمتا].

ومرَّ معنا ما ذَكره -رحمه الله تعالى- في هذا كلِّه؛ إلَّا أنَّه هنا قال:

فَلَيْسَ الزُّهْـــدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا

يقول: مع ما قدَّمتُ لكَ فإنَّ حقيقة الزُّهد ليس أن تكون خامِلًا؛ وما معنى الخُمول؟! إذا نظرنا إلى أكثر عبارات السَّلف الواردة في الزُّهد وفي ذمِّ الدُّنيا وفِي ذمِّ الرِّئاسةِ رأَينا أنَّ غالب ما يتكلَّمون به -إنْ لَم يكنْ هذا هو الأصل، إن لَم يكن ليس هناك غيره-: هو مدحُ الخمول وطلبه، وأنَّه هو الَّذي يُراد من أهل الزُّهد؛ لكن هنا النَّاظم -رحمه الله- يقول:

فَلَيْسَ الزُّهْـــدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا

وظاهر كلامه -رحمه الله تعالى- أنَّه مَحْمُولٌ على معنًى آخر ذمَّهُ السَّلف وهو: التَّكاسل والتَّماوت والمَسْكنة الظَّاهرة الَّتي توحي للإنسان النَّاظر في حال هذا المتنسِّك -أو في حال هذا الَّذي يزعم أنَّه سَلك مسْلك الزُّهد- أنَّه زاهدٌ، ولهذا جاء عن عائشة رضي الله عنها أنَّها رأَتْ شبابًا في المدينة يمشون ويتماوَتُون فقالت: (مَنْ هَـؤُلَاءِ؟) فقيل: (نُسَّاكٌ) فقالت: (كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَإِذَا قَالَ أَسْمَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَعَ، وَكَانَ هُوَ النَّاسِكَ حَقًّا)[1] -رضي الله عنه وأرضاه-، ولهذا أيضًا جاء عن عمر رضيَ الله عنه أنَّه رأى رجلًا طأْطأَ رقبتهُ في الصَّلاة فقال: (يَا صَاحِبَ الرَّقَبَةِ، ارْفَعْ رَقَبَتَكَ، لَيسَ الْخُشُوعُ فِي الرِّقَابِ، إِنَّمَا الْخُشُوعُ فِي الْقُلُوبِ)[2]، وكان حُذيفة رضي الله عنه يقول: (إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النِّفَاقِ، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا

[1] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:517.

[2] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:517.

خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَى الْجَسَدَ خَاشِعًا وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ)[1]؛ فالنَّاظم هنا يقول:

فَلَيْسَ الزُّهْــدُ فِي الدُّنْيَا خمُولًا

تكسُرًّا وتَمَيُّعًا وإظهارًا للمَسْكنةِ في ظاهر البدن مع أنَّ القلب مُترفِّع عن كلِّ أحدٍ، وهذا هو خشوعُ النِّفاق الَّذي عبَّر عنه حذيفة رضي الله عنه وأرضاه.

قضيَّة التَّماوُت أو التَّمسكن هذا إنَّما ظهر عندما اِختلطت الحضارات وكثُرت الفتوحات ودخل في الدِّين أقوامٌ؛ بدايته موجودة بسبب هذه الفتوحات، إلَّا أنَّه ظهر بكثرة في القرن الرَّابع وما بعده، وكان وجوده أيضًا في زمن الحارث المحاسبي، وفي زمن غيره ممَّن كانوا يزعمون التَّنسُّك وهم ليسوا على الهَدْيِ وعلى السَّبيل.

السَّلف عندما كانوا يُشِيدون بالخمول كانوا يُقابلونه بمطلبِ الرِّئاسة والتَّرفع على النَّاس؛ وتقدَّم معنا الكلام على الرِّئاسة وعلى تحذير النَّاظم منها عند قوله:

فَرَأسُ العِلمِ تَقوى اللهِ حَقًّا وَلَيسَ بِأَن يُقال: لَقَد رَأَستا

تقدَّم معنا الكلام على مطلب الحِرص على الرِّئاسة.

والرِّئاسةُ الحرص عليها مَذمومٌ، وحُصولها في التَّبعيَّة محمودٌ، هذا الَّذي تدلُّ عليه نصوص الكتاب والسُّنَّة وآثار السَّلف، ولهذا النَّاظم قال في أوَّل منظومته:

أَبا بَكرٍ دَعَوتُكَ لَو أَجَبتا إِلى ما فيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتا

إِلى عِلمٍ تَكونُ بِهِ إِمامًا مُطاعًا إِن نَهَيتَ وَإِن أَمَرتا

وهذا هو الرِّئاسة، هذه حقيقةُ العلم؛ ولكن أن يكون هذا هو المقصود فهذا هو المذموم، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال كما في صحيح مسلم في حديث أبي إسحاق سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه وأرضاه -أحدُ العشرة المبشَّرين بالجنَّة-:

[1] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:517.

((إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ))[1] هذا هو العبد الَّذي يُحبُّه الله -سبحانه وتعالى-، الشَّاهد من هذا أنَّ حرص الإنسان على العلم وعلى ما تَحْصل به الرِّئاسة وسَعيُه من أجلها: هذا هو الَّذي ذمَّه السَّلف؛ وإعتاضوا عنه لطالبِ العلم بأن يكون خامِلًا بعيدَ الذِّكر، فإذا جاء مقامه كان هو المطلوب، إذا اِحتاجه النَّاس، إذا قَصده النَّاس، إذا كان النَّاس بحاجةٍ إلى علمه، إلى وعظه، إلى تذكيره فإنَّه يكون في حالها.

ومرَّ معنا أنَّ إبراهيم النَّخعي كان يقول: (وَاللَّهِ لَقَدْ تَكَلَّمْتُ، وَلَوْ وَجَدْتُ بُدًّا مَا تَكَلَّمْتُ، وَإِنَّ زَمَانًا أَكُونُ فِيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الْكُوفَةِ زَمَانُ سُوءٍ)[2]، كما قال سفيان أيضًا: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ضَيَّعَ هَذِهِ الْأُمَّةَ حَيْثُ احْتِيجَ إِلَى مِثْلِي)[3].

الشَّاهد أنَّ النَّاظم -رحمه الله- يقول:

فَلَيْسَ الزُّهْـــدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا

ليس هو أن تَكون خاملًا؛ وأيضًا تفسير ما في بداية البيت جاء في نهايته:

لأَنْتَ بِهَـا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدتَـا

فَلَيْسَ الزُّهْـــدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا

يعني التَّكسُّر أو التَّماوت أو زعم أنَّك لا تُريد شيئًا من الدُّنيا الَّذي فَطر الله النَّاس عليه.

---

[1] عن عَامِرِ بْنِ سَعْد قَال: كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبلِه فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ باللَّه مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِب، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبلكَ وَغَنَمكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ: اسْكُتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ)) [رواه مسلم].

[2] "سنن الدارمي" ص:182

[3] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني؛ الجزء السابع، ص: 64.

لَأَنْتَ بِهَـــا الأَمِيرُ إِذا زَهدتَا

أنتَ الأمير حقًّا ولكن إذا زهدت؛ ولهذا قال بعد ذلك:

وَلَو فَوقَ الأَميرِ تَكونُ فِيهَا سُمُــوًّا وَارْتِفَعًا كُنت أَنتَا

يعني لو كنتَ فوق الأمير -وليس الأميرَ فقط- وأنتَ ملازم للزُّهد والبُعد عن الدُّنيا ومواطن الرِّيَبِ فيها وطلب الرِّئاسة، وأن يكون حظُّك من الدُّنيا هو الدُّنيا، لأنَّ من كان حظُّه من الدُّنيا هو الدُّنيا فذاك هو الخسران المبين -عياذًا بالله-.

وحقيقة الزُّهد أن تأتيك الدُّنيا وتأخذ منها حاجتك، ولهذا كان مضرب الأمثال في زهدِ السَّلف: الصَّحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وخصوصًا لمَّا جاءتهم الدُّنيا بعد الفتوحات الكثيرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، ثُمَّ من جاء بعدهم، وكان في قِمَّة هذه الأمثال في التَّابعين: عُمر بن عبد العزيز الَّذي اِنتهت إليه الخلافة وكان أزهد النَّاس في الخلافة وما يتبع الخلافة من الجاه والسُّلطان والنُّفوذ وكثرة المال، بل إنَّه اِنتزع المظالِم كلَّها من بنِي أُميَّة وأحيا السُّنن وأماتَ البدع الَّتي ظهرت، وزهد في الدُّنيا زُهدًا ذكروا أنَّ اِمراته فاطمة بنت عبد الملك -رحمها الله- قالت يومًا لعمر بن عبد العزيز: (أَرَاحَنَا اللهُ مِنْكَ) فقالَ: (آمِين)[1] لِمَ؟ لأنَّه منعَ عنهم ما كانُوا عليه، وردَّ المظالِم لأهلها؛ هذا هو الزُّهد: أن لا تأخذ من الدُّنيا إلَّا ما هو لك، وأخذ الإنسان من الدُّنيا ما هو له لا ينافي الزُّهد بأيِّ حالٍ من الأحوال.

شيخ الإسلام عرَّف الزُّهد بكلمة هي من أجمع الكلمات -وهي الَّتي دَندن عليها تلميذه ابن القيم وقال بأنَّها هي الحق-؛ قال: (الزُّهْد: تَرْك مَا يَضُرّ الْعَبْدَ فِي الآخِرَةِ)[2] هذا هو الزُّهد في الدُّنيا، إذا فقهتَ هذا عرفت ما هو الزُّهد الَّذي كان عليه السَّلف، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قال: ((**لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وأُفْطِرُ، وَأَتَـزَوَّجُ**

---

[1] "كشف الكُربة في وصف حال أهل الغربة" لابن رجب الحنبلي رحمه الله؛ ص:8

[2] "دقائق التَّفسير" لابن تيمية رحمه الله؛ ص: 73

النِّسَاءَ))[1] وجاء في رواية: ((وَآكُلُ اللَّحْم))[2]، ((فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))[3] وهذه الأشياء هي من المطالب الَّتي يحتاجها الإنسان بغريزته وفطرته في حياته: يحتاج أَن ينام، يحتاجُ أن يُفطر، يحتاج أن يأْكُل اللَّحم، يحتاج أن يتزوَّج النِّساء ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[4].

لأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذا زَهدتَا

وَلَو فوقَ الأَميرِ تَكونُ فِيهَا

وأنت ملازم للزُّهد وطالبٌ للزَّهادة في الدُّنيا.

سُمُوًّا وَارْتِفَعًا كُنتَ أَنتَا

يعني أنتَ الَّذي عرفتَ ما هو الزُّهد وعرفتَ ما هي حقيقته، و[لا تعارض في][5] أن يكون الإنسان ملكًا وزاهدًا في الدُّنيا يأخذ ماله من الدُّنيا ويأخذ حظَّه من الدُّنيا، ومن نظر في سِيَر السَّلف وفي سِيَر الصَّحابة رضي الله عنهم وفي سِيَر من جاء بعدهم عَلم أنَّهم كانوا يعنون بالزُّهد -في كثيرٍ من الأحيان-: الْبُعد عَن الْحَرام وأَكل الحلَال، يعني معرفة المكاسب، حتَّى لمَّا قيل لِمحمَّد بن الحسن: (أَلَا تُصَنِّفُ كِتَابًا فِي الزُّهْدِ؟ قَالَ: قَدْ صَنَّفْتُ كِتَابًا فِي الْبُيُوعِ)[6] انظر إلى الفقْهِ؛ هذا فقهٌ دقيقٌ، معناه أنَّه يقول: إنَّ من عَرفَ ما يدخل وما يخرج عليه فإنَّه قد زهد في الدُّنيا.

---

[1] متَّفق عليه، واللفظ لمسلم.

[2] قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السُّنَّة": ثابت.

[3] مُتَّفق عليه، من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

[4] سورة الرعد: 38

[5] من إضافتي بسبب عدم وضوحها في التَّسجيل.

[6] "المبسوط" للسرخسي رحمه الله؛ الجزء:12، ص:111.

والزُّهد في الدُّنيا على مراتب لأنَّه هو حقيقة التَّقوى، وجاء عن الحسن البصري أنَّه كان يقول: (مَازَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ حَتَّى تَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَلَالِ مَخَافَةَ الْحَرَامِ)[1] هذا هو الزُّهد الَّذي عناه النَّاظم -رحمه الله وغفر له-.

يرجع إلى أمر الدُّنيا ويندُبُ ما تنتهي إليه، يقول:

فإنْ فارقتَها وَخرَجتَ مِنها إلى «دَارِ السَّلامِ» فقدْ سَلِمْتَا

النَّاظم يُكرِّر مسألة السَّلامة -السَّلامة في الدُّنيا والسَّلامة في الآخرة-.

فإنْ فارقتَها وَخرَجتَ مِنها إِلَى «دَارِ السَّلامِ» فَقَدْ سَلِمتا

دار السَّلام هي الجنَّة ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾[2] لماذا سُمِّيت «دار السَّلام»؟! لأنَّه ليس فيها إلَّا السَّلامة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[3]، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[4] وهذا غاية ما تريده النَّفس، ولهذا ذكر الله -عزَّ وجلَّ- أنَّ فيها المزيد:﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[5]، وقال -جلَّ وعلا-:﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[6] وتلك هي دار السَّلام، ولهذا قال الله -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم -مُبيِّنًا هذه الحقيقة الَّتي ذكرها النَّاظم في هذا البيت [فَقَدْ سَلِمْتَا]-:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا

[1] "جامع العلوم والحكم" لابن رجب رحمه الله؛ الجزء الأول، ص:209

[2] سورة الحجر: 46

[3] سورة الحجر: 48

[4] سورة طه: 118-119

[5] سورة ق: 35

[6] سورة يونس: 26

مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]، ولهذا قال سبحانه:﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾[2] هذه هي الدُّنيا، ولهذا أيضًا قال ربُّنا -سبحانه وتعالى- مُبيِّنًا حقارتها ومُبيِّنًا أنَّ من صرف نفسه إليها فقد اِنصرف إلى أن يتمكَّن منه إبليس:﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[3]، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[4].

ثُمَّ قال:[وَإِنْ أَكْرَمْتَهَا] أكرمتَ هذه الحياة الدُّنيا، نظرتَ لَها بعينِ الإكرام.

وَإِن أَكْرَمْتَهـا وَنَظَـرت فِيهـا

[بِإِجْلَالِ] الباء هنا للمصاحبة، يعني الإكرام مصحوبٌ بالإجلال، فإذا كان الإكرام غير مصحوب بالإجلال فهو محمودٌ لأنَّه إكرامٌ لمَا هو وسيلة لِما أكرمه الله -سبحانه وتعالى-؛ لكن إذا نظرَ إليها الإنسان مع الإجلال لَها وأنَّها هي محطَّته وهي محلُّه وهي بدايته وهي نهايته وهي فَوزُه وهيَ خسارته فذلك قد ملَّكَ نفسه الدُّنيا -عياذًا بالله-.

ولهذا يقول:

وَإِن أَكْرَمْتَها وَنَظَـرت فِيهـا

نظرتَ في حال الدُّنيا، [بِإِجْلَالِ] مع الإكبارِ والتَّكريمِ والإجلالِ [فَنَفْسَكَ قَدْ أَهَنْتَا] والله -جلَّ وعلا- ما آتى الإنسان هذه النَّفس إلَّا ليُكرمها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ

[1] سورة آل عمران: 185
[2] سورة القصص: 60
[3] سورة فاطر: 6
[4] سورة آل عمران: 185

خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1]، وكما في صحيح مُسلم في حديث أبي مالك الأشعري: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا))[2].

وهنا أكمل النَّاظم هذه المنظومة ورجع إلى الاِعتذار عمَّا قاله فيها وإلى أهميِّة ما قاله فيها؛ يقول:

جَمَعتُ لَكَ النَّصائِح فَامتَثِلها

[جَمَعْتُ لَكَ] هذا مِمَّا يُشكر عليه أهل العلم[3]، ليس فقط في هذا الباب -في نصائح أهل العلم-، يجمع لك كتابًا في النَّحو أو كتابًا في المصطلح أو كتابًا في الاِعتقاد أو كتابًا في التَّوحيد، حقٌّ لَهم أن تشكرهم، أن تدعو لَهم، أن تُثنِي عليهم؛ أئمَّةُ الإسلام هم أهلُ الهدى ومصابيح الدُّجى، ورحم الله الذَّهبي -لا يحضرني بمناسبة ماذا ذكر هذا-[4]، لكن ذكر كلمة عظيمة جدًّا -لأحدهم وقع في بعض الأئمَّة- وهي: (إِنَّمَا نَحْتَرِمُكَ مَا احْتَرَمْتَ الْأَئِمَّةَ)[1] كلمةٌ عظيمةٌ، بل فِي غايةِ العظمة.

---

[1] سورة الشَّمس: 9-10

[2] رواه مسلم.

[3] مِنْ بَابِ مَزِيد فَائدة: قال شَيخُنَا مُصطَفَى مَبرم -حَفظهُ الله- مُنبِّهًا عَلَى حَقِّ أَهلِ العلمِ مِنْ طَلَبَةِ العلمِ؛ قال: (مِنْ حَقِّ عُلَمَائنَا وَأشـيَاخنَا: أَنْ نَنْشُرَ عِلْمَهُمْ، وَنُوجِّه النَّاس إِلَيْهِم، وَنَدلَّهمْ عَلَيهِم؛ وَمن ذَلِك: مُتَابَعَةُ حِسَابَاتهِمْ عَلَى مَوَاقِع التَّواصُل وَعَمل إعَادة لأقوَالهِمْ، هَذَا مِن حَقِّهِم) اهـ، وَقالَ أيضًا -حَفظهُ الله- فِي شَرْحه للقَواعِد الفِقْهية: (الإمَامُ أحمَد رَحمه الله يَقُول: "مَا بت مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَة إِلَّا وَأَنَا أَدْعُو للشَّافعي وَأَستَغْفِرُ لَهُ"، هَذا التَّركِيز عَلَى قَضِيَّة حقِّ أَهْلِ العلم من طَلَبة العلم: بالدُّعَاء لَهُم والثَّناء عَلَيْهِمْ وَإظهَار مَحاسِنهِمْ وَنَشْرِ علُومِهم وذِكْرِهم فِي المَنَابِر وَالمنَائر والدَّفَاتِر وَالإشَادَة بِهِم، هَذا مُهِمٌّ جدًّا لأنَّ هَذا مِمَّا يَقَعُ لِطَالب الْعلمِ بِه الْبَرَكَةُ) اهـ.

[4] قَالَ الْحَافظُ ابْنُ عَسَاكِرَ: كَانَ الْعَبْدَرِيُّ أَحْفَظَ شَيْخٍ لَقِيتُهُ، وَكَانَ فَقِيهًا دَاوُودِيًّا، ذَكَرَ أَنَّهُ دَخَلَ دِمَشْقَ فِي حَيَاةِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي الْعَلَاءِ، وَسَمِعْتُهُ وَقَدْ ذُكِرَ مَالِكٌ، فَقَالَ: جِلْفٌ جَافٍ، ضَرَبَ هِشَامَ بْنَ عَمَّارٍ بِالدِّرَّةِ، وَقَرَأْتُ عَلَيْهِ "الْأَمْوَالَ" لِأَبِي عُبَيْدٍ، فَقَالَ -وَقَدْ مَرَّ قَوْلٌ لِأَبِي عُبَيْدٍ-: مَا كَانَ إِلَّا حِمَارًا مُغَفَّلًا لَا يَعْرِفُ الْفِقْهَ، وَقِيلَ لِي عَنْهُ: إِنَّهُ قَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: أَعْوَرُ سُوءٍ، فَاجْتَمَعْنَا يَوْمًا عِنْدَ ابْنِ السَّمَرْقَنْدِيِّ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ "الْكَامِلِ"، فَجَاءَ فِيهِ: وَقَالَ السَّعْدِيُّ كَذَا، فَقَالَ: يَكْذِبُ ابْنُ عَدِيٍّ، إِنَّمَا ذَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْجَوْزَجَانِيِّ، فَقُلْتُ لَهُ: فَهُوَ السَّعْدِيُّ، فَإِلَى كَمْ نَحْتَمِلُ مِنْكَ سُوءَ الْأَدَبِ، تَقُولُ فِي إِبْرَاهِيمَ كَذَا وَكَذَا، وَتَقُولُ فِي مَالِكٍ جَافٍ، وَتَقُولُ فِي أَبِي عُبَيْدٍ؟! فَغَضِبَ وَأَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ، وَقَالَ: كَانَ ابْنُ الْخَاضِبَةِ وَالْبَرَدَانِيُّ وَغَيْرُهُمَا يَخَافُونِي، فَآلَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَقُولَ فِيَّ هَذَا؟! فَقَالَ لَهُ ابْنُ السَّمَرْقَنْدِيِّ: هَذَا بِذَاكَ، فَقُلْتُ: **إِنَّمَا نَحْتَرِمُكَ مَا احْتَرَمْتَ** الْأَئِمَّةَ، فَقَالَ: وَاللَّهُ لَقَدْ عَلِمْتُ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ غَيْرِي مِمَّنْ تَقَدَّمَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مَا لَمْ يَعْلَمَاهُ، فَقُلْتُ مُسْتَهْزِئًا: فَعِلْمُكَ إِلْهَامٌ إِذًا، وَهَاجَرْتُهُ، وَكَانَ سَيِّئَ الِاعْتِقَادِ، يَعْتَقِدُ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ظَاهِرَهَا، بَلَغَنِي عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي

فهو يقول:

جَمعــتُ لَكَ النَّصائِحَ فَامتَثِلها

وحقُّ من جُمع له شيءٌ وأُعطِيَه بهذه السُّهولة وبهـذه السَّلاسـة أن يكـون حقُّـه: الشُّكر والثَّناء والدُّعاء؛ وهذا الَّذي كان عليه السَّلف، ابن السَّعدي -رحمه الله- لمَّا ذكر منظومة القواعد الفقهية قال:

وَهَـــذِهِ قَـــواعِـــدٌ نَظَمْتُـهـا ... مِنْ كُتْبِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَدْ حَصَّلْتُها
جَزاهُمُ المَوْلَى عَظِيــمَ الأَجْــرِ ... وَالْعَفْـوَ مَـعْ غُفْــرانِـهِ وَالْبِـرِّ[2]

أبعد من هذا: الإمام أحمد يقول: (مَا بِت مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَة إِلَّا وَأَنَـا أَدْعُـو للشَّـافِعِي وَأَسْتَغْفِرُ لَهُ)[3] -رحمهم الله-، هذا الَّذي صرَّح به أحمد لأنَّه سُئِل عنه، لأنَّهم كانوا لَا يُظهرون أعمالهم، لِمَ؟ لأنَّ الإمام أحمد سأله ابنه عبد الله عن الشَّافعي فقـال: (كَانَ الشَّافِعِيُّ كَالشَّمْسِ للدُّنْيَا، وَكَالعَافِيَةِ للْبَدَنِ)[4]، لَا تظنُّـوا أنَّ الَّذيـن جـاءوا مـن بعـد الَّذين قبلهم نزل هذا من على كرسيٍّ وجلس هذا مكانه! ما نالوا منازلهم إلَّا بالسَّـيْر على سبيلهم، وما اِرتفع التَّابعون إلَّا بإجلال الصَّحابة، وما اِرتفع تابعُ التَّـابعين إلَّا بإجلال التَّابعين والأخذ عنهم.

الإجلال الشَّرعيُّ، وليس إجلالًا فلسفيًّا أو صُوفيًّا يصل الأمر به إلى الغُلـوِّ؛ انظـر إلى تراجم الأئمَّة، سيتَّسع بنا المقام إذا دخلنا في مثل هذا الباب.

سُوقِ بَابِ الْأَزَجِ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَضَرَبَ عَلَى سَاقِهِ، وَقَالَ: سَاقٌ كَسَاقِي هَذِهِ) ["سير أعلام النُّـبلاء"، للإمـام الـذهبي رحمـه الله؛ الجزء:19، ص:582].

[1] "سير أعلام النبلاء" للإمام الذَّهبي رحمه الله؛ الجزء:19، ص:582؛ عن الحافظ ابن عساكر رحمه الله.

[2] منظومة القواعد الفقهية للعلامة السعدي رحمه الله.

[3] "وفيات الأعيان" لابن خلكان رحمه الله؛ ص: 164

[4] قال عَبْد اللَّهِ بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل: قُلْتُ لأَبِي: أيّ رَجُلٍ كَانَ الشَّافِعِيُّ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُكَ تُكْثِرُ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُ؛ فَقَالَ: (يَا بُنَي ، كَـانَ الشَّـافِعِيُّ كَالشَّمْسِ للدُّنْيَا، وَكَالْعَافِيَةِ لِلْبَدَنِ، هَلْ لِهَذَيْنِ مِنْ خَلَفٍ أَوْ عَنْهُمَا عِوَضٌ؟) ["وفيات الأعيان" لابن خلكان رحمه الله؛ ص: 164].

ذكرتُ لكم مرارًا قولة ابن جرير الطَّبري وهي قُرَّة عين -في هذا البـاب- لطالـب العلم ليعرف مسالك أهل العلم كيف تعاملوا مع بعضهم البعض، وأنَّ لكلِّ إنسـانٍ حدًّا[1]؛ الأُصوليُّون يذكرون في كتب «أصول الفقه» تجزُّؤ الاِستفادة، أنتَ لا يُمكن أن تصلَ لاِجتهادك في كلِّ بابٍ من أبوابِ العلم، ومَن قـال هـذا فـإنَّ دونـه خـرطُ القتّاد، واِدَّعى كذِبًا وزورًا؛ ولهذا الشَّافعي -رحمه الله- لمَّا تكلَّم على لُغـة العـرب قال: (لَا نَعْلَمه يُحِيطُ بِجَمِيعِ عِلْمه إِنْسَانٌ غَيْر نَبِيٍّ)[2] وهذا في جميع العلم، وأيضًا لمَّا ذكر السُّنَّة قال: (لَا نَعْلَم رَجُلًا جَمَعَ السّنَن فَلَمْ يَذْهَبْ مِنْهَا عَلَيْهِ شَيْء)[3] وهذا كثيرٌ في نهج السَّلف؛ لابدَّ وأن يفوتك شيء يحتاج أن تُكمِّله من غيرك من أهل العلم.

يقُـول:

جَمَعــتُ لَكَ النَّصائِحَ فَامتَثِلها

قال جمعتها لك وأنتَ اِمتثلها.

وأنتَ إذا درستَ كتابًا في النَّحو، في الأُصول، في العقيدة، في التَّوحيد، اشـكر لأهـل العلم، ليسوا معصومين ولا يمكن أن يكونوا معصـومين، ولا يُمكـن أن تجـد كتابًا ككتاب ربِّ العالمين، وإلَّا ما الفرق بـين الخـالق والمخلـوق؟! لا يُمكـن أن يكون هذا.

هنَـا يقُـول:

جَمَعــتُ لَكَ النَّصائِحَ فَامتَثِلها

---

[1] - مَقُولَة ابْن جَرِيرٍ الطَّبري -الَّتِي أَرَادَهَا-: قَالَ شَيْخُنَا مُصطَفَى مَبْرم حَفظه الله فِي مَوْضعٍ آخَر: (ابْنُ جَرِير لَمَّا ذَكَرَ مَسْأَلَةَ اللَّفْظِ فِي الْقُــرْآن فِي كِتَاب "صَرِيح السُّنَّة" لَمْ يَقِفْ عَلَى شَيْءٍ؛ أَوْسَع النَّاسِ حِفْظًا فِي زَمَانه -وَكُتُبُه شَاهِدَةٌ عَلَيْه- كِتَاب "تَهْذِيب الآثَار" عَلَى مَا بَقِــيَ مِنْــه، وَكِتَاب "التَّفْسِير".. وَكُلُّ هَذَا يَكْتُبُونَهُ مِنْ حِفْظِهِم، يَحْفَظُونه ثُمَّ يَجلِسُونَ لِلْعِلْم) اهــ. [والله أعلم]

[2] قال الشَّافعي رحمه الله: (وِلِسَانُ الْعَرَبِ أَوْسَعُ الأَلْسِنَة مَذهبًا وأَكثَرهَا أَلْفَاظًا ولَا نَعْلَمه يُحِيطُ بِجَمِيع علمه إِنْسَانٌ غَــير نَبِــيّ) ["الرســالة" للشافعي رحمه الله؛ ص: 42]

[3] "الرسالة" للشافعي رحمه الله؛ ص:42

[حَيَاتَكَ] يعني اِلْتَزمها طيلة حياتك.

حَياتَكَ فَهِيَ أَفضَلُ مـا اِمتَثَلتا

أفضل ما اِمتثلت هو هذا؛ وهذا يقع في كتبِ أهل العلم: يُثنون على الكتب بِاعتبار ما تضمَّنته من الدَّلالة إلى الهدى والرَّشاد، لو نظرتَ إلى كلام ابن القيِّم -رحمه الله- وهو يتكلَّم على كتابه «جلاء الأفهام» تقول: «أيّ شيءٍ يقوله هذا؟!» هم يريدون بذلك [الثَّناء][1] على العلم، لَا يُريدون أن يُعظِّموا أنفسهم، وليس من طريقتهم أن يَحطُّوا من كلام أئمَّتهم والَّذين تقدَّموهم، وإذا قالوا عبارة، قالوا: (ربَّما لَا تَجِدهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ)، أمَّا أن يأتي هو نفسُه ويَعقد مُقارنة بين طرحه وطرح غيره فلم يكن هذا معروفًا عند السَّلف أبدًا ولَا معروفًا عند أهل العلم وأئمَّة الإسلام، إذا أثنوا زادوا كلمة فقالوا: (بِمَا لَا يُوجَدُ فِي مَكَانٍ آخَرَ) والكُتب بيننا -كتب أهل العلم الَّتي يُوجد فيها شيءٌ من هذا الثَّناء-.

أيضًا لمَّا تنظر لابن القيِّم -رحمه الله- في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنَّصارى» ذكر شيئًا من هذا، وأثنى على كتابه ثناءً كثيرًا، وهذا موجودٌ أيضًا في كتاب البربهاري، وموجود أيضًا في كتب كثيرٍ منَ الأئمَّة.

فهُو يقُول:

جَمَعتُ لَكَ النَّصائِحَ فَامتَثِلها حَياتَكَ فَهِيَ أَجدَرُ ما اِمتَثَلتا

أفضل ما اِمتثلت، لماذا؟! فيها دلالة على الكتاب والسُّنَّة، قرأناها مرارًا -من أوَّلها إلى آخرها- كلُّها مِمَّا يدُلُّك على الكتاب وعلى السُّنَّة وعلى الزُّهد في الدُّنيا؛ هذا ما يفعله أهل العلم.

ثُمَّ قَال:

---

[1] كلمة غير واضحة.

وَطَوَّلتُ العِتــابَ وَزِدتُ فيهِ

طوَّلتُ مُعاتبك لأنَّ هذا لمصلحتك؛ وأنتَ قـد تُطـوِّل وتُكــرِّر على الإنسـان، لِـمَ؟ لشفقتك عليه، ولمصلحته.

وَطَوَّلتُ العِتــابَ وَزِدتُ فيهِ

لِــمَ؟!

لِأَنَّكَ في البَطالَةِ قَـــد أَطَلتا

لأنَّك في هذه البطالة، و«البطالـة» مـازال مُصـطلحًا معروفًـا: تـركُ العمـل، تـركُ الاِجتهاد.

لِأَنَّكَ في البَطالَةِ قَـــد أَطَلتا

هذا السَّبب؛ وكلَّما تمادى الإنسان في باطلٍ كلَّما اِحتاج إلى شيءٍ منَ التَّوجيه وشيءٍ من النُّصح.

ثمَّ يقول راجعًا إلى نفسه على ما اِبتدأ به:

وَلا يَغْرُرك تَقصِيري وَسَهوِي وَخُذ بِوَصِيَّتي لَكَ إِن رَشَدتا

لا يغررك ما أنا فيه مِن السَّهوِ، منَ الزَّللِ، مِـن النَّقـص، مـنَ التَّقصـير؛ خُـذ أنـتَ بنصيحتي.

وهذه المسألة أيضًا مرَّ معنا مُعالجتها في شرح هذه المنظومة لمَّا تكلَّـم -رحمـه الله تعالى- بعود العتاب إلى نفسه.

يقُــول:[وَلَا يَغْرُرْكَ تَقْصِيرِي] لأنَّك إذا نظرتَ إلى مُحدِّثك بعين النَّقص والتَّقصير لَم تنتفع بعلمه، ولابن القيِّم -رحمه الله تعالى- فيما يحضرني في منزلة التَّذكُّر من «مدارج السَّالكين» كلامٌ نفيسٌ جدًّا فيما يتعلَّق بكيفيَّة الاِنتفاع بالذِّكرى، وأنَّ من أعظم أسباب الانتفاع بالذِّكرى إذا سمعتها من غيرك: (الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ)[1].

لسنا نقول أنَّ الإنسان يَجلس إلى أهل الأهواء والبدع، نحن نتكلَّم إذا تكلَّمنا في مضمار وميدان أهل السُّنَّة وأئمَّة الدِّين، لا نتكلَّم على أهل الأهواء والبدع، حُصونُنا محفوظة من أن يلج فيها أهل البدع.

مرَّةً قبل سنواتٍ طويلةٍ -لا تربو على سبعة عشر عامًا-، أُنبِّه على هذا لأنَّه أحيانًا من مثل هذه الأشياء الَّتي قد لا يُفصِّل فيها الإنسان ما فصَّله في مكان آخر، ليس معناه رجوع الْمُجمل إلى المُفصَّل، هذا باطلٌ بلا شكٍّ، من أبطل الباطل، بل حملُ المُجمل على المُفصَّل هو أعظم حُصون أهل البدع ومن يُدافع عنهم؛ إذا سلَّمتَ بِحمْل المُجمل على المفصَّل فاِعلم أنَّه قد أُسقط المنهج السَّلفيَّ في يدك.

-وسأذكر موقفًا آخر وسنختم المنظومة-:

كنتُ أَلْقيتُ محاضرةً عن «الأُخُوَّة» في جامع كبير -يعني يُعتبر في أكبر مساجد عدن-؛ وتكلَّمتُ فيها عن «الأُخوَّة، وما ينبغي، وما يجب، وحقوق الأُخُوَّة، وحق

[1] قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: شِدَّةِ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ) إلى أن قال: (وَأَمَّا الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ فَإِنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ حُرِمَ الِانْتِفَاعَ بِمَوْعِظَتِهِ، لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِكَلَامِ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِعَمَلِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ) وأضاف: (فَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ مِنْ شُرُوطِ تَمَامِ الِانْتِفَاعِ بِمَوْعِظَتِهِ) [المصدر: مدارج السالكين"، ص: 446؛ باختصار].

الأخ على أخيه»، وكان هناك طُلَّاب العلم من المشهورين -المحسوبين في المشـايخ-، فقام وتكلَّم بعدي -بعد أن أذنتُ له-، هذه عادة جَرت عندنا أحيانًا هناك، وأنا لا أُريد أن أذكر هذا لأنَّ المقام ليس هذا مقامـه أن يُـذكر، فـتكلَّم على «أُخُـوَّة أهـل البدع» وعلى «أُخُوَّة المبتدعة»، ما الَّذي جاء بهـذا إلى هـذا المقـام؟! أحيانًـا قـد لا يكون هذا المقام لأنَّك تريد أن تُعظِّم أمـرًا في نفـوس السَّـامعين؛ والشَّـيخ عبـد الرَّحمن بن حسن -رحمه الله- له نكتة لطيفة في هذا الباب لمَّا ردَّ على عُثمـان بـن منصور في كتابه الَّذي خلَّفه وكان المفهوم منه أنَّه يُريد أن يطعن -وإن لم يُسـمِّ- في الشَّيخ مُحمَّد بن عبد الوهَّاب وفي الدَّعوة بأنَّهم من الخوارج، فقال: (مَـا الْحَاجَـةُ إِلى كِتَابٍ كَهَذَا! لِمَنْ كَتَبْتَهُ ولَيْسَ فِي نَجْدٍ إِلَّا أَهْلُ التَّوحِيد والسُّنَّة؟) وليس معنى قـول الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن أيضًا أنَّه يمنع من هـذا الكتـاب، ولكـن لـكلِّ شيءٍ مقامه، ولكلِّ مقامٍ مقال.

سأرجع لأَذكر موقفًا يتعلَّق بحَمل المُجمل على المفصَّل:
وهو الَّذي تُلاحظون أنَّ الدِّفاع هذه الأيَّام عن الرِّضواني بهـذه القاعـدة أكـثر مـن غيرها في ساحة «كتاب التَّوحيد»، كما قلتُ لكم قبل قليلٍ:

جَمَعـــتُ لَكَ النَّصائِح فَامتَثِلها

نشكر أهل العلم على كتبهم.
لمَّا تُكُلِّم في هذا المقام ما ذهبوا يقولون له:«هذا الَّذي قلتَهُ خطأ» بل ذهبوا يُنقِّبون ويُفتِّشون على ثناءات الرِّضواني على دعوة الشَّيخ مُحمَّد بن عبد الوهَّاب وعلى «كتاب التَّوحيد»! وما الَّذي ينفع لو قضى قرونًا يُـدافع عنـه وعـن الدَّعـوة وعـن «كتـاب التَّوحيد» ثمَّ بعد ذلك يقول:«هذا التَّوحيد ما ينفع نتوسَّع فيـه، لـيس فيـه تأصـيلٌ علميٌّ، ليس فيه التَّأصيل الَّذي كان عليه علماء السَّلف»؟! هذا قولٌ باطلٌ.

في مُناقشة أبي الحسن المأربي -الَّتي كانت في عام ثلاثة وعشرين (هـ) في شعبان-، كنا نُناقشه عن مسألة؛ قال في مضمون كلامه -وهذا مُسجَّل كلُّه-؛ لا تحضرني المسألة، الظَّاهر هي مسألة «الغثائية» في الصَّحابة، -تنتبه لهذه القواعد لأنَّها بهذا يُهدم المنهج السَّلفيُّ-:

الشَّاهد أنَّه لمَّا نُوقش في قضية الغُثائية -كنَّا نناقشه في قضيَّة الغُثائية- قال: «أنا لِي كلامٌ كثيرٌ فيه ثناءٌ على الصَّحابة وفيه مدح الصَّحابة»، قلتُ له: (هذا حَملٌ للمُجمل على المفصَّل، هذه قاعدةٌ باطلةٌ)؛ أحدُ الَّذين كانوا معي يُناقشونه قال:«يا أبا يُوسف اترك هذه المسألة الآن»، قلتُ: (إذا سلَّمتَ له بهذه المسألة فخيرٌ لنا أن نقومَ مِنَ الآن لأنَّه ما سيأتيك بباطلٍ يذكره في هذا المجلس إلَّا وله من الكلام فيه بحقٍّ أكثر منه؛ نحن نُناقش الخطأ الآن ولا نُناقش ماذا له من الكلام فيه؛ الإنسان يمدح الصَّحابة طيلة عمره ثُمَّ يقول:«عندهم خلل في التَّربية»! ما الَّذي ينفعه هذا؟ ما الَّذي تُريده منه؟ ماذا يشفع له هذا؟ أو «عندهم غثائية» أو «عندهم خلل في التَّربية» و «مِسطح اِنزلق» و «أُسامة بن زيد حكَّم العواطف ولَم يُحكِّم العِلم»، هل نقولُ له هذا الكلام: حملت المجمل على المفصَّل؟! لهو خيرٌ لنا أن نُسلِّم له بهذا ونمشي! ما سيأتيك بكلامٍ للباطل إلَّا وله به من حقٍّ).

ولهذا حفظ الله الشَّيخ ربيعًا لمَّا كتب كتابه في قضية حمل المجمل على المفصَّل بناءً على هذه المناقشة، -بعد ما كانت هذه المناقشة-.

وذكرتُ لهم في المجلس أنَّ الشَّوكاني في كتابه الَّذي كتبه في الملحدين ذكر الإجماع على عدم حَمل المجمل على المفصَّل في غير كلام الشَّارع[1]، وذكره عن البقاعي، والبقاعي لمَّا ردَّ على ابن عربي تبنَّى هذا الأمر؛ وهو الَّذي فتق هذه القضية، كيف؟!

---

[1] قال الإمام الشَّوكاني رحمه الله: (قَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ لَا يُؤَوَّلُ إِلَّا كَلَام الْمَعْصُومِ) ["الصوارم الحداد"، ص:97]

ابن عربي له وله وله، فإذا حملنا المجمل على المفصَّل فقد سُقط في أيدينا، من سيستطيع أن يُدافع عن المنهج السَّلفي بمثل هذه الطَّريقة وبمثل هذه الصُّورة؟!

يقُول خاتِمًا:

وَقَد أَردَفتُها تِسْعًا حِسانًا

تسعة أبياتٍ.

وَكانَت قَبلَ ذا مِائَةً وَسِتّا

ما المجموع؟ خمسة عشرة ومائة.

فَصَلِّ عَلَى تَمامِ الرُّسلِ رَبِّي

[وَعِتْرَتِهِ] يعني آل بيته.

وعِتْرَتِهِ الكَرِيمَةِ مَا ذُكِرْتَا

نسأل الله -سبحانه وتعالى- التَّوفيق والسَّداد، والهدى والرَّشاد، وأن يُوفِّقنا للعلم النَّافع والعمل الصَّالح.

والحمد لله ربِّ العالمين

تم بحمد الله

Fawaidmbrm